

obeikandi.com

**تربية الطفل
للإسلام**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٢٤ - ٢٠٠٣



للطباعة والنشر والتوزيع

وَمِنْ المصَيِّطَةِ
شَارِع حَبِيبِ أَبِي شَمْلَا
بِنَاء المصَكَّنْ
مَآف: ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢
فَلَكْس: ٨١٨٦١٥ (٩٦١١)
مَرَب: ١١٧٤٦٠
بَيْرُوت - لِبْنَان

*Resalah
Publishers*

Tel: 319039 - 815112
Fax: (9611) 818615
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon

Email:
resalah@resalah.com

Web Location:
[Http://www.resalah.com](http://www.resalah.com)

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠٣. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

تربية الطفل للإسلام

د. وسيم فتح الله

مؤسسة الرسالة



بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى المربي الأول والقائد الأعظم الذي أنقذ الله به البشرية فأخرجها من الظلمات
إلى النور . . . إلى الذي أسأل الله أن يكون فرطي وشفيعي على الحوض . . .

النبي محمد ﷺ

إلى الذي علمني قيمة المبدأ، ومعنى الرجولة . . إلى الذي فضلني على نفسه، ورباني
فأحسن تربيتي . . .

والدي

إلى التي علمتني معنى التضحية، إلى التي سهرت الليالي لأجلي وأنا لا أدري . .
إلى منبع الدفء في حياتي . .

والدتي

إلى الذين آخيتهم في الدين والدم، فكانوا نعم الأخوة والأشقاء . .

إخوتي باسل وأنس

إلى التي شجعتني حين فترت همتي، وشاركتني مسيرة حياتي متحابين في الله . .

زوجتي

إلى الذين أسأل الله أن يشرفني بشهادتهم . . .

أولادي محمود وعمر وجهاد

إلى أطفال المسلمين اليوم، رجال المسلمين غداً . . إلى من أحببتهم في الله . .

أقدم هذا الكتاب

obeikandi.com

المقدمة

الحمد لله هادي الخلق وباعث الرسل والأنبياء هداة ومهتدين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين وعلى صحابته الكرام والتابعين ومن اهتدى بهديه واستنَّ بسنته إلى يوم الدين ، اللهم صلي وسلم على نبينا وحبيبنا وقائدنا وشفيعنا بإذنك وفرطنا على الحوض النبي الأمي المرسل رحمةً للعالمين محمد بن عبد الله بأبي هو وأمي لا يتم إيمان مؤمنٍ بغير حبه ولا يقبل عمل عاملٍ على غير هديه ، اللهم قربنا إليك بحب نبيك وقربنا إلى جنتك باتِّباع هديه وسنته ، وباعد بيننا وبين بغضك ببغض من أبغض نبيك ، وباعد بيننا وبين نارك ببعدنا عن البدعة الضالة المخالفة لهديه وسنته ، اللهم واجعل لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً .

لقد اجتمعت الحوالمك وتداعت الأمم وتتابع الفتن علينا تترى حتى تلوِّعنا بوحشة الغربة غربة الدين واكتوينا بجمرة القابض على دينه وجعل الحليم منا يتلفت حيراناً وأوشك الأحياء منا يغبطون أهل القبور كما أخبر بذلك الحبيب ﷺ ، وآن الأوان لأن تبزغ من بين سحب التضليل والتمويه شعاعات النور الرباني وطلائع الفتح الرحماني لتحقق على أرض الواقع بشارة المصطفى ﷺ بدوام الطائفة الظاهرة على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك صابرون مصابرون مرابطون محتسبون . . . وآن الأوان لتتشقق الأرض وتتفتق منها براعم هذا الدين العظيم زرعاً أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه . . . وآن الأوان لأن تشغل بيوتنا وأرحام نساتنا وسواعد رجالنا بتخريج دفعة جديدة من مدرسة المصطفى ﷺ تهتك حجب الظلام وتفضح المجترئين على الله وتغيظ أعداء الدين وتشفي صدور قوم مؤمنين . لهذا حدثني نفسي بالتواصل مع هؤلاء الذين يحملون هذا الهم العظيم ينشغلون به عن ملذاتهم وأهوائهم وشهواتهم ويبدلون في سبيله

الغالي والنفيس ، ويرجون الله تعالى أن يمضي بيهم ويقبل بضاعتهم القليلة ثمناً
لسلعة النفيسة ؛ الجنة . حدثني نفسي أن لا بد من تواصلٍ ولقاء ووقفٍ صادقةٍ
نرسم فيها معاً معالم المنهج التربوي لهذا الجيل الجديد ليحمل الراية من خلفنا إذا
ما نحن قضينا قبل أن يمنَّ الله تعالى علينا بالتمكين والاستخلاف فلا يفوتنا حينذاك
تورث هذه المهمة وتسليم الراية إلى من عساه يحظى بشرف التمكين والخلافة بإذن
الله تعالى .

تربية الطفل للإسلام همُّ ظلَّ يجول في خاطري ويرتاد فكري حيناً بعد الآخر ،
لأسيما وأنا أجول بناظري في مجتمعاتنا وبيئاتنا وما وصلت إليه من انهيارٍ في
الهيكل الاجتماعي السياسي المناط به مهمة وقاية أفراد المجتمع المسلم من شتى
تيارات التضليل والانحراف عن جادة الحق فإذا به يتحول بذاته إلى مستنقع آسنٍ
ووكرٍ مُعتمٍ تأوي إليه كائنات الظلام وتيارات الكيد والمكر الآثم ساعيةً إلى محو
عقيدة الأمة ومسح هويتها وطمس آثارها يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويسأبى الله
إلا أن يتمَّ نوره ولو كره الكافرون . ولقد ضاقت نفسي بالنوء بهذا العبء الثقيل
واستهولت الاضطلاع به لولا أن نفسي قد ضاقت أيضاً بالصمت والوجوم المخيم
على واقعنا فعقدت العزم على طرق هذا الباب وخوض هذا البحر العباب دون أن
أتخيل أنني أفي بحقه ودون أن أنكر محاولات الغير في الكتابة والبحث في مجال
التربية الإسلامية رغم قلته وعدم وفائه بحاجتنا ، ولست أدعي بذلك أنني قد استوفيت
هذه الحاجة البتة وإنما هي محاولة ومقاربة متواضعة لهتك واقع الصمت والخمول
عسى أن تتحرك بواعث الحركة فينا ونهباً مذعورين لانتشال أطفالنا من هذه
الأحوال والمستنقعات قبل أن يحيق بهم ما حاق بنا من ذلٍ وهوانٍ على الناس .

ولقد حرصت على أن يكون الإطار العام للطرح التربوي في هذا الكتاب هو
تحرير ما نستطيع أن نقدمه نحن للإسلام أكثر من تحري ما نستطيع أن نستخلصه
لأنفسنا من منافع من دين الإسلام ، ذلك أن التمهيص الحقيقي لإيمان المرء إنما
هو تضحيته في سبيل هذا الدين إيماناً به لا ترقباً لمنافعه ، ولست أحمل بذلك

على من يرتجي منافع هذا الدين وإنما غرضي التنبيه على عدم الاقتصـ
ذلك . يقول تعالى :

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي
مِنْكُمْ مَن أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ
بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (الحديد ١٠).

نعم ، لا يستوي من أعطى لهذا الدين قبل أن يأخذ منه مع من أعطى لهذا الدين بعد
أن استظل بظله وعادت عليه منفعه وخيراته . وهذا ما نريد؛ لقد تطرق البعض إلى
موضوع التربية في الإسلام ولا شك أنه أمرٌ مطلوب ولا شك أن المصالح التي
يجنيها الفرد من منهج التربية الإسلامية هي مصالح مقصودة للشارع الحكيم ،
ولكنني أردت أن ألفت النظر إلى أننا في زمن الاستضعاف هذا وفي غياب ظل الدولة
الإسلامية لا مندوحة لنا من أن نقوم بدورنا في إعادة كيان الدولة الإسلامية من خلال
التضحية والبذل ، من خلال تربية الفرد للإسلام لا مجرد تربيته في الإسلام!

ولقد عرضت في هذا الكتاب إلى تمهيدٍ عرضت فيه إلى أهمية موضوع الكتاب ،
ثم تناولت في الفصل الأول جملةً من الأخطار المحدقة بالطفل المسلم تبييناً عليها
وتحذيراً من مخاطرها ، ثم تناولت في الفصل الثاني محاور التطور الروحي الحركي
للطفل من خلال صيغةٍ تحاول الربط ما بين المشاهدات التجريبية والتوجيهات
الشرعية ، ثم تناولت وسائل التلقي في الفصل الثالث وعرضت إلى نماذج من وسائل
التربية في الفصل الرابع وعرضت في الفصل الأخير إلى قراءةٍ في سورة لقمان كنظريةٍ
تربويةٍ ومنظومةٍ تطبيقيةٍ متكاملةٍ لمنهج التربية الإسلامية .

وليس هذا بطبيعة الحال بحثاً منهجياً بقدر ما هو خواطر ومشاهدات واستقراءات
أسأل الله ألا أكون جانفت الحق فيها ، وأحمده تعالى على ما وفقني إليه فيها من خيرٍ
وحق وأستغفره لما وقعت فيه نفسي الخاطئة من خطأ وزلل وأراجع عنه وأسأل من
هده الله إلى الحق فيها أن يرشدني إليه .

وختاماً أدعو الله عز وجل أن يوفق كل صاحب قلب غيورٍ على حياض هذا الدين العظيم لأن ينهض للقيام بعبء تربية هذا الجيل المرتقب والاضطلاع بمهمة تنشئته على المنهج الرباني السليم ؛ منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وآمل أن يوفق الله القائمين على هذه المهمة للسير على ما سار عليه السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم إذ لا فلاح للأواخر بغير ما أفلح به الأوائل من هذه الأمة العظيمة . ولئن شاء الله تعالى أن يرينا شيئاً من ثمار هذه المجاهدة في الدنيا فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ولئن لم يشأ الله تعالى ذلك فرجائي ودعائي وتضرعي إليه عز وجل ألا يحرمنا أجر المحاولة في الآخرة وألا يجعل عملنا هذا لغير وجهه الكريم ، إنه خير مسؤول وأكرم مأمول ، والحمد لله رب العالمين .

الفقير إلى رحمة ربه

وسيم فتح الله

تمهيد

يقول الله تعالى في سورة التغابن: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ابَاتٍ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأُولَدِكُمْ عَذُورًا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التغابن ١٤-١٥)، ويقول تعالى عن إبليس عليه لعنة الله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ مَنْ أَسْطَظَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الإسراء ٦٤).

خطران عظيمان يتربصان بكما أيها الأب والأم، خطران عظيمان من الأخطار المهلكة ينبه الله تعالى كل مسلم ومسلمة عليهما لثلاث نزل قدمه فيقع فيهما؛ أولهما خطر العداوة من أولاده، والعداوة هي العداوة في الدين كما تبين من موقف نبي ورسول من أولي العزم هو نوح عليه السلام من ابنه، إذ كانت عداوة ابنه له في الدين سبباً لأن يزل نوح عليه السلام ويعترض - ولو من باب الإشارة - على قضاء الله تعالى بإغراق ابنه مع من غرق في الطوفان، يقول تعالى على لسان نوح: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود ٤٤)، فكان الجواب والبيان من الله عز وجل: ﴿قَالَ يَنْحُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود ٤٦)، فأدرك نوح عليه السلام الخطر الذي وقع له - خطر الاعتراض على حكم الله لأجل صلة رحم ودم منقطعة عن صلة العقيدة - فباء بذنبه إلى الله تعالى واستغفره على الفور: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود ٤٧).

وثاني هذين الخطرين هو خطر مشاركة الشيطان في أولادك، وجعل حظِّ له فيهم، وطريق هذا موصوف في القرآن الكريم على لسان إبليس لعنه الله: ﴿وَأَضَلَّتْهُمْ وَلَا مُنِيَّتْهُمْ وَلَا مَرْئَتْهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَمِ وَلَا مَرْئَتْهُمْ فَلْيَعْبِرْتُ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ (النساء ١١٩)، والواقع المشاهد ناطق باتِّباع طريق الشيطان بترك الأولاد عرضة وفريسة للضلال والأمانى الخادعة الكاذبة، وتغيير أشكال الخلق وتغيير فطرة الخلق وغيره من مظاهر مشاركة الشيطان في الأولاد وغيرهم.

إنما أخطار حقيقية إذاً، وليست ضرباً من الخيال أو نوعاً من المبالغة. ولا بد لمن يريد نجاة نفسه وأهله اتباعاً لأمر الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (التحريم ٦) لا بد له من الاحتراز من هذين الخطرين: تحول أولاده وزوجه إلى أعداء له في الدين، وتلوُّث التجرد لله عز وجل بمشاركة الشيطان في أولاده وجعل حظِّ له منهم.

أردت أن أقدم بهذا التنبيه لئلا يعتقد أحد أن مهمة تربية الطفل للإسلام - كما عقدنا عنوان الكتاب - هي مهمة اختيارية أو "فرض كفائي". نعم قد يكون فرضاً كفائياً باعتبار حاجة الأمة الماسة إلى جيل ناشئ على هدي الإسلام ولنصرة وتحقيق أهداف الإسلام، وينضبط هذا الفرض حينئذ بتحقيق الكفاية العددية والنوعية من الجيل المسلم، ولكن يبقى الأمر مع ذلك فرضاً عينياً باعتبار مسؤولية الأهل عن رعاية وتربية أولادهم، لأنه ما من صاحب رعية استرعاه الله فيها إلا وسيسأل يوم القيامة عن رعيته لا يغني عنه أحد غيره. وعلى كل حال نحن لم نصل بعد إلى تحقيق أدنى درجات الكفاية في إنشاء وتربية جيل مسلم قادر على أن يضطلع بمهمة الشهود الأممي والحضاري وأن يرفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله وأن يقيم حكم الله في الأرض وينشر دعوة الإسلام في كل بيت حجر ووبر في المعمورة. قلت: نحن بعيدون عن تحقيق الكفاية في هذا، والحجة داحضة لأي واحد فينا للتخلف عن ركب الإعداد والتربية لطلائع البعث

الإسلامي، لأطفال مدرسة محمد ﷺ ليصيروا رجال محمد ﷺ. ففيم الرقاد، وفيم الشاقل والتباطؤ والله عز وجل يدعونا ويحرك فينا بواعث التغيير والبذل والعطاء: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (التوبة ٣٨)

وأريد أن أعرض لك أيها الأب الحبيب والأم الغالية مشهدين من مشاهد القرآن الكريم؛ مشهد لموقفين في مرحلة الطفولة ومشهد لموقفين من مرحلة بلوغ الأشد، فلنتأمل ولنتدبر هذه المواقف ولنضعها نصب أعيننا قبل أن نمضي في أبحاث هذا الكتاب لتتضح لنا الصورة التي نريد رسمها على أرض الواقع، وليكون لنا رصيذاً واقعياً لأهدافنا المنشودة.

المشهد الأول: موقف الأب من الأطفال في المهد:

فدونك مقارنة بين حالتين اثنتين كل منهما حالة رجاء ودعاء وأمل وترقب، كحالك أنت وزوجك عندما دعوتما الله أن يرزقكما الحمل بمولودكما، فلما كان الحمل دعوتما الله بالتسام والصحة والعافية ورسمتما الأحلام الجميلة وبنيتما الآمال البعيدة، فلنتأمل:

أما أحد الموقفين فهو: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (آل عمران ٣٥)، وأما الموقف الثاني فهو: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف ١٨٩).
أرأيت إلى التشابه والتماثل بين الصورتين؛ حمل ودعاء وتوسل ورجاء وتقرب إلى الله، هذه نذرت ما في بطنها لله إذا كان ولدًا شكرًا لله وتعبدًا، وهذان نذرا لله شكرًا وحمدًا إذا آتاهما صالحًا، فكيف التزم هؤلاء بما عاهدوا الله عليه ونذروه له؟

أما امرأة عمران فقد التزمت بنذرها رغم أنها لم تحصل على ما أرادت؛ لقد أرادت الذكر لتنذره لخدمة الله، ولكنها رزقت بالأنثى فلم تبرح عاكفة على الله رغم عدم تحقق ما تأقت نفسها إليه، تأمل معي قوله تعلل: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ انِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ (ال عمران ٣٦).
وأما الزوجان في النموذج الثاني فقد نكحنا عهدهما مع الله بالشكر والتجرد له رغم أنهم حصلوا على ما أرادوا وتم الحمل على خير وسلامة، تأمل قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَلَاحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ (الأعراف ١٩٠)

والشاهد في هذين النموذجين هو أن نتذكر حين حصول نعمة الولد وتحققها حالة الرجاء والابتهاال إلى الله عز وجل السابقة لحصول الولد، وأن نتذكر تلك الوعود والعهود التي قطعناها مع الله عز وجل في لحظات الرجاء تلك. أما أن تأخذنا "الفرحة" بولادة المولود فننسى للتو حق الله عز وجل فيه، وننسى كل ما عاهدنا الله عليه فلا، وإلا فإننا نوقع أنفسنا في خطر عظيم يحذر منه الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الحشر ١٩)، قلت: لئن نسيت أيها الأب والأم أن تشكر الله على نعمة الولد، ولئن نسيت حظ الله الكامل في هذا الولد الذي رزقك الله إياه، ولئن نسيت وعود الشكر والامتنان التي عاهدت الله عليها طيلة فترة الحمل والترقب فإنك توقع نفسك في خطر أن ينسيك الله نفسك؛ ينسيك نفسك فلا تهتدي إلى الله عز وجل ولا إلى صراطه المستقيم، ولا إلى سبيل تربية وتعهد طفلك ليكون ذريةً صالحةً تقر بها عينك وتسلم بها من مشاركة الشيطان فيه، فتنبه لكل هذا فإن أثره عظيم. وانظر إن شئت إلى المشهد الثاني الذي يعرض لموقفين آخرين يصفهما القرآن الكريم عند بلوغ الولد أشده، وتأمل الفارق بينهما ثم اختر لنفسك ولولدتك طريقاً ومنهجاً وهدفاً، فلنتأمل:

الموقف الثاني: موقف الآباء من الأبناء عند بلوغ الأهل:

ويتجلى الموقف الأول في قول الله عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ١٦﴾ (الأحقاف ١٥-١٦)، وفي مقابل هذا تأمل الموقف الثاني في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلْتُ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيَلُوكَ ءَامِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ قَيُّوْلُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ١٨﴾ (الأحقاف ١٧-١٨).

فيا لشدة الفارق بين هذا وذاك، ويا فلاح من كان نتاج تربيته ولد صالح يدعو لأبويه، ويا خسارة من كان نتاج تربيته ولد معرض عن الله عز وجل ماضٍ في سبيل الهلاك والعياذ بالله.

هذه إذا ثمار ونتائج متباينة للتربية، وهذه حصيلة متناقضة جذرياً لعملية تربية تعاملت مع نفس النوع البشري، ومن الجلي أننا حين نعد العدة لصناعة جيل إسلامي فإن نصب أعيننا النتاج التربوي الأول: "حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبنت إليك وإني من المسلمين"، ولا بد لنا من ملاحظة أمر مهم هو أن بلوغ الأشد قد حددته الآية بعمر الأربعين سنة؛ أي أننا قد نحتاج إلى أربعة عقود من التربية والتوجيه والإرشاد والإصلاح في نفوس أطفالنا حتى نصل إلى صناعة ذلك الجيل المرتقب. إن جيلنا الحالي قد

فشل في تمثيل الواقع الإسلامي المنشود، ولكن أمام جيلنا هذا فرصة ثمينة لإعداد هذا الجيل المفقود، وما لا يدرك جله لا يترك كله، ولئن لم يكن لنا شرف إحداث التغيير الذي نستحق به التمكين في الأرض فليكن لنا شرف إعداد الجيل المسلم الذي سيحقق ذلك بإذن الله. وتأمل معي موقف بني إسرائيل بعد أن نجاهم الله من قوم فرعون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ٥١﴾ يَنْقُومِ أَذْكُرُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ٥٢﴾ قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ٥٣﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا أَذْكُرُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانْكُمُ غَلِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ٥٤﴾ قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرِيكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ٥٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ٥٦﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ٥٧﴾ (المائدة ٢٠-٢٦)، قلت: إن فترة التيه التي ضربها الله عز وجل على جيل بني إسرائيل الذي جبن عن أمر الله والتي بلغت أربعين سنة هي فترة مساوية لفترة تربية ونضج الفرد إلى حين بلوغ أشده كما في الآية المتقدمة من سورة الأحقاف. إن فترة التيه التي ضربت على بني إسرائيل هي فترة صناعة جيل جديد إذاً، جيل - كما يقول صاحب الظلال - "جيل غير هذا الجيل الذي أفسده الذل والاستعباد والطغيان في مصر (أي زمن فرعون) فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل. والذل والاستعباد والطغيان يفسد فطرة الأفراد كما يفسد فطرة الشعوب" اهـ.

لا بد لنا من أن ندرك إذاً أنه كلما بادرنا مبكراً إلى بدء إعداد هذا الجيل كلما تجاوزنا فترة التيه هذه بصورة أسرع، وهذه المهمة لا يمكن أن تكون منوطة

فيا أيتها الأم الحنون ويا أيها الأب الشفوق لا يكن الحنان والشفقة على الولد مانعاً له من نيل أكرم الدرجات وأرفعها ، واجعلا نصب أعينكما حديث رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغدو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل » (صحيح البخاري) .

- ۱۷ -

واحداً من أساليب تحقيق ذلك، أَلَمْ تَر مَعِيَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (البقرة ١٩٣) ^(١)، فالنصر بمفهومه الشامل والتمكين بمعناه الواسع هو بلوغ مرتبة الشهود الأممي والاضطلاع بها وتسييد حكم الله على وجه المعمورة، يقول تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة ١٤٣)، فخيرية هذه الأمة لا يليق بها أقل من هذه المرتبة، ولن نستحق هذه المرتبة إلا باستحقاق صفة الخيرية على النحو الذي رسمه الله عز وجل لنا : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران ١١٠)، وبناء على ذلك، فحين ندعو أنفسنا لتربية جيل خالص لأجل الإسلام فإننا نتمثل في أفراد هذا الجيل وصف الخيرية هذا، ونتمثل في أفراد هذا الجيل العمل على تحقيق هذه الصفة في الجيل كله وبالتالي في الأمة كلها . ولا يصح أن نعزل هذا الإطار العام عن أذهاننا ونحن نربي أطفالنا وأولادنا في كل جزئية وكلية وفي كل صغيرة وكبيرة لأن هذا العزل وهذه الغيبة تجعلنا ننسى لماذا نربي أولادنا وتنحرف بنا بالتالي عن المنهج الصحيح لتربية أولادنا، في حين أن مداومة النظر إلى الهدف تضمن - بإذن الله - الاستقامة على الطريق .

فما هي الأهداف المرحلية للعملية التربوية إذاً؟

تنقسم الأهداف المرحلية للعملية التربوية إلى قسمين باعتبار الفرد الذي تعنيه عملية التربية وهما : الأهداف المتعلقة بالمربي والأهداف المتعلقة بالطفل .

أما الهدف المتعلق بالمربي فهو اتقاء فتنة الأولاد وعداوة الأولاد في الدين على النحو الذي تقدم بيانه، ولن أفيض في هذا الهدف حيث سبقت الإشارة إليه في الحدود المناسبة لموضوع كتابنا هذا . وأما الهدف المتعلق بالناشئ، فلقد

(١) الدين هنا بمعنى الحكم، كما في قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كَدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ

يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (يوسف ٧٦) لا بمعنى إكراه الناس على الإسلام

اهتديت في الحقيقة إلى ثلاثة أهداف لا أدعي الحصر فيها ولكن أرى أنها كفيلة - بإذن الله - بالتوصيل إلى الهدف الأكبر والنهائي كما تقدم. وهذه الأهداف المرحلية هي:

(١) المحافظة على سلامة فطرة الطفل.

(٢) صياغة طموحات الطفل وفق المنهج والهدف الإسلاميين.

(٣) تهذيب ترجمة كمونات وطاقات الطفل العقلية والنفسية والجسدية وفق ضوابط المنهج الإسلامي.

فأما الهدف الأول وهو المحافظة على سلامة فطرة الطفل فيتحقق من خلال تكريس وتأسيس صبغة الله في فطرة الطفل، وصبغة الله هي التوحيد، وفطرة الطفل هي التوحيد فهما مترادفان من حيث المبدأ ألا إن الفرق بينهما هو أن صبغة الله لا تبدل أبدا لأنها تمثل "منهج" التوحيد إن شئت، بينما فطرة التوحيد في الطفل قد يطرأ عليها ما يحرفها عن مسار التوحيد ما لم تشرب بهذه الصبغة، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٢٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ١٢٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ آهَتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٢٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ١٢٨﴾ (البقرة ١٢٥-١٣٨)، فلا بد للتربية إذاً من أن تستهدف صيانة فطرة الطفل من أي شائبة تشوبها وتمنعها من الاصطباغ بهذه الصبغة، وأنت تعلم حديث رسول الله ﷺ الذي ينبه إلى دور الأبوين في حرف هذه الفطرة عن سوائها، ففي حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» (صحيح

البخاري)، واعلم أن انحراف الفطرة لا يقتصر على التحول إلى اليهودية أو النصرانية أو غيرها فهذه إن هي إلا أمثلة لهذا الانحراف، والحق أن أي انحراف عن صبغة التوحيد الخالص وعن وظيفة العبودية الشاملة المجردة لله المتفرعة عن هذا التوحيد هو انحراف عن الفطرة وإن التزم الفرد بمسمى الإسلام ظاهراً. ولا نريد أن تشغلنا حدية مصطلحات الكفر والنفاق عن ملاحظة أثر التراكمات الملوثة لصفاء التوحيد ولو لم تصل إلى درجة الكفر والنفاق، لأن المهمة المنوطة بهذا الجيل ليست مجرد «تخليص النفس» من نار جهنم عافانا الله منها فإن هذه مسؤولية كل فرد تجاه نفسه بالبداية، وإنما المهمة المنوطة بهذا الجيل هي من جنس مهمة الصحابة الأوائل في حمل لواء الدين ونشره في هذا الظلام الدامس، ولهذا فنحن بحاجة إلى توحيدٍ نقى صافٍ مثل الذي كانوا عليه، ومن هنا كان سر الاهتمام بالمحافظة على النقاء التام لفطرة الطفل، وأنت إذا ورثت جوهره نفيسة عن أبويك أفلا تقوم برعايتها وصيانتها وتفقدتها والحرص عليها من أي خدش يؤثر في صفائها وشفافيتها؟ وهل يتغير اعتناؤك بهذه الجوهرة مع تطاول الزمن ومرور الأيام على اقتنائك لها؟! فاعلم أن الطفل جوهرٌ نفيسٌ صافٍ شفيفٌ تؤثر في نقاء فطرته أقل شائبة وتؤثر في نقاء صبغته أدنى لوثة، فلنحذر إذن من ذلك كله، ولتجعل صيانة هذه الفطرة هدفاً واضحاً في مخطط التربية الذي تتعهد به طفلك، ولتعمل على التعرف على الأخطار والشوائب المتداعية على طفلك من محيطه الخارجي في الشارع والمدرسة والمجتمع والعالم بأسره والتي تتربص بطفلك لتتقض عليه. تعرف على ذلك وانتبه واعمل على حماية طفلك منه كما سنبين في فصول لاحقة من هذا الكتاب إن شاء الله.

وأما الهدف المرحلي الثاني للتربية فهو صياغة طموحات الطفل والشاب وفق المنهج والهدف الإسلاميين كما ذكرنا. وأقول إن طموحات الطفل والشاب يجب أن تكون معبرةً عن مدى تمكن الإيمان من قلبه؛ فكلما كان القلب عامراً بالإيمان

الخالص لله وحب رسوله ﷺ كلما ارتقت طموحات هذا الطفل والشاب في معراج التعبد لله تعالى، وإني أجد نفسي قاصراً عن التعبير عن هذا الأمر عندما أستحضر نماذج بعض الصحابة رضوان الله عليهم في مقببل أعمارهم، وسوف أثبت لك نموذجين ناطقين بأنفسهما فيما يلي، فلنتدبر:

فعن عروة أن الزبير بن العوام رضي الله عنهما سمع نفخة من الشيطان أن محمداً ﷺ أخذ (أي قُتل) بعدما أسلم، وهو ابن ثنتي عشر سنة، فسل سيفه وخرج يشد في الأزقة حتى أتى النبي ﷺ - وهو بأعلى مكة - والسيف في يده. فقال له النبي ﷺ: «ما شأنك؟» قال: سمعت أنك قد أخذت. فقال النبي ﷺ: «وما كنت تصنع؟» قال: كنت أضرب بسيفي هذا من أخذك. فدعاه رسول الله ﷺ وقال: «انصرف». وكان أول سيف سل في سبيل الله^(١)

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص ﷺ قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ يوم بدر يتواري، فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرنني فيردني، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة. قال: فعرض على رسول الله ﷺ فردّه، فبكى فأجازه. فكان سعد ﷺ يقول: فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره، فقتل وهو ابن ست عشرة سنة^(٢).

وإني لا أجزؤ والله على تناول هذه النماذج بشرح أو تعليق ولكني أناشد نفسي وإياك الله أن نتساءل ونتأمل: ما هي التربية التي نشأ عليها هؤلاء الصبية والشباب في ربيع العمر ليندلوا المهج والأرواح في سبيل الله ويتنافسوا في ذلك أيما منافسة؟ وما نوع ذلك الإيمان الذي عمرت به قلوبهم وما هي حدوده وما هي طبيعته؟ لاشك أنها تربية فريدة تمخض عنها مثل هذا المطمح العالي والسامي،

(١) حياة الصحابة للكأندهلوي ج ٢ ص ١٠.

(٢) حياة الصحابة للكأندهلوي ج ٢ ص ٥٤.

وحري بنا إذاً أن نصيغ تطلعات أطفالنا على مثل هذا المطمح عسى أن نرى تكرار تلك النماذج الشامخة الراسخة التي تخرجت من مدرسة محمد ﷺ . وهل من مطمح آخر يقارب هذا المطمح أو يدانيه بحيث يجدر بنا صياغة طموحات أطفالنا عليه؟ قلت: ليس من مطامح الدنيا ما يقارب ذلك أو يدانيه، ولكن الإسلام يرسم لك هدفاً آخر غير هدف الجهاد القتالي يمكنك أن تجد فيه مجالاً للتنافس في الدين من خلاله إذ أن كل واحدٍ منا ليس مؤهلاً بطبيعته لخوض ميادين البطولة القتالية - ولا ضير في ذلك ما لم يكن جنباً أو فراراً من الله - وهذا المطمح الآخر أحيلك إليه في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (فصلت ٢٣)، فهلا رسمت لطفلك ذلك الطريق الذي يؤهله لأحسن القول ألا وهو الدعوة إلى الله تعالى وإلى دين الله عز وجل إن عزّ عليك الطريق الأول أعني طريق الجهاد والاستشهاد؟ هل يكون طفلك اليوم جزءاً من تلك الدعوة التي دعانا الله تعالى إليها في قوله: ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران ١٠٤).

وانت قد تستشعر هول هذه الطموحات وضخامتها، ولكن تذكر - عندما يهولك الأمر - تذكر أعمار أولئك الصبية الذين ذكرنا مواقفهم فيما سبق؛ ذلك الذي سلّ أول سيف في الإسلام: ١٢ سنة، أي ما يقابل طالب الصف السادس الابتدائي في عصرنا هذا، وذلك الذي اندس في صفوف المسلمين طالباً الشهادة في سبيل الله: ١٦ سنة، أي ما يقابل طالب الصف الأول الثانوي أو العاشر في عصرنا هذا. هذا ليس خيالاً أو وهماً إنما هو واقع وتاريخ حقيقي، فلماذا نضن بهذا الممكن على أولادنا؟ ولماذا نستصغر أولادنا وأنفسنا عن مثل هذه الدرجات ونختزل طموحاتنا في صورة هزيلة جداً لا تتجاوز واقع الطعام والشراب والمسكن والملبس؟ على أننا لا ندعو إلى تعطيل الحياة أو الزهد المفرط في الطيب المباح من هذه الدنيا، ومنهاجنا في ذلك هو قوله تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا

تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴿ (القصص ٧٧) وللأسف فإني لم أسمع هذه الآية من أحد إلا في معرض استشهاده على جواز الأخذ من الدنيا وأنا لا أنازع في هذا الجواز وليس لي ذلك بعد أن أباحه الله تعالى ، ولكن هلا تمعنا في المعنى الكامل لهذه الآية ناهيك عن المعنى الأولي بصرف النظر إليه؟ نحن نرى مع الأسف ميلاً شديداً إلى ابتغاء الدنيا مع نسيانٍ شبه تام للآخرة ، وهذا ما لا نقبله لأطفالنا وأنفسنا . نحن نريد المؤمن القوي المتعلم المستغني عن الناس ولكن لا نريد أن يقف طموح هذا المؤمن عند ذلك الحد ، بل نريد أن نسمو إلى ما وراء هذه الأهداف الدنيوية المشروعة إلى الآفاق العلوية التي نعاقق فيها قمم تلك الجبال الشامخة من هذه الأمة المباركة ، نريد أن نطبق هذه الآية بشموليتها الكاملة ابتغاء الآخرة مع الأخذ بما يلزم من الدنيا وليس العكس كما هو حال الكثير منا .

وأما الهدف المرحلي الثالث للتربية المنشودة فهو العمل على تهذيب ترجمة الكمونات والطاقات العقلية والجسدية والنفسية للطفل والشاب . وإن غايتنا القصوى من هذه المرحلة هي تمثل الحديث التالي : عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب ، وما تقرب عبدي إليّ بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ولئن دعاني لأجيبه ولئن استعاذ بي لأعيذنه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » (صحيح البخاري) ، والشاهد هنا هو قوله : « فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها » ، إذ أن المسلم يتحول بهذه التربية إلى واقع حي متحركٍ ناطقٍ بالعبودية لله سائرٍ على نور من الله . إن كتلة الطاقات والكمونات المختزنة في الفرد تتفجر بهذه التربية لتصبح كتاب الله الناطق بعد أن تتمثل كتابه الصامت أعني القرآن الكريم . وبعد أن يسير على هذا المنهج الذي

وصفه الحديث في التقرب إلى الله بالفروض ثم النوافل ثم الارتقاء بذلك كله إلى درجة حب الله سبحانه وتعالى ، بعد هذا يصل الفرد إلى غاية الدنيا وهنائها وإلى غاية الآخرة وهنائها أيضا .

نريد من خلال هذا الهدف المرحلي إذاً أن نحرص على أن يقوم الطفل والشاب بالتعبير عن كل ما أودعه الله تعالى فيه من فطرة وطاقة وحيوية في إطار الإسلام ، وأن يعبر عنه وفق ضوابط الشرع وابتغاء مرضاة الله وحده ؛ فحين يتعلم الكلام لا يتكلم إلا بطيب ، وحين يتعلم استعمال الجوارح لا يستعملها إلا بطيب ، وحين يخاطب الناس يميز الخبيث من الطيب ، وحين يستمع القول يتبع أحسنه ، وحين يوالي ويعادي يوالي في الله ويعادي في الله ، وحين يتعلم يتعلم لله ، وحين يبدع ويخترع ويفكر يفعل ذلك كله لله في إطار شرعه ولخدمة أهل دينه .

فعملية التربية إذاً - بهذا المفهوم - تقوم على تفريغ قلب الطفل من كل ما عدا الله ، وتصيغ علاقته مع باقي الخلائق في الله ، وإعداد قلبه لتلقي الهدى والنور الرباني ليحيا به حياة طيبة ويضاء له به على طريق الاستقامة والفلاح ، يقول الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنَ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحديد ٢٨) ، ولقد حرصت في هذا الكتاب - لا سيما في الفصل الخاص بالتطور الروحي الحركي - على الربط ما أمكن بين معالم التطور في حياة الطفل وضوابط ومعالم الشرع المتعلقة بها - مقدما بذلك - كما أرجو - نموذجا عمليا واقعيا قابلا للتطبيق في مجال التربية حتى نصل إلى هذا الهدف إن شاء الله ، هدف الخروج من عملية التربية بفردٍ ناطقٍ بالإسلام في كل خلجةٍ من خلجات صدره وفي كل حركةٍ من حركات جوارحه ، ثم بانضمام هذا الفرد إلى غيره تتشكل نواة الجيل القادم ، الجيل الذي سيحقق التغيير الشامل وفق منهج الله عز وجل ويصل إلى درجة الشهود الأممي إن شاء الله ليستأهل شهادة النبي ﷺ لهذه الأمة بالخيرية .

هذه هي أهدافنا المرحلية إذاً، وأنا لم أفصل فيها كثيراً في هذا الموضوع لأن موضع التفصيل فيها هو هذا الكتاب بأكمله. وإن العملية التربوية نسيجٌ متكامل ومنهجيٌّ متناسق مترابط لا يمكن فصله وتجزئته كما لا يمكن تحديد الترتيب بين عناصره بصورة كاملة، وإنما التجزئة في العرض ها هنا هي بغرض الدراسة والبحث، لذا عليك أن تضع في اعتبارك على الدوام أن منهجنا في تربية الطفل للإسلام هو منهج مترابط متكامل يشد بعضه بعضاً، ويقوي بعضه بعضاً، فلا مجال للخروج بالثمرة الكاملة لهذه التربية إلا بتطبيق المنهاج الكامل لها.

بهذا التمهيد أرجو أن أكون قد أثرت في نفس القارئ الكريم الباعث على المضي قدماً في هذا الكتاب، لا لأني أدعي فيه كمالاً ولا لأني أزعم أنه سالمٌ من النقص فما أبعد هذا العمل عن ذلك، وإنما لسببٍ واحدٍ هو أن نتذكر معاً وتندبر سوياً ما وصل إليه الاجتهاد في تحري هذا المنهج، وعندى اليقين الراسخ والقناعة التامة بأنه يوجد في الإسلام قرآناً وسنةً منهج تربية متكامل لا بديل عنه لصالح الفرد، ولن يمكننا التعرف على هذا المنهج ما لم نتدبر في مصادره ونستقري وننهل من معينه، ونحاول أن نربط بين التعاليم الدينية والحوادث الحياتية، وبين ضوابط الشرع ومنهج الدين من جهة وحياتنا كأفراد في البيت والمدرسة والشارع والعمل من جهة أخرى، فلا بد من إحداث هذا الربط وتكرار العمل مرة وأخرى حتى نصل إلى الربط الصحيح بين المصدر والحادث، بين الإسلام والحياة، موقنين أن الإجابة في الإسلام موجودة، وأن الخطأ - إن وقع - هو خطأ في الربط بين المنهج والواقع لا خطأ المنهج نفسه، لأن مصدر هذا المنهج لا يقبل الخطأ أبداً: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك ١٤).

لذلك أدعوك أيها القارئ الكريم أن تقبل على ما في هذا الكتاب بإخلاصٍ لله وحده وبانقياد تامٍّ لله ولسنة نبيه محمد ﷺ حتى تستطيع أن تميز الصحيح فتأخذه وتعمل به، وتميز الخطأ فتنبهني إليه مشكوراً.

وطالما أن نجاة أولادنا هي الهدف فلنتعاون معاً بهذا الإخلاص وبهذا الحب الخالص لله لتحقيق ذلك، وأنا أعتذر سلفاً عن أي نقدٍ أو تقريظٍ وجهته في هذا الكتاب ولكن غرضي منه هو النصح في الله، وإذا كان الأمر كذلك فإن لك حظ الانتفاع بالنصح، وعلي وزر الانحراف في النية إن كان واقعاً، فلا يمنعك ذلك من الاستفادة مما قد تجده نافعاً في هذا الكتاب، واجعل الله مبتغاك ورسول الله ﷺ قائدك وأسوتك، واطرح حظ النفس جانباً وتذكر قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة ٨)، والعدل الذي أدعوك إليه هو العدل مع أولادك وأطفالك والعدل مع نفسك وأهلك تجاه قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰئِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحریم ٦).

فلنمض إذاً على بركة الله، سائلين الله تعالى النفع والسداد، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

الأخطار المحدقة بالطفل المسلم

سوف أتناول في هذا الفصل إن شاء الله تعالى جملة من الأخطار التي تعرض للطفل المسلم في مختلف المراحل العمرية الخاضعة للتربية، وأقوم ببيان ماهية الخطر وسبل كشفه وخطة التصدي له كما يتيسر لي .

والحقيقة أن جملة من هذه الأخطار قد تتراءى للطفل المسلم فرداً في أي فترة زمنية أو بقعة جغرافية، ويبقى لكل فردٍ حظه من الابتلاء بالخير والشر، ولكن المهم في واقعنا المعاصر هو ذلك التوجيه المرسوم لمجموع الأخطار نحو هذه الفئة من المجتمع ككل، أي أن الأمر يتجاوز ظاهرة الابتلاء الفردي الذي يمكن أن ينجو منه المجموع إلى ظاهرة التربص والقعود لهذا المجموع بغية تعطيل بلوغ المنشود من تربيته وإنشائه ورعايته، وملاحظة هذا الأمر مهمة جداً، لأنه يشير في النفوس جدية المسألة ويتجاوز إطار المسؤولية الفردية إلى إطار المسؤولية الجماعية، وهذا - فيما نأمل - له دوره في استثارة حفيظة كل غيور وغيورة.

وبمثل هذا المنطلق أبادر فأعدد ما عرض لي من هذه المسائل بطريق الاستقراء، ثم أعود فأعرض لكل منها بالتفصيل المناسب، واعلم أن تعداداً كهذا لا يكون جامعاً إلا بقدر ما تكون آلة الكيد معطلة، أما وأنها آلة نشيطة لا تفتقر فإن ما أعرضه يمثل نماذج لهذا الكيد الخبيث ولا يمثل بأي حال كل ما في جعبة الكائدين، وإليك أمثلة ونماذج لما أقول:

(١) حجب اللغة العربية .

(٢) تنحية الأم المربية أو " حجب الأم " .

(٣) خلخلة الأسرة .

(٤) الحشو الفكري .

(٥) التغريب الفكري .

(٦) الإقصاء الفكري .

(٧) الإلهاء والتحويل .

(٨) التدمير الجسدي - النفسي المباشر .

وهكذا ، فهذه جملة من المخاطر على سبيل التعداد ولكنك تلاحظ فيها عموماً أنها تجعل من العقل الناشئ والنفس النامية مرمىً وهدفاً ، ولسوف تدرك من خلال العرض التالي أن الكائدين لا يألون جهداً في تسخير أي سبيلٍ لتحطيم أي جوهرٍ عقلي أو نفسي لدى طفلنا الغالي ، وأن شغلهم الشاغل هو منع أي صفةٍ سليمة من التلبس بهذين الجوهرين النفيسين ، والحق أن الله خيرُ حافظاً وهو أرحم الراحمين ، ولكن ألم يأن الأوان لأن نحقق " المسلم كيْسُ قَطِن " في أنفسنا كي نستحق حفظ الله ورحمته !

ولسوف أعرض بالتفصيل لجملة هذه الأخطار ، فلنتدبرها بعينٍ واعيةٍ ونيةٍ صادقةٍ مستعنيين بالله عز وجل في كشف هذه الغمة إن شاء الله .

الخطر الأول: حجب اللغة العربية:

إن إدراك الشيء فرغٌ عن تصوره كما يقولون ، ولا مجال لنا للخوض في بحث خطورة حجب اللغة العربية عن الطفل ووسائل مكافحة ذلك ما لم نولّد دافعاً ذاتياً فاعلاً في أنفسنا نحن المربين يكون منبثقاً من الفهم الصحيح لأهمية هذا العنصر في التشكيل العقلي للفرد المسلم وللدور الحرج الذي يؤديه عنصر اللغة في تمكيننا من التعامل الصحيح مع كتاب الله عز وجل .

لقد ورد وصف القرآن الكريم بالعربية في أحد عشر موضعاً في كتاب الله عز وجل ، وأريد أن يتضح في الأذهان أن العربية التي يصف القرآن بها نفسه إنما هي اللغة لا القومية والعرقية ، فعالمية رسالة الإسلام أوسع من أن تحصر في إطارٍ قومي ضيق ، وهذا أمرٌ مهمٌ حتى لا يخال أحد أن هذا الخطاب يتوجه إلى العرب ، إنما هو موجّهٌ إلى كل مسلمٍ يريد أن يفهم إلى ظلال القرآن الكريم ، وتتضح ضرورة اللغة

كوسيلةٍ للتعامل مع القرآن الكريم عند استقراء الآيات المشيرة إلى عربية القرآن - لغةً كما ذكرنا - حيث نقف على عدة نتائج مهمة ومقاصد رئيسة يضيّع كثير منها في حال غياب اللغة عن واقع التعامل مع القرآن، وهذه المقاصد هي:

١ - تحقّق العلم التفصيلي بمحتوى كتاب الله عز وجل: ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (فصلت ٣)، ويتبين فوات هذا المقصد بغياب اللغة العربية من قوله تعالى في موضع آخر: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ (فصلت ٤٤).

٢ - تحقق البيان لمقصود الخطاب القرآني وواقع الإعجاز القرآني ومصدرية القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (النحل ١٠٣)، وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام ١١٣) نزل به الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ (الأنعام ١١٣) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (الشعراء ١٩٢-١٩٥).

٣ - تحقق الفهم والتدبر العقلي لمحتوى الخطاب القرآني بحيث نتوقع فوات الكثير من هذا الشهود بغياب اللغة العربية الكاشفة لهذا المحتوى، يقول تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف ٢)، ويقول تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الزخرف ٣).

٤ - تحقق البشـرى والـنـذير، ومن المعلوم أن للمعاني الثانوية للغة دورٌ دقيقٌ في إحداث تأثيرات نفسية تتجاوز حدود المعاني الأولية لهذه الألفاظ، وتختلف قوة هذه المعاني وآثارها في النفس باختلاف اللغة، كما أنها معانٍ تضيع بلا شك في سياق ترجمة معاني هذه الألفاظ إلى لغةٍ أخرى، وعلى كل حال تأمل هذه الآيات المتعلقة بالبشـرى والـنـذير وانظر كيف لازم وصف القرآن بالعربية كلاً من هذه الآيات، يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا

عَرَبِيًّا لَتُنذِرُ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرُ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي
الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ (الشورى ٧)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ
كَتَبْنَا مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ (الأحقاف ١٢).

٥ - تحقق التقوى والاستقامة على الوجه التام، وكلما ترقى المسلم في معراج
الاستقامة والتقوى كلما وجد نفسه محتاجاً إلى دقائق الأمور وخوافيها كيما
يتميز بها عمن هو دونه في سلم المنافسة والسبق إلى الله، وهنا يأتي دور
المعاني الخفية والمقاصد الثانوية لألفاظ القرآن في تزويد المسلم بهذه اللوازم،
وهي أمور قد لا يحتاجها المرء في أول الطريق كما ذكرت ولكنه سيحتاجها
بلا ريب إذا ما شاء الله تعالى له أن يمضي قدماً في طريق التقوى والمنافسة،
وهكذا يقول تعالى: ﴿قَرَأْنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾
(الزمر ٢٨)، ويقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ
الْوَعِيدِ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿٣٧﴾﴾ (طه ١١٣).

٦ - تحقق الأحكام في معاني القرآن بما لا يدع حجة لأحد في عدم الإتيان
والتسليم لحاكمية شرع الله في الأرض وفي حياة الإنسان، وإن نتيجة عدم
رسوخ محكمات القرآن في أفهامنا هو الزيغ في الإتيان وعدم استحقاق الوقاية
من الله، يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ
بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٤٧﴾﴾ (الرعد ٣٧).

وهذا مجرد استقرار سريع لا أقصد منه الاستيعاب بقدر ما أقصد منه التنبيه
ولفت النظر، وأرجو أن يعود القارئ إلى أمهات كتب التفسير كي يقع على
الأسرار العجيبة التي تتضمنها هذه الآيات القرآنية حتى يتكوّن لدى المربي رصيد
كافٍ من الدوافع الكفيلة بالحفاظ على عنصر اللغة سليماً عند الطفل المسلم،
ولقد أردت أن أقدم بهذه التوطئة قبل الخوض في عناصر هذا المبحث حتى تنعقد
النية في سبيل الله عز وجل وعلى بينة من الهدى القرآني المجيد.

وسوف أتناول بإذن الله بعض خصائص اللغة العربية فيما يلي ، ثم أنتقل إلى بيان بعض السبل الكفيلة بمنع حجب اللغة العربية عن ناشئتنا ، والله نسأل السداد والتوفيق .

فمن خصائص اللغة العربية المتعلقة بالتربية ما يلي :

أولاً:

إنه لا بد من تعلم اللغة العربية في الصغر كي تتمكن من إحداث الصياغة والقبولة النطقية والتفكيرية . وواضح أن أي محاولة لاكتساب اللغة العربية بعد مرحلة الطفولة لا تأتي بنفس الثمرة " النطقية " كما أنها وإن استطاعت أن تصيغ قالب التفكير اللغوي فإنه غالباً ما يكون مشوباً عند ذاك بقالب التفكير اللغوي السابق لتعلم اللغة العربية .

إن الطفل حين ينشأ على تعلم اللغة العربية يتقوّل بصيغة التفكير العربية ويتمكن من التعامل المباشر مع القرآن الكريم عربي اللغة ، وبالتالي يكون أكثر فهماً من جهة ، وأكثر إنتاجية من جهة أخرى ؛ أما الفهم فواضح ، وأما الإنتاجية فأقصد بها إمكانية التعامل مع المعاني الثانوية والمقاصد اللغوية التي تضيع بترجمة معاني القرآن الكريم وعدم فهم ألفاظه في سياقها اللغوي الصحيح ، وبالتالي إمكانية التفكير والتدبر والتأمل المباشر فيها ، ولكل عصر علماء وفقهاء ، والقرآن الكريم غني لا تنضب كنوزه وفريد لا يخلق على كثرة التأمل والتدبر ، فلا يجوز لنا أن نحرم الطفل المسلم من النضج اللغوي والنمو الفكري الذي يمكنه من هذا التعامل مع القرآن الكريم . وأريد أن أوضح أمراً مهماً هو منظومة تلقي والإنتاج اللغوية ، وذلك على النحو التالي:

تلقي <<<< استيعاب <<<< تفكير <<<< إنتاج

هذه هي منظومة التعامل مع أي مادة فكرية لغوية ، ويجب ملاحظة أن حلقة الاستيعاب والتفكير تتعلق تعلقاً رئيسياً باللغة الأم للطفل ، بمعنى أن الطفل أقدر

على استيعاب ما يتلقاه والتفكير فيه إذا ما تلقاه بلغته الأم - واللغة الأم بتعريفنا هنا هي اللغة التي نشأ عليها ونضج بها تفكيره - وهو قد يتمكن مع ذلك من استيعاب معطيات لغة أخرى إذا كان يتقنها بدرجة مقبولة، ولكن الملاحظة المهمة هي أن الدماغ يميل نحو التجاوب مع الأفضل فيفعّله ويميل عن الأسوأ فيثبّطه؛ فمن المعلوم مثلاً أن الطفل دون الخامسة أو السابعة من العمر إذا كانت الرؤية بإحدى عينيه أقل سلامةً وحِدَّةً من الأخرى، فإن الدماغ الذي يقوم عادة بدمج الصورة المتشكلة في كل من العينين في صورةٍ واحدةٍ يلاحظ أن الصورة الآتية من العين الضعيفة لا تزيد من جودة الصورة المدمجة بل تسيء إليها، فيقوم الدماغ بتثبيط هذه الصورة الضعيفة ويقوم بطمسها ولا يدمجها مع الصورة الأوضح، ويفضل بالتالي الرؤية بالعين السليمة على دمج الصورتين المتباينتين، وينتج عن هذا كله ما يعرف بـ "الغطش" وهو فقد الرؤية في العين الضعيفة نتيجة عدم الاستعمال الناجم عن التثبيط المتكرر للأسوأ بسبب وجود "الأفضل". هذه حقيقةٌ علميةٌ معروفةٌ وهي بحكم المُسَلِّمات في طب عيون الأطفال، وأهم ما تجب ملاحظته في هذه الظاهرة ما يلي:

أ) المجال العمري الذي تحدث فيه هذه الظاهرة، إذ أنها لا تحدث عند البالغ أو الكهل إنما تحدث فقط عند الأطفال دون الخامسة أو السابعة من العمر، أي أنها تحدث في طور النمو والقبولية والصياغة، فلا بد من وجود العين السليمة في هذه المرحلة الحرجة بالذات.

ب) ملاحظة أن تثبيط العين الضعيفة ناجمٌ في الواقع عن وجود العين السليمة وتلقي الدماغ للصورة الأوضح عن طريقها! أي أنه لو كانت العينان ضعيفتين لما حدث هذا التثبيط.

بل إن الدراسات التطورية اللغوية قد أظهرت أن الطفل في بداية تطوره في سن ثلاثة إلى ستة شهور يستطيع أن يميّز عدداً كبيراً من "الصوتيات" ولكنه مع تقدم سنه وبلوغه عشر إلى اثني عشر شهراً من العمر يفقد القدرة على تمييز

"الصوتيات" الغربية على اللغة المتداولة في محيطه، فلقد بينت إحدى الدراسات أن الأطفال الذين يترَبُّون في اليابان لا يعودون يميزون لفظ "الراء" أو "اللام"، بينما الأطفال الناشئون في إنجلترا يميزون هذه اللفظيات بسهولة وذلك عائداً إلى طبيعة اللغة المتداولة في محيط الطفل طيلة فترة التطور اللغوي حتى في مرحلة ما قبل النطق.

والآن ما علاقة هذا كله باللغة والتفكير ؟

نعود إلى منظومة التلقي: <<<<<< استيعاب <<<<<< تفكير <<<<<< إنتاج.

وقد قررنا أنها "أفضل" ما تكون كفاءةً باللغة الأم، فإذا ما كبر الطفل وأردنا أن نعلمه لغةً أخرى، فإن منظومة التلقي السابقة ستكون أقل كفاءةً بالنسبة للغة الثانوية لأنها ليست اللغة التي تقولبت بها صيغة التفكير. وسعيًا من الدماغ نحو الأفضل فإنه سيُحوَّل منظومة التلقي من المنظومة (أ) إلى المنظومة (ب) حيث:

منظومة (أ): تلقي <<< استيعاب <<< تفكير <<< إنتاج،

ومنظومة (ب): تلقي <<< ترجمة <<< استيعاب <<< تفكير <<< ترجمة <<< إنتاج.

أي أن الدماغ سيسعى لترجمة ما يتلقاه باللغة الثانوية إلى اللغة الأم لأنها اللغة التي يحسن الاستيعاب والتفكير بها، وهو مع الوقت سيؤدي إلى تثبيط منظومة التلقي المباشر باللغة الثانوية لأنها أقل كفاءةً - بالنسبة له - أو لأنه لا يستطيع في الواقع التعامل مع معطيات اللغة الثانوية من خلالها لأنه لم يتعلمها في الطور الذي يسمح بتحقيق صياغة فكرية خاصة بهذه اللغة، وأياً كان الحال، فسوف يحدث تثبيط دماغي للمنظومة الأسوأ وتفعيل دماغي للمنظومة الأم، أي أنه سيحدث "غطش" تفكيري لغوي. والآن لعلك تستفسر عن الإشكال الناجم عن هذا الأمر، والجواب أن الإشكال يكمن في أن تحديد الأفضل والأسوأ في هذه الحال إنما يقيسه الدماغ بالنسبة إليه، أي أنه يختار ما يرى أنه الأفضل بالنسبة له ويثبِّط ما يرى أنه الأسوأ بالنسبة له، ولكن هذا قد لا يكون هو الأفضل أو الأسوأ في ذاته،

وهذا يعتمد في حقيقة الأمر على جنس اللغة التي يتعامل معها .

وأعطيك مثالا لتقريب الصورة: إذا تعلم الطفل اللغة الإنجليزية بدايةً وكبر ونما عليها وتشكلت صيغته التفكيرية بالإنجليزية ، ثم تعلم اللغة العربية بصورةٍ ثانويةٍ لاحقة ، فعندما يصادف هذا الطفل بنصٍ عربي يجد نفسه أمام منظومتين للتعامل مع هذا النص:

المنظومة الأولى هي :

تلقي بالعربية << استيعاب بالعربية >> تفكير بالعربية << إنتاج بالعربية (وهذه هي المنظومة الأقل كفاءة بالنسبة له لأنها منظومة اللغة الثانوية) .

والمنظومة الثانية هي :

تلقي بالعربية << ترجمة للإنجليزية >> استيعاب بالإنجليزية << تفكير بالإنجليزية >> ترجمة للعربية << إنتاج بالعربية (أو لا إنتاج) !

فهذا الطفل أقدر على التفكير باللغة الإنجليزية لأنها اللغة الأم التي نضج وتقبل عليها ، وهو سيختار على الغالب المنظومة الأولى (منظومة "الترجمة - التفكير") بحكم أنها أكثر كفاءةً بالنسبة له ، ولكن هل هذا هو الأفضل في ذاته؟ بالطبع لا . لأنك تدرك لا محالة مدى ما يضيع من المعاني والمقاصد في سياق حلقات الترجمة المتكررة ، إضافة إلى عدم ملاءمة صيغة التفكير الإنجليزية لمعطيات اللغة العربية أصلاً!

ولا شك إذاً أن الهدف القويم إنما يكون بتربية الطفل وتعهده بحيث يصيغ تفكيره اللغوي بالقلب العربي كلغة أم ، لأن ذلك يمنحه المنظومة السليمة للتعامل مع النصوص العربية لاسيما النص القرآني والحديثي .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو : ما هو الحد العمري الذي يجب تأسيس الصياغة الفكرية اللغوية الأولية فيه ؟ وبمعنى آخر: إلى أي حد عمري يمكن

تعليم اللغة العربية بصورة تؤدي إلى قولبة وصياغة تفكير الطفل بال قالب الفكري اللغوي العربي صياغة أولية غير قابلة للتشبيط بصياغة فكرية لغوية أخرى؟
سؤال دقيق لا نجزم بالجواب عليه بسبب التباين الفردي ، ولكن يمكننا إقرار بعض الحقائق :

أولها ، أنه كلما تقدم العمر قل احتمال تمكن اللغة العربية من إحداث هذه الصياغة ، وهذا مما لا جدال فيه لأنه واضح جلي بالاستقراء والمشاهدة لكل متأمل .

ثانيها ، أنه بالقياس إلى عادات العرب في زمن تنزل القرآن الكريم يمكننا القول بكثير من الثقة أن خمسة السنين الأولى من عمر الطفل هي المهمة في صياغة اللسان العربي ومنهج التفكير اللغوي العربي ، وهذا واضح من عادة العرب الحضّر في التماس المراضع لأولادهم بعيداً عن جو الحواضر وطلباً لإتقان اللسان العربي في المهد في جو نقي سليم لا تشوبه شائبة ، ونحن نعلم أن محمداً ﷺ قد بقي في بني سعد حتى حوالي السنة الرابعة أو الخامسة من العمر حيث وقع حادث شق الصدر وأعادته حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية إلى أمه بعدها ، ونحن نستطيع أن نعتمد هذا المعيار من حياته ﷺ لأنه كان جرياً على عادة العرب من جهة - وهم أهل اللغة وأدري بأحوالها - ولأن الله عز وجل قد تعهد محمداً ﷺ ونعلم بذلك أنه لا يهيئ له غير الأفضل .

ويمكن بناءً على ما تقدم أن نعتبر خمسة السنين الأولى من حياة الطفل " الفترة الذهبية " لصياغة قالب اللغة والتفكير اللغوي العربي ، وإن أي تأخير عن هذا الحد العمري فيه مجازفة خطيرة في هذا المجال .

ثانياً:

لا بد من فهم اللغة العربية ضمن السياق التاريخي الذي نزل فيه القرآن الكريم لأنه مقصود اللغة أصلاً بالنسبة لنا ، وهذا لا يتم إذا اقتصرنا في تعليم اللغة على

تعليم كلام العامة واللهجات القومية والمحلية دون شديد عناية باللغة الفصحى وبدلالات اللغة عند العرب، ومقصود الكلام عندهم. وواضح أن هذا لا يتم على مستوى الأسرة والمنزل بل يحتاج إلى تعليم منهجي مدرسي، ولكن في إطار التربية نقول إن المنزل هو الذي يؤسس القاعدة لهذا التعليم ويشكل الدافع عليه بيزر البذور الأولى له. وأنا واثق أن منزلاً وأسرةً يتلى فيها قرآنًا كل يوم تستطيع أن تؤمن هذه القاعدة وتجهز الطفل تربوياً لتلقي اللغة العربية تلقياً منهجياً صحيحاً في المدرسة.

لا بد لنا أن ندرك أن المصطلحات اللغوية قد اكتسبت - مع التطور التاريخي - معانٍ معاصرة لم تكن مُتلبَّسةً باللفظ العربي وقت نزول القرآن، وإن أي محاولة لفهم اللفظ القرآني دون تمييز دلالات اللغة المعاصرة لنزول القرآن ستؤدي ولا شك إلى مغالطات كثيرة في الفهم القرآني. ولئن تساءلت: كيف نميز دلالة اللفظ الحالية عن دلالة اللفظ المعاصرة لنزول القرآن أجبتك أن الله عز وجل إنما حفظ اللغة العربية بدلالاتها الأصلية عن طريق حفظ القرآن، فما عليك إلا أن تبدأ مبكراً بعرض القرآن الكريم على الطفل، لأن ذلك سيؤدي بك إلى اكتشاف هذه الدلالات اللغوية (إن لم تكن قد اكتشفتها بعد) وبالتالي تعلّمها للطفل مقرونةً بالنصوص والألفاظ. بمعنى أن التعليم المجرد للغة دون الربط بالعرض القرآني واكتشاف الدلالات اللغوية المرادة هو تجريد لتعلم اللغة العربية عن هدفها الأصيل لا يجدي معه أن يبلغ فيه المرء شأواً بمعزل عن الجو القرآني وملابسات النص القرآني.

أقول هذا لأنني أرى فشلاً في تحقيق هذا الربط الغائي لتعلّم العربية، فمثلاً نرى بعض الأسر العربية المهاجرة تحرص على تعليم أولادها اللغة العربية - وهذا جيد - نحمد الله عليه - ويلجئون فيما يلجئون إليه من وسائل إلى إرسال أولادهم لفترات محدودة إلى بلدهم الأم ليتعلموا "لغة الأهل والوطن"، وهذا فشلٌ غائي من وجهين؛ أولهما ربط التعليم بهدف أدنى، وثانيهما تحديد آصرة اللغة العربية بإطار القومية والوطنية الضيق، وغاية ما يتعلمه الطفل على أية حال هو الدلالات

اللغوية المحلية وواسطة الخطاب اللغوي المعاصر بصورة لا تفي - من حيث الوسيلة والهدف - بغائية تعلّم اللغة العربية كما بيّنا. أي أن هؤلاء يعلّمون أولادهم شيئاً من اللغة ولكن بمعزلٍ عن الهدف الصحيح وبمعزلٍ عن الفهم السياقي الملازم للجو القرآني. وهكذا نرى أهمية ملاحظة هذه الخصيصة اللغوية كي نعمل على تحقيقها عند الطفل حين نعلمه اللغة العربية، وإذا أدركت دقة الرابطة بين التشرب باللغة العربية والتمكّن من فهم هذه الخصائص الدلالية علمت حرجة التعليم المبكر للغة العربية من جهة، وعلمت خطورة إشغال الحيز التفكير اللغوي بغير اللغة العربية بدايةً من جهة أخرى. ونحن نقرر أن لا مانع من تعلم لغات أخرى، ولكن لا يمكن أن نسمح لغير اللغة العربية أن تكون اللغة الأم التي يصوغ الطفل تفكيره اللغوي على أساسها.

هاتان الخاصتان للغة العربية تجعلاننا ننظر بعين الحذر والريبة إلى كل ما يحاول التأثير في تشكيل القالب اللغوي للطفل، لا سيما في خمسة السنين الأولى من العمر. ولكن الأمر لا يقتصر على هذه المرحلة، فهذه المرحلة إن هي إلا حجر الأساس - وهي تقع على عاتق الأسرة كما بيّنا - ثم تأتي المرحلة التالية وهي التعلم المنهجي المدرسي للغة، حيث نتوقع أمرين اثنين هما:

أ - تنمية المقدرة اللغوية للطفل بحيث يتمكن من فهم واستيعاب النصوص العربية بدلالاتها المختلفة لتكون لغة حية ذات صلة بكل مجالات العلوم التي يختار أن يبني حياته المهنية أو الوظيفية على أساسها حتى لا يصل إلى مرحلة تعجز مقدرته اللغوية العربية به عن مجاراة طموحه العلمي الكوني.

ب - ربط التعلم اللغوي بهدف واضح هو استيعاب المنهج القرآني واللفظ الحديثي استيعاباً يمكنه من الترجمة العملية والتطبيق العملي لمعانيهما.

إننا لا نريد للطفل المسلم أن ينشأ وينمو ويتدرج في سلم التعلم فإذا به يجد حاجزاً لغوياً يحجبه عن اكتساب علمه الشرعي، كما أننا لا نريد له أن يجد حاجزاً لغوياً يحجبه عن اكتساب العلم الكوني، والنكته دقيقة في أن العلوم

الكونية - ولأسباب تعود لتخلف المسلمين عن الركب الحضاري - أصبح الرائد فيها أجنبي اللغة، بحيث أصبح لازماً لمن أراد تعلّم شيء منها أن يتقن اللغة الأجنبية، ولكننا في ذات الحين نصر على ضرورة اللغة العربية لتعلّم العلم الشرعي الضروري، وهنا تحدث صورة من الفصام في حياة الطفل والمربي. والمنزلق خطيرٌ يقع فيه الأهل في الواقع قبل الطفل، إذ أنهم يقررون - ولمصلحة الطفل - ضرورة تعليم اللغة الأجنبية من أجل "ضمان المستقبل" (وهذه إشكالية منهجية عميقة لا مجال للخوض فيها الآن) إذ لا سبيل لتحقيق الدرجة العلمية إلا بالتمكن من اللغة الأجنبية، ولقد استفحل أمر هذه المسألة وأشكل على الكثير، وإن الخطر فيه شديد، إنه خطر إنشاء جيلٍ كاملٍ لا صلة بينه وبين كتاب الله عز وجل إلا عبر المعاجم والقواميس يُقلّب عشرات الصفحات من المعجم قبل أن يطوي السير في آيةٍ من كتاب الله - هذا بفرض أن الغُربة عن القرآن هي غربة لفظ ولغة فقط - ونحن لا نعطل من قيمة العلم الكوني، ولكننا نؤكد رجحان ضرورة العلم الشرعي ونبين في ذات الوقت إمكانية الاستحواذ على الأمرين ولكن السبيل إلى ذلك هو قطعاً خلاف الواقع المشهود. وأوضح فأقول أنه بالمقارنة مع اللغة العربية فإن اللغات الأجنبية الرئيسية التي تسود بها العلوم الكونية هي لغاتٌ ليس من العسير اكتسابها في أي مرحلة عمرية، كما أن طبيعة المادة التي نتعامل معها من خلال هذه اللغات - وهي العلوم الكونية والتجريبية - لا يتأثر فهمها كثيراً بضياغ المعاني الثانوية للغة الأجنبية في ذهن المتعلم لهذه اللغة، وهذا واقعٌ مشهودٌ مُستقرٌ، فكم من العلماء المسلمين العرب الذين هاجروا إلى بلاد الغرب فتعلموا لغاتها في شهور قلائل وتسلقوا سلم العلم التجريبي أطباء ومهندسين وعلماء مخترعين... وخلاصة القول أن أولوية تعليم اللغة يجب أن تكون للغة العربية، ولا مانع - بل من الواجب - تعليم لغةٍ أجنبيةٍ يتيسر بها الكسب العلمي الكوني ريثما يستعيد المسلمون نشاطهم في الإنتاج العلمي باللغة العربية، ومن ثمّ نتحرر من هذا الفصام اللغوي النكد. ولا بد لي في مجال إقرار حقائق الواقع

المستقراً من أن أشير إلى أن تجربة التعليم العالي باللغة العربية ليست أمراً خيالياً، بل هي واقعٌ فعليٌّ يعيشه الطلبة المسلمون في بعض البلدان مثل سوريا^(١) وأنا هنا أؤكد ضرورة نقل وتعميم هذه التجربة إلى كل قطر عربي مسلم حتى نزيل من أذهان الآباء والأمهات تلك المصلحة الوهمية في ضرورة تعليم اللغة الأجنبية بصورة تضيع معها أولوية التعلم اللغوي (وأقول مصلحة وهمية لأنها تفوّت مصلحة أهم هي مصلحة تعلم اللغة العربية والعلم الشرعي الضروري للنجاة).

ثالثاً: القولية النطقية:

لا يغيب على أحد ما تميز به لغة الضاد من دقة في توزيع مخارج الحروف والنطق، وضرورة التدريب والعلم الصحيح لذلك، حتى أن فوات الفترة الذهبية لإحداث هذه القولية والبرمجة لمخارج الحروف والنطق يجعل من العسير - إن لم يكن من المستحيل - تعلم النطق الصحيح للغة العربية في مرحلة متأخرة.

والحق أن هذه أقل الخصائص حرجاً، ولكن النكته دقيقة في أن هذه الخصيصة هي أشد ما يحتاج إليه من يختار الاختصار في تعبد الله عز وجل على العبادة النسكية والتمتات المحرابية، يعتقد أن إجراء ألفاظ القرآن الكريم على شفاهه هو مظنة النجاة، ولا أريد أن أخوض في هذا هنا ولكن الشاهد أن من يختار أن يكون مسلماً منفعلاً خاملاً ليس بغنى عن التعلم الصحيح للغة العربية لغة القرآن الكريم، إلا إذا كان سيتعبد الله عز وجل بأحكام وقواعد مخترعة من عنده أو ربما بقراءة بعض الترجمات لتفسير معاني القرآن! وأنا أقول لكل أب وأم ولكل مربٍّ وراعٍ؛ أقول: لا تتخذ هذا القرار نيابةً عن الطفل الذي تربيته، بل دعه يكبر ويختار لنفسه، ولكن لا تحرمه المقدرة على

(١) وأنا أشير خاصة إلى تعليم الطب باللغة العربية في جامعة دمشق في حين يعترض الكثير بأن تعليم الطب باللغة العربية "غير ممكن" ولكن الواقع يقول إنه ممكن وأنا ممن درسوا الطب باللغة العربية والله الحمد.

الاختيار، لا تحرمه وسيلة التعرف على دينه وقرآنه، علّمه اللغة وعلمه النطق والقراءة والتلاوة، ثم ليختر هو ما يشاء لنفسه، ليختر التعبد بالتلاوة أو التعبد بالخلافة - والشوط بين الأمرين بعيد - ولكن لا تجعل نفسك محط اتهامه لك عندما يختار أحد الأمرين فيجد العجز في نفسه عجز لغةٍ وألفاظٍ ووسيلةٍ لا عجز همة واختيار!

فما هي عناصر الخطر التي تهدد اللغة العربية في حياة الطفل إذاً؟
يمكننا عموماً أن نحدد بعض عناصر الخطر الأساسية في الهجوم الموجّه ضد اللغة العربية فيما يلي:

(١) انتشار المدارس الأجنبية والتنصيرية في بلاد المسلمين، سواء أكانت عليّة الهوية أم مستورة الهوية؛ وهناك أمرٌ دقيقٌ يغفل عنه كثيراً ونحن نلهث وراء حمى اللغة الأجنبية ونلقي بأبنائنا وبناتنا إلى أحضان هذه المدارس وإلى أحضان معلميها ونتفاخر بأن أولادنا يتعلمون اللغة الأجنبية على يد "أهل اللغة الأصليين" في مدارسهم المبنوثة في أرجاء العالم الإسلامي - لا بل قد يرسل أحدنا بولده أو ابنته إلى تلك البلاد الأجنبية نفسها ليكون العلم "على أصوله" - أقول: إن الخطر هو نفس ما نتفاخر به في هذا المجال، إذ أننا نلقي بأولادنا إلى هؤلاء سعيّاً وراء تحقيق مصلحة تعلّم اللغة الأجنبية على أفضل صورة، وننسى أن هؤلاء المعلمين وهذه المدارس لا تعلّم لأبنائنا وبناتنا اللغة فحسب، لكنهم يُشكّلون عقلية الطفل تشكياً يوافق ثقافتهم ومبادئهم وحضارتهم وقيمهم، إنهم يصنعون على مهل فرداً غريباً عن ديننا وقيمنا ومبادئنا وتاريخنا وحضارتنا فضلاً عن لغتنا، ويسلخون عن هذا الفرد أي انتماءٍ تاريخي أو حضاري إسلامي، وهكذا نفقد الفرد تلو الآخر ممن نلقي بهم إلى برائن هؤلاء. بل انظر إلى أمر أدق من ذلك؛ إن هذه المدارس الأجنبية تُعتبر - لسببٍ ما - مشعراً من مشعرات الرقي الاجتماعي في نظر الكثيرين، فإذا

أضفت إلى هذا التكلفة المادية للانخراط في هذه المدارس أدركت أن هناك عملية انتقاء غير مباشرة لطلبة هذه المدارس بحيث لا يكونون - على الجملة - إلا من الطبقة الاجتماعية "الراقية" أو الثرية أو ما شابه، وهي عين الطبقة التي ترفد المجتمع بمن سيتولى زمام الأمور في الجيل القادم، وخلاصة الأمر أن هذه المدارس تصنع أفراداً غرباء عنا وعن صبغتنا، تصنع أفراداً هذه صفتهم وهم ممن سيمسك بزمام الأمور يوماً ما في مجتمعاتنا فيسوقونها بهذه العقلية المنحرفة و الهوية الممسوخة، فتأمل هذا جيداً فإنه دقيقٌ وخطير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

(٢) انتشار الحاضنات و"المربيات" والشغالات الأجنبية في الأسر المسلمة وقيامهن بتعهد الطفل قياماً أولياً، وإليه توكل أدق مسائل التربية وشؤون الطفل، وغني عن القول أن كل طفل يتكسب من أمه البديلة لغتها وثقافتها ودينها، فإذا نظرت إلى تنوع جنسيات ولغات وأديان هؤلاء المربيات تمكنت من إدراك حجم الاغتراب الحاصل ما بين الأطفال الناشئين على أيديهن وبين المجتمع المسلم الذي نتخيل أننا نعيش فيه، والأمر أشمل وأوسع من مسألة اللغة ولكنه حاصلٌ لا شك ولا نتوقع أن يفقه طفلٌ تربى على يد أجنبية كافرة أو مشركة أو حتى كاتبة كلمة من كتاب الله عز وجل، هذا إذا خطر على باله يوماً أن ينفض الغبار عنه من مكتبة المنزل الذي يعيش فيه. والمسألة كما قلت تمتد لتشمل كل مناحي التربية عند الطفل لغةً وديناً ومنهجاً وثقافةً وانتماءً وولاءً وبراءً، ولا أدري ما هي حجة كل راع منا في ذلك أمام الله عز وجل عندما نُسأل عن رعيّتنا؟

وإن ما ذكرته في الفقرة السابقة عن ازدياد أثر الخطر في الأسر "الكبيرة" أو "المسؤولة" ينطبق على هذا العنصر أيضاً، وتفرع عنه آثارٌ أشد سلبية إذ يمس مسائل دقيقة كالانتماء والهوية والدين، والأمور متشابكة في هذا المجال وكثيراً ما تتعاضد هذه العناصر وتجتمع على الطفل فلا تدع له سبيلاً للنجاة إلا ما رحم ربي.

٣) انقطاع سلسلة التعليم المدرسي باللغة العربية عند مرحلة الدراسة الثانوية العامة لكثير من الاختصاصات العلمية في معظم - إن لم يكن كل - البلاد والأقطار العربية المسلمة. ولقد أشرت إلى هذا الأمر سابقاً، وأؤكد هنا على ضرورة تجاوز هذا المأزق لأنه سيظل عقبة كبيرة في مجال الاستقلال العلمي والتقدم الحضاري غير ممسوخ الهوية ولا معطل الانتماء. والمسألة كما يعلم الجميع ليست مسألة عجز لغوي، فلغة اختارها الله عز وجل لقرآنه لن تضيق وتعجز عن استيعاب مجمل العلوم الكونية، ولكن المسألة مسألة تعطيل وخطة حجب للغة عن واقع الحياة المؤثر بحيث يستشعر الفرد مع مرور الوقت عدم نفع اللغة العربية لشيء سوى التتميمات المحرارية في ليالي رمضان، أما في حياة العلم والاكتشاف والاختراع فلا بد من اللغة الأجنبية. والحق أننا بدأنا نرى بعض بوادر الأمل تلوح هنا وهناك، ففي مجال الطب البشري ولد المجلس العربي للاختصاصات الطبية وقام نفرٌ مخلصٌ بجهدٍ كبيرٍ في ترسيخ قواعد ترجمة موحدة للعلوم الطبية، وتجربة التدريس باللغة العربية حيةً فاعلةً في الجامعة السورية تقول لكل راغب: هذه تجربتنا وهذه يد العون منا. ولا بد لنا كأفرادٍ ومربين من أن نكون على وعي تام بخطورة هذه المسائل وبوجوب الضغط المستمر على جميع المحاور لإعادة الدور الفاعل للغة العربية في مدارسنا وجامعاتنا ومؤسساتنا العلمية، ولا بد من إحداث وعيٍ فرديٍّ ومجموعيٍّ لحرجة هذا الأمر، وسنفصل في هذا لاحقاً في سبل المواجهة إن شاء الله تعالى.

٤) السيطرة الإعلامية الغربية والإعلام الموجه عبر القنوات المرئية والمسموعة والحاسوبية (لا سيما الشبكة البينية)؛ ولعلي أمهد لهذه الناحية بالإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ

ءَايْتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِى أُذُنَيْهِ وَقَرَّأَ فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ (لقمان ٦-٧)، وأقول بعدئذٍ لكل أب وأم أن يراجعا أنفسهم بالنسبة لهذه الآية، ولننظر فيما نستجلبه لبيوتنا من وسائل الغزو الفكري اللغوي والديني والحضاري لا سيما في واقع غياب الحضور الإعلامي الإسلامي، وواضح أن أثر هذا يعم كل مناح التربية، والشاهد هنا في تأثيره في لغة الطفل وما يتعلمه ويتكسبه عبر هذه الوسائل الإعلامية، لاسيما وأن كثيراً مما يتعرض له الطفل لا يمر عبر مسمع ومرأى المربي وخذ مثلاً على ذلك ألعاب الأطفال المسماة بألعاب "الفيديو" والحاسوب وغيرها من الألعاب المدمرة لعقل وجسم الطفل، ولا أريد أن أفيض في هذا الموضوع إذ أني قصدت الإشارة إلى الأثر اللغوي فحسب.

٥) هجرة الكثير من الأسر المسلمة إلى بلاد غير مسلمة عنصر خطر آخر يفرض نفسه على نسبة مهمة من الجيل المسلم الناشيء بالنسبة للغة العربية إضافةً لجملة المخاطر التي يفرضها واقع الهجرة والتربية في جو غير إسلامي، وهذا واضح لا يحتاج كثير نظير وتأمل، ألا إن له خصائص تتعلق بطبيعة الظروف المحيطة بهذا الجيل مما يجعل مسألة المواجهة أشد ضرورة وأكثر حرجاً كما سنبين لاحقاً.

٦) تشجيع اللهجات العامية ونبد اللغة العربية الفصحى: وهذه ليست نزعة حديثة بل هي دعوة آثمة تتكرر بالطلوع علينا بين حين وآخر، ولاريب أن فيها من الخطر ما فيها، إذ أنها تستهدف ذر الرماد في العيون بطمأنينة كاذبة إلى تعليم اللغة العربية، ولكنها لغة مشلولة بينها وبين كتاب الله أمد بعيد وهوة سحيقة، ولا بد من توعية أنفسنا ضد مخاطر الانزلاق وراء هذه الدعوات والعمل دوماً على ربط تعلم اللغة العربية بهدف واضح هو التعامل السليم مع القرآن الكريم فإن هذا كفيل بإيقاظ الغافلين وتنبيههم إلى مخاطر الدعوات العامية.

وسائل الصمود والتصدي للأخطار المحيطة باللغة العربية :

لابد لنا بعد أن استعرضنا طائفة من الوسائل الموجهة قصداً أم عفواً ضد تمكين الطفل من اللغة العربية تمكيناً يوفر له صيغة تعاملٍ صحيحةٍ سليمةٍ مع القرآن الكريم، أقول: لابد لنا بعد ذلك من رصد وتحديد الوسائل الكفيلة بمنع هذه الأخطار من إيقاع أثرها في الطفل كمرحلة أولى، ثم العمل على اجتثاث هذه الأخطار من جذورها كمرحلة لاحقة. وسوف أبحث الوسائل الوقائية لأنها أكثر ارتباطاً بالجيل الناشئ الوليد الذي يُعنى به أشد العناية، وأريد تحديد ما أعنيه بالوقاية هنا، فالوقاية هي الوسائل المتخذة لمنع الخطر أو أثر الخطر من الوقوع فعلاً، وأنجع وسيلة للوقاية هي منع عنصر الخطر وأقل من ذلك منع التعرض للخطر وأدنى مرتبة هو منع أثر الخطر الموجود فعلاً، وسنعرض لهذه الوسائل مجتمعة دون تفريق لأنها واقعة في دائرة واحدة ولا يفيد تقسيمها شيئاً من الناحية العملية، ولكن أوضح أمراً دقيقاً هو أن هذه الوسائل يزداد نجاحها بشكلٍ مُتّرد مع دنو عمر الطفل؛ أي أننا كلما بدأنا في مرحلة أبكر من عمر الطفل زادت فرصة نجاح هذه الوسائل، وهذا ينطبق على معظم ما يتعلق بالتربية في كل المناحي، فوجب الانتباه لهذا هذا الأمر، وإليك فيما يلي بعض هذه الوسائل:

(١) منع أفراد اللغة الأجنبية في حياة الطفل:

وهذا دقيقٌ ومهمٌ جداً، لما تقدّم من أسباب، وأوضح الأمر هنا فأقول أننا إذا أردنا أن نعلم الطفل لغةً أجنبيةً منذ طفولته وقبل سن الخامسة تحديداً فلا بأس في ذلك طالما تحرينا بصرامة وحزم عدم أفراد الطفل بهذه اللغة مع مراعاة ألا يكون أول ما يتعرض له الطفل مطلقاً هو اللغة الأجنبية. نحن نصر وبشدة على أن تكون مفردات اللغة العربية أول ما يطرق سمع الطفل، ونصر على أن تكون هذه المفردات ذات توجهٍ غائي يخدم هدف التربية من البداية، والأسلم عموماً هو الأفراد

باللغة العربية حتى سن الرابعة أو الخامسة حتى تستبين سلامة السمع وسلامة النطق بصورة تكفل استمرارية الصياغة الفكرية بحسب القالب اللغوي العربي. ولا ننصح أحداً بإضافة لغة أجنبية إلى حياة الطفل قبل ذلك - أي قبل استبانة سلامة السمع و النطق العربيين - ولا يستلزم ذلك السن المذكورة إنما هي مشعرٌ عام يتقدم عليه البعض ويتأخر عنه البعض الآخر. فإذا استبان لنا ذلك، وكانت لنا حاجةٌ مبكرةٌ في تعليم لغة أجنبية فلا بأس شريطة ألا يطغى تعليم اللغة الأجنبية على استمرارية تعلّم اللغة العربية. وأمرٌ آخرٌ دقيقٌ هو ربط تعليم اللغة الأجنبية بذات الهدف الذي نربط به تعلم اللغة العربية أي أن التعلم هو للكسب العلمي الذي يُشكّل صيغةً تعبديةً ساميةً وللنشاط الدعوي الذي يشكل محوراً تعبدياً سامياً أيضاً، ومؤدّى هذا الكلام أن تُصاغ مناهجٌ لتدريس اللغة الأجنبية مغايرةً تماماً للمناهج الحالية، ولا مانع من التعرض - حسب ملاءمة السن - لنمط وحياة ومنهج التفكير المرتبط باللغة الأجنبية شريطة أن يكون بأسلوبٍ مقارنٍ مع ما ترسخ في عقل الطفل من معيارٍ مرجعيٍ دقيقٍ هو البديل الإسلامي لكل ذلك. فنحن نرمي إذاً إلى "أسلمة" التعليم الأجنبي بحيث نحقق هدفين واضحين هما:

- أ - التمكن من التحصيل العلمي اللامحدود باللغة الأجنبية
- ب - التمكن من الدعوة إلى الإسلام باللغة الأجنبية.

وهذا كله مبني على قاعدة راسخة من تمكن اللغة العربية في اللسان والذوق والفكر.

٢) مقاطعة دور الحضانة والرعاية الأجنبية أو القائمة على أصولها:

وهذا مهمٌ جداً لا أستطيع أن أفيه حقه من النصح والتنبيه. لا يمكن أن نسكت عن تسليم الطفل الناشئ في غضاضة عقله وفكره وبياض ثوبه وطهارة قلبه وسلامة فطرته، لا يمكن أن نسلم ذلك كله إلى دار رعاية أو حضانة القائم عليها لا يؤمن بالله ولا يتأسى برسول الله ﷺ ولا يلتزم منهج الإسلام في حياته وعمله وعنايته

بهذا الطفل ، هذا كله على فرض وجود ضرورة لأن يعنى بالطفل أحد غير أمه ، أما أن تحتج الأم بضرورة عملها زعماً ، وتسلم بهذا الطفل إلى هذه الدياجير المظلمة فأمرٌ يجب العمل على تغييره والخلص منه ، ولا أظن أن أمّاً تتمثل خطورة هذا الأمر وتتملى وتتدبر فيه لا أظنها لا تتراجع عن أمرها هذا وتبحث عن البديل لذلك ، وإن الأم المؤمنة الناصحة لطفلها المتبصرة برسالتها لا يمكن أن تستمر على هذا السلوك الذي زلّت فيه ، ونحن على استعداد دائم للنظر والعمل على إيجاد الحلول البديلة ، ولكن الحل المؤقت ريثما يتم ذلك هو العودة إلى المنزل - ما لم يكن للعمل ضرورة مادية قاهرة - وإذا كان عائق العودة إلى المنزل عائق مادي - وهو المسوغ الوحيد فيما نرى - فإني أطلب علماء وفقهاء المسلمين بإظهار الحق في وجوب إجراء جناية لهذا الطفل وأمه تمكثها من العناية به وتربيته حتى سن السلامة - وهي كما حددنا من أربع إلى خمس سنوات - ولو كانت قادرة على العمل باعتبار أولوية تربية الطفل وباعتبار أن المرأة في الإسلام مكفولة ، ولا أعتقد أن هناك مانع شرعي من ذلك - بل إن له شاهداً من عمل السلف رضوان الله عليهم فهذا عمر الفاروق يجعل لكل مولود جناية حتى يقطع - ولكنني لست فقيهاً ولا أقول بهذا الحكم وإنما أجعل الأمر في ذمة فقهاء المسلمين أن يوجهوا القول لهذه الأم ولأصحاب الأموال بالتكفل بمصاريف هذا الطفل حتى تبلغه أمه سن السلامة ثم لتعمل ما شاءت ، وإن سبل تحقق هذا التكافل المادي ليست بالعسيرة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لابد من العمل على إنشاء دور حضانة ورعاية للأطفال تقوم على منهج إسلامي سليم لمن تضطر من الأمهات للعمل حتى لا يصبح الطفل فريسة للغة الأجنبية والتفكير الأجنبي والتدبير الأجنبي .

(٣) تحجيم الطغيان الفكري الأجنبي في حياة الطفل:

وهذا أمرٌ يحتاج إلى إفراذه بمؤلفات خاصة ، ولكننا نتطرق هنا لأثر الإعلام الأجنبي في تعلم اللغة العربية ، والآثار عديدة متشعبة متشابكة ، ونحن في باب التصدي لها نقول بوجوب العمل على منع هذا السيل العارم من الوصول إلى حياة

الطفل؛ نعم لقد أصبح الرائي (المرناة) عنصراً أساسياً في حياة كل أسرة وفي بناء كل منزل لكأنه الطعام والشراب بل الماء والهواء، ولا أظن السبيل ميسرة - حالياً - لإلغاء هذا الدور، كما أن الإلغاء ليس مستهدفاً بالضرورة، فالرائي وسيلة ذات حدين يمكن تسخيرها تسخيراً جيداً كما هو واضحٌ بداهة، ولكنني أقول إنه في حال فشل إيجاد البدائل الإسلامية للإعلام الموجّه للطفل قد نضطر بصورة مؤقتة إلى التحجيم الكمّي قدر الإمكان، فدرأ المخاطر والأضرار أولى من استجلاب المنافع، وأوضح فأقول أن غياب الإعلام الإسلامي سليم اللغة والمحتوى يحتم علينا العمل على إيجاد هذا البديل، ولكنه لا يشكل حجةً لنا كأفراد ومجتمعات كي ندع أطفالنا فرائس للإعلام الغربي الموجّه لغةً وفكراً ومنهجاً بحجة عدم وجود البديل. إن هذا الموقف موقفٌ سلبيٌّ ساذجٌ عدا عن كونه ضاراً ومؤذياً، ولا بد إذاً من توفير البدائل التي تشغل هذا الحيز الزمني من حياة الطفل وما أكثرها وما أوفرها؛ بدءاً من حلق تحفيظ القرآن الكريم وانتهاء بالجلسات الأسرية التي لا يشكل الجهاز الكهربائي ركناً أساسياً فيها، وتذكر أيها المسلم أن عمر الرائي في حياة الناس لا يتجاوز القرن من الزمن، فهل كان الأطفال ينشئون بعقد نفسية لتخلف الرائي عن حياتهم؟ بالطبع لا. ولا أريد أن أفيض هنا فنحن نستعرض أثر اللغة فحسب، وأوجز القول بما يلي:

١ - قيام الآباء والأمهات بتشكيل مجموعات ضغط على مستوى مسؤولي الإعلام في المحيط الاجتماعي لنبد الإعلام الغربي الموجّه ومقاطعة هذا الإعلام على المستوى الأسري والمجموعي (عن طريق عدم المشاركة في الأطباق الفضائية والقنوات الإعلامية السلكية...)

٢ - المطالبة بصناعة إعلامية إسلامية عربية تملأ الفراغ الكمّي وتجابه التعطيل الكيفي الناشئ عن الوجود الإعلامي الغربي.

٣ - إحياء البدائل غير التقنية لملء حياة الطفل وفراغه من حلق تحفيظ القرآن الكريم إلى الزيارات الاجتماعية والنشاطات الأسرية داخل المنزل وخارجه.

٤ - تسخير وسيلة المسجّل (الفيديو) لانتقاء ما يعرض في المنزل، مع مقاطعة وسائل التقنية غير الخاضعة للسيطرة كصحون الاستقبال الفضائية satellite, dish ونظم البث السلّكي cable television لا سيما في المناطق الجغرافية المعرضة للبث الإعلامي الغربي العادي والموجّه. وأنبّه فأقول أن هناك اتجاهًا تقنيًا لجعل وسيلة تلقي البث الفضائي عنصراً مركزاً في كل أجهزة الرائي المصنّعة مستقبلاً بحيث لا يصبح الأمر اختيارياً بل يصبح واقعاً مفروضاً وجزءاً لا يتجزأ من جهاز الرائي، وفي ذلك من فرض الفساد ما فيه، فليتبّه.

٥ - نصّح وتذكّر القائمين على مؤسسات الإعلام الخاصة بتقوى الله وعدم الجري وراء الربح المادي الرخيص ترويحاً لسلمهم، وليتقوا الله وليعلموا أنه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ (الطلاق ٢-٣)، وليكونوا على ثقة من أن إنتاجهم الإعلامي الإسلامي العربي سيكون أكثر رواجاً من التفاهات الغربية والسموم التي ينفثونها ويعينون على بثها في عقول أطفالنا.

(٤) الإحجام عن استنّجار المربيات والشغالات الأجنبية في الأسر المسلمة:

يقول الله عز وجل في محكم تنزيله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص ٧). سبحان الله، إنه لتمرّ أحياناً وأزماناً يكون البحر الخضمّ العاتي أرحم وأرأف بالطفل من بيئته الطاغية ومن كثير ممن حوله، ولعلنا نعيش في زمانٍ كمثّل هذا الزمان، وبحالٍ مثل هذه الحال التي يوآد فيها الطفل بإلقائه في هذه البيئة المظلمة المتربصة به كما كان فرعون وجنوده متربصون بموسى "الطفل" لأنهم يعلمون ما يحمله لهم هذا الطفل في مستقبل الأيام، وكذلك عالمانا المحيط بنا يدرك والله ما يمكن أن يحمله الطفل المسلم في مستقبل الأيام فيتربصون به ليئدوه ويقتلوه وليدأ ورضيعاً، وليس وأد هذه الأيام وأدأ جسدياً سافراً، بل وأد نفسيّ خفيّ لا يظهر أثره إلا بعد حين والمرء مشغول بجسد الطفل ينمو ويكبر

وهو لاه عن نفس الطفل التي تذوب وتتمسخ، وإني لأجزم بأن اليم أرحم لهذا الطفل من هذا المحيط القاتل فإذا كانت الأم ملقية بطفلها لا محالة فلتلقه في البحر إذا فهو أرأف لحاله! وإن القلب يتحرق عندما يشاهد أطفال المسلمين مرتعاً خصباً لتلك الحيات والثعابين والعقارب تنفث سمومها في قلب أطفالنا ونحن نسلم الواحد تلو الآخر قرايين على موائد السذاجة والانبهار بالشكليات الاجتماعية الجوفاء والبريق الطبقي الأجوف، تنحصر همومنا في إصدار الأوامر للخادمة أو "المربية" المطيعة فنقع ونزهو بسلوك الامتثال الخادع، إذ تدرك المربية الأجنبية وهي تسعد سيدتها "بخدمتها أنها تأخذ منها ما هو أغلى من الكبرياء الفارغ، إنها تأخذ منها ومن مجتمعها ومن إسلامها تأخذ الطفل فتحرفه وتحرف لغته ودينه فلا يعود يتعرف على أمه ولا على دينه ولا على لغته، ثم لتسعد الأم بعد ذلك بالقشور الاجتماعية السخيفة.

فليس وأد الأطفال مقصوراً على دفنهم في التراب، بل إن وأدهم هو في انحراف فطرتهم، هو في تهويدهم وتنصيرهم وتمجيسهم، هذا إذا لم تكن المربية بوزية أو هندوكية أو عابدة صنم أو حبر. . . توقف للحظة فقط واسأل نفسك عن عذرك أمام الله عز وجل حين تسأل عن رعبتك، عن طفلك الذي أسلمته لهذه الأجنبية الماكرة لتشتغل عنه أيها الأب وأيتها الأم وتذهب إلى زيارة أو عشاء أو حفل أو كذا وكذا. . . فإن وجدت العذر فأنا أعتذر عن إساءتي، وإلا فأعينوني ولنن أنفسنا على العودة إلى الصواب وإنقاذ أطفالنا من براثن هؤلاء الذئاب والثعالب والحيات والعقارب. والأمر بسيط، إن كانت هناك ضرورة لمربية أو خادمة فلتكن مسلمة صالحة ناطقة بالعربية، فنحن لا نحلل ولا نحرم ولم أقل كلمة حرام مطلقاً، ولكن أنبه على أخطار لا يغفل عنها إلا من أراد أن يغمض عينيه عنها قصداً، ولكن ذلك لا يجزئه عند الله، لذلك فلنتجرد من الأنفة والعزة بالإثم، ولنعمل سوية على إنقاذ أطفالنا. والأمر بسيط جداً، فليقم كل منا ممن يقيم في منزله أجنبي أو أجنبية غير مسلمين بإعفائهم من عملهم بالحسن، أعطهم أجرتهم عما مضى وقل لهم في أمان الله،

واستيقظي صبيحة اليوم التالي أختي المسلمة لتقومي أنت، نعم أنت بايقاظ طفلك من سريره، وإعداد طعام إفطاره، وإرشاده للوضوء لإقامة صلاته، ولتشنيف أذنه بالحمد لله الذي أحياناً بعدما أماتنا وإليه النشور، بدلاً من ذلك الشيخ الذي كان يوقظه كل صباح بابتسامة كاذبة وبرأفة مخادعة وبنية مدمرة... وأسأل الله تعالى أن يهدينا الصواب ويشرح صدورنا للخير، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً، وكفانا أطفالاً ناطقين بكل لغات الأرض إلا لغة القرآن، وكفانا هجراً لكتاب الله، هجراً فرضناه على أنفسنا ونريد أن نفرضه على أولادنا دون خيار لهم بل ميراث الآباء والأجداد.

إذاً نعمل إن شاء الله على مقاطعة المريات والخدمات الأجنبية ونستبدلهن إن وجدت الضرورة بالمسلمة المؤمنة التقية، والله عز وجل يهيئ الخير لمن يقبل عليه ويدفع السوء عنه بإذنه ورحمته، ولا سبيل إلا هذا السبيل للخلاص من هذه الآفة المستفحلة، والله تعالى أعلم. هذا ما يسره الله تعالى لي في هذا المجال، وننتقل الآن إلى الخطر الثاني الذي يواجه أطفالنا فعلى بركة الله.

الخطر الثاني: حجب الأم:

إن واحداً من أهم عناصر تربية الطفل وفق المنهج الفطري السوي هو تفرغ الأم التام للتعهد بهذه التربية في السن الحرجة للطفل. هذه حقيقة سأعمل على جلائها وبيانها إن شاء الله، ولكن قبل ذلك أتوجه إلى كل أم مخلصه داعياً إياها إلى التمعن في هذا الأمر بتجردٍ وحيادٍ تامٍ عن أي هوى فردي أو نزوة أو رغبة فردية حتى نصل إلى الحق في هذا الشأن. وإن الخطب جلل والأمر عظيم؛ إنه أمر تربية جيل مسلم لا مجرد تربية طفل أو طفلة، وأقول إن الخطب جلل لا من حيث إنه تكليفٌ مهمٌ بذاته فحسب، بل من حيث ما يترتب عليه من عواقب وآثار خطيرة أيضاً. وسوف نسلك مسلكاً موضوعياً في هذا العرض إن شاء الله، بحيث يكون مقروناً بالأدلة والبراهين الشرعية والعقلية والعلمية دون أن نتخذ من المسألة حجةً للضغط على الأمهات والنساء من أجل إلزامهن في البيوت والتتحي عن الوظائف الحياتية

الأخرى كما يوسوس الشيطان لبعض الأخوات لأن ذلك يكون استهزاءً بآيات الله حيث تستخدم في غير ما أريد لها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ (البقرة ٢٣١)، ومبدأنا في الأمر كما قلت هو التجرد التام للحق دون اللجوء إلى أساليب الضغط النفسي وليّ الذراع والتلاعب بعواطف الأمومة بغية تحقيق أهداف أخرى، والمبدأ منبثق من النص القرآني حيث يقول تعالى: ﴿لَا تُضَارُّوْا وَلَدَةً بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ (البقرة ٢٣٣).

وقبل الخوض في معالم هذا الخطر والتعرف على سبل هذا الكيد أريد أن أتوقف عند نقطتين مهمتين فيما أحسب كي تكونا حاضرتين في ذهن في سياق البحث إن شاء الله، هاتان النقطتان هما: مفهوم السن الحرجة، والأهمية الخاصة لمرحلة السن الحرجة في المرحلة المعاصرة.

فأما السن الحرجة فهي مرحلة من العمر يتعلق بها اكتساب مهارة أو قدرة معينة سواءً أكانت تلك المهارة أو القدرة جسديةً بحتةً أم روحيةً بحتةً أم مزيجاً بين ذلك، بحيث يؤدي فوات هذه المرحلة دون اكتساب هذه المهارة إلى تعطيل الاكتساب الصحيح أو التعلم الصحيح لهذه المهارة في مرحلة لاحقة من عمر الطفل. ومؤدى هذا هو أن إهمال الطفل في مرحلة السن الحرجة لتلقي مهارة معينة أو تحقيق نمو ونضج معينين يفضي إلى عدم اكتساب هذه المهارة مطلقاً أو إلى اكتسابه لها على وجه مخالفٍ قاصرٍ عن الصورة الأكمل والأسلم. كما أن مفهوم السن الحرجة يتعلق أيضاً بالنمو الجسدي البحث لكثير من أجهزة وأعضاء الجسم، وأهم هذه الأعضاء في مجال التربية الروحية الحركية هو الجهاز العصبي المركزي وبصورة خاصة الدماغ. فمن الثابت علمياً وطبيعياً أن نمو الدماغ لا يكون تاماً عند الولادة، بل يستمر طيلة عامين كاملين بحيث يكتمل النمو التشريحي - وإلى حد كبير النضج الوظيفي من حيث الاستعداد والقابلية - في نهاية السنتين من العمر تقريباً. وبالتالي فإن هاتين السنتين من عمر الطفل تشكلان السن الحرجة لنمو الدماغ لديه نمواً

سليماً. وعند النظر إلى لوازم هذا النمو التشريحي والنضج الوظيفي للدماغ نجد أنه يعتمد بشكل كبير على أمورٍ ماديةٍ جسديةٍ بحثة أهمها التغذية السليمة، وعند سبر واستقصاء البحوث الطبية المتعلقة بتغذية الوليد نجدها تجمع بلا استثناء على أن حليب الأم هو الغذاء الأمثل لذلك، وقد ثبت علمياً تفرد حليب الأم ببعض المركبات الكيميائية ذات الدور الحرج في نمو وتطور الدماغ بعد الولادة وفي السنتين الأوليتين للحياة (وهذه المركبات عبارة عن حموض أمينية معينة مثل Taurine وبعض الحموض الدسمة). نتأمل هذا كله ثم ننظر بعين المتدبر العالم ونقرأ من جديد كلام الله عز وجل بعد أربعة عشر قرناً من تنزله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ (البقرة ٢٣٣) فنذكر على الفور ذلك التجانس والتوافق الرائع ما بين سنن الله الكونية وأوامره وتوجيهاته الشرعية، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء ٨٢). فمفهوم السن الحرجة بالنسبة لنمو وتطور الدماغ يتعلق بأمر مادي هو الغذاء الذي لا يجدي تقديمه في مرحلة متأخرة عن السنتين الأوليتين من العمر لمعاوضة التقصير الحاصل في تقديمه في تلك المرحلة، وإن هذا الأمر المادي يتعلق في صيغته الفضلى بأمر معنوي هو شعور الأم بحاجة طفلها لهذا الغذاء "المادي - الروحي"، وأقول أن الأمر معنوي لأنه لا شيء يجبر الأم على تقديم حليبها لطفلها، نعم لا شيء، مع أن الإسلام قد تكفل لها - إن هي أرادت الإرضاع - تأمين كل حاجاتها الضرورية من أجل أن تتفرغ لذلك، قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة ٢٣٣)، وجعل لها حق المطالبة بالأجرة على قيامها بعملية الرضاعة، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَسَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ (الطلاق ٦)، ولكن القرآن الكريم يوجهنا - في حال رفض الأم القيام بالرضاعة - إلى أن حليب الرضاع هو الأفضل

مطلقاً ولو اضطر أن يكون المصدر غير الأم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُم فَاسْتَزِيعْ لَهُ أُخْرَى﴾ (الطلاق: ٦)، وقال تعالى أيضاً: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَزِيعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَاءً تَيِّمًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٣٣). قلت: ولعل النكتة في عدم إلزام الأم بإرضاع ولدها هي أن عملية الرضاع ليست مجرد تقديم غذاء "مادي" للطفل، بل إنه عملية تفاعل روحي بين الأم والطفل، وإذا كان النفع المادي للحليب يصل إلى الطفل ولو كان الإرضاع بالإكراه وبغض النظر عن نفسية الأم، فإن تلك الشحنة الروحية المعنوية وذلك التفاعل الخفي بين الأم وطفلها لا يمكن أن يحدث بالإكراه، إذ أن الإكراه لا يحدث شيئاً في بواطن القلوب وخلجات الصدور وخبايا النفوس، وعندها نكون أمام احتمال من اثنين؛ الأول هو أم تدرك معنى الأمومة وتدرك معنى الرضاعة فتقبل على ذلك بعاطفة وروحانية غريزية وهذه لا حاجة لإكراهها على الرضاع، والثاني هو أم لا تريد أن ترضع ولدها لسبب يفوق - في ميزان أولوياتها - حاجة طفلها إليها وهذه لن ترضع طفلها حناناً ولا عاطفةً ولا مشاعر إنما ترضعه حليباً فقط، مجرد الحليب، وهذه لا حاجة لإكراهها لأن الإرضاع الحاصل منها لا يزيد على الإرضاع الحاصل من غيرها بشيء!

وعلى نمو الدماغ في السن الحرجة يمكننا قياس الكثير الكثير من الوظائف والمهارات التي يجب مراعاة مبدأ السن الحرجة فيها مثل المهارة اللغوية التي يمكن أن يؤدي الاستهتار بتعليمها في السن الحرجة إلى تعطيلها برمتها (انظر مبحث التطور اللغوي)، وعلى هذا فقس.

فإذا تأملنا في مبدأ السن الحرجة وضرورة مراقبة وتفعيل اكتساب الطفل مهاراته المختلفة في سنين العمر الخمسة الأولى - حيث يكتمل اكتساب معظم المهارات الحركية واللغوية والاستعرافية الأساسية - يتبين لنا ضرورة وجود المربي "المتفرغ" لهذا العمل في هذه المرحلة. كما أنه بملاحظة خصوصية بعض محاور النمو

والتعهد النمائي الجسدي والروحي - كالرضاعة - يتبين لنا أن هذا المربي المتفرغ لابد أن يكون - في الحالة الفطرية النموذجية السوية - هو الأم.

وأما الأهمية الخاصة لهذه المرحلة في الوقت المعاصر فتتجلى في أن السن الحرجة للنمو والتطور والتربية عند الطفل تشكل في الواقع معظم المرحلة العمرية المحددة بسن ما قبل المدرسة ، وهي السن التي يفترض أن يترعرع الطفل فيها في بيته وأسرته . وهذا مهم جداً في زماننا المعاصر لأنه يشكل الفرصة الذهبية للتأثير في تربية وتطور الطفل بمعزل عن تأثير التيارات خارج المنزلية من مدرسة ومجتمع ومحيط خارجي . ومعنى هذا أن لدينا فرصة ثمينة مقدارها حوالي خمس سنوات نملك أن نكون فيها المؤثر الوحيد في حياة الطفل . ولقد بدأنا نواجه ضغوطاً اجتماعية ومحيطية تهدد هذه الفرصة بالاختزال الكمي والكيفي إذ تدفع بالآباء والأمهات إلى النزج بأطفالهم إلى المدارس ودور الحضانة في سنين أبكر من المعتاد ، فإذا بهذه الفرصة تتقلص شيئاً فشيئاً من ناحية الامتداد الزمني من جهة ، ومن ناحية استهتار الوالدين بها من جهة أخرى .

أردت الإشارة إلى هاتين النقطتين قبل الخوض في تفاصيل هذا المبحث لأهمية التنبيه لهما ، وأعود وأكرر دعوتي لكل أم أن تدع الهوى والرغبات وراء ظهرها وتتجه إلى الله عز وجل بإخلاص وتتطلع إلى هذه النصيحة التي يراد بها وجه الله ثم لتحكم في الأمر على بينة ولتختار لنفسها ولولدها سبيلاً .

وسوف نتلارس فيما يلي وسائل حجب الأم عن طفلها والمخاطر والعقاييل المترتبة على حجب الأم ، وننتهي بالكلام إن شاء الله بالنظر في وسائل مكافحة هذه المخاطر والتصدي لها .

أولاً : كيفية حجب الأم :

لاشك أن حجب الأم عن أطفالها له بعدٌ مادي يقدر بالزمان والمكان وبعدٌ روحي يقدر بمدى أخذ الأم زمام المبادرة والمفاعلة مع طفلها ، إذ هناك فرق واضح بين

مجرد تواجد الأم في حياة الطفل تواجداً زمانياً مكانياً ، وبين الحضور النوعي للأم في حياة الطفل ؛ حضوراً يؤثر في الطفل ويصوغ تطوره بشكل إيجابي . ورغم أهمية البعد الروحي لحضور الأم فلا يمكننا إغفال أهمية توافر البعد المادي البحت أي الحضور الزماني المكاني ، إذ أن وقت الأم مع طفلها لا يمكن أن يكون وقتاً نوعياً برمته . بل إننا نجد أنفسنا بحاجة إلى الكثير من الحضور الكمي حتى نحصل على القليل من الحضور النوعي والكيفي . لذلك لا نستطيع أن نقلل من أهمية أي من العنصرين التاليين اللذين يسعى من خلالهما الكائدون لهذه الأمة إلى حجب الأم المريية عن طفلها الناشيء ، بل إن لكل عنصر منهما دوراً متميزاً في تهديد أمن الطفل ولا يمكننا درء خطر حجب الأم كاملاً إلا بدرء هذين العنصرين معاً ، فلننظر في عنصري تحقيق حجب الأم:

(أ) الحجب المباشر: لقد نجح الكائدون - مع الأسف - في تحقيق هذا المطمح أيما نجاح ، وذلك حين زينوا للمرأة هجر أسرتها ومنزلها وأولادها والخروج سعيّاً وراء الوظيفة والمهنة والعمل ضمن إطار براق سموه تحرير المرأة حيناً ، والاعتماد على الذات حيناً ، والاستقلال عن تبعية الرجل حيناً ، وما إلى ذلك من الترهات والسفسطات التي لا تعدو كونها وساوس من جنس وساوس الشيطان التي أمرنا الله تعالى بالاستعاذة منها .

إن خروج الأم إلى العمل هو الطامة الكبرى التي تصيب الأسرة عموماً والطفل خصوصاً لأن متطلبات العمل والوظيفة تستهلك حيزاً مهماً من الرصيد الزماني المكاني للأم ، فلا تعود متفرغة في الجزء الأكبر من يومها للحضور مع طفلها وأسرتها ، وهذا الأثر يُخلُّ بالبعد الكمي للزمن الذي تقضيه الأم مع طفلها ، إلا أن ضرر الوظيفة لا يقتصر على ذلك لأن الإرهاق والتعب والمشقة التي تصيب الأم العاملة والموظفة ينعكس على نوعية الوقت المتبقي من يومها والذي تقضيه في المنزل مع أسرتها وأطفالها ، أي أن البعد النوعي للزمن الذي تقضيه الأم مع طفلها

سوف يتأثر سلباً من جراء الوظيفة أيضاً. وهذا الكلام ليس بدعاً من القول إنما هو من بدهيات العقول ومن ثوابت الاستقراء والملاحظة للواقع المعاصر، ولا مناص من مواجهة هذا الواقع والتدبر فيه إذا كنا نريد فعلاً أن نحول بيوتنا إلى مصانع لإنتاج الإنسان المسلم لا مجرد "مداجن" لتفريخ أعداد كمية من جنس البشر. وسوف نعرض لاحقاً الآثار المترتبة على هذا الغياب الجزئي للأم عن حياة الطفل لنذكر الأثر الخطير للحجب المباشر للأم.

وهناك نوع آخر لحجب الأم مباشرة عن طفلها وأسرتها وهو أسلوب التعليم المعاصر. إن أسلوب التعليم والتحصيل العلمي المعاصر جعل الهدف من العلم والتعلم هو تحصيل "الشهادة" الجامعية أو نحوها لأن هذه الشهادة هي المدخل إلى المصيدة الأكبر وهي مصيدة العمل والوظيفة كما قدمنا، وذلك كله مشرب في فكر الفتاة لأنه "الضمان" الوحيد للمستقبل في حال جريان الأيام عكس ما تشتهي السفن. إن هذا الابتزاز لفكر الفتاة وعقلها وهذا الاحتكار للعلم بين جدران الجامعات وقيود الشهادات قد جعل انقياد الفتاة لهذا المسلك انقياداً عفويّاً لا تفكير فيه ولا تدبر، ولقد عرف تاريخنا الإسلامي أروع النماذج من النساء المسلمات العالمات الفقيهات دون أن يقترن ذلك بهجر المنازل وهجر الأسر والبيوت والجري وراء الشهادات وأوراق التوظيف والعمل. والطامة الكبرى هي أن الفتاة التي تنقاد وتنجر وراء هذا الابتزاز تفتقر إلى أدنى حدود العلم الشرعي العيني ولا تكاد تبذل معشار جهدها لتحصيل الشهادة من أجل تحصيل العلم الشرعي العيني اللازم لنجاة نفسها وأسرتها، ناهيك عن أن تجريد القصد والتوجه لله تعالى بذلك العلم الجامعي الذي تبتغيه مفتقرٌ وغائبٌ في أكثر الأحيان.

نحن نريد أمهات وبنات متعلمات لا ريب، ونريد أن تكون نساؤنا عالمات متعلمات دون شك، ولكن هل يستلزم ذلك هجر الأسر والبيوت؟ أقول: كلا. ولكن المشكلة في فتياتنا المسلمات وأمهاتنا الكريمات - مع الأسف - هي أنه إما أن يلتحقن بالكلية أو الجامعة ويخرجن من البيت لأجل الشهادة، وإما أن يمكن في

البيت - إذا تعذر الالتحاق بالجامعة - فلا يعدن يفتحن كتاباً أو يعنين بمحاضرة أو ندوة علمية أو مجلس علمي . فالعلم والتعليم إما أن يكون في الجامعة أو لا يكون . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على خلل في المقصود والمراد من هذا التعلم . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن وزارات التربية والتعليم والأوقاف في بلاد المسلمين لا تراعي هذا الأمر ؛ لا تراعي أن تجعل وسائل لنشر العلم خلاف الكلية والجامعة النظامية التي تستلزم التفرغ التام وشبه التام للالتحاق بها . وهذه ها هنا دعوة متكررة لإعادة الدور الحيوي للمساجد كي تنتشر فيها حلقات العلم الشرعي التي لا يخل حضورها بنظام الأسرة ، وهذه صيحة للمجمعات الثقافية والعلمية والأدبية في بلادنا ومجتمعاتنا كي تعرض عن التفاهات الفكرية والملهيات الضحلة التي تقدمها للمجتمع وتستعيز عن ذلك بمادة علمية أو أدبية راقية تفسح المجال لكل أم وفتاة لمواصلة التعلم والاتصال بمجالات العلوم المختلفة ضمن إطار مرن لا يبتز الفتاة والأم بوقتها ولا يكون على حساب مسؤولياتها الأولى والأهم .

إذا أنا لا أستخدم مصطلحات التحريم والتحليل ، ولا أسامح أحداً يترجم ما قدمت من كلام ونصيحة ويختزله في دعوى تحريم عمل المرأة وتحريم تعليم المرأة فهذا بهتان على كاتب هذه الأسطر ، إذ أن الضوابط الشرعية لتعليم المرأة وعمل المرأة معروفة ومبسوطة في كتب الفقه وفتاوى علماء الأمة ، ولكنني أريد أن يخرج القارئ والقارئة نفسه من حدية الحكم الفقهي إلى كياسة الفهم ووعي التفكير وسعة الإدراك ليتبين أننا لا نريد بهذا الكلام الموجه للأم والفتاة حجراً على تصرفاتها أو حرماناً لها من حقوقها أو انتقاصاً من شخصيتها ، بل العكس تماماً ؛ نريد أن تتحرر المرأة المسلمة من القيود التي فرضتها عليها الحضارة الزائفة الواهمة التي جعلت رزق المرأة معلقاً - فيما تحسب - بالشهادة الجامعية ، وجعلت شخصية المرأة شجرة اجتثت من الأرض ما لها من قرار ، والتي أسدلت الستار على عين الأم فما عادت تبصر ذلك الطفل الذي هو بضعة منها فإذا هي غافلة عنه ساهية لاهية .

هذه إذاً وسيلة حجب الأم المباشر عن طفلها وهي وسيلة ظاهرة مكشوفة للعيان،
فما هي وسيلة الحجب الأخرى؟

ب) الحجب غير المباشر: لقد سبق أن أشرنا في معرض الحديث عن الرضاعة الطبيعية أن ضرورة الأم للطفل تتجاوز الحيز المادي وتتمثل في حقيقة الأمر في ذلك التفاعل المعنوي الروحي بين الأم والطفل، ذلك التفاعل الذي يطبع تطور الطفل وحياته كلها بذلك الطابع الخاص المميز.

لذا، وانطلاقاً من ذات الفهم نقول أن عملية حجب الأم عن الطفل لا تقتصر على العزل الزمني والمكاني للأم في حياة الطفل بغية الانتقاص من الحضور والتواجد الكمي للأم في حياته، بل إن حجب الأم يمتد ليتناول ذلك التفاعل النوعي بين الأم والطفل من خلال تعطيل فاعلية الأم وروحانيتها وأمويتها في واقع الطفل ولو كانت متواجدة جسداً وزماناً ومكاناً، وهذا ما اصططلحت عليه اسم "الحجب غير المباشر" لأن ظاهره لا يوحي بتلك العزلة، إذ أن الأم "موجودة" في البيت وفي الأسرة وفي واقع الطفل، ولكن وجودها لا يعدو وجود جسم متحرك في كل فلك ما عدا فلك الطفل ومتفاعل مع كل شيء خلا الطفل. إنه حضورٌ جسدي يلزمه شتاتٌ نفسي وذهني وعقلي تتقاسمه أجهزة الإعلام بين مرناة ومسجل ومذياع، أو الملتقيات والمنتديات النسائية التي لا تخلو في أحسن حالاتها من إضاعة الوقت وفي أسوأ حالاتها من كبيرة الغيبة والنميمة، أو الهاتف الذي لم نستيقظ من صفعته الأولى لنا حتى يكيل لنا الصفعة الثانية؛ فمن هاتف واحد وحيد ثابت في زاوية المنزل إلى هاتف نقال إلى هاتف خلوي لا يفارق الأم أو الزوجة. وهكذا أصبح لدينا أمّاً حاضرةً جسداً غائبةً ذهنياً وفكرًا.

لقد قلنا سابقاً أن غايتنا من عودة الأم إلى الأسرة ليست مجرد التواجد الجسماني - وإن كان هذا وحده يبعث حياةً وروحاً وأنساً في الأسرة يدركه كل من فقه معنى الأم - وإنما غايتنا القصوى من عودة الأم إلى بيتها هي ذلك التواجد النوعي الذي يرفع أمماً ويهبط بأمم، والذي يرقى بجيل ويهدم أجيالاً بحسب الكيف الذي يكون

به هذا التواجد . نقول هذا ونرى - مع الأسف - أن الأم لاهية ساهية عن هذا الدور ، حتى عملية الرضاعة التي هي أقرب لحظات التفاعل الجسدي و الروحي بين الأم وطفلها قد جردت من معناها الروحي وأفرغت من كل ما سوى مادة الرضاعة حتى أصبحت الرضاعة وسيلة " لإسكات " الطفل وأصبحت الأم منشغلة عن النظر في عيني صغيرها أو محاكاته أو مداعبته بالتثقل بين قنوات المرناة والأشرطة المرئية أو منشغلة بحديث هاتفها عقيم !

أما الحالة الأشد سوءاً مما سبق فهي التواجد الصوري البحت للأم في المنزل ، ذلك التواجد الذي ليس له هدف سوى إعطاء الأوامر للشغالة والمربية والطباخة مع انشغال تام بمظاهر جوفاء فارغة قوامها الملابس والزينة والتفاخر والتكاثر بالأموال والممتلكات ، تلك الأم التي لم يلاصق جسدها جسد طفلها منذ ولدته ، ولم يتعرف أنف طفلها إلا على رائحة الشغالة والمربية ولم يلثم بفمه الشغف ينبوع حياته الذي وهبه الله إياه ، ولم يلتق ناظره بمحيا أمه إلا في لحظات خاطفة حسب " المواعيد " المناسبة . . . لقد كان يؤتى بالصبي إلى حجر رسول الله ﷺ فيظل يداعبه بأبي هو وأمي حتى يبول الطفل في حجره الشريف ، بينما أكاد أقسم أن بعضاً من الأمهات لا تكاد تعرف حال وليدها فضلاً عن أن تتعهده بالرعاية اللازمة . . .

هذه وقائع حجب الأم في مجتمعاتنا ، وما ذكرته غيض من فيض ، ولسنا بحاجة إلى سرد المزيد من الأمثلة والتفاصيل بقدر ما نحن بحاجة ماسة إلى وقفة صريحة مع النفس تتساءل فيها عن هذا الواقع المؤلم ، وقبل ذلك أريد أن أعرض لكل أم وأب طائفة من الآثار والعقائيل المترتبة على غياب الأم عن طفلها وحجبها عنه ، عسى أن يكون ذلك دافعاً لمد يد التغيير إلى هذا الواقع .

ثانياً : أخطار وعقائيل حجب الأم :

هذه العقائيل التي سنعرض لها ليست إلا جزءاً من كل ، وليست بطبيعة الحال شاملة لكل المساوئ والآثار المترتبة على حجب الأم عن حياة الطفل ، ولكنها كفيلة

بإيقاظ كل ذي عقل وفؤادٍ حي من غفلته وباستهراض همته للعمل على اتقاء هذه الآثار المدمرة في حياة الطفل .

(١) خلل التطور الروحي الحركي :

إن الناظر في المراجع الطبية المعنية بأمراض واضطرابات الأطفال في مجال التطور الروحي الحركي يجد إجماعاً على أن السبب الأول والأكثر شيوعاً لتخلف وتأخر التطور الروحي الحركي عند الأطفال هو " الحرمان الأموي " Maternal Deprivation، وهذا صحيح بالنسبة لتأخر النمو الجسدي طويلاً ووزناً كما أنه صحيح بالنسبة للتطور الروحي والنفسي، فما بالك بالعقائل النفسية الخطيرة لاستمرار مثل هذا الحرمان ؟

ورغم أن تأثر التطور الروحي الحركي عند كثير من أطفالنا لا يتظاهر بذلك التأخر الصارخ في النمو الجسدي، ألا إن قصر تأملنا على هذا البعد التطوري يجعلنا نركن إلى طمأنينةٍ كاذبة خادعة توحي لنا بأن أطفالنا بخير لأنهم يزدادون طولاً ووزناً وحجماً، في حين أن الطامة الكبرى هي أن التأثير السلبي للتطور على المستوى الروحي والنفسي للطفل قد لا تبدو ظواهره وعلاماته إلا بشكلٍ متأخرٍ جداً حيث لا جدوى تقريباً من محاولة الإصلاح . والشاهد في هذا كله هو أن حجب الأم ذو علاقة وطيدة مع خلل التطور الروحي الحركي للطفل، ويجب أن نحرص على تأمين التواجد الطبيعي للأم في حياة الطفل لا لمجرد التأكد من نموه حجماً وجسداً، بل من أجل تأمين أفضل الفرص للنمو الروحي والطمأنينة النفسية والبعد عن دواعي الشذوذ والانحراف النفسي أيضاً .

وليس في الأمر تلازماً مطرداً بين التطور الجسدي والتطور الروحي للطفل كما يتوهم البعض؛ بمعنى أن سلامة النمو الجسدي للطفل ليست مشعراً ملازماً أو دالاً على سلامة النمو الروحي النفسي، ولك أن تتخيل أن الطفل الذي يرضع حليب أمه من الرضاعة (بعد ضخ حليب أمه) ينمو جسدياً بنفس القدر الذي ينمو به الطفل

الذي يرضع حليب أمه من ثديها مباشرة، ولكن أترأه ينمو روحياً ونفسياً بنفس القدر؟ هيهات ثم هيهات، هيهات أن تكون الشحنة الروحية المعنوية للطفل الذي يعانق الزجاجاة ويشم رائحة السرير أو الشغالة ويسمع لغو المحيط مشابهة للشحنة الروحية المعنوية التي يتلقاها الطفل الذي يلتقم ثدي أمه يشم رائحتها ويسمع نبض قلبها وهمس صوتها ويلامس بوجهه بشرتها ويحس بدفئها ويستمد منها أمناً وطمأنينةً وسكينةً... هيهات!

إن هذا الأثر الخطير يمكن أن يشاهد في أسوأ حالاته حيث تهمل الأم طفلها بالكلية وهي محجوبة عنه حجاً مباشراً بالعمل والوظيفة أو حجاً غير مباشر في المنزل من خلال الاهتمام بكل ما عدا الطفل من الاجتماعيات الفارغة كما قدمنا، وفي الحالات الأخف نشاهد درجات أخف من خلل التطور الروحي الحركي للطفل بحسب درجة الحجب، ولكن الخلل موجود بصورة أو بأخرى طالما حُجبت الأم عن طفلها بوجه أو بآخر.

نحن نعرض الطفل إذاً إلى خطر الفشل العميق في صناعة مهمة حرجة هي صناعة الإنسان، وذلك حينما نُحدث تلك الفجوة الكبيرة والشرخ العميق في محيطه البيئي الصغير بعد أن نشطب منه وجود الأم ودورها في حياته. وعندما نتحدث عن غياب الأم المسلمة بكل ما يعنيه هذا الوصف من أبعاد فإننا نتحدث عن فشل في صناعة الإنسان المسلم، وبالتالي نتحدث عن فراغ المجتمع من أمثال هذا المسلم الذي كان مؤملاً منه أن يتبوأ مكاناً ودوراً وظيفياً في منظومة بناء الأمة.

(٢) زعزعة السكينة والاستقرار في الأسرة:

إن الأم هي المحور الذي تدور حوله كل فعاليات الأسرة بلا ريب، ولا يجادل في هذا الأمر من له أدنى حظ من البصيرة والمعرفة. ومسكينٌ ذلك الذي ينصرف نظره وفكره إلى أمور التدبير المنزلي فحسب عندما نتكلم عن محورية دور الأم، مسكينٌ هو والله. نحن لا نريد أن نكابر ونغالط الواقع وننكر الجزء المادي من تكاليف الأسرة المعيشية

ولكن المغالطة الكبرى هي أن نختزل - بتصورنا القاصر - دور الأم في هذه الأمور المعيشية المتعلقة بالمأكل والمشرب، لأن الواقع ينطق بخلاف ذلك. إن الواقع ينطق بأن البيوت التي تحرص فقط على مظاهر البيت من ترتيب ونظافة ومأكل ومشرب دون رصيد روحي تبثه الأم في أرجاء المنزل هي بيوت أشبه بالفنادق لا غير. ونحن نقول أن ما تقوم به الأم من تدبير شؤون المنزل هو أمر ثانوي - ولكنه ضروري - نسبة لما تقوم به من بث السكينة والطمأنينة والاستقرار فيه، ذلك الدور الذي وعته الصحابة الجليلة خولة بنت ثعلبة التي جاءت تجادل الرسول ﷺ في حكمه عليها بالطلاق حين ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت - وكان الظهار في الجاهلية طلاقاً - فكان دورها في رعاية أطفالها الصغار من ضمن ما جادلت واحتجت به حيث قالت: "وإن لي منه صبيةً وأطفالاً إن ضممتهم إليّ جاعوا وإن ضممتهم إليه ضاعوا". فهنا إننا هو دور الأم؛ وقاية أطفالها من الضياع حتى يترعرع الطفل في جو ساكن يأنس إليه فتبث الطمأنينة في نفسه فينمو سليم النفس مطمئناً لا قلق ولا اضطراب، ولا تمرد ولا عصيان ولا شنود ولا ضياع، ولا رفقة سوء ولا انحراف..

وللأسف نجد كثيراً ممن يظن أن دور الأم هذا يستطيع أن يشغله أحد سواها، ويظن أن وظائف الأسرة متماثلة كلها ويمكن تقاسمها كميّاً بين الأب والأم، ولمّا صارت الأم تعمل كما يعمل الأب أصبح لزاماً - في أذهان هؤلاء المساكين - أن يشارك الأب في العناية بالأطفال بنفس النسبة التي تشارك بها الأم، وقد أفضى كل ذلك إلى خلل واضطراب في بيئة التربية كما أدى إلى خلل واضطراب في وظيفة كل من الأم والأب، فوظيفة الأم اضطربت بالقدر الذي حجب فيه عن الطفل، ووظيفة الأب اضطربت بالقدر الذي تحول فيه الأب إلى "أم" ظاهريّاً. لقد نسي هؤلاء أو تناسوا أن وظيفة أعضاء الأسرة ليست متماثلة نوعياً حتى يمكن أن يتقاسمها الأب والأم كميّاً، بل العكس تماماً فإن في الأسرة وظائف نوعية، فلا يصلح لوظيفة الأم سوى الأم ولا يصلح لوظيفة الأب سوى الأب (يراجع هذا في بند اختلال التركيب الأسري أيضاً). ولكن غياب الأم قد دفع بالأب دفعاً إلى محاولة سد الفراغ ولكن

هيات ثم هيات أن يسد هذا الفراغ النوعي إلا بما يسره الله له ألا وهو الأم ثم الأم ثم الأم.

٣) تعريض الطفل لمخاطر المربية والحاضنة ودور الرعاية :

ليس لي غرض في هذا المقام بأن أقوم بسرد وتعداد مئات الحوادث والأذيات العفوية والمحدثّة التي يتعرض لها الأطفال في " رعاية " الحاضنة والمربية والشغالة ودور الرعاية، سواء أكانت أذيات جسدية أم أمراض معدية أم أذيات نفسية، وأخطر من هذا وأعظم من هذا وذلك خطر ضياع الدين واللغة والهوية برمتها. ونحن لا ننازع في قضاء الله عز وجل وقدره: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ (التوبة ٥١)، ولكننا ننازع أقواماً يحتجون بالقدر على تقصيرهم ويحتجون بقضاء الله الكوني على تقصيرهم في قضائه الشرعي.^(١) لذلك نقول بثقة كبيرة أن ما يتعرض له الطفل من مخاطر وأذيات جسدية ونفسية جراء رعاية غير أمه له دونما ضرورة معتبرة هو تقصير في دور الأم - أو المربي الكافل للطفل في حال غياب الأم - وإن هذه الأذيات وإن كانت قضاءً كونياً فإنها في الوقت ذاته ناجمة عن تقصير الأم في التزامها بالقضاء الشرعي حيث أمرها الشرع برعاية أولادها وتربيتهم على الوجه المعروف.

طبعاً سيواجهنا من يقول أن الحوادث والأذيات تقع للأطفال مع أمهاتهم نتيجة الخطأ أو السهو أو الجهل، فكيف نحتج بالأذيات الحاصلة مع غير الأم على ضرورة بقاء الطفل مع أمه في حين أنه معرض - ولو احتمالاً - للأذية مع أمه؟ وجواب هذه المسألة بسيط ودقيق: إن الطفل مع أمه هو في وضع طبيعي موافق لقضاء الله الشرعي، والأم مع هذا إما أن تكون مستوفية لعناصر الأمومة من حيث العناية والرعاية واتخاذ الأسباب الكفيلة بأداء دورها كأم، أو مقصرة في جانب من جوانب

(١) الأقضية الكونية هي كل ما يجري في الكون مما لا يتناوله رضا شرعي أو سخط شرعي وهي تتحقق دائماً وفق مراد الله تعالى، أما الأقضية الشرعية فهي ما يتعلق بها رضا شرعي أو سخط شرعي وقد لا تتحقق وفق ما يُرضي الله تعالى إذا أذن سبحانه وتعالى لها بالتحقق وذلك عندما يخالف العبد ربه فيما أمر به شرعاً.

الرعاية هذه، فإذا ما وقعت الأذية للطفل فإن هذا لا يعدو كونه قضاءً كونياً في مواجهة وفاء الأم بالتزامها الشرعي كما في الحالة الأولى أو في مواجهة تقصير الأم بالتزامها الشرعي كما في الحالة الثانية، والفارق هو أنها لا تلام في الحالة الأولى إنما هي ممتحنة ومختبرة بهذا القضاء الكوني، بينما الأم الثانية ملومة مستحقة للعبت أمام الله عز وجل في الحالة التي لم تستوف فيها التزامها بالأمر الشرعي. ألم تر معي إلى قوله تعالى في الإنسان المستحق للوم: ﴿كَأَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُهُ﴾ (عبس ٢٣). هذا هو وضع الطفل مع أمه، أما مع غير الأم فإن القضاء الكوني الحادث يكون دوماً في مواجهة تقصير الأم في التزامها الشرعي من حيث أنها أسندت مهمتها إلى الغير وتقاصرت همتها وعزيمتها عنها، فليتبين لهذا فإنه دقيق جداً.

إن الأم القائمة على وظيفة تربية طفلها تخرج نفسها من العهدة وتبرئ ذمتها أمام الله تعالى ويبقى أمامها الامتحان بالقضاء الكوني الذي يريده الله سبحانه وتعالى، أما الأم المقصورة أو المنسلخة عن هذه الوظيفة بالكلية فملومة بقدر تقصيرها وليست بخارجة من العهدة ولا بريئة الذمة في مواجهة هذه الأفضية والحوادث. وهذا الكلام لا يشمل بطبيعة الحال أحوال الضرورة المعتبرة والقاهرة التي لا يملك المرء تجاهها حيلة وهذا أمر واضح ومبدأ معروف في شرعنا الحنيف، يقول تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة ٢٨٦)

نقول هذا كله ونسمع مراراً وتكراراً صيحات التأوه والحسرة والندم بعد أن سلم الأب والأم أطفالهما إلى المربية أو الشغالة أو دار الرعاية ثم حدث ما حدث من أذية سواء أكانت عفوية أم مقصودة، ولا أحد يعتبر ولا أحد يتعظ، ثم إن هذا كله في مقابل ماذا؟ في مقابل سهرة أو نزهة أو وظيفة أو عمل أو أي شيء تافه نسبة لهذه الخسارة، ويحضرني قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير ٨-٩)، نعم نحن نند أطفالنا عندما ندفنهم في المهد في أحضان الشغالة الكافرة أو الكتائية وحتى المسلمة أحياناً ممن ليست أهلاً لذلك، ونحن نند أطفالنا عندما نرمي بهم في جب عميق اسمه "دار الرعاية" حيث لا

رعاية ولا عناية بل ربما كان القائمون عليها كفاراً أو كاسيين لا يفتأون يتفوهون بألفاظ الكفر والشرك فإذا بمسامع الطفل تلوثها تلك المكفرات ويعتاد قلبه تلك الشرقيات وكفى بهذا أذى وضرراً، ناهيك عن الإهمال والتفريط في حاجات الطفل الجسمية والنفسية .

فإذا أدركنا ما تقدم لم يعد للعجب مكانٌ عندما يكبر الطفل على يد الغير ويتربى على يدٍ أجنبية فإذا به يحمل في جوفه بذور التمرد والكره والجفوة تجاه أمه وأبيه ، لماذا؟ لأنه لم يشاهد الأمومة في أمه ولم يشاهد الأبوة في أبيه ، إنما عرفهم بأسماء القرابة هذه دون أن يلمس لمعانيها أثراً في قلبه وحياته . وانظر إلى قوله تعالى مرشداً لحال الولد البار: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۝ ﴾ (الإسراء ٢٤) لتدرك كيف ربط الله تعالى باعث دعاء الولد لأبويه بالرحمة بالدور التربوي الذي قاما به عندما كان الولد صغيراً محتاجاً ، ونحن لا نخالف في استحقاق الأبوين للبر مطلقاً حتى لو كانا كافرين - ضمن ضوابط الشرع - ولكننا نستشف من هذه الآية السبب الذي يفسر لنا ظواهر الجفوة والعقوق التي نراها من الأولاد تجاه آبائهم وأمهاتهم ؛ إن التقصير في واجب الأبوين تجاه أطفالهما هو الذي يدفع بالولد إلى العقوق والجفوة حين يكبر ويبلغ أشده ، وإن هذا أشبه بالمقررات البديهية في عقول الناس والعامّة حتى إن الناس لا يكادون يرون ولداً عاقاً إلا وانصرف ذهنهم إلى ذنبٍ أو فعلٍ قد سبق إليه الأبوان سواءً أكان مع أبويهما من قبل أم بالتقصير مع نفس الولد العاق ، ويقرب أن يكون ذلك غالباً إذ قلماً يختبر الله عز وجل الوالدين الصالحين بعقوق الأولاد (وإن كان ذلك غير ممتنع بل يحصل أحياناً) ، بل إن الله عز وجل قد يقضي بموت الولد صغيراً حتى لا يرهق الأبوين الصالحين بعقوقه ، كما ورد في قصة الخضر مع موسى حين قتل الخضر غلاماً دون ذنبٍ ظاهرٍ واستشكل موسى عليه السلام ذلك فكان تفسير القتل: ﴿ وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ ﴾

﴿فَارْزَنَّا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (الكهف ٨٠-٨١).
 وأنبّه على أن أياً من هذا لا يمثل عذراً لولد أو بنتٍ لعقوق والديهما البتة، فإن
 هذا حملٌ للكلام على غير مراده وعلى غير معناه، إنما هو - كما قلت - تحليلٌ
 سببي ظاهر نتلمس من إدراكه التعرف على وسائل تجنب نتائجه.

٤) مساءلة الأم أمام الله عز وجل عن تفريطها في مسؤوليتها:

لقد مر معنا في موضع آخر من الكتاب حديث «كلكم راع وكلكم مسؤول عن
 رعيته» ولقد ورد في معناه زيادات وروايات أخرى منها زيادة في حديث أنس زاد
 فيه: «فاعدوا للمسألة جواباً. قالوا: وما جوابها؟ قال: أعمال البر»، ومن حديث
 أبي هريرة: «ما من راع إلا يسأل يوم القيامة أقام أمر الله أم أضاعه»، وحديث أنس
 أيضاً: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ ذلك أم ضيعه»^(١)

والشاهد هنا هو أن الأم إذا لم تجد في كل ما قدمنا دافعاً لها للاهتمام بالطفل
 والقيام بدورها تجاهه، فهل تضمن على نفسها أيضاً فتعرض نفسها للمسألة أمام الله
 عز وجل يوم القيامة جراء تقصيرها في رعاية ما استرعاه الله فيه؟ إن في هذه
 الأحاديث دافعاً مستقلاً كافياً بذاته لأن يحرك أي قلب حي، فما بالك بقلب الأم التي
 ركز في فطرتها حب طفلها وعطفها عليه، فيالها من مسكينة إذاً تلك الأم التي
 تجمدت فطرتها وتحجرت وفرطت في رعيته وتخاذلت عن أمر ربها في رعاية ما
 استرعاه فيه، ويا فوز من استجابت للداعي الفطرة السوية ونداء الشارع الحكيم
 فوفت بالتزاماتها وثقلت موازينها ليوم الحساب.

إن الأم التي تستجيب لمغريات حجبها عن أطفالها تعرض نفسها إذاً إلى خطرٍ
 عظيم ومجازفةٍ كبيرة هي خطر المسألة والحساب أمام الله عز وجل، فلتحذر الأم
 الكريمة من ذلك الموقف الرهيب والمشهد الرعب الذي يسأل فيه المرء فلا يجد

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري - جزء ١٥.

جواباً، وتوزن أعماله فلا يجد في كفة الحسنات أثقالاً.

هذه طائفة من الأخطار والآثار السلبية الحاصلة نتيجة حجب الأم، وهي ليست جامعة لكل الأخطار إنما هي أمثلة ونماذج تكفي للييب وصاحب العقل السليم والفطرة السليمة للصحو والاستيقاظ.

فترى ما هي وسائل مكافحة هذه الأخطار ؟

ثالثاً: وسائل مكافحة خطر حجب الأم:

لا بد لنا من البحث عن وسائل مكافحة هذا الخطر العظيم إذاً، خطر حجب الأم عن الطفل وتعريض الطفل المسلم للضياح الروحي والفكري والثقافي في خضم تياراتٍ معادية شديدة رهبة تترص به. وسوف نعرض فيما يلي بعضاً من هذه الوسائل عسى أن نفيد من تطبيقها في تخليص الطفل من جملة الأخطار التي ذكرناها فيما تقدم.

(١) العودة إلى الأسرة:

لعل هذه الوسيلة على بساطتها الظاهرة واحدة من أصعب الوسائل على نفس المرأة في هذا الزمن الذي تشربت فيه النساء بفكرة مضللة هي فكرة "الحرية" و "التحرر" وهي مصطلحات ظاهرها فيها الرحمة وباطنها من قبلها العذاب. ونحن نصرُّ على ضرورة وضع حد لعملية تبادل الأدوار التي تجري في مجتمعاتنا الإسلامية حيث تأخذ الأم دور العامل وتأخذ الشغالة أو دار الرعاية دور الأم، ويأخذ الأب دور المرأة وتأخذ المرأة دور الرجل، وهكذا دواليك حلقة مفرغة وتسلسل عقيم من تبادل الأدوار والمهام. ولئن كان الكائدون قد نجحوا في إخراج الأم من بيتها بحجة العمل أو التعلم أو حتى "دروس الدين" الوهمية التي يستغلونها وفق مبدأ "كلمة حق أريد بها باطلا"، فإننا ننادي أمهاتنا وأخواتنا ونساءنا بشيء واحد فقط: عُدن إلى بيوتكن التي هجرتن وإلى أسركن التي زعزعتن استقرارها، وإلى أطفالكن الذين تخاطفتهم الذئاب وأنتنَّ عنهم لاهياتٍ ساهياتٍ، ومهما يكن الأمر

الذي هجرتن بيوتكن لأجله عظيماً فإن حاجة أطفالكن لكنّ أعظم .

إن أسلوب الحجب المباشر الذي سلكه الكائدون الماكرون لإبعاد الأم عن طفلها لا سبيل لمحاربته إلا بنقيضه وهو العودة إلى البيوت ، وإن كنت عاملةً أيتها المرأة فليكن عملك في بيتك ، وإن كنت موظفةً لا محالة فليكن اسم وظيفتك "أم" ، وإن كنت تريدن التحرر فعلاً فلتحرري من أسر الهوى ومن زينة الحياة الدنيا ومن الغرر الشيطاني الذي يجذبك ويشدك خارج بيتك وأسرتك بعيداً عن طفلك وولدك . ونحن نقولها بكل ثقة وإصرار ونتحدى من يثبت لنا عكس ما نقول وهو أن لا أحد يمكن أن يحل مقام الأم ولا أحد يستطيع أن يسد مسد الأم ، وأن وظيفة الأم الشاغرة لا تملؤها شغالة ولا حاضنة ولا دار رعاية ولا جليسة أطفال ولا أب ولا عم ولا جدة ولا خالة ولا أحد البتة إلا الأم ثم الأم ثم الأم .

لقد أمر الرسول ﷺ الرماة - وعددهم نحواً من خمسين - أن يكونوا على ثغرة من الجبل في غزوة أحد ، ولقد أوصاهم النبي ﷺ ألا يغادروا موقعهم من الجبل ولو رأوا المسلمين يتمزقون شر ممزق ولو رأوهم تتخطفهم الطير ، حتى يأتيهم الإذن من النبي ﷺ بمغادرة موقعهم . فماذا كان ؟ تأمل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران ١٥٢) ، فلماذا هذا الفشل مع أن بداية الأمر كانت نصراً للمؤمنين وغلبةً لهم على أعدائهم ؟ إن الجواب الواضح الذي تشير إليه الآية يكمن في تنصل فئة من الجيش من مسؤوليتها المسندة إليها ، ويجب أن ننظر إلى هذه الآية بعين المتدبر لنذكر أمرين مهمين أشار إليهما فضيلة الدكتور عبد الرحمن حسن حبنكة وهو يحلل دواعي فشل المسلمين في غزوة أحد حيث وقف على أمرين اثنين ؛ أولهما هو سبب التنازع الذي حصل وأفضى إلى الفشل ، وهذا التنازع كان مرده إلى معصية من عصى من الرماة لأمر النبي ﷺ ومخالفة أمره

فكان العصيان هو سبب التنازع المفضي إلى الفشل. وثانيهما هو السبب النفسي الإرادي الداعي لذلك العصيان ألا وهو إرادة مطامع الدنيا في مقابل ثواب الآخرة: «منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة»^(١)، لقد أخطأ الرماة إذاً حين ظنوا أن دورهم مماثل لدور غيرهم وأنه يمكنهم الانصراف حيث انصرف غيرهم، في حين أن الحق أن الجند ليسوا سواء في ميدان القتال وإن كانوا على قدم سواء أمام الله من حيث جنس المسؤولية. وفي تحليل مقابل للفشل الأسري نجد أن أمرين اثنين يكتنفان هذا الفشل (من جملة أمور أخرى) أحدهما هو تخلي الأم عن دورها وموقعها في الأسرة والبيت مخالفة لأمر الشرع لها برعاية بيت زوجها وأولادها، والآخر هو الدافع النفسي الذي يدفع الأم لهجر الأسرة والطفل والتخلي عن مسؤولياتها واقرار هذا الذنب، وهو الجري وراء الدعاية المضللة التي تزعم أن تحقق حريتها وشخصيتها منوط بتمردها على دورها الشرعي، وأنه لا يمكن تحقيق ذلك طالما هي متبوءة لمكانها في الأسرة، وهذا دافع ذنوبي لا حساب للآخرة فيه تماماً كما حصل من بعض الرماة في أحد.

فالحل واضح إذاً: تصحيح الدوافع وتوجيهها نحو الآخرة، ومن ثم تبوء المكان الذي حدده الشرع للاضطلاع بالمهمة المنوطة بالفرد وهي الأمومة في مجالنا هذا. وبغير ذلك سيفشل المجتمع المسلم برمته نتيجة تقصير جزء منه تماماً كما فشل المسلمون جميعاً في غزوة أحد نتيجة تقصير فريقٍ منهم، فلتأمل كل أم هذا الكلام ولتتأمل أين تريد أن تقف منه. قلت: فإذا ما تم تصحيح النية والقصد لله تعالى لم يعد المرء يجد في نفسه حرجاً من قبول أي مهمة أسندت إليه في الإسلام وإن تقالها في نفسه أو حسبها مخالفة لمراده وطموحاته، وإذا كان القرآن الكريم ينسب بيت الزوجية إلى المطلقة في عدتها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا

(١) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله - د. عبد الرحمن حبنكة الميداني - بتصرف.

يَخْرُجَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَلْحٍ مُبِينَةٍ ﴿١﴾ (الطلاق ١)، فإن نسبته إلى الزوجة والأم هو من باب أولى، وإذا كان بقاء المطلقة في بيتها يبت الزوجة هو المأمور به شرعاً فإن بقاء الزوجة والأم في بيتها هو من باب أولى لأنه حقها من جهة ولأنه الطريق الوحيد لأداء واجباتها ومهامها كأم - وهو ما يعيننا في هذا المقام - على الطريقة الأمثل. فالله الله يا أمه والله الله يا أختاه؛ عودةً إلى البيوت وإحياء لها وتبوءاً لمكان القيادة والريادة في أسر المسلمين عسى أن تتحول بيوتاتنا إلى خلايا عاملة لتربية الطفل المسلم ومصانع لصناعة وإنتاج الإنسان، أعني الإنسان المسلم إن شاء الله تعالى.

٢) نشر الوعي بأهمية دور الأم:

أنا لن أتناول بالبيان أهمية دور الأم لأنه كما يقول الشاعر:

وهل يصح في الأذهان شيء
إذا احتاج النهار إلى دليل

وإنما أردت تذكير الأخوات بهذا الدور ونشر الوعي بحراجه في هذه المرحلة، وتوقيع دور الأم وعدم الاستهزاء والسخرية من النسوة اللواتي يبقين في البيوت لإصلاحها والاضطلاع بالمهام الحيوية المنوطة بها. ونحن إذا كنا نركز على أهمية عودة الأم إلى البيت والأسرة فلا يمكن أن نتجاهل ضرورة توفير الدافع والباعث على هذه العودة، لاسيما وأن مغريات الخروج والتهرب من المنزل كثيرة ولا معة وبراقة، فليكن إذاً في أحاديث العلماء والوعاظ وخطباء المساجد ودروس العلم وأجهزة الإعلام حثٌ وتحفيزٌ لعودة الأم وتوعيتها بأهمية دورها، وليكن في أجهزة الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية فضحٌ للحوادث المرعبة التي تجري للأطفال على أيدي الجليسات والحاضنات ودور الرعاية، ثم ليكن - في المقابل - نوعٌ من التقدير للأم وإبرازٌ لمكانتها ودورها الاجتماعي تكريماً لها وتعزيزاً لدورها الوظيفي في الأسرة. وإن هذه التوعية تبدأ في الحقيقة أول ما تبدأ في المنزل حين يزرع الأهل في أطفالهم مفاهيم الاختصاص والتميز بين الولد والبنت والأب والأم والذكر

والأنثى، ومن المهم جداً نفي الربط بين مهمة الأم أو الزوجة وبين الانتقاص من شخص المرأة ومكانتها، وليس الأمر خداعاً أو تزويراً للحقائق بل العكس هو الصحيح؛ فالانتقاص من شخص المرأة الأم والمرأة الزوجة هو تزوير الحقيقة وهو خديعة المجتمع، وإن واجبنا دائماً هو الربط الصحيح بين دور الأم ومكانتها السامية التي لا مثيل لها ولا شاغل لفرغها في المجتمع والأسرة.

٣) إنصاف المرأة والأم بأخذ حقوقها المشروعة كاملة:

وهذا أمر لا بد منه لأننا حين نطالب الأم بأداء واجباتها تجاه الأسرة والمجتمع فلا بد لنا من أن نطالب الأسرة والمجتمع بأداء واجباتها تجاه الأم وإعطائها حقوقها كاملة، وهذه الحقوق مبسطة في الكتاب والسنة وأخلاق سلف الأمة. ومن المهم التأكيد على ضرورة التخلي عن الرواسب الثقافية الاجتماعية التي لاتمت للدين بصلة والتي تجعل للمرأة مكانةً دنيئةً ومرتبّةً ثانويةً في المجتمع وكأنها تابعٌ يدور في فلك الغير ليس إلا، ونحن لا نقول هذا الكلام استنداراً لعواطف الأمهات لقبول ما أسلفنا من كلام ولا نقوله تطبيياً لخواطرهن فحسب، إنما نقوله لأن مجتمعاتنا مقصرةٌ حقيقة في تعاملها مع الأم، وإن قصص العقوق وقلة الأدب وقلة الاحترام واقعٌ حيٌّ يواجهنا كل يوم، ولا يقتصر الأمر على سوء تعامل الأولاد مع الأمهات، بل إن كثيراً من الرجال مقصرون في تعاملهم مع زوجاتهم اللواتي هن أمهات أولادهم، ونحن ندعو لشيء واحد فقط هو الخيرية في التعامل مع نساتنا وأمهاتنا، ونحن حين ندعو الأم للعودة إلى أسرتها فإننا لا ندعو الرجل إلى التفرعن في بيته ولا إلى سوء الخلق مع زوجته أمّ ولده، ولا إلى اضطهاد النساء والاضرار بهن، ومرة أخرى أقول أنه إذا كان الله تعالى قد حرّم ضرار المطلقة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوًا ۖ﴾ (البقرة ٢٣١) فإن عدم الإضرار بالزوجة هو من باب أولى، لذلك

فحين ندعو إلى إنصاف المرأة لا نقول ذلك على نهج أولئك الذين ينعقون وراء الغرب وحرية الغرب الانحلالية الساقطة، إنما ندعو إلى إنصاف المرأة وفق منهج الله تعالى وسنة رسوله الكريم محمد ﷺ وتعاليم الشرع الإسلامي الحنيف.

إن الأم الموقرة المحترمة التي يُعرف لها قدرها ويُدعى إليها حقها ويحرص الأب على رعايتها والإحسان إليها هي الأم التي تصنع الرجال وتخرج الأطفال من مدرسة محمد ﷺ، أما الأم الممتحنة المفرط في حقها التي لا يقوم الرجل على رعايتها والقيام بشؤونها كما فرض الله تعالى هي أمٌ مجردة من بواعث العمل لهذه الأسرة التي لا تحترم مكانتها ولهذا المجتمع الذي يهزأ بمهمتها ولا يقدر لها قدرها الحقيقي، فتنبه لهذا كله أخي الكريم فإنها الآن أمانة في عنقك، ولربما كان كثير من سلبات تربية الأطفال ناجماً عن التقصير في هذا المجال.

٤) تحديد سلم أولويات الأم:

إن كل ما تقدم لا يفضي - مع الأسف - إلى كثير من التغيير أو التوجه نحو الأفضل ما لم تبادر الأم نفسها وتأخذ بزمام الأمر وتخوض غمار هذه المهمة بنية صادقة لله وعزيمة ثابتة لا تشيها الملهيات ولا تضنيها العقبات. ولا سبيل لهذا كله والأم مشغولة بأمور أخرى تتقدم في أولوياتها الخاصة على مسألة التربية والطفل والإسلام.

وأيّاً كانت الأولويات الأخرى عند الأم فإن حل هذه المشكلة يكمن في وقفة صادقة مع النفس تجرد فيها الأم نفسها عن هواها وتحرر عقلها من أسر الدنيا وتتطلق بفؤادها وقلبها الذي هو قائد البدن والجوارح لتتظر في القيمة الحقيقية لهذه الأولويات، ولتقم بعدئذ بإعادة ترتيب هذه الأولويات حتى تتوافق مع منهج الإسلام في تقديم ما لله على ما للنفس والهوى، وتقديم حرث الآخرة على حرث الدنيا، وتقديم دفع المفسد على جلب المصالح، والوفاء بالواجبات قبل المطالبة بالحقوق، وهكذا دواليك.

وبمعنى آخر، نحن لا نريد أن نقول للأم أو نفرض عليها رأينا في أن تربية الطفل أمر ذو أولوية وأهمية قصوى في حياتها، إنما نريد منها أن تجلس بصفاء وتجرد وتتساءل عن الأهمية الحقيقية لكل أمرٍ تقدّمه وتفضله على تفرغها لتربية طفلها وتجعل له الأولوية. وبقدر ما تكون الأم صادقة مع نفسها بقدر ما ستتعرف على القيمة الحقيقية المطلقة والنسبية لكل ما تجعله هدفاً في حياتها وتجعل له اعتباراً في سلم أولوياتها، وحينها - حين تصدق مع نفسها - لن تجد صعوبة البتة في التعرف على المكان الحقيقي لدورها في تربية طفلها في ميزان الأولويات لديها. على أن هذا المنهج ليس منهجاً مبتدعاً من عند نفسي، إنما هو منهج قرآني عظيم دلّنا عليه الباري عز وجل في قرآن شافٍ للصدور، صدور المؤمنين، يقول تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتْنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ ١٥﴾ ﴿١٤﴾ ﴿قُلْ أُوْتِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ١٦﴾ (آل عمران ١٤-١٥)، فهاتان الآيتان أصل عظيم في ضرورة أن يزن المرء قيمة ما يسعى إليه كي لا يقدم مفضولاً على فاضل، ولا يفوت خيراً كثيراً دائماً لأجل خيرٍ قليلٍ منقطع.

وقد يتساءل البعض: ما هو المعنى العملي والتطبيقي لمثل هذا الترتيب "النظري" للأولويات في حياة الفرد عامة والأم خاصة في هذا المقام؟

قلت: إن المعنى العملي لذلك هو أن يراجع المرء كل جزئية من جزئيات أولوياته بحسب ترتيب أهميتها لديه عندما يعرض له أمرٌ مهمٌ أو قرارٌ معين بحيث ينظر إلى أمرين اثنين عند كل جزئية وهما: مدى توافق أو تعارض هذا الأمر المدروس مع هذه الجزئية المفضلة لديه، ومدى تحقيق هذا الأمر المدروس لمقتضيات هذه الجزئية. وهكذا تترجم الأولويات النظرية في حياة الفرد إلى معيارٍ

عملي يحاكم به قراراته وتصرفاته حتى لا تحيد به عن جادة السواء وعن الصراط المستقيم . ولنأخذ مثلاً بسيطاً على ما تقدم : إليك اثنتان من الأمهات ؛ الأوليات في حياة الأولى هي مسامرة المجتمع - الفوز برضى الغير ولفت الأنظار - تحقيق الشهوات المادية . . .

أما الأولويات في حياة الثانية فهي رضا الله ورسوله ﷺ - رضا الزوج وبر الوالدين - أداء الحقوق إلى أهلها . .

فإذا عرض لهاتين قراراً ما في حياتهما وليكن السؤال التالي مثلاً : هل أخرج للعمل في وظيفة تتطلب تفرغاً تاماً طيلة أيام الأسبوع أم لا؟

فأما الأم الأولى فإن الخروج لمثل هذا العمل - على فرض الالتزام بالضوابط الشرعية المعروفة - لا يعارض مسيرتها للمجتمع المعاصر الذي يحرض المرأة على هجر بيتها ، ولا يعارض فوزها بالرضى من الآخرين ولفت أنظار الناس إلى قدرتها الوظيفية ومكانتها الاجتماعية البراقة ، ولا يعارض تحقيق الشهوات المادية سواء أكانت في مظهر الاستقلال المادي أو " الحرية " الشخصية ، بل إن خروجها للعمل يعزز من قيمة كل هذه الجزئيات لديها ، وبالتالي نجد أن قرار العمل لا يوجد ما يعارضه في سلم أولويات هذه الأم وهي تقرر بناء على ذلك أنها ستمضي في قرار العمل هذا . أما الأم الثانية فستجد أن كون العمل مباحاً وموافقاً للضوابط الشرعية يجعله موافقاً لأوامر الله عز وجل ورسوله ﷺ من وجه ، ولكنه قد يعارضه من وجه آخر وهو إهمال مهام أخرى أسندها إليها الشرع الحكيم إذا ما كانت تربي أطفالاً صغاراً هم بحاجة إليها ، وستجد أنه لا يعارض رضا الزوج وبر الوالدين إذا كانوا راضين عن العمل فلا إشكال في هذه الجزئية ، ولكنها ستجد أنه يعارض الوفاء بواجباتها تجاه أطفالها وبيتها وزوجها وهم أولى ممن سواهم ، ومحصلة ذلك كله تكون أن العمل وإن كان مباحاً في ذاته ألا إنه

معارضٌ بما هو أولى منه - في هذا المثال - فهي لن تمضي في قرار العمل هذا إذا طالما كان على حساب أولوياتها .

فإذا محّصنا وأدركنا أنَّ أولويات الأم الأولى هي أولويات دنيوية في مجملها بينما أولويات الأم الثانية أخروية في مجملها علمنا أن قرار الأم الثانية أصوب وأقرب إلى تحقيق مراد الفرد ألا وهو الفوز برضا الله والنجاة في الآخرة . وهذا مجرد مثال تطبيقي لما نعينه بسلم الأولويات وكيفية تطبيقه ، وقد تجد الأم الثانية أنها بعد أن ربت أولادها وكبروا وصار لديها متسع من الوقت ولا مانع عند زوجها أنها تستطيع أن تعمل عملاً جزئياً تساهم فيه بما لديها من كفاءة أو علم أو خبرة فلا مانع عندها من العمل ، وليس المقصود من المثال حرفيته بقدر ما هو مقصود تقريب الفكرة إلى الأذهان .

أما كيف ترتب الأم أولوياتها وكيف تزن قيمة الجزئيات والكيليات في حياتها فهذا عائدٌ إلى موقعها من الخارطة القرآنية التي رسمها القرآن الكريم على لسان أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام ٧٩) وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (البقرة ٢١٧) لا شريك له . وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام ١٦٢-١٦٣) . وأعود فأقول أن هذه المسألة من أهم ما يمكن عمله لمكافحة حجب الأم والأخطار المترتبة عليه ، لأنها تبعث في نفس الأم الدافع على الالتزام بدورها الحيوي في تربية الطفل بغض النظر عن العوامل المحيطة بها ، ومن تولد لديه الدافع انطلق يبحث عن الوسيلة ولم يعوزه في العثور عليها إلا نية صادقة لله سبحانه وتعالى .

٥) تكيف أوضاع الأم المضطرة للعمل للتقليل من أثر ذلك على الطفل:

إن من المكابرة إنكار وجود بعض الظروف التي تدفع بالأم لا محالة إلى الخروج من بيتها للعمل وكسب الرزق. ومن الإجحاف إذاً أن نتهم هذه الأم بالتقصير والإهمال وهي لا حول لها ولا قوة في الأمر، بل لعل قلبها يتمزق ألماً لما تكابده من ألم وضيق لا يضطرارها لترك أطفالها وبخسهم حقهم من الرعاية والتربية والتعهد. فما هو الحل لمكافحة الآثار الخطيرة المترتبة على عجز هذه الأم عن إنفاق الوقت الكمي والكيفي مع أطفالها؟

إن الحل يكمن في أمور عديدة منها ما يلي:

أ) ألا تقل مدة أمومة أي أم عاملة عن عامين مدفوعة الراتب: ولقد اخترنا هذه المدة بناءً على متطلبات الطفل الوليد وبناءً على معطيات من نصوص الكتاب والسنة، فمن السنة ما رواه مالك في موطأه عن عبد الله بن أبي مليكة أنه أخبره أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته أنها زنت وهي حامل، فقال لها رسول الله ﷺ: «اذهي حتى تضعي». فلما وضعته جاءت فقال لها رسول الله ﷺ: «اذهي حتى ترضعي»، فلما أرضعته جاءت فقال: «اذهي فاستودعيه»، قال فاستودعته ثم جاءت، فأمر بها فرُجمت^(١). والشاهد هو في تأخير الرجم حتى استيفاء الرضاعة، فإذا راجعنا النص القرآني في الرضاعة: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ (البقرة ٢٣٣) استطعنا أن نقدر المدة التي أحر عنها رجم المرأة في الحديث بعامين على أكثر تقدير وعلى أحوط تقدير باعتبار مصلحة الطفل (والتي هي علة التأخير فيما يظهر من الحديث). ولهذا شواهد أخرى، فعن سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ جاءته امرأة من غامد من الأزد فقالت: يا رسول الله طهرني، فقال: ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه.

(١) الموطأ - الإمام مالك - حديث ١٥٥٥.

فقالت: أراك تريد أن ترددني كما رددت معاذ بن مالك. قال: وما ذاك؟ قالت إنها حبلى من الزنا. قال: أنت؟ قالت: نعم. فقال لها حتى تضعي ما في بطنك، قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت، قال فأتى النبي ﷺ فقال: قد وضعت الغامدية، فقال: «إذا لا نرجمها وندع ولدها صغيراً ليس له من يرضعه، فقال رجل من الأنصار فقال: إليّ رضاعه يا نبي الله، قال فرجمها» (رواه مسلم والدارقطني)^(١)، وينقل الحافظ بن حجر في رواية أخرى قوله: «فأرضعته حتى فطمته ودفعته إلى رجل من المسلمين، فرجمها»^(٢). والشاهد في هذه الروايات هو النظر إلى مصلحة الطفل مدة الرضاعة سواء أكان بتفرغ أمه له أو بإيجاد بديل لها على الأقل. قلت: فإذا كان هذا الاهتمام من النبي ﷺ بأن تتفرغ الأم لرعاية طفلها إلى حد تأجيل إقامة حد الرجم عليها، وإذا كانت ضرورة الأم للطفل من أشد الضرورات حتى لو كانت الأم زانية (مع مراعاة أن هؤلاء النسوة هن زانيات ثابتات فليتبهن) عرفنا حقيقة أهمية الأم في تربية الطفل. فإذا كان التركيز على تفرغ الأم الزانية الثابتة لتربية طفلها سبباً لتأجيل إقامة حد الرجم عليها، أفلا يكون الدافع لتفرغ الأم العاملة لتربية ولدها من باب أولى؟! فلا مناص إذاً من أن تُعطى الأم العاملة أمومة مدفوعة الأجر لمدة فصال الطفل وهي عامين تقريباً. وقد يعترض البعض على دفع الأجر للأم في فترة الأمومة كونها غير عاملة في وظيفتها، والحق أن هذا الاعتراض باطل من وجوه؛ أولها أن هذه الأم لم تخرج للعمل إلا لحاجتها للكسب الحلال، فإذا سلمنا بضرورة تفرغها لولدها مدة عامين كفترة أمومة فمن أين لها أن تنفق عليه وعلى أسرته؟ وثانيها أن حجة المعارض على دفع الأجرة بسبب أنها غير عاملة في فترة الأمومة هي حجة داحضة؛ إذ كيف يجوز لنا أن نسمي الأم في وظيفتها منتجة وعاملة وهي تنتج - إن أنتجت - جمادات وندفع لها أجراً على ذلك ولا

(١) نيل الأوطار - الإمام الشوكاني ج ٧.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري - الحافظ ابن حجر العسقلاني - ج ١٤ - ص ١١٢.

يجوز لنا أن نسمي نفس الأم المتفرغة لتربية وليدها عاملة ونحرمها الأجر لذلك؟ بل إن عملها هذا مع طفلها هو أهم من عملها في وظيفتها، فهي مشغولة بصناعة الإنسان، وأي وظيفة تعدل هذه الوظيفة وبأي وجه تحرم الأم أجرها المضطرة إليه بحجة أنها "غير منتجة"؟!

إن الحق الذي لا مناص من قبوله هو أن مد فترة إجازة الأمومة لسنتين مدفوعتي الأجر هو في صالح المجتمع من حيث الجدوى الاقتصادية والاجتماعية والدينية، ولا بديل عن هذا إلا إجراء جرایة للأمر المنقطع عنها أسباب الرزق من خزانة الدولة أو "بيت المال"، وإلا فإن تكليف الأم بالعمل والتفرغ للتربية في آن واحد هو تكليف بما لا يطاق وهو ممتنع لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة ٢٨٦)، ورحم الله عمر بن الخطاب الذي جعل لكل مولود في الإسلام جرایة من بيت المال حتى يفطم.

ب) تأمين دور رعاية إسلامية على مستوى كفاء: وهذه مسألة مهمة بالنسبة للأمهات اللواتي يضطرون للعمل بعد انقضاء فترة الأمومة ولا يجدن من يعتني بأطفالهن، وكم سمعنا عن أسر وضعوا أطفالهم في دور رعاية أجنبية أو كافرة أو تبشيرية أو تنصيرية، فهذا كله مما لا يجوز التهاون فيه البتة. والمهم ألا يستسلم الأهل بتاتا بحيث يسلّموا فلذات أكبادهم وأمانات الله في أعناقهم إلى دور الرعاية الكافرة والتبشيرية التي تحدث من الأذى في حياة الطفل أضعاف أضعاف ما توفره من "راحة" للوالدين أو الأم، فليتبهنه.

ج) تفعيل دور التكافل الاجتماعي: إن النقطتين السابقتين اللتين أشرت إليهما منوطتان إلى حد كبير بالحكومة والدولة، وحتى يأتي الحين الذي تستجيب فيه حكوماتنا لحاجات المسلمين الماسة ويتجاوب المسؤولون في المجتمعات المسلمة مع متطلبات المواطن المسلم واحتياجاته فإن هذه الحلول تبقى حلولاً "نظرية" إلى حد ما ريثما يتم تبنيها من قبل الجهات المعنية أو فرضها من قبل الحكومة

الإسلامية القادمة ، ويبقى أثر هذه الحلول في تغيير الواقع الذي نعمل على إعادة تشكيله غائباً إلى حدٍ كبير . فلا بد إذاً من تفعيل وسائل أخرى لا تكون منوطة بالدولة ولا متعلقة باستجابة الحكومة والمسؤولين لحاجتنا ، وفي هذا المجال الذي يعيننا - أقصد مجال حجب الأم عن أطفالها لضرورة الخروج إلى العمل لكسب الرزق - لا محيص ولا مندوحة عن تفعيل دور التكافل الاجتماعي بين المسلمين ؛ نعم ، لا بد من أن يتعاضد المسلمون ليحققوا البناء الاجتماعي الذي يسند بعضه بعضاً ويرعى بعضه بعضاً ويفرج بعضه هم الآخر . فأمامنا دورٌ حرج وحساس للمؤسسات الاجتماعية القائمة على عاتق الأفراد وأهل الحي الواحد والقرية الواحدة والبلدة الواحدة . . يجب أن تكون هذه المؤسسات وسائط لكفالة الأسر المفتقرة إلى من يعيلها بحيث لا تضطر الأم إلى هجر أطفالها من أجل العمل وكسب الرزق ، وبحيث تحفظ هذه المؤسسات الفاعلة ماء وجه الأم والأسرة المحتاجة بحيث لا يكون التكافل المادي الاجتماعي في مقابل إهدار الكرامة وذهاب ماء الوجه .

فهذا نداءٌ إذاً لمن أنعم الله عليهم بالمال والخير أن يهبوا من فورهم هذا وينظموا قنوات صرف زكاة أموالهم من جهة ، ويبادروا إلى رفد المؤسسات الاجتماعية الخيرية التكافلية بصدقات أموالهم من جهة أخرى ، حتى تتحرر الأم المسلمة من الضرورة الملجئة إلى ترك البيت للعمل ، وتتحقق من خلال هذه المنظومة أهداف عديدة من بث روح التكافل الاجتماعي والتعاون وتطهير الأموال بالصدقات وإراحة الأسر من هم العيلة ، وتفرغ الأمهات لتربية أطفالهن وصناعة الإنسان واستكمال أسباب التغيير في الجيل القادم إن شاء الله .

هذا ما هداني إليه الله عز وجل من وسائل مكافحة خطر حجب الأم ، ويبقى الكلام مجرد كلام ما لم نبادر للتو إلى ترجمته إلى واقع حي ملموس تتمثل فيه هدي القرآن والنبوة ، ونتوسم فيه معالم الفلاح والنجاح ونتأمل منه جيلاً يحقق الخلافة واقعاً ناطقاً بقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات : ٥٦) . والآن إلى الخطر التالي الذي يترصد بأولادنا .

الخطر الثالث : التخلخل الأسري :

بعد تداعي السور الواقية للمجتمع الإسلامي بسقوط الخلافة الإسلامية أخذت تتداعى باقي السياجات الواقية للفرد المسلم سواء أكان ذلك على صعيد المجتمع أم على صعيد المدرسة أم السوق أم أهل الحي والعشيرة . وتغلغلت وسائل الكيد بالفرد المسلم إلى كل مجال من مجالات الحياة نتيجة المد العدائي ضد الوجود الإسلامي . بعد هذا كله وجدنا أنفسنا أمام واقع تداعي فيه البناء الاجتماعي الممثل للوصف القرآني في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ ۝ ﴾ (الصف ٤) ، وتداعى هذا البنيان المرصوص ولم يتبق منه إلا اللبنة والوحدات الأساسية المتراسة فيما بينها سابقاً؛ هذه الوحدات واللبنة الأساسية إنما هي الأسرة ، ومخطيء من يظن أن هذه اللبنة هي الفرد . فالفرد لا يشكل الوحدة الأساسية للمجتمع بل إن المجتمع يتشكل من تجمع عضوي لمجموع وحدات اجتماعية أصغر فأصغر أقلها الأسرة ، أما اجتماع الأفراد إلى الأفراد خارج نطاق الأسرة فيمكن أن يشكل تنظيمات وجماعات وأحزاب وتجمعات إن شئت ، ولكنه لا يشكل مجتمعاً ، وهو على كل حال لا يشكل المجتمع الذي نريد .

إن هذه اللبنة منفردة العقد هي الناجي الوحيد إلى الآن من مسلسل التداعي والانحيار الاجتماعي الذي عانت منه الأمة الإسلامية في واقعنا المعاصر ، بمعنى أننا نرى مجتمعات إسلامية لا حول لها ولا قوة ، لا بنيان مرصوصاً ولا لواءً معقوداً ، مجتمعات قليلة أو عديمة التأثير في محيطها ، نعم ، لقد غاب المجتمع الإسلامي المؤثر من خارطة العالم المعاصر في زمان كتابة هذه الأسطر ، ألا إننا لا نزال نرى - والله الحمد - ونلمس وجود الأسر المسلمة التي تفتقر إلى عقدٍ ناظم يجمعها ، ونرى تجمعات قوامها الأفراد تحاول أن تلقي بظلالها على الواقع لتحل محل المجتمع الإسلامي المفقود فلا تستطيع أن تحقق أكثر من وجود التنظيمات والجماعات والأحزاب والحركات ، وأنا لا أعيب على ذلك وإنما أقول أنه لا يحقق

لنا المجتمع الإسلامي المرتقب، لأن المجتمع الإسلامي لا بد له من انتظام وحداته الأساسية وهي الأسرة في تجمعات عضوية أكبر فأكبر تصل بمجموعها الكمي والكيفي إلى صيغة المجتمع الإسلامي، ولا بدليل عن ذلك مهما كان عدد التنظيمات والحركات والتجمعات الإسلامية.

فما فائدة هذا كله إذاً؟

إن الأسرة هي الحلقة التي تصل الفرد بالمجتمع، فإذا ما تداعت الأسرة فقد المجتمع الفرد، وفقد الفرد واسطة اتصاله بالمجتمع وهام على وجهه لا يدري له موضعاً ولا لشخصه انتماءً ولا لوجوده قيمةً معتبرة. وقد يلتقي هذا الفرد التائه مع أفراد على شاكلته فيسعى إلى إعادة البناء والتغيير ونريد أن نؤكد ثانية أن هذا البناء لن يفلح في إعادة المجتمع الإسلامي للوجود إلا إذا سار من خلال حلقة الأسرة لا من خلال الحركات الإسلامية والتنظيمات الحزبية وحدها. قد يكون لهذه الحركات والتنظيمات دورٌ حركي في مواجهة أخطار خارجية تحقيق بالأمة، ولكنها لن تستطيع أن تقوم وحدها ببناء المجتمع المسلم سليم البنيان لأن المجتمع المسلم لا يبنى بتسلط الحركات الإسلامية عليه إنما يبنى من خلال "رص" الوحدات الأساسية للمجتمع في تجمعات وبنى أوسع فأوسع ليصبح التنظيم الاجتماعي والتوسع الاجتماعي طريق النمو للمجتمع الوليد. وتبقى نكتة دقيقة يمكن أن تعمل على تحقيقها الحركات والتنظيمات الإسلامية ألا وهي مجابهة العوامل المانعة لنماء البناء الاجتماعي بشرط أن يكون ذلك وفق فقه مرحلي دقيق لا مكان فيه للرعونة الطائشة والغوغائية الانفعالية، ولا محل فيه للطيش والتهور والتسرع.

نحن إذاً نملك في هذا الواقع - والله الحمد - تلك الوحدات الأساسية لبناء المجتمع، نملك الأسرة المسلمة، وتكمن الخطوة الحرجة في تفعيل دور الأسرة للقيام بصناعة الفرد ووصله وربطه بالمجتمع ليأخذ فيه دوره البنائي، وتوسيع نطاق اتصال الأسرة بالخارج شيئاً فشيئاً حتى يتم التوسع الاجتماعي نحو تحقيق البنيان

المرصوص . ويستلزم كل هذا أن نعمل على حماية الأسرة - التي هي الحصن الأخير المانع من دمار الفرد وضياعه - من كل ما من شأنه أن يخلّ بتركيبها أو بدورها الوظيفي . وهذا ما يستهدفه أعداء الأمة شرقاً وغرباً ، صهيونيةً وصليبيةً ، شيوعيةً وعلمانيةً ؛ يريدون هدم هذا الحصن الأخير الذي لا يزال صامداً - من حيث التركيب على الأقل - بفضل الله عز وجل .

إن الأسرة في وضعها الحالي هي التجمع العضوي الوحيد الذي يمكن أن يستوعب الفرد المسلم بمنأى عن الضغوط الخارجية المؤثرة في واقعنا المعاصر ، ويبقى أن نقول أنه لو استقلت كل خلية نحل بنفسها لما رأينا الشهد والعسل قط ! وبقي أن نقول أنه في سياق اجتماع خلايا النحل لتشكيل الشهد والعسل تفتى أفراد وخلايا وتضحى بأنفسها في سبيل المجموع ، وإن ذلك المجتمع الضخم الذي يشكله النحل جل قوامه الخلايا العاملة وقليل منه حرس وجند ولذلك كله ملكة واحدة ! فالمجتمع الناجح لا يحتاج لعشرات الرؤوس والقيادات ، إنما يحتاج انتظاماً لعناصره الأولية وفق منهج مرسوم يلتزم فيه كل فرد بدوره دون تشوّفٍ للأعلى ودون احتقارٍ للأدنى .

ولهذا كله لا بد للأسرة المسلمة من أن تنهض للتو وتنفض الغبار عن كاهلها وتراجع حالها من حيث صلاحيتها بناءً وتكويناً وتركيباً للقيام بالمهمة المنوطة بها ، فإن كانت صالحةً فيها ، وإلا فلا بد من الإصلاح الأسري الذي يرأب الخلل ويسده . وقبل أن أخوض في وسائل أعداء الأمة الموجهة لخلخلة الأسرة أريد أن أشير إلى بعض الخصائص الحركية المهمة المميزة للبناء الأسري :

(١) إن الأسرة هي التجمع العضوي الوحيد الذي يستأثر بالفرد المسلم استثنائاً شبه تام في فترة هي الأخرج من فترات بناء وتكوين الفرد وهي مرحلة الطفولة ، وهذه فرصة ذهبية لا تقيم بثمن .

(٢) إن الأسرة هي التجمع العضوي الوحيد الذي لا يخضع لمؤثرات وضغوط التيارات الخارجية المانعة من تأصيل الحق وترسيخه في نفس الفرد . والحالة

الوحيدة التي يتم فيها اختراق السياج الأسري هي حين تسمح الأسرة لوسائل التقنية والإعلام باختراق حصنها دون رقابة ودون انضباط، وهذا قصور في دور القائم على الأسرة لا عجزاً في تركيبها الأساسي.

٣) إن الأسرة هي التجمع العضوي الوحيد الذي لا يخضع لحدود مانعة من زيادته الكمية.

٤) إن الأسرة هي التجمع العضوي الوحيد الذي له إمكانية التواصل "المشروع" مع تجمعات مماثلة ضمن أطر القرابة سواء أكانت قرابة الدم أم المصاهرة، وهذان هما الطريقتان الأوليان للتوسع الاجتماعي.

لقد تأملت في هذه الخصائص فوجدت أنها تمثل كل ما يتمناه المرء من أجل ضمان "الأمن" الحركي اللازم للبناء والنهوض، وهي خصائص محفوظة مضمونة بإذن الله لأن أي تيار خارجي يحاول الاختراق المباشر للتركيب الأسري من أجل تقويض هذه الخصائص سيصطدم بشيء لا يستطيع مواجهته ألا وهو فطرية وحتمية هذا التركيب للنوع البشري بحيث لا يبقى هناك مبرر "للسكوت" عن أي تيار خارجي يستهدف هدم هذا الكيان الأسري مباشرة، لأنه سيواجه حينذاك الأم التي ركز الله في فطرتها نزعة افتراس من يحاول خدش ظفر واحد من أطفالها، وتواجه الأب الذي ركز الله في فطرته التضحية بكل شيء في سبيل حفظ أولاده وأسرته، وتواجه الأولاد الذين أمرهم الله تعالى بالفناء في بر الوالدين وحمائتهما إرضاء لله تعالى، فأى مواجهة مباشرة لمحاولة حرمان الأسرة من خصائصها الذاتية تستلزم هدم هذا الكيان الفطري وبالتالي فهي تستلزم مواجهة لا يقوى عليها أي تيار مهما بلغ حجمه وقوته.

وبمعنى آخر أقول أنه طالما كانت المواجهة مباشرة وعامة تجاه كل الأسر فإنه لا خوف لأن ردة الفعل كفيلة بصد ذلك، ولكن أخشى ما نخشاه هو تلك المواجهة الخفية المخاتلة التي تؤثر ببطء وخداع ومكر كما سنبين. أما المواجهة المباشرة الجزئية لقليل من الأسر فلا تضر بالمجموع العام ولا تعطل مسيره بإذن الله.

مما سبق يتبين أن أكبر خطر يواجه الأسرة المسلمة هو ذلك الكيد الخفي البطيء الماكر الموجه نحو أصول بنيانها يرمي إلى الإتيان عليه من القواعد ليخر السقف عليه من أعلاه، وهذا ما سننطق الجهد في استعراضه فيما يلي إن شاء الله.

الوسائل الموجهة لخلخلة الأسرة :

كثيرة تلك الوسائل الموجهة لخلخلة الأسرة ولتقويض البناء الأسري، وسوف نستعرض فيما يلي بعض هذه الوسائل على سبيل التمثيل. وليس مهماً أن تكون هذه الوسائل عناصر في مؤامرة عالمية تحاك ضد المسلمين إذ أنني لست من دعاة التفسير التأمري لواقع الانحطاط الذي نعاصره - وإن كانت المؤامرات موجودة فعلاً - إذ ليس مهماً أن تكون هذه الوسائل مجتمعة في منظومة تأمرية أم لا، إنما المهم أن هذه الوسائل هي وسائل حقيقية وموجهة جملةً وتفصيلاً نحو تدمير الكيان الأسري سواء أكان من حيث البناء والتركيب أم من حيث الوظيفة والفاعلية. فما هي هذه الوسائل إذاً ؟

(١) تميع الدور النوعي للأُم والأب :

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الأعظم الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»^(١)، يقول ابن حجر العسقلاني: «قال الطيبي في هذا الحديث أن الراعي ليس مطلوباً لذاته وإنما أقيم لحفظ ما استرعاه المالك فينبغي أن لا يتصرف إلا بما أذن الشارع فيه»^(٢).

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري - ابن حجر العسقلاني - حديث ٧١٣٨ .

(٢) المرجع السابق .

والشاهد في هذا الحديث هو التفصيل الوارد فيه حيث أورد رعاية الرجل على أهل بيته ورعاية المرأة على أهل بيت زوجها وولده، و"الواو" تقتضي المغايرة فلزم أن يكون دور الرجل ودور المرأة في رعاية بيت الزوجية مختلفاً اختلافاً نوعياً وإن كانت المسؤولية الكلية مشتركة فيما بينهما. وهذا مهم جداً أي تمييز الاختلاف النوعي لدور الرجل ودور المرأة في الأسرة ولعل مما يشير لذلك التفصيل الزائد في بيان دور المرأة إذ قال: "والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم". ولا يستلزم هذا الخلاف النوعي عدم المساواة كما لا يستلزم فوقية ولا دونية، إنما هو من جنس الاختصاص الوظيفي. ولقد أثبت القرآن الكريم هذا الاختلاف النوعي والاختصاص الوظيفي للذكر والأنثى حين أورد نذر امرأة عمران ما في بطنها لخدمة الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ﴾ (آل عمران ٣٦). وإن هذا التخصص الوظيفي يخدم هدفاً محدداً في التكوين الروحي الحركي للطفل ونمائه وبناء شخصيته وسلامتها، ولا يجادل في اختلاف دور الأب والأم نوعياً إلا مكابر لا غرض لنا في جداله، إنما الغرض ما هنا هو التذكير والتنبية على ما هو مركز في الفطرة ومعلوم بالبداة.

فإذا علمت هذا فاعلم أن من أهم وسائل تعطيل الدور الوظيفي للأسرة تمييع هذا التخصص بحيث يقوم الأب بدور الأم وتقوم الأم بدور الأب، بزعم تحقيق العدل والمساواة بين الرجل والمرأة حين يتقاسمان مهمة رعاية الأسرة كمياً، ومساكين هؤلاء الذين يحسبون الأمور بميزان الذهب، ويحسبون أن العدل والإنصاف هو في تقسيم المهمة تقسيماً مادياً لا يراعى فيه الاستعداد الفطري والروحي والمادي لكل من الأب والأم لأداء الوظيفة المعنية. ولقد شاهدنا نماذج مضحكة في الغرب الأمريكي لهذه المحاولات المستميتة التي تهدف إلى ترسيخ واقع التمييع الوظيفي لدور الأب والأم، ولقد شاهد كاتب هذه الأسطر بأم عينه

"رجلاً" يتقلد عبوات مطاطية على شكل "الثدي" وقد ملئت بحليب الأم الذي سبق ضخه من ثدي أم الطفل ليقوم هو بعملية "الإرضاع" لطفلهما وذلك كي "يشارك" الأم في مهمة الرضاعة! مساكين؛ مساكين أولئك الذين يريدون أن يغيروا خلق الله ويعاكسوا فطرة الله عز وجل. و"رجل" آخر يشد على بطنه أوزاناً تزداد مع تقدم سن حمل زوجته أو عشيقته حتى يشعر هو أيضاً "بثقل" الحمل معها ويتضامن مع آلام حملها شعورياً! إنه تخبُّطٌ عجيب وخلطٌ غريب لموازين الأمور، إن هؤلاء يستمتون في سبيل محاولة إقرار أمرٍ واحد هو ترسيخ الاعتقاد بأن بناء الأسرة لا يحتاج إلى "أم" ولا إلى "أب" بالتحديد إنما يحتاج إلى "أهل" parents، ويمكن بعد ذلك أن يكون الأهل أماً فحسب أو أباً فحسب أو أماً وأب (زوج وزوجة) أو - كما سنشير لاحقاً - "أم وأم" أو "أب وأب" .. لم لا طالما أن كل فرد من هؤلاء يستطيع أن يقوم بما يقوم به النوع الآخر من مهام حسب زعمهم.

وقد تتساءل أيها المسلم عن مدى جدية هذا الطرح كخطر حقيقي يحقق بمجتمعاتنا لأنك تستشعر بلا ريب مدى السفه والخلط العجيب الذي يمثله، ولكني أحذر نفسي وإياك من التهاون في خطورة هذه الطروحات والمفاهيم لأنها آخذة بالاستشراء والانتشار في الفكر الاجتماعي الغربي بشكلٍ عجيب، الفكر الغربي الذي أصبحنا بارعين في تقليده واقتفاء أثره والتأسي بسيره ولو أوردنا موارد الهلاك، الفكر الغربي الذي يُصدِّر لنا مفاهيمه في عبوات جاهزة للاستعمال اسمها العلم أو الحضارة، أو يفرضها على مجتمعاتنا في صيغ مرتبطة بالمعونات الخارجية أو المؤتمرات الدولية أو غير ذلك، فلا تقلل من خطر هذه الأفكار فلنكم قللنا من قيمة أخطار في الماضي فإذا بها الآن واقعٌ جائئٌ على صدورنا.

(٢) ترسيخ العزلة الفردية:

لقد جلب لنا عصر التقنية ووسائل الترفيه الصناعي الكثير من الإيجابيات بلا شك، إلا أنه جلب معه سلبيات كثيرة أيضاً أخذت تلقى بظلالها على مجتمعاتنا

وأُسْرنا ، ولقد حزنا في السابق عندما أصبحت المرناة (التلفزيون) مركزاً لاجتماع العائلة لمشاهدة مسلسل أو برنامج ترفيهي لأن ذلك كان على حساب وقت الأسرة ، وأقول أين تلك الأيام الآن؟ لقد أصبح كل فرد الآن منعزل عن أسرته مع جهازه الخاص فهاك أم وأب يشاهدان المسلسلة الإذاعية ، وهاك الفتاة لا تبرح عاكفة على الهاتف وهاك الشاب منغمس فيما لا يعلمه إلا الله على مرئاته الخاصة أو حاسوبه الخاص ، وهاك الطفل مستقل بسماع أغنيته الخاصة عبر سماعات الأذن التي تعزله عن محيطه ، وهكذا أصبح كل فرد في الأسرة عاكفاً على جهازه التقني الخاص ، وبدأ يقل التفاعل ما بين أفراد الأسرة شيئاً فشيئاً ، وبدأ ينكمش الوقت الذي تمضيه الأسرة مجتمعة شيئاً فشيئاً .

إن قيام الأبوين بدورهم في رعاية الأولاد في الأسرة يستلزم درجة من التفاعل والاحتكاك والاجتماع واللقاء بين أفراد الأسرة ؛ اجتماع على مائدة الطعام ، اجتماع على فرائض الصلاة ، اجتماع لمناقشة أمور العائلة ، اجتماع لعرض مشاكل الفرد والاستعانة بالأسرة لحلها . . عملية تفاعل مستمرة بين أفراد الأسرة أبناء وآباء . نقول هذا ثم نتلمس الواقع فنجد عزلةً مهيمنة على أفراد الأسرة الواحدة ، بحيث لا يعلم الأب أين يقضي ابنه وقته ، ولا تعلم الأم فيم تقضي ابنتها وقتها ، وينظر الطفل حوله فلا يجد من يهتم به ، ويلتفت الشاب أو الشابة فلا يجد من يستمع لهمّ ويعرض له مشاكله ، فإذا أضفت لذلك ما عرضناه سابقاً من حجب الأم وتأمّلت في تلهي الأب عن أسرته ورعيته تبين لك مدى الفشل الوظيفي للدور الأسري لتربية الطفل في واقعنا المعاصر .

٣) التشجيع على الشذوذ السلوكي الجنسي وتقديم نماذج بديلة للتركيب الأسري :

منحت الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٧ حوالي ٥٠ حالة لجوء سياسي إلى أراضيها لأفراد من دول مسلمة "مضطهدة" لأن هؤلاء الأفراد كانوا "شاذين جنسياً"

إما لواطيين أو سحاقيات، وهم يعانون من "الاضطهاد الجنسي" في بلادهم المسلمة بسبب القوانين "المتعسفة" التي تمارسها هذه الدول المسلمة! وهذه سابقة خطيرة من نوعها، أن تمنح دولة اللجوء السياسي لفرد ما لأنه شاذ جنسياً، قلت: أي تشجيع على الانحراف يعدل هذا، وأي دلالة أشد على تبني المنكر من هذا؟ إنها رسالة مفتوحة لكل من يريد الانقلاب والانحراف عن فطرة الله فيخشى على نفسه "الاضطهاد" من جراء إقامة حدود الله فإذا بهذه الرسالة تقول له: لا تخشى ولا تهاب فإن "أمريكا" سوف تحميك. وأسفي شديد على الحال الذي نعيش فيه حيث تنتهك حرمة الله ولا نجد من يطبق حد الله تعالى فيها، وفي مقابل ذلك نجد من يتبنى المنكر والحرام ويرعاه ويتعهد بحمايته، أسفي شديد على أنفسنا حين تخاذلنا عن نصره الله في حين هب قوم لنصرة الشيطان.

ومن جهة أخرى بدأت تعج الدوريات والمراجع الطبية بسفه عجيب مؤداه أن التركيب الأسري المؤلف من امرأتين سحاقتين أو رجلين لواطيين هو تركيب "طبيعي" لا يعاني من أية مشاكل في مجال تربية الطفل، وسوف أنقل بعض النقاط الرئيسية الواردة في مقالة طبية من مجلة *pediatrics in review* وهي دورية أمريكية في طب الأطفال حيث تذكر المقالة في العدد الصادر في ٩/ ١٩٩٤ وهي بعنوان "أطفال الأسر اللواطية والسحاقيات" تذكر ما يلي:

١ - أن أعداداً متنامية من اللواطيين والسحاقيات يصبحون "آباء" في سياق علاقة جنسية مثلية مستمرة، ويصبح لهؤلاء أطفال عن طريق التبني أو طريق تعهد وكفالة بعض الأطفال.

٢ - أن أطفال اللواطيين والسحاقيات لا يختلفون عن أطفال الآباء مغايري الجنس (أي أب وأم) من ناحية الصحة النفسية والعلاقات الاجتماعية.

٣ - وجد أن الآباء اللواطيين كانوا أقل تقليدية وأبدوا خصائص رعوية أكبر وتطبيقاً أشد لدورهم "الوالدي" وكانت رؤيتهم لدورهم الوالدي أكثر إيجابية من الأب مغاير الجنس.

٤ - إنه خلافاً للاعتقادات الخاطئة الشائعة فإن المعلومات المتوافرة تشير بشدة إلى أن الأطفال الذي لديهم آباء لواطيين أو سحاقيات ينمون ويتطورون بشكل طبيعي .

٥ - أن الآباء اللواطيين والسحاقيات ليسوا إلا " آباء " لديهم همومهم المشتركة وأزماتهم وآمالهم وأحلامهم (مثلهم مثل باقي الآباء والأمهات) .

٦ - وأخيراً وليس آخراً: " إن لدى أطباء الأطفال فرصة - بل ربما مسؤولية مشتركة - في المساعدة على تغيير المواقف الاجتماعية والقيود القانونية التي تؤذي الآباء اللواطيين والسحاقيات وأطفالهم"^(١)

لست بحاجة طبعاً إلى بذل جهدٍ يذكر من أجل بيان كذب وبهتان هذا الهراء الفارغ وإن ورد في مائة مجلة "علمية" أو كتاب "علمي" أو نحوه، ولكن هذا هو الاتجاه "العلمي" في الغرب الآن، ولعلك تتساءل عن علاقة هذا بخلخلة البناء الأسري في مجتمعاتنا، والجواب هو أن هذا الذي لا تستشكل خطأه ولا تشكك في عواره وانحرافه قد بدأ يتلبس بلبوس العلم زوراً وبهتاناً، وبدأ يُغلف في أطر البحث العلمي الموضوعي، وإن مكن الخطر هو في الانزلاق وراء هذه الخدعة ومن ثم الاتجاه نحو قبول و"تحمل" هذه التراكيب الاجتماعية الشاذة لأن العلم يصادق عليها والمجتمعات الغربية تؤيدها. ولا تستبعد أن يأتي اليوم الذي تخضع فيه مجتمعاتنا لضغوط الدول الغربية من أجل إفساح المجال لهذه النماذج المنحرفة للتواجد "بحرية" وبدون اضطهاد في مجتمعاتنا المسلمة، ولا تستبعد أن ترتبط المعونات "الإنسانية" التي يقدمها لنا الغرب - من أجل سواد عيوننا - أن تصبح معلقة على قبول مثل هذه الانحرافات والسكوت عنها، لم لا وقد عايناً ورأينا كيف خضعت مجتمعاتنا لضغوط تحديد النسل و"تنظيم الأسرة" وقوانين ومقررات مؤتمر السكان في القاهرة ومؤتمر المرأة العالمي في بكين، والتشويه المتعمد لمناهج التدريس، ونشر وسائل

(١) Pediatrics in review, sept. 1994 .

الانحراف وأدواته بحجة التوعية الصحية الجنسية وغيره وغيره؟ إن لدى مجتمعاتنا الآن - مع الأسف - القابلية على الخضوع لهذه الضغوط ، وأخوف ما نخاف ألا يكون هناك حدٌ لما يمكن أن نقبل به تحت الضغط ، فإذا بهذه النماذج المنحرفة للتركيب الأسري ماثلة عياناً في عمارتك أو حارتك أو حيك الشعبي . .

هذه صورة لما يُحاك من وراء الكواليس ، وما لم نعمل جاهدين على التحرر من التبعية الفكرية والعلمية والاجتماعية ، والتحرر من الذيلية تجاه الغرب ، فليس بعيداً أن نرى نتائج هذا الكيد على أرض الواقع ، لا سيما أن المنحرف لم يعد يخش شيئاً لأن أمريكا ستمنحه اللجوء السياسي إذا ما تعرض "للاضطهاد" في المجتمع المسلم ، فتأمل هنا وتدبر فيه وأمعن النظر في خطورته وعواقبه الوخيمة .

٤) التضييق على الشباب في الزواج :

من الواضح أن أسوأ حالات خلخلة الأسرة هي منع تكوين الأسرة بالأصل ! ولقد تراكمت عوامل كثيرة جعلت تعرقل اتجاه الشباب نحو الزواج وتكوين تلك الأسرة الصغيرة التي تشرع بالنمو على مهل ، وأصبح الزواج كابوساً مرعباً وتكوين الأسرة حلمًا بعيد المنال ، وبات الأسهل على الشاب أن يعاني العزوبة ومخاطرها من أن يرزخ تحت ضغوط مطالب الزواج وتكاليفه المرهقة . ولقد ساهمنا نحن في إحداث هذه المشكلة حين أعرضنا عن حديث رسول الله ﷺ : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه » ، واستبدلناه بتحويل الزواج إلى صفقة تجارية أو فرصة انتهازية وأصبح هاجس الناس المال والجاه ومطالبة الخاطب بما لا يطاق من التكاليف ولم يعد يلتفت إلى الدين أحد ، وضاق الشباب ذرعاً بمجرد التفكير بالزواج ، وزاد الأمر سوءاً ازدياد انتشار الحرام وسهولة الوقوع فيه لا سيما وأن تبعاته المادية شبه معدومة والتزاماته الأسرية غير موجودة .

هذه بعض وسائل ضعضة وخلخلة التركيب الأسري وتعطيل الدور الوظيفي للأسرة ، وليس فيما ذكرت حصراً ولا شمولاً ، إنما هي إشارات وأمثلة تكفي

الليب وتدفعه إلى الحذر والنظر في غيرها من الوسائل بغية اتقائها ومحاربتها ودفع خطرهما، وسوف أتعرض في عجلة لوسائل الصمود والتصدي ضد هذه العوامل عسى أن تتمكن من حماية أسرنا من خطر التخلخل والتفكك والتعطيل إن شاء الله تعالى.

وسائل الصمود والتصدي لخطر خلخلة الأسرة :

سوف أستعرض بعض ما يمكن اتخاذه من إجراءات لمواجهة وسائل تخريب الكيان الأسري التي عرضنا شيئاً منها، وأكرر أنه لا بد من استحضار الدور الحرج الذي تلعبه الأسرة في تربية الطفل وتنشئته حتى نستلهم الدافع لمواجهة أخطار خلخلة الأسرة ولصد هذه الأخطار إن شاء الله تعالى، ومن هذه الوسائل ما يلي :

(١) إعادة الالتزام بالدور النوعي وتفعيله :

لا بد من عودة الأب إلى مكانه ومن عودة الأم إلى مكانها في الأسرة، ولا بد لكل منهما من أن يلتزم بدوره في حفظ رعيته، ولا بد له من أداء وظيفته النوعية في تعهد الطفل ورعايته في إطار أسري سليم التركيب، وليس الأمر موضوع حلال وحرام، ولا أريد أن يسارع البعض إلى تحويل المسألة إلى جدال حول جواز خروج المرأة من المنزل إلى العمل وحول طبيعة المسؤوليات المادية للرجل، فليس هذا مجال حديثنا، إنما نحن نتحدث عن تربية طفل وتنشئة جيل، ونقول أن الظروف الراهنة تفرض علينا الضرورة الحركية التالية ألا وهي: عودة المرأة إلى وظيفة "الأم" بتفرغ تام، وعودة الرجل إلى وظيفة "الأب" بتفرغ تام دون أن نحجم الموضوع في الإطار الحدي للحلال والحرام، فنحن لا ندعو إلى ارتكاب حرام ولا ندعو إلى تحريم حلال معاذ الله، إنما نبين لكل ذي وعي أن الضرورة الراهنة لبناء هذا الجيل تستلزم هذا التفرغ. فلنطرح الأتفة جانباً ولنترفع عن مراد النفس ولنقاوم شهواتنا وليأخذ كل منا موقعه وليقم بدوره، ولنضع نصب أعيننا الحديث المتقدم: "ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"، ولنتذكر تغاير وظيفة الرجل والمرأة وتخصص كل منهما بدور خاص مميز، ولقد نقل

ابن حجر العسقلاني في سياق شرح الحديث ما يلي: " وجاء في حديث أنس مثل حديث ابن عمر ، فزاد في آخره: «فأعدوا للمسألة جوابها» ، قالوا: «وما جوابها» ، قال: «أعمال البر» ^(١) ، فنحن مسؤولون أمام الله عز وجل عن هذه الرعاية .

٢) اتقاء العزلة الفردية وتنشيط التفاعل الأسري:

لقد سبق أن بينّا أن من جملة خصوصيات البناء الأسري كوحدة عضوية اجتماعية هي توافر الإطار الملائم للتفاعل ما بين أفراد هذه الأسرة بصورة بعيدة عن المؤثرات الخارجية السلبية . وإنها لخسارة كبيرة أن تفوت هذه الفرصة ولا تُغتتم لصالح التربية الفردية للطفل والشاب . فلنطرح جانباً ذلك الانطواء وتلك العزلة ، ولنضع حداً لانفراد الآلة بالواحد منا ، ولنجعل الأسرة مكاناً للعمل الجماعي في صيغةٍ مرحلية مصغرة . وليكن باب الأب والأم مفتوحاً دوماً لأولادهما وليكن دأب الأولاد الانكباب على الأبوين اقتداءً وتأسياً وعلماً وتادباً . ولنتحول بتربية الطفل من الصيغة الخاملة المنفعلة إلى الصيغة النشطة الفاعلة ، ولا ندع الطفل والشاب عرضة للاستمالة بشتى المؤثرات السلبية التي تحيط به وتتربص به الدوائر .

ثم لنتذكر خصيصةً أخرى من خصائص الأسرة ألا وهي إمكان التواصل مع الأسر الأخرى ضمن صلة القرابة التي تربط بعضها ببعض ، وهذا مهم جداً حيث أن الإسلام قد حدد لنا إطاراً شرعياً للتواصل مع الأسر الأخرى ذات القرابة هو إطار صلة الرحم . وفي حين يشكل هذا التواصل واجباً شرعياً فإنه يشكل في ذات الوقت إطاراً حركياً ذاتياً للنماء والتواصل الاجتماعي ، ثم أنت تخرج بهذا الإطار من مرحلة الأسرة الواحدة الصغيرة إلى مرحلة الأسر ذات صلة الدم إلى مرحلة الأسر المتصلة بالمصاهرة ، فإذا بالحلقة تكبر شيئاً فشيئاً وتصل إلى المرحلة التي كان فيها أول أمرٍ بالصدع بالدعوة وهو قوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۖ ﴾ (الشعراء ٢١٤) . نريد إذاً أن نتحول بعلاقاتنا الأسرية من مجرد التعامل الاجتماعي إلى عملية

(١) فتح الباري، مرجع سابق ج ١٥ ص ٦.

بناء فردي - جماعي حقيقي يسعى نحو تشكيل لبنة ثم أخرى في البناء الاجتماعي المرتقب ضمن صيغة البنيان المرصوص سواءً أكان ذلك على صعيد الأسرة الواحدة أم على صعيد مجموع الأسر ذات صلة الدم والمصاهرة.

نريد أن نتحول بهذه الأسر من مجرد وحدات اجتماعية صغيرة خاملة إلى خلايا ناشطة عاملة ترتقي بالفرد إلى مستوى المسؤولية وتتحول بالأسرة من مجرد المجموع التراكمي لعدد أفرادها إلى وحدة جماعية نوعية الكفاءة بحيث نلمس فيها صفات " الجماعة " المسلمة ، وعند تلك المرحلة يصبح النماء والتوسع الاجتماعي عبارة عن عملية " تركيب " لهذه الوحدات الجاهزة وتوصيل هذه الوحدات بعضها ببعض ضمن أطر اجتماعية أوسع وأوسع تكون قابلة لتطبيق بعض الصيغ الجماعية النازمة التي يضيق بها إطار الفرد أو الجماعة الصغيرة.

إن هذا البناء الاجتماعي المصغر مهم جداً لعملية التربية من وجهين اثنين؛ أولهما أنه يوفر للطفل بيئة اجتماعية آمنة في محيط أوسع من محيط أسرته الصغيرة دون أن يتعرض لمخاطر التيارات الخارجية المؤثرة ، بحيث يمكن للطفل أن يتخذ صحبته وصدقاته من خلال هذا الإطار الاجتماعي الأوسع من أسرته والأصغر من مجتمعه الذي لم يصل إلى الصيغة الإسلامية التي نأمن بها على الطفل . وثانيهما أنه يشكل حلقة الوصل ما بين البناء الأسري والبناء الاجتماعي المرتقب بحيث يكون مذكراً للأهل على الدوام بهدف وغاية وتنشئة الطفل والفرد ، ويربط هذه التربية والتنشئة بالدور المرتقب للطفل في تشكيل وصيانة هذا المجتمع . إنه معلّم مهم للأسرة المسلمة يذكرها بدورها ومسؤوليتها ومكانتها ويوفر لها دافعاً مستمراً للمضي قدماً في مسيرة التربية والبناء الفردي الموجه . ومن المعلوم أن وجود واقع ملموس هو أكثر تحريضاً للنفس من مجرد الخيال والوهم ، وإن هذا البناء الجماعي المصغر المشكل من مجموع الأسر في إطار قرابة الدم والمصاهرة إنما هو " بداية " الواقع الاجتماعي الأكبر الذي نرتقبه بفارغ الصبر ، فتنبه لهذا فإنه دقيق .

وأود الإشارة أيضاً إلى أن هذا التشكيل الأسري الموسع ضمن إطار صلة الدم والمصاهرة يعول عليه كثيراً في بعض الظروف التي تواجهها بعض المجتمعات المسلمة تحت ضغوط خارجية تحاول تجفيف منابع الدين عند الجيل الناشئ، فيتحول هذا التشكيل الأسري إلى المصدر الوحيد أحياناً لصياغة شخصية وفكر وعقل ونفس الطفل صياغة إسلامية حية وتنجو به من وأد الدين والحياة الحقيقية في نفسه .

(٣) التنبيه على الدسائس المقنعة بقناع العلم الرامية إلى المساس بأصل التركيب الأسري:

لقد أشرت فيما تقدم إلى بعض الطروحات "العلمية" التي بدأ يؤصلها "علماء" الغرب حول الشذوذ الجنسي و"سلامة" التركيب الأسري المشكل من أعضاء شاذين جنسياً، ورأينا كيف بدأ هذا الشذوذ يتخذ إطار "الشرعية" العلمية والاجتماعية والتشريعية في إطار النظم الوضعية . وخطورة الأمر كما بينت هي في إضفاء ذلك الإطار "العلمي" المزعوم على هذه الشذوذات، بحيث يخشى أن يتجه الغرب إلى "فرض" هذه التصورات على باقي المجتمعات - لا سيما الإسلامية - من خلال الأطر "العلمية" هذه، حيث إن الأمة الإسلامية مشغولة عن الصناعة العلمية بتوافه أخرى ولا تزال تصر على مجرد الاستهلاك العلمي لكل ما يصدره الغرب، وعندما ننظر إلى أسلوب تعامل المجتمعات الغربية مع بقية المجتمعات من خلال المنظمات الدولية - كمنظمة الأمم المتحدة - نجد أن صيغة هذا التعامل تميل نحو شيء من التسلط والقهر الفكري بدلاً من "التفاعل" الفكري بين مختلف الحضارات، فنحن لا نستطيع أن نتجاهل ميل الحضارة الغربية إلى فرض أفكارها ونتائجها الثقافية والاجتماعية والعلمية على باقي الأمم والشعوب، لا سيما حين تزين ذلك التسلط والفرض ببعض الأطر الإنسانية الاجتماعية . وهنا يكمن خطر التلقي المنفعل والتأثر السلبي بهذه الطروحات، حيث إن الكثير منا من المنهزمين داخلياً لا يجروء على

مناقشة أي طرح ذي صبغة علمية يصدر عن الغرب، لماذا؟ لأنه علم ولا يجوز أن نشكك فيه أو نتهمه. وأنا أقول لهؤلاء أن هذا العلم يقول أن الشذوذ الجنسي سلوك "طبيعي" موروث ومبرمج في الصيغة الوراثية والتشكيل الوراثي للوطني أو السحاقي، فماذا تقول أنت أمام هذا الطرح العلمي؟! إنهم يريدون هدم كل بدهي وكل فطري وكل طبيعي مركوز في الفطرة، يريدون أن يقلبوا الفطرة الإنسانية رأساً على عقب، ولكن هيهات؛ يقول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَرِيمُ وَلَكِنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم ٣٠)، قلت: أمامك أيها المسلم تصوران: تصور "علمي" شاذ وتصور "عقدي" سليم مستقيم، فلا يبهرك أن لبوس العلم فتنحرف، ولا تنفردن بعقلك عن عقيدتك فتضل. وإن كان في ذهنك إشكال وجود تعارض ظاهري بين العلم والدين بادرت إلى طمأنتك بأن هذا التعارض غير موجود حقيقة بل إنه تعارضٌ موهوم، ذلك أن ما يسمونه علماً ليس بعلم، وإن هذا التعارض هو من قبيل تعارض الظني مع القطعي وهو تعارض غير معتبر لأن الرجحان فيه محسوم لصالح الدليل القطعي - وهو في مقامنا هذا دليل الشرع والفطرة - ولقد نازع وشكك علماء غربيون كثيرون في صحة ودقة هذا الطرح "العلمي" الذي يريد أن يفسر السلوك الجنسي الشاذ تفسيراً حيواً وراثياً، ولا بد من أن يعلم القارئ أن التيار السياسي الأمريكي يسيطر عليه "لوبي" (أي تجمع) آخر - بالإضافة إلى اللوبي اليهودي الصهيوني - ألا وهو اللوبي الجنسي اللوطني السحاقي، ولهؤلاء برنامج سياسي واضح في الولايات المتحدة الأمريكية لا مجال للاطراء فيه الآن إلا أنه لا يبعد أن يكون جزءاً أو فرعاً من التيار اليهودي العامل على إفساد المجتمعات وانحلالها وخرابها.

كل ما أريد قوله هو وجوب الحذر من التلقي والتأثر المنفعل للطروحات الغريبة عن منهج ديننا، ونحن وإن كنا متأخرين علمياً وحضارياً ألا إن لدينا رصيلاً

من الثابت يسمح لنا بممارسة استقلالنا الفكري الحضاري بثقة تامة ريثما يتم استدراك التأخر العلمي المادي، ويبقى العبء على علماء هذه الأمة للنهوض والرد على هذه الشبهات وجلاء الحق ودفع الباطل لتطمئن نفوس الناس وتهدأ عقولهم. فاحذر أيها المسلم من أن تخذلك برامج الأمم المتحدة والبرامج الصحية الاجتماعية للمنظمات الدولية والتبشيرية والتنصيرية، واحذر من أن تتحول إلى مجرد مستهلك للنتاج الحضاري الغربي بل تحول إلى ناقد نشط متسلح بثوابت العقيدة رام إلى بناء فكر حضاري مستقل نزيه لا تلبس فيه ولا تدليس.

٤) تسهيل زواج الشباب:

لا بد من مواجهة مشكلة تأخر الزواج والصعوبات التي تواجه الشباب في الزواج، ولا بد من تحرك المجتمع برمته لحل هذه المشكلة لما لها من مضاعفات وسلبات لم يعد خاف على أحد حجمها وخطورتها. وعلى صعيد الأسرة نقول أنه يجب أن يكون تزويج الشاب والفتاة أمرا ذا أولوية خاصة عند الأهل لمن استطاع، ولا بد للأهل من أن يتقوا الله عز وجل ولا يحولوا عملية الزواج إلى تجارة ومراوحة واستغلال، كما يجب تربية الشاب والفتاة مبكرا على تحري الجيد والصالح من الخصال في شريك المستقبل وعدم الجري من وراء السراب، واعلم أن جريان الشاب والفتاة وراء المظاهر والمال والسيارة والمتاع الرخيص ليس وليد الساعة التي يتهاى فيها للزواج، إنما هو وليد تراكمات القيم والممارسات التي ربينا الطفل عليها في سنين حياته الأولى. وإن كتب الفقه والدين طافحة بالضوابط والآداب الخاصة بالنكاح سواء أكان من حيث اختيار الزوج والزوجة أم كان من حيث الأهداف المرادة من الزواج، وكثيرة هي الكتب النافعة في هذا المجال فأحيل القارئ إليها، وإنما مقامي هاهنا مقام الناصح والمذكر لنفسه ثم لغيره، والتأكيد هنا هو على الزواج المبكر من جهة، وعلى إعانة الشباب والفتيات على ذلك مع منع وإزالة كل العقبات والعوارض المانعة من الزواج المبكر، بل إن

فتاوى العلماء تقدم تزويج الولد على أداء فريضة الحج وليرجع إلى كتب الفقه لتفصيل ذلك.

وهكذا أكون قد استعرضت بإيجازٍ غير مُخلٍّ إن شاء الله غرض أعداء هذه الأمة في تقويض بيئة الطفل الأولى وحصنه الآمن، وهدم هذا البناء شكلاً ووظيفةً من أجل الانفراد بالطفل ومن ثم بالشاب ومن أجل استمالاته عن هدفه ودوره المرتقب. وتناولت بعض الوسائل المسخرة لتحقيق هذا الكيد، وأرجو أن أكون قد وفقت في عرض بعض مقترحات مواجهتها.

والأمر خطيرٌ في نفسه إلا أنه بسيطٌ من حيث مواجهته؛ بسيطٌ لأنه مركوزٌ في فطرتنا وفي عقيدتنا، وخطيرٌ لأنه ليس أمر طفل أو اثنين بل إنه أمر جيلٍ كامل، جيلٌ نعقد عليه آمالاً عظاماً ونعول عليه في تحقيق ما أخفنا فيه. فلنتعاون سوياً إذا على تحقيق الأسرة بمفهومها الإسلامي، ولنعِد للأسرة دورها، ولنتشوّف ببناء المجتمع المسلم من خلال هذه الوحدات الصغيرة، وتذكر دوماً كيف بدأ بناء مجتمع المدينة المنورة - أول مجتمع إسلامي - من خلال بث الإسلام في كل بيت وأُسرة على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه حين أرسله رسول الله ﷺ مع أهل بيعة العقبة الأولى ليعلم الناس الإسلام، وتلا ذلك بيعة العقبة الثانية وتلا ذلك الهجرة إلى المدينة المنورة، وكان استقبال المدينة لنبيها ﷺ، وكانت وحدات البناء الاجتماعي "جاهزة" للربط والتنسيق وجاهزة لتلقي سلطة الحكم الإسلامي والدولة الإسلامية، فكان التوافق والانسجام بين "الشعب" و"الدولة"، وكان المجتمع الإسلامي الأول راسخاً متيناً ثابتاً قوياً بفضل الله.

الخطر الرابع : الحشو الفكري :

إن من الثوابت العقلية التي يدركها كل عاقل متدبر قاعدة مهمة جداً مؤداها أن المشغول لا يشغل. فالحيز الواحد لا يتسع لأكثر من ماهية أو جرم أو هيئة إلا بقدر الفراغ المتبقي في هذا الحيز، فإذا اشغل الحيز بأكمله تعذر انشغال المحل

ثانية إلا بعد تفريغه . ولقد أدرك سلفنا الصالح أهمية هذا الأمر في المجال العقدي والنفسي فكان منهم ذلك المنهج المتميز في التربية النفسية والعقدية ألا وهو مبدأ "التخلية ثم التحلية"، ويشير ابن قيم الجوزية إلى هذا المعنى حين يجعل من شروط تلقي الصحيح للفهم والهدي الإلهي شرط تفريغ المحل القابل وانتفائه من الأضداد كما ذكر ذلك في كتابه "الفوائد" في شرح سورة ق.

فإذا انتقلنا إلى المحور الفكري والعقلي وجدنا أن الأمر لا يتجاوز هذه القاعدة البتة . ونحن نقرأ ونسمع عن تراجم سلفنا الصالح ويتكرر معنا أن فلانا قد حفظ القرآن الكريم في الخامسة أو السابعة من العمر وأنه قرأ كتب الحديث واللغة على شيوخه قبل العاشرة من العمر ، وتكرر دهشتنا ونفجر أفواهنا كلما تردد ذلك علينا لا سيما حين ننظر إلى أنفسنا وأولادنا في هذه السن وهم يلهون ويعبثون "ببراءة" الطفولة ، ثم نتساءل عن سر هذه المفارقة بين أجيالنا وأجيالهم ونخرج بنتيجة مؤداها أنهم جيل متميز لن يتكرر وأنهم طفرة بشرية لا تتكرر كثيراً وكأن العيب والشذوذ فيهم وليس فينا ! نحن نسمع ونعلم أن علماء الحديث والسنة قد حددوا سن الخامسة من العمر كحد أدنى لسماع وتلقي الحديث سماعاً معتبراً يعتد به ، ثم ننظر إلى أطفالنا في الخامسة من العمر ونسأل: كيف ذلك؟ بل انظر إلى أعجب من ذلك ، لقد حدد علماء الحديث سن الثالثة من العمر سناً معتبرة "لحضور" مجلس الحديث ، وأنا أستشهد بضوابط علماء الحديث لأنهم أشد الناس ضبطاً وصرامة في وضع ضوابط الدقة من أجل نقل وتحمل الحديث الشريف ، والشاهد أن مجرد هذا الطرح (أي تحديد سن حضور مجلس الحديث) يعني أن طائفة من "أطفال" المسلمين كانوا يحضرون بالفعل مجالس الحديث في هذه الأعمار المبكرة جداً وإلا ما كان هناك مسوغ شرعي أو عقلي لوضع ضوابط تحدد قبول هذه السن لتلقي أو سماع الحديث . ولا بد من أن نتوقف سوياً لتسائل عن هذه الظواهر ونحرر القول فيها ؛ والسؤال يتعلق بمحورين اثنين أولهما هو القابلية والاستعداد الفكري للطفل في هذه السن ، وثانيهما يتعلق بالظروف المحيطة بالطفل والعوامل

الخارجية المؤثرة فيه وسوف أستطرد في ذلك إن شاء الله. ولكن أستدرك وأقول أن عنصراً مهماً جداً يلعب دوراً كبيراً في عدم استعداد أطفالنا وأولادنا لتلقي أمثال ما تلقاه أقرانهم من السلف الصالح، هذا العنصر هو انشغال المحل وحشو الفكر حشواً قد ملأ أحيار التلقي لديهم فما عادت تتقبل عقولهم أية معطيات فكرية زائدة عما قد تم حشو عقولهم وأفكارهم به. إنها ظاهرة خطيرة جداً؛ ذلك الكم الهائل من الغثاء الذي نبشه في عقول أطفالنا منذ الصغر، غثاء نوعي وغثاء كمي، تفاهات وسطحيات نستغرب بعدها مدى السطحية والضحالة التي يعاني منها جيل الشباب الناشئ. إنها ظاهرة لا بد من التوقف عندها بعمق لأنها خطر يهدد أطفالنا وشبابنا وجيل المستقبل.

وسوف أحاول دراسة هذه الظاهرة من خلال المحورين الذين ذكرت آنفاً، وأحاول دراسة هذا الخطر وعوامل درئه ودفعه إن شاء الله تعالى.

أ - المحور الأول : قابلية التلقي والاستعداد الفكري للطفل :

لا يزال العلم يطلع علينا يوماً بعد يوم بالعجيب والمثير في عالم الأجنة والولدان والأطفال، ولا يزال ذلك كله يدعم ويؤكد منهج الإسلام في مقاربة الطفل منذ أبكر اللحظات على أساس أنه وحدة قابلة للفهم والتلقي - وليس منهج الإسلام بحاجة لما يدل على صحته إنما هي شواهد وعلامات تطمئن بها قلوب المؤمنين كما اطمأن قلب إبراهيم عليه السلام لما هو مؤمن به من قدرة الله عز وجل - ولقد أصبحنا نعلم وندرك أن فترة السنوات الخمس الأولى من عمر الطفل ليست مجرد فترة نمو وتشكل جسدي - نفسي فحسب، بل هي فترة تلقي واستقبال لمجمل المؤثرات والمعطيات التي تبدأ بتشكيل الرصيد الفكري والعقلي والنفسي للطفل، وهذا يستلزم أن تكون حواس وأدوات التلقي عاملة عند الطفل في هذه المرحلة أيضاً، بل إن بعض الشواهد تثبت أن الجنين في رحم أمه يسمع ويشعر ويدرك ويتذكر الأصوات ويتفاعل مع "محيطه" فما بالك بمن هو أكبر منه. أقول: لقد أصبحنا ندرك هذا كله بوضوح أكبر منه عند سلفنا الصالح ومع ذلك لا نزال نتساءل

عن إمكانيات الطفل وقدراته على تلقي المعطيات الفكرية لمنهج الإسلام. فلا بد إذا من أن نبرز أهمية السنوات الأولى من عمر الطفل كفرصة ذهبية لتعليم الطفل وصياغة منهجه الفكري، وإن هذه الفرصة سانحة أمام أطفالنا تماماً كما كانت سانحة أمام أطفال الجيل السابق من سلفنا الصالح، فما هو الإشكال الذي يواجه أطفالنا ويمنعهم من تفجير هذه الطاقات؟

ليس الإشكال في كمون الطفل وطاقاته أو قدرته، وإنما يقع الإشكال في الأمور التي يتم عبرها استنزاف هذه الطاقة الفكرية والقدرة العقلية للطفل معطلة قدرته على التلقي والاستيعاب، إنه استنزاف طاقة الطفل الفكرية بحشو فكري غريب غث لا معنى له ولا غرض له سوى الحشو والحشو والحشو، حتى لا يبقى في حيز الطفل الفكري أي شاغر يشغله عطاء فكري ذو معنى وهدف.

فالمحور الأول لهذه الظاهرة إذاً لا يمثل معضلة حقيقية، فأطفالنا قادرون على التلقي والاستقبال ولديهم طاقة فكرية وعقلية ولا يوجد أي دليل أو شاهد على تغير أو تدني هذا الاستعداد عند أطفال هذا الجيل مقارنة بالأجيال السابقة، فلننتقل إذاً إلى المحور الثاني لهذه الظاهرة.

ب. المحور الثاني: الظروف البيئية والعوامل الفاعلة في حيز الطفل الفكري :

لا بد من أن نتذكر أن دراسة عنصر من عناصر الخطر التي يتعرض لها الطفل وتحقيق تربيته السليمة إنما هي دراسة لجزئية من الجزئيات المندرجة ضمن منظومة معقدة متشابكة موجهة لتحطيم البناء التربوي والهيكل الفكري والاجتماعي للطفل والجيل الناشئ، لذا تستلزم دراستنا لجزئية من الجزئيات أن نستحضر تلك الشبكة العملاقة من التيارات العاملة على هدم بناء هذا الجيل، ولا بد من النظر إلى الحشو الفكري من خلال هذا المنظور حتى نستطيع أن نتعرف على حقيقة وحجم هذا الخطر. وأعدد فيما يلي بعض النقاط المهمة في هذا المجال:

(١) إن خطورة شغل الحيز الفكري للطفل تتناسب طردياً مع أهمية المعطيات الفكرية المناطة بفكر الطفل والجيل الناشئ. بمعنى أننا إذا كنا نشغل فكر الطفل بجزئية سطحية في مقابل جزئية سطحية أخرى فلا خطر ولا خسارة لأنه استبدال أمرٍ تافه بأمرٍ تافه آخر. أما إذا كان الأمر من باب استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير فهنا يكون الخطر حقيقياً والأثر خطيراً، لا سيما عندما تكون المنوطات الفكرية على مستوى من الحرجة مماثل لما عليه الحال في المعطيات الفكرية للمنهج الحضاري الإسلامي الذي نعد الطفل لتمثله. ومؤدى هذا الكلام أنه لا مجال لإقناع الآباء والأمهات والمربين بخطورة الحشو الفكري الذي يتعرض له الطفل المسلم ما لم يقتنع هؤلاء بعظم الأمر المنوط بفكر وعقل هذا الطفل والجيل الناشئ، ولقد تعرضنا في مقدمة الكتاب لهذا الأمر العظيم ألا وهو حمل رسالة الإسلام كاملة وتحويلها إلى واقع حضاري حقيقي يلმسه كل إنسان ويراه، إنه توريث قضية وتطبيق منهج والتزام انتماء إسلامي حي نابض لا مجرد توارث مناهج اجتماعية أو تقاليد عرفية بالية. ونحن أمام مهمة مضاعفة بالنسبة لهذا الجيل يتعلق الشق الأول منها بتحقيق الحاجة العينية من العلم الشرعي لكل أفراد، ويتعلق الشق الثاني منها بتحقيق الحاجة الكفائية من العلوم الكونية والتجريبية للأمة بأسرها. فالمهمة شاقة إذن والحمل ثقيل، ولا نستطيع أمام حمل كهذا أن نفرط بمثقال ذرة من الطاقة الفكرية والعقلية للجيل الناشئ والتي يتوقع أن تكون منوطاً لهذا الحمل والعبء الثقيل.

فإذا استطرنا قليلاً في هذا المجال نلاحظ أمراً دقيقاً جداً وهو أن فترة السنوات الخمس الأولى من عمر الطفل - أي فترة ما قبل المدرسة - هي فرصة تتميز بتفرد التأثير الأسري والمحيط الاجتماعي المباشر للطفل بتربية هذا الطفل إلى حد كبير، وهذا مهم من حيث أنه يمثل فرصة لاستيفاء جزء كبير من الحاجة العينية من العلم الشرعي وخاصة ما يتعلق بالعبادات النفسية التي مدارها على الاتباع والتعليم التلقيني الذي يتناسب من هذه المرحلة الفكرية والعقلية. وإن تحقيق هذا الأمر

يجعل الفرد متفرغاً لتحقيق الشق الثاني المتعلق بالحاجات العلمية الكفائية من جهة مع تطوير مطرد ومستمر لعلمه الشرعي قائم على أساس من التصفية والتربية والتعهد المستمر لما تلقاه وتعلمه في صغره. إن الصورة المعاكسة لهذا المنهج والتي تنفلت فيها العملية التربوية في المراحل المبكرة لحياة الطفل تتمثل في صورة الشاب أو الكهل الذي يمضي قدماً في تحصيل العلم الكوني بمعرض عن أي التزام شرعي ذي معنى حتى إذا تدارك هذا التقصير وأدرك تلك الثغرة في حاجته العلمية الشرعية اندفع لأجل "تعويض" ذلك النقص وعطل الكسب العلمي الكوني من أجل تعلم ما فات من أمور دينه، فإذا بنا بجيل من البالغين "المتعلمين" قد تركوا كل شيء وانكبوا على فقه الوضوء والصلاة والصوم والزكاة وعلم التجويد وغير ذلك من العبادات النسكية التي ما كان يحق للأهل أو المربين أن يهملوها في الصغر. (ولا يفهم من هذا أننا ننتقد تدارك المقصر لعلوم دينه بل إن هذا من أشرف ما تقضى به الأوقات وتفننى به الأعمار ولو كان في سن الشيخوخة، وإنما أنتقد هذا المنهج الذي يهمل الفرد في سنوات عمره المبكرة ويكمله إلى سن البلوغ والكهولة أو ربما الشيخوخة قبل أن يفقه شيئاً من أمور دينه). نحن بحاجة إذن إلى تجريد الحيز الفكري عند الطفل من كل غشاء لا ينفع والعمل على استغلال فترة التعلم التلقيني وملكة التقليد والحفظ عند الطفل دون الخامسة أو السابعة من العمر من أجل تعلم هذه العبادات النسكية القائمة على الاتباع حتى يتفرغ في شبابه وأشدّه إلى تحصيل علمي يسد حاجة كفاية للأمة في علم كوني أو يحقق اجتهاداً أو يسد ثغرة في العلم الشرعي.

(٢) إن شواغل الحيز الفكري عند الطفل لا تؤثر بمنع الإشغال بالأهم والأأنفع فحسب، بل إنها تؤثر بإفسادها وتأثيرها السلبي في صياغة فكر الطفل وفي بنائه التربوي النفسي. ولا بد من أن تتأمل هذه الشواغل حتى تدرك حقيقة هذا الأمر، تأمل معي كم من أطفال المسلمين يقضون جل أوقاتهم في مشاهدة برامج المرنانة (التلفاز) ثم انظر إلى محتوى هذه البرامج وما تبثه من ميوعة وسطحية وضحالة في

فكر الطفل، وانظر إلى ما يتعلمه الأطفال من أناشيد وأغان فارغة عديمة المعنى فارغة المحتوى اللهم إلا من فكرة سخيفة أو سيئة مدسوسة. ويتفاقم الخطر عندما نلاحظ مدى تحول الآباء والأمهات إلى مصادر الغرب يستلهمون منها تلك الأناشيد والقصص والألعاب "الإلكترونية" وألعاب "الفيديو" . . . وأكاد أجزم أن أحداً من الآباء والأمهات لا يدري عما تحتويه هذه الألعاب والملهيات شيئاً، وسوف أقدم لك بعض الأرقام الإحصائية الأمريكية حتى تتأمل في خطورة هذا التقليد الأعمى والانجراف الساذج وراء الغرب وأدواته:

١ - يقدر أن المراهق الأمريكي يقضي وسطياً نحو ١٥٠٠٠ ساعة في مشاهدة المرناة (التلفاز) مقارنة بنحو ١١٠٠٠ ساعة في الفصول الدراسية وذلك حتى تخرجه من مرحلة الثانوية العامة.^(١)

٢ - أظهر استبيان عام ١٩٨٨ أن المراهقين الأمريكيين يتعرضون لنحو ١٤٠٠٠ مشهد جنسي على شاشة المرناة (التلفاز) سنوياً.^(٢)

٣ - مع تقدم سن المراهق قد تقل ساعات مشاهدة المرناة ولكن على حساب زيادة الاهتمام بسماع الأغاني بحيث يقضي المراهق نحو ٤٠ ساعة أسبوعياً في الاستماع إلى الأغاني، وبشكل خاص الأغاني التصويرية أي التي تترافق فيها الأغنية الموسيقية مع التصوير المرئي. بحيث يقضي المراهق حوالي ساعتين يومياً في مشاهدة هذه الأغاني التصويرية. وإن ٧٥٪ من هذه الأغاني التصويرية تكون ذات محتوى تصويري جنسي مترافق بالعنف أيضاً في حالات كثيرة^(٣).

٤ - وفي إطار موازٍ للإحصاءات السابقة يقدر أنه ببلوغ السابعة عشر من العمر فإن ثلثي المراهقين الأمريكيين قد بدؤوا بعلاقات جنسية أقدموا فيها على الجماع

(١) .addressing television sexuality with adolescents, pediatric annals 24:2/Feb 1995

(٢) .addressing television sexuality with adolescents, pediatric annals 24:2/ Feb.1995

(٣) .rock music and music videos, pediatric annals, 24:2/Feb. 1995

(أي أنهم قد ارتكبوا فاحشة الزنا مرة على الأقل)^(١).

٥ - وأخيراً فمن المراهقين الذين اقتربوا الزنا قبل الثامنة عشرة من العمر صرح ٤٨ ٪ من الإناث أن لهن علاقة جنسية مع أربعة شركاء أو أكثر، أما الذكور فكان المتوسط لديهم هو خمسة شركاء جنسيين^(٢).

٦ - أظهر تقرير المعهد القومي الأمريكي للصحة العقلية عام ١٩٨٢ أن المراهقين الأمريكيين يصنفون الإعلام في المرتبة الثالثة بعد الأهل والأقران من حيث التأثير على سلوكهم ومواقفهم الحياتية^(٣).

هذه بعض الإحصاءات والدراسات من الغرب الأمريكي الذي نستورد منه الإعلام والثقافة ونقلده تقليداً أعمى على غير هدى ولا بصيرة، وهذه شهادة القوم أنفسهم على تأثر أطفالهم وشبابهم بنتائجهم الإعلامي ولا أرى ما يمنع مثل هذه التأثير في أطفالنا وشبابنا إن نحن أهملناه وتركناه فريسة سهلة لوسائل الإعلام الغربية ووسائل الحشو الفكري والتفريغ الفكري.

وهكذا فإذا استحضرننا هاتين النقطتين: خطورة الحشو الفكري وخطورة الشواغل الفكرية وقفنا على حجم الخطر الذي يهدد هذا الجيل من جراء هذه الظاهرة. ثم أتساءل بعد ذلك: كيف نورث قضية هذا الدين إلى أطفال نشأوا على الاهتمام بأسماء لاعبي كرة القدم وأسماء مطربي الجيل وأسماء الأميرات والراقصات والعازفات وعارضات الأزياء؟ وماذا تعني تربية الطفل على منهج الإسلام والطفل محجوب عن مصدر هذا المنهج - القرآن والسنة - بمئات الأنشيد التافهة والأغاني الفارغة التي لا يبقى معها مكان في فكر الطفل لآية قرآنية أو حديث نبوي شريف؟

(١) sex, teens, and media, contemporary pediatrics, vol.95, No. 1, Jan 1996

(٢) sexuality, contraception, and the media, pediatrics, vol.95, No.2, Feb. 1995

(٣) sex, teen, and the media, contemporary pediatrics, vol.13, Jan 1996

وماذا تعني مواقف السلف الصالح ومآثرهم وتضحياتهم وجهادهم عندما يتربى الطفل على قصص الكرتون و"ميكي ماوس" وغيرها من المميعات السلوكية والفكرية؟

نحن لسنا ضد اللعب والتسلية الملائمة لسن الطفل، ويجب ألا يفهم مما تقدم أننا نريد أن نحرم الطفل طفولته وبرأته، بل على العكس تماماً نريد أن نحافظ على هذه البراءة والفطرة السليمة من أن تتحول إلى آلة شيطانية أو مستنقع للأهواء والضلالات، ونحن نصر على أن اللعب والتسلية حق من حقوق الطفل ووسيلة مهمة لسد فراغ نفسي حركي عند الطفل ولكنها في الوقت ذاته وسيلة مهمة جداً في تربية الطفل وصياغته الفكرية ولا يجوز أن تهدر من خلال تمييع محتواها. إن اللعب والتسلية حق للطفل، ولكن محتوى اللعب والتسالي ليست حقاً إلا للمنهج الذي نربي الطفل عليه وهو منهج الإسلام حصراً ولقد عقدنا فصلاً خاصاً تناولنا فيه اللعب كوسيلة تربية فليرجع إليه.

وبعد أيها المسلم، فهلا جلست ساعة مع طفلك وحاولت أن تستعرض محتواه الفكري بما يناسب سنه؟ وهلا سألت ولدك أو ابنتك أن يعدد لك ما يحفظ من أسماء لاعبي الرياضة والمطربين ثم قارنت ذلك بما يحفظ من أسماء الصحابة والتابعين؟ وهلا قارنت ما يحفظ من أناشيد فارغة وقصص ضحلة بما يحفظ من القرآن والحديث؟ هلا فعلت ذلك لا شيء إلا لتدرك حجم التأثير المنفعل الذي يتعرض له طفلك من حيث تدري أو لا تدري؟ إن أحداً منا لا يأتي بولده ليلقنه أسماء عشرات المطربين ويطلبه بحفظها، فمن أين لذاكرة الطفل إذناً بهذا الرصيد الضخم من الأسماء الفارغة والهراء والتفاهات؟ إنه التلقي المنفعل من الشارع والمرناة والإعلام وغيره وغيره... فالأمر خفيّ إذناً ومخادع مدسوس ولا بد من التنبيه له لاتقاء أثره، ولا أراني بحاجة إلى مزيد تفصيل ففي الإشارة كفاية لكل عاقل متنبه.

وإنني أود أن أستكمل عرض هذا الأمر من خلال جملة من المقترحات والوصايا التي يمكن من خلالها مواجهة خطر الحشو الفكري وكما يقولون ؛ وبضدها تتميز الأشياء!

أساليب مقاومة الحشو الفكري:

(١) المشغول لا يشغل:

قاعدة تعمل دائماً بغض النظر عن ماهية الشواغل ، فكما أن الشاغل السيء يمنع حلول الشاغل الجيد ، فالعكس صحيح أيضاً . وإن أقوى وأنجع أسلوب لمكافحة الشواغل الضارة ومنعها من احتلال الحيز الفكري للطفل هو شغل هذا الحيز بالنافع المفيد . وليس أكثر مناسبة للمستوى الفكري للطفل في سنوات عمره الأولى من الحفظ ، وليس من استغلال أفضل لملكة الحفظ هذه ولشغل الحيز الفكري للطفل من القرآن الكريم ، فتحفيظ القرآن الكريم للطفل أفضل استثمار لملكة الحفظ والذاكرة النقية عند الطفل ، وأفضل مانع من حلول الشواغل الضارة في فكر الطفل ، وأفضل رصيد فكري يجده الطفل عندما يشب ويتطور مستواه الفكري إلى مستوى التعامل مع الرصيد الذي حصله خلال سنوات عمره الأولى . وليس هناك قوة في الأرض تستطيع منعنا من تحفيظ أولادنا كتاب الله ، لأن حفظ الصدور أحد وسائل حفظ كتاب الله الذي تعهد الله عز وجل ببقائه سالماً ، فإذا تعهد الله بحفظ الكتاب فلقد تعهد بحفظ الوسائل اللازمة لذلك وهي حفظ الصدور ونقش السطور ، واعلم أخي أن حفظ هذه الأمة لكتاب ربها في صدور أبنائها هو أحد خصائص هذه الأمة ، فلا تحرم ولدك وابنتك من شرف هذه المهمة ولا تحرمهما من النفع العظيم لهذا الشاغل الفكري .

(٢) الحرص على اختيار الأناشيد ذات المعنى والمحتوى الملائم لمنهج الفكر الإسلامي ومستوى الطفل الفكري ، والبعد كل البعد عن التفاهات والمميعات

- الساذجة. كما أنبه على ضرورة ربط الأناشيد ذات المغزى الوطني بالإطار الإسلامي العام حتى لا ينجذب الطفل إلى مصيدة الانتماء الوطني المحدود بل لا بد من الحرص على تجريد الولاء والانتماء لله ونفي الولاء لغير الله عز وجل.
- (٣) مراقبة محتوى كل ما يشاهده ويسمعه الطفل من برامج وألعاب وأغان وتسال وغير ذلك سواء كان في المنزل أو الشارع أو المدرسة والمصارعة إلى بيان ودحض ورد أي سيئ يقع على مسامع الطفل أو مشاهده. إن أسلوب النقد وإظهار الخطأ وبيان الصواب يقي الطفل من التأثير السلبي بالمعطيات السلبية لمحيطه الاجتماعي، وينمي ملكة المحاكمة والصواب والخطأ لديه.
- (٤) قراءة السيرة النبوية وقصص الصحابة على الطفل حسب السن الملائمة وبالأسلوب الملائم، وذلك كبديل للقصص الخرافية القائمة على خزعبلات سطحية ضحلة مستعارة من تقاليد الشرق والغرب.
- (٥) تحديد أوقات خاصة لمشاهدة المرناة (التلفاز) والحرص على مشاركة الطفل في مشاهدة بعض البرامج للتنبيه على الغث والسمين والصالح والطالح، والمحافظة على الجو الأسري ومنع الانفرادية والعزلة، وواضح أن هذا مقيد بالبرامج النافعة الخالية من المخالفات الشرعية.
- (٦) اتقاء عزلة الطفل وانفراده؛ بل يجب الحرص على مخالطة أقرانه الصالحين وتفريغ الآباء والأمهات لبعض الوقت المخصص للعب والتسلية والقصص والمرح حتى يستشعر الطفل انتماءه للهيكل الأسري مما يقلل من احتمال تعرضه للتأثيرات الخارجية السيئة.
- (٧) الحرص على اصطحاب الأطفال إلى المساجد، فالمساجد بيوت الله ولا بد من أن يتعلق قلب الطفل بها صغيراً حتى يرتادها كبيراً، ولا بأس في أن تكون هناك نشاطات غير نسكية في المسجد من لعب ومسابقة ورياضة تجذب الطفل والشاب إلى المسجد ريثما يستشعر جمال العبادة النسكية فيه، ولا بد من العمل على تحويل مساجدنا إلى خلايا عاملة ٢٤ ساعة يومياً ما بين صلاة ودرس

وخطبة ورياضة ومسابقة، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة؛ فلقد كان الصبيان يمارسون الرياضة والمسابقة في المسجد على علم ومرأى منه ﷺ فلا ينكره بل يقره ويشجعه .

وبعد، فهذه طائفة من وسائل مكافحة الحشو الفكري للطفل والعمل على استثمار طاقته العقلية والفكرية فيما هو مفيد ونافع وملائم لعمره وسنه. ولا بد من النظر إلى هذه الوسائل ضمن منظومة متكاملة من الوسائل التربوية المتممة التي تعطي الطفل حقه في كل ناحية من نواحي التربية والتطور الروحي الحركي، وتفي في ذات الوقت بمستلزمات التربية والنضج الفكري الذي يحقق مناهج المسؤولية عند الطفل شاباً وبالغاً فيما بعد، وبالله التوفيق.

الخطر الخامس: التغريب الفكري:

وأعني بهذا الاصطلاح السعي الحثيث لدى وسائل الاستكبار العالمي وأذرعه العاملة في حنايا مجتمعاتنا الإسلامية إلى تكييف هوية وفكر الطفل والشاب بحسب نسق غريب عن هويتنا الإسلامية وبعيد عن الانتماء الإسلامي بحيث لا يأبه الشاب والفتاة إلى مجريات الواقع التي لها مساس بجذور الهوية الإسلامية والتي هي المحور الحقيقي للصراع ما بين الأمة الإسلامية وأجهزة الاستكبار العالمي .

إن التغريب الفكري منهج متكامل يسعى من خلاله الاستكبار العالمي عبر واجهات عديدة وخلف أقنعة كثيرة إلى سلخ الجيل الناشئ طفلاً وشاباً عن هويته الإسلامية وجذوره الحضارية، وتعطيله بالتالي عن دوره الوظيفي في الصراع الحضاري المصيري التي تدور رحاه على أرض الواقع. إنه منهج يهدف إلى صناعة جيل غريب على مجتمعه، غريب على مبادئه وخلق، غريب على جذوره التاريخية والحضارية، وغريب على واقع الصراع الذي تعيشه أمتة في أحلك الظروف وأصعبها. إنهم يريدون بذلك جيلاً غريباً يأخذ ببصره بريق زائف يحول عينيه عن الظلام القاتم الذي أسدل ستره على أمتنا، يريدون بذلك حرمان هذه الأمة من طاقاتها وقدراتها البشرية بعد أن استولوا على طاقاتها و ثرواتها الطبيعية والجغرافية.

إن الاستكبار العالمي والآلة العالمي الصهيونية تريد أن تصنع جيلاً في هذه الأمة يتنكر حتى للتاريخ القريب الذي لم يجاوز القرن من الزمن بكل ما فيه من نكسات وهزائم قرن من الزمن خسرن فيه الخلافة والدولة، وخسرن فيه ثالث القبلتين، وخسرن فيه كل شيء حتى الإنسان، يريدون أن ينسى هذا الجيل كل هذه الوقائع من الأمس القريب، بينما ينبشون - بزعمهم - ذكريات مضى عليها آلاف السنين بدءاً بالفوقية المزعومة لشعبهم الضال، ومروراً بمعبدتهم وهيكلهم الضائع الموهوم. يحق للآلة الصهيونية حسب هذه المنظومة أن تجعل من أحداث مزعومة مر عليها آلاف السنين محوراً لشرعية وجودهم وبطشهم وتسلطهم، ويحرم على جيل هذه الأمة حسب هذه المنظومة أن يدخلوا أياً من أحداث الأمس والماضي القريب الذي لا يزال العالم يشهد بصحتها وواقعيتها، يحرم عليه أن يدخلها في منظومة الصراع الحضاري الذي نعيش، ومنظومة البناء الأممي الذي نسعى إليه.

فإذا أفلح التغريب في سلخ جيل جديد عن واقعه وماضيه القريب، فأنى لنا أن نحیی فيه جذوره وماضيه البعيد؟ إن جيلاً ينسى أن أرضه وداره قد اغتصبتا في الأمس القريب سينسى أن مؤامرة خسيصة قد حيكت لقتل الرسول ﷺ في الأمس البعيد، وهو إذا نسي الغضب والخيانة لم يعرف الخائن ولا المغتصب ولم يعطه حقه من بغض والعداء ولم يأمن جانبه بالحذر والحيطه . وللأسف الشديد فإن من بين صفوفنا ومن أبناء جلدتنا من يستجيب لهذه الاتجاهات التي تريد سلخ الجيل الناشئ عن هذا كله ولسان حالهم ما وصف الله به جماعة من المسلمين: ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ (التوبة ٤٧).

هذا بصورة عامة ما اصطلحت عليه بالتغريب الفكري، ولقد أشرت في سياق التعريف إلى الهدف من هذا التغريب ألا وهو شل الفرد وبالتالي شل الجيل عن أداء دوره الوظيفي في البناء الاجتماعي والأممي على الوجه المنسجم مع المنظومة الإسلامية، إنها عملية طمس هوية إن شئت تجعل من الفرد ومن ثم الجيل كياناً لا مبالياً معطلاً لا يخدم الدور المنوط به لا من قريب ولا من بعيد.

وليس فيما قدمت أي مبالغة أو تضخيم ، وليس لوصف آلة الكيد الصهيونية أو آلة الاستكبار العالمي أي تهويل أو تضخيم لواقع غير حقيقي كما أن ليس فيه إلقاء بالتبعية أو اللوم على غير أنفسنا لأنه لو لم يكن فينا سماعون لهم ولو لم يكن فينا ضعفٌ في النفوس وضعضة في العقيدة لما كان لكل كيد الدنيا أثرٌ يذكر ، ولست ممن يهوون التفسير التأمري لتاريخ الأمة المعاصر ، ولكني أيضا لست ممن ينتمون إلى فريق السذاجة والسطحية الذين يظنون الخير بعدوهم فيؤخذون من قبله مرات ومرات ، وإذا أراد أهل هذا الفريق تطبيق مبادئ الحب والود والتسامح فليفعلوا مع إخوانهم المسلمين والمسلمين من أهل الذمة وليكن هدفهم تطبيق الرسم القرآني لمجتمع الصحابة الكرام : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح ٢٩) .

ولعل صورة هذا الكيد تتضح وترسم بعض ملامحها حين نتأمل سوية بعض أساليب ووسائل التغريب الفكري في بلادنا ومجتمعاتنا ، فلنمضي سوية نتدبر بعض هذه المسائل .

وسائل التغريب الفكري :

كثيرة هي الوسائل التي تعمل على تنحية الانتماء الفردي عن الانتماء الإسلامي والتطبع بالهوية الحضارية الإسلامية عقدياً وتاريخياً . ومن هذه الوسائل ما يلي :

١) التسرب والتسلل إلى مناهج الدراسة ونشر المدارس الأجنبية :

حين نتكلم عن صناعة جيل وتربيته وتنشئته على المستوى الاجتماعي فإننا لا نستطيع أن نغفل الدور الحرج الذي تلعبه المدرسة في الفرد والجيل سواء أكان على المستوى الكمي أم على المستوى الكيفي . نحن نتكلم عن صناعة فكرية علمية منهجية يمتد أثرها نحو اثني عشر عاما ويتناول محتواها الكيفي كل محور من محاور العلم والثقافة والفكر والأدب والدين والمجتمع . نحن نتكلم عن البيئة التي تربي أفراد هذا الجيل ليكون منها المهندس والطبيب والمهني والحرفي والأستاذ

والعالم والسياسي والاقتصادي وغير ذلك مما يناط به مهمة النهوض الحضاري بالأمّة . ولا نستطيع مع هذا كله أن نقبل بأن يكون إفراز هذه البيئة غريباً عن الأمّة التي تنتظر صناعة هذا الجيل بفارغ الصبر .

ونحن ننظر مع الأسف إلى الكثير من مدارس أطفالنا وأبنائنا فتجد تدريس الدين مفرغاً من الربط العقائدي الواقعي الذي يحول الدين إلى منهج تغيير شامل بدلاً من أن يظل قابعاً في الصدور ، ونجد تكريس العلمنة حثيثاً ضمن العديد من الأطر والصياغات المنحرفة عن مفهوم الحاكمية والسيادة المطلقة لشريعة الإسلام وحكم الله عز وجل ، وتجد تدريس العلوم التجريبية والكونية مجرداً عن الربط العلمي الشرعي وعن التأطير المناسب ضمن صيغ العبادة بمفهومها الشامل لها بحيث يترسخ ذلك الفصام العلمي الكوني والعلمي الشرعي الذي يسيطر على أذهان الكثير من أفراد الجيل ، ونجد تدريس التاريخ والجغرافيا مفرغاً من حقائق التاريخ ووقائعه ذات الصلة المحورية بقضايا هذا الدين هذا إن لم يكن التاريخ المدرّس محرفاً أو مدسوساً ، ونجده منسلخاً عن واقع الصراع الحضاري المعاصر الذي تعيشه أمتنا ؛ نجد تاريخاً يدرس عبقرية نابليون القائد العسكري العظيم كما يصورونه دون أن يذكر الحضيض الذي بلغه أخلاقياً وسلوكياً وإنسانياً ، ويدرس الحرب العالمية الأولى والثانية ولا يذكر أنه أكبر سجل إجرامي إرهابي في تاريخ العالم ، ويدرس فلسفة سقراط ونيثشة ولينين في موادنا الاجتماعية والفلسفية دون أن يبين عوارها وسقوطها عن المستوى اللائق بجنس الإنسان . . حتى اللغة العربية بدأت تطمس معالمها في مدارسنا فتجد من الطلاب من لا يكاد يعرف إعراب جملة أو نطق عبارة بدون لحن واضطراب . .

أما المدارس الأجنبية فحدث ولا حرج ؛ تلك المدارس التي هي أوكار التخريب الفكري والاجتماعي والعقائدي بدءاً بكل ما فيها من دس وتحريف في محتوى المواد التعليمية "الإنسانية" من تاريخ وفلسفة وأدب ودين ، وانتهاءً بالصياغة المتمهلة للنمط الحياتي الاجتماعي الغربي المنحل والمتفلت عن كل الضوابط الاجتماعية

الإسلامية من اختلاط وسفور وفسق ومجون وميوعة وخلاعة وانحلال . . تلك المدارس التي لا يتخاطب فيها إلا بالأجنبية، ولا يتعامل فيها إلا "بالإتيكيت"، ولا يعترف فيها إلا بمعالم الفلسفة الاجتماعية المنحلة، لا مكان فيها للغة الضاد ولا في مقرر التاريخ فيها لكلمة صدق، ولا مكان في ساعات الفراغ إلا للمنكرات واللهو المنحرف، والله يشهد أنني لا أبالغ فيما أقول وما على القارئ إلى أن يصرف شيئا من وقته لينظر فيما يدرس لابنه وابنته في هذه المدارس . بل إنه لم يمض زمن بعيد على فضيحة تدريس إحدى الجامعات الأمريكية في بلد عربي مسلم لكتاب سافر متهجم على الإسلام للكاتب الفرنسي "ماكسيم رودنسون" والكتاب باسم "محمد" وهو هجوم وقذح في شخص الرسول ﷺ بأبي هو وأمي، وإذا بهذه الحادثة تميظ اللثام عن حقيقة مريرة وهي أن مقررات التدريس في الجامعات الأجنبية لا تخضع لأي رقابة حكومية على محتواها! وليس خوفنا من كتاب وقح متجري على شخص الرسول ﷺ ككتاب ماكسيم رودنسون، إنما خوفنا من الدس الخفي والتحريف المشبوه للحقائق والوقائع مما ينطبع وترسخ في ذهن الشاب والفتاة ولا يتنبه له إلا من رحم ربي . ومع هذا كله لا تزال الأسر المسلمة تتفاخر باللغات الأجنبية التي يتشدق بها أبناؤها وبالمدرسة أو الجامعة الأجنبية التي يدرس فيها في بلده المسلم ومجتمعه المسلم .

٢) التسرب والتسلل إلى الحياة الاجتماعية :

لقد بات واضحاً لكل واحد منا ذلك التغلغل العميق لنمط الحياة الاجتماعية الغربية في مجتمعاتنا الإسلامية، وبات من المكابرة إغفال ذلك الواقع المتطبع بكل جزئية من جزئياته بالطابع الغربي الأجنبي . تأمل في الشارع والمدرسة والسوق والجامعة والمنتدى هل تجد إلا زياً أجنبياً ولافتةً مكتوبةً بلغة أجنبية ومطعماً أجنبياً و"جواً" أجنبياً واحتفالاً بأعياد الهالوين والكريسماس "عيد الميلاد" وعيد الحب وعيد الخراب . . . ألم تر إلى أهالي المسلمين وهم مصطفىون مع أولادهم من أجل التقاط صورة لهم مع "بابا نويل"؟ هل تسمع في الحافلة إلا أغنية غريبة؟ وهل

تسمع من أولادك غير أسماء المطربين والمطربات الغربيين والغربيات المنحلين منهم والمنحلات؟ وهل يعرف طفلك الصغير لعبة سوى "ميكي ماوس" و "باجز باني"؟ وهل يحلم الطفل الصغير إلا برحلة إلى "ديزني لاند" أم هل تحلم الفتاة الصغيرة بغير رحلة إلى عالم "هوليوود"؟ نعم إنها جزئيات صغيرة ودقيقة ولكنها حقيقية وواقعية، وإذا كان التقليد في الأمور العظام دليل حب وولاء المقلد لمن يقلده، فإن كثرة التقليد في الجزئيات والصغائر لها نفس الدلالة بلا ريب، بل لا يقوى على المتابعة في الصغائر والجزئيات الدقيقة إلا من كان له تعلق وشغف بذلك الذي يقلده، ولئن كان الحال كذلك فنحن في مصيبة عظيمة بلا شك.

حتى قصة الشعر تقليعة غربية والمشية المترنحة تقليد غربي، وألوان قوس قزح على وجوه فتياتنا تقليعة غربية والسلسلة الذهبية في عنق شبابتنا تقليعة غربية..

حتى ثقافة "الشارع" التي تواجهها وتسمعها رغما عنك تقليد غربي، وحتى الأسماء واللافتات في الشوارع غربية، ألم تر معي وأنت تسير في الشارع: "ماكدونالدز"، "بيتزا هات"، "سوبر ماركت"، "بوتيك".... أسماء لا مكان لها في قواميسنا ولا أصل لها في معاجمنا وحضارتنا. وإن الناظر في كل هذا يستشعر أن الطابع الغربي بات يصبغ حياتنا الاجتماعية في كل منحنى وفي كل حيثة، ونتألم كثيراً عندما نرى ذلك لأنه مخالف لأمر الله عز وجل لنا بأن نصبغ حياتنا بصبغة أخرى هي صبغة الإسلام، يقول الله عز وجل: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (البقرة ١٣٨).

وهل هناك تغريب فكري أشد من أن تصطبغ حياتنا الاجتماعية وحياة أطفالنا وشبابنا بتلك الصبغة الغربية الغربية وبالطابع الغربي واللكنة الغربية؟ يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ (الفتح ٢٩) فإذا كانت سيماء الوجوه

الصالحة من أثر السجود دليل الإيمان ودليل التلبس بصفات الفرد والمجتمع المسلم، فعلى ماذا تدل سيماء الوجوه المتطبعة بطابع الغرب والمصطبغة بصبغته؟! هذه بعض ملامح واتجاهات التغريب واتجاهات مسخ الهوية؛ هوية الفرد وهوية الجيل. فلقد أصبحنا نتعامل مع جيل يعرف كل شيء عن الثورة الفرنسية ولكنه لا يعرف شيئاً عن مذبحة دير ياسين، ويعرف امتداد الإمبراطورية البريطانية ولكنه لا يتذكر وعد بلفور، ويحقق على "الاحتلال التركي" للبلاد العربية - كما يسميه البعض - أيام الدولة العثمانية ولا يعرف شيئاً عن دفاع السلطان عبد الحميد المستميت عن أرض فلسطين، وهكذا..

لقد خاطب الله تعالى المسلمين مستنفرًا إياهم لقتال من بآءاهم القتال من الكفار والمشركين في سورة التوبة حيث يقول عز وجل: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة ١٤-١٥)، وإنني أتساءل: أتساءل كيف يتحرك الغيظ في قلوب أبناء هذا الجيل وكيف يتجهون لشفاء الصدور ثاراً لشهداء هذه الأمة إذا كانوا لا يعرفون عن شهادتهم شيئاً؟ كيف نشف صدور قوم مؤمنين لا يعرفون شيئاً عن كفر قاسم ودير ياسين وصبرا وشاتيلا وعين الحلوة وقانا والحرم الإبراهيمي؟ كيف؟

إن جيلاً غريباً عن هذا التاريخ وغريباً عن هذا القرآن وغريباً عن هذا الصراع كله لن يتجه يوماً لشفاء الصدور وذهاب غيظ القلوب، لأن صدره لم يحمل الجرح يوماً، ولأن قلبه لم يشتط غيظاً يوماً...

وإذا تساءلت أخي المسلم أختي المسلمة عن علاقة هذا كله بتربية الطفل قلت: تأمل في أعمار أولئك الذين يلقون بحجر في وجه الطاغوت لنرى أنهم أطفال، وتأمل في الرجال الذين أثقلهم عبء الرسالة فتراخوا عنها وتذكر أنهم كانوا أطفالاً وأنه كان من الممكن تربيتهم على غير ما شبوا عليه.

تذكر أخى المسلم أن محور الصراع الآن وعنصره الرئيسي هو الإنسان والإنسان فرد يبدأ طفلاً في بيتك ومنزلك وفي كنف تربيتك ولا يخرج إلى بيئة المدرسة والمجتمع إلا بعد خمس أو ست سنوات في رعايتك، فماذا تفعل لوقاية هذا الفرد من التغريب؟

إذا تأملت هذا، فلنمض سوية لننظر في بعض وسائل مكافحة هذه الأخطار المحيطة والمحيط بأطفالنا وجيلنا، ولنسأل الله العون على اتقانها ودرء مفسدها.

ومائل الصمود والتصدي لأساليب التغريب الفكرى:

لقد تبين لنا مما تقدم أن الصعيدين الرحبين اللذين يتظاهر فيهما تأثير معظم وسائل التغريب الفكرى هما المدرسة والمجتمع. فلا بد أن تكون وسائل التصدي موجهة نحو هذين المجالين، كما أنه لا بد أن تكون مراكز المعاوضة مركزة في المجال الثالث لبيئة الطفل ألا وهو المنزل. وسوف نتناول وسائل التصدي باعتبار مجال المواجهة ليتضح دور كل منها في وقاية الطفل والشباب من هذا الخطر.

١) وسائل التصدي لأساليب التغريب على مستوى المدرسة:

ولقد فرقنا بين نوعين من المدارس : النوع الأول هو المدارس الأجنبية المنتشرة في بلاد المسلمين وهذه مواجهتها سهلة بسيطة من حيث الفعل ألا وهو المقاطعة، لكن قد يصعب هذا الفعل البسيط على بعض المتشبهين بالدونية تجاه "الفوقية" المزعومة لكل ما هو أجنبي، وهذه فرصة لهؤلاء الأخوة لمراجعة هذا الموقف، لاسيما وأن هذا الأجنبي الأفضل يسعى لتدمير أولادهم ولهدم جيل هذه الأمة؛ علينا أن نتذكر وصف القرآن الكريم لموقف العداء الدينى والعقدي الواضح لغير المسلمين تجاه المسلمين، تأمل معي قول الله عز وجل: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة ١٠٥) ثم قوله

تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة ١٠٩)، فكيف نسلم أطفالنا وأولادنا إلى هذه المدارس التي يقوم عليها أناس لا يودون أن ينزل علينا من خير من ربنا أي خير، ويودون لو يردوننا من بعد إيماننا كفاراً حسداً؟! تخيل أنك تلقي بقلعة كبدك إلى ذاك الذي يحسده ويبغضه ولا يريد له أي لون من ألوان الخير ثم تكل إليه أمر تربيته ورعايته، إنه لأمر عجاب حقاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فالله الله أخوتي نخلص أولادنا من برائن هؤلاء، والفعل بسيط كما قدمت : المقاطعة الفورية والشاملة لكل المدارس الأجنبية ولكل أنشطتها التعليمية والاجتماعية والفكرية والأدبية. والفعل بسيط بالنسبة لمن استطاع التحرر من أسر التبعية المقيتة للغرب ووضع حق الله ومسئوليته في رعاية أطفاله فوق حظ النفس من الشهوة والمباهاة والمفاخرة الفارغة.

أما النوع الثاني فهو المدارس المحلية غير الأجنبية، وقد ظهر لنا مع الأسف تأثير كثير من هذه المدارس بالضغط الموجهة لتحريف مناهجها الدراسية بحيث تسير نحو تحقيق أهداف التغريب الفكري الذي يبيناً شيئاً من معالمه، ولا بد لنا من أجل التعامل مع هذا الواقع الذي وصلت إليه الكثير من مدارسنا المحلية ومناهجنا الدراسية من أن نضخم ونفعل دور الأسرة والمنزل من أجل التعويض النوعي والكيفي لما يلقي إلى الطفل والشاب من أجل رأب ذلك الخلل وسد ذلك الفراغ الذي تحدثه مناهج التدريس المعاصرة في فكر الطفل المسلم والشاب المسلم. فلم يعد دور الأسرة في مجال التعليم مجرد متابعة التحصيل العلمي عند الطفل والشاب بل أصبح دورها فاعلاً وحرماً جداً حيث يتمثل هذا الدور في قيام الأهل بعملية سبر مناهج التعليم - لاسيما ما يتعلق بالمواد والعلوم "الإنسانية" كاللغة والدين والتاريخ والجغرافيا والاجتماع والفلسفة والآداب - إذ لا بد من سبر هذه المناهج لكشف الخلل والزيغ فيها وتصحيح فكر الطفل والشاب الذي يتعرض لها قبل أن تترسخ

مفاهيمها في عقله وفكره، ولا بد من كشف الحقائق وإمالة اللثام عن الأمور كما هي على الحقيقة، لا بد من تسمية الأشياء بأسمائها دون زيف أو خداع، ولا بد من توريث قضايا الأمة حسب منهج فكري واسع تمارسه الأسرة وتطبقه حسب نضج الطفل والشاب؛ فالمدرسة التي تقتصر على تدريس آيات مكارم الأخلاق والسلام والحب والوفاء من جهة وتدرس قصائد الرقة والميوعة وتدرس التاريخ وعليه ألف قناع وقناع، وتدرس جغرافيا النظام العالمي الجديد وتدرس فلسفة ماركس ولينين وتدرس اجتماعيات أرسطو وسقراط... هذه المدرسة لا بد من مواجهتها في المنزل بتدريس سور الأنفال والتوبة والإسراء وتدريس قصائد الفروسية والرجولة وتدريس تاريخ صادق لا كذب فيه ولا خداع، تاريخ حضارة قامت عليها الدنيا كما تقوم الأكلة على قصعتها، تاريخاً ترفرف فيه راية الإسلام على الأندلس والصين والبلقان وأفريقيا والأناضول.... وتدرس جغرافيا القدس فيها عاصمة فلسطين لا عاصمة نسل القروء، وتضرب بعرض الحائط النظام العالمي الجديد الذي تذوب فيه معالم الإسلام وحكم الإسلام ودولة الإسلام، وتدرس فلسفة قوامها مبادئ العقيدة والإيمان وتدرس اجتماعيات عمر الفاروق وعمر بن عبد العزيز، وهكذا... هذا كله جزء من دور الأسرة في مواجهة خلل مناهج التدريس لدينا في جزء منها على الأقل، أما الدور الآخر فهو دور الأسر والأهالي في الضغط على مسئولى التربية والتعليم وأساتذة هذا الجيل ليصححوا هذه المناهج ويقولوا في الله كلمة حق لا يخافون فيها لومة لائم، وكفانا ذليلة لمناهج الشرق والغرب، وكفانا تبعيةً وخنوعاً لمشاريع الهدم الحضاري التي تخطط لنا في لندن وواشنطن وموسكو وتل أبيب.

فإلى الأمهات اللواتي تقالن دور الأم وتعتبرنه وظيفةً دنيئةً أقول: هاك مهمة تنوء بها همم الرجال وتعجز عنها دول وحكومات، فهل لك أن تعودي إلى مملكتك لتتشئي لنا جيلاً يرث قضية هذه الأمة ويرفع لها رايةً ويعقد لها لواءً؟ أم أنك تصيرين على مزاحمة موكب الحياة في غير ما يليق بك وبدورك العظيم؟

وأنت أيها الأب لا تحسبن مسؤولية الأم إعفاءً لك من مسئوليتك، فدورك كبير

ومسئوليتك عظيمة أيضاً ، فالحذر الحذر من الغفلة والتراخي ، وإياك إياك التقاعس والخمول .

٢) وسائل التصدي لأساليب التغريب في مجال المجتمع :

إن المجتمع الذي وصفنا جزءً منه فيما تقدم وبيننا تطبعه - مع الأسف - بالطابع الغربي ثقافةً ولغةً وحضارةً وسلوكاً ، هذا المجتمع لا يزال - بحمد الله - ينطوي على جزء آخر في معظم مجتمعاتنا ألا وهو المسجد والمكتبة والمنتدى الثقافي والعلمي ، لا يزال صوت المؤذن يملأ الدنيا خمس مرات في اليوم والمساجد تلتمس من يقيم جماعتها ، ولا زالت أمهات الكتب في المكتبات تنتظر من ينفخ الغبار عنها وينهل من معينها ، ولا يزال المنتدى والملتقى ينتظر من يقيم فيه محاضرة ذات شأن توقظ النائم وتحفز الوعي وتعين الناشط وتوجهه .

إن تيار التغريب في المجتمع لا يمكن مواجهته إلا بتيار مضاد هو تيار الأسلمة ، وهذا التيار لا يشكله الواحد والاثنان إنما يشكله عشرات ومئات وألوف الشباب ، إن الغرب الذي يريد أن يضع بصماته في شوارعنا وحاراتنا وأسواقنا ومجتمعاتنا لا يصدده ولا يرده على أدباره إلا تيارٌ مسلمٌ يدافع عن هوية مجتمعاتنا ، تيار مسلم يتحول فيه الأذان إلى اجتماع عام وجبهة إيمانية تحضرها ملائكة الأرض والسماء لا مجرد كلمات تتردد في الأجواء بلا صدى بشري يلبي النداء حق التلبية ، تيار مسلم يواجه محاضرة العلمانية بمحاضرة الحاكمية لله ، ومحاضرة الدعوة إلى الانحلال والفسفور بمحاضرة الدعوة إلى الحجاب والعفاف ، تيارٌ مسلم يواجه لغة التغريب بلغة الضاد ، ويواجه برامج الاختلاط والفساد ببرامج الزواج والتكاثر الأسري . . إنه تيار عام يسري في المجتمع ليقه امتداد أذرع السرطان التغريبي الآخذ بالانتشار ، تيار يواجه رموز الفن المنحط والقذوة السلوكية المنحرفة برموز السلف الصالح والقذوة السلوكية السوية ، تيار يقف فيه العالم ليصدع بكلمة الحق ويقول للحرام حرام وللحلل حلال دون ممالقة ومداهنة ومرأاة ، ودون تبرير وتسويق وتمييع . .

وإنما يتم هذا كله وفق منهج عقدي فكري خاضع لفقهٍ مرحلي دقيق لا ثوران فيه ولا هياج ولا انفعال ولا تفلت، بل منهج منضبط متزن يوفق بين جلب المصالح ودرء المفاسد (أعني المعتبرة شرعاً) ويتأسى بنهج الرسول ﷺ في التغيير؛ الرسول ﷺ الذي لم يمد يده ليزيح صنماً واحداً من حول الكعبة طيلة ١٣ عاماً حيث لم يحن الوقت بعد، إلا أنه حين آن الأوان وانتفت الموانع والمفاسد الأكبر هدم ما ينيف عن ٣٠٠ صنم في وقتٍ واحد ليظهر البيت العتيق من رجس الوثنية والشرك.

وحذار أن تفهم أيها الحبيب مما قدمت أننا ندعو إلى الرعونة والغوغائية، نحن لا نдахن في الحق ولكننا لا نضيع الحق بالأسلوب الباطل أو الخاطيء لمجرد نزوة عاطفية أو هيجان نفسي، وإن ضابط الإخلاص في النية لله عز وجل هو حسن متابعة منهج الرسول ﷺ الذي لم يدع لأعدائه حجة يحتجون بها أو ذريعة يتذرعون بها، ولم يدع في الوقت ذاته حقاً إلا أقره ولا باطلاً إلا أزاله وأبطله، ولكنه المنهج والأسلوب والصبر والمصابرة. ومؤدى هذا كله أن يتجه أرباب الأسر ومعاشر الآباء والأمهات إلى علماء هذه الأمة وفقهائها يستلهمون منهم معالم المسير وفقه التغيير في مرحلتنا الراهنة حتى نمضي قدماً في إحداث تيار المواجهة الإسلامي وفق شرع الله وسنة رسوله ﷺ، وأقل ذلك أن نحول بيوتات المسلمين إلى خلايا عاملة ليل نهار من أجل صناعة أفراد هذا التيار المرتقب إن شاء الله تعالى. وأحيل القارئ إلى مبحث القدوة والأسوة الحسنة في مبحث التطور الاستعرافي ليقف على مزيد تفصيل في هذا الدور المهم.

الخطر السادس: الإقصاء الفكري:

لقد عرضنا في المبحث السابق لمفهوم التغريب الفكري، ونتناول في هذا المبحث إن شاء الله مفهوم الإقصاء الفكري وهو درجة أقل سوءاً في ذاته من التغريب إلا أنه مماثل له باعتبار أثره السيء على فعالية الفرد والجيل في حمل قضايا الأمة وترجمة الطاقة والكمون الفردي إلى مساهمة حية ملموسة في البناء الحضاري الإسلامي.

فالإقصاء الفكري منهج يهدف إلى الوصول بالفرد المسلم - وبالتالي الجيل

المسلم - إلى حالة من الخمول واللامبالاة وعدم الفاعلية وبالتالي تعطيل المساهمة الفردية في تحقيق الدور الوظيفي للجيل المسلم والأمة المسلمة.

وحتى تستبين في ذهن القارئ خطورة هذه الحالة السلبية من الخمول واللامبالاة تجاه واقع الانحراف نستعرض سوياً هذه الآيات من سورة الأعراف، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَىٰ رَبِّكُم وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ (الأعراف ١٦٤ - ١٦٥)، ففي الآية الأولى بيان ثلاث فئات؛ فئة ظالمة وفئة تنهى عن السوء وفئة عرفت المنكر وسكتت عنه ولم تنه عنه، والآية الثانية صرحت بنجاة الناهين عن السوء وبهلاك الظالمين وسكتت - فيما يظهر - عن الساكتين. يقول ابن كثير في تفسيره: «نص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكتت عن الساكتين لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا»^(١)، ثم نقل رأيين في هؤلاء الساكتين، أحدهما أنهم مع الناجين - لأنهم أنكروا المنكر في قلبهم - والآخر أنهم مع الهالكين لأنهم ارتكبوا ظلماً بعدم النهي عن المنكر. ونحن وإن كنا نميل إلى الرأي الثاني لا سيما وأن له شواهد من السنة المطهرة وأن لفظ "الظلم" يتسع لهم أكثر مما يتسع لهم لفظ "الذين ينهون عن السوء"، قلت: وإن كنا نميل للرأي الثاني فإنه يمكن الجمع بين القولين بحيث يكون الساكت عن المنكر مع الناجين إذا لم يكن قادراً على الإنكار باللسان واليد مع وجود الإنكار القلبي حتماً، بينما يكون الساكت مع الهالكين إذا لم ينكر المنكر بقلبه مطلقاً أو إذا لم ينكره بلسانه ويده مع قدرته على ذلك وعدم وجود المانع. والشاهد في هذا كله هو أن الساكت عن المنكر معرض للهلاك احتمالاً على

(١) تفسير القرآن العظيم - الحافظ ابن كثير.

أقل تقدير ، وهذا كاف لدفع الواحد منا إلى الانضمام إلى فئة الناجين حتماً والاتصاف بوصفهم الظاهر ألا وهو إنكار المنكر وفق الضوابط المعروفة لذلك . ولا بد لنا من أن ندرك الوهم الكبير الذي يعيش فيه من يظن أنه قد سلم وأمن على نفسه إذا ما هو انعزل عن الواقع الذي يعيش فيه وانفرد في ممارسته الدينية بالشعائر التعبدية النسكية ، نقول : إنه واهم بلا شك لأنه غير سالم من الضرر الحادث باستشراء المنكر واستفحاله ، كما أنه غير سالم على وجه مضمون من عذاب الله عز وجل كما تقدم ، بل هو مشفق وجل كما المؤمن الذي وصفه الله تعالى في القرآن : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴾ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ (المعارج ٢٧ - ٢٨) ، فالى الذين يظنون ويتوهمون النجاة والتخلص من تبعات التكليف بمجرد التعبد الفردي المنعزل عن واقع الحياة نقول : استيقظوا يا إخواني وتنبهوا وأشفقوا من عذاب الله عز وجل . يقول د . عبد الكريم زيدان في كتابه " أصول الدعوة " : وقد يتشبث البعض توهماً منه بقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ ﴾ (المائدة ١٠٥) ليتخلص من واجب الدعوة إلى الله ويبرر قعوده وتقاعسه متوهماً أن هذه الآية الكريمة تعفيه من تكليف الدعوة إلى الله ما دام هو في نفسه صالحاً مهتدياً ، إن هذا الوهم تسرب إلى البعض في زمن الصديق أبي بكر ؓ ، فخطب في الناس فقال : « يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية الكريمة وتضعونها في غير موضعها : عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله بعقاب » (١) ، قلت : إن هذا الاتجاه قد استفحل في الآباء والأمهات في سياق تربية أولادهم ، وأصبح اهتمام الأهل كبيراً في حجب أولادهم عن قضايا الأمة والتقليل من أهمية الانشغال بها ، وهذا واقع لا

(١) أصول الدعوة - عبد الكريم زيدان .

داعي لإنكاره، بل لعلنا نرى الأهل يستشيطون غضباً وانزعاجاً إذا ما بدر من أولادهم ميل أو نزعة نحو الاهتمام بقضية أكبر من الواقع المحجم الذي نعيش فيه ونحلم فيه بالبيت والسيارة والشهادة الجامعية والوظيفة الهادئة، وهذا ما أردت تناوله بالبحث إن شاء الله.

فمقصود الإقصاء الفكري إذاً هو حجب الطفل والشاب عن قضايا هذا الدين وهذه الأمة، وحصر اهتمامه في إطار طموحات فردية هزيلة بهدف تعطيل مساهمة الفرد في تحقيق الخلافة والشهادة على الأمم كما أراد الله عز وجل لهذه الأمة ولحملة لواء هذا الدين. إنه أسلوب من أساليب استنزاف طاقات هذه الأمة في مهدها، وحرمان الأمة من مقومات التغيير ترسيخاً لهذا الواقع المريض الذي يعانى به جسد الأمة الإسلامية. وسوف نتناول فيما يلي عرضاً لبعض وسائل هذا الإقصاء الفكري حتى تتضح الصورة بشكل أكبر وتستبين معالم هذه السياسة الماكرة الخادعة عسى أن تثير فينا بواعث التصلي والمقاومة وصولاً بهذا الجيل إلى درجة الإنتاجية والفاعلية إن شاء الله.

وسائل الإقصاء الفكري:

من وسائل الإقصاء الفكري التي يتعرض لها أطفالنا وشبابنا ما يلي:

(١) العلمنة:

إن الوصف الجامع لكل أساليب ووسائل الإقصاء الفكري هو العلمنة. فمن خلال العلمنة استطاع الكائدون أن يغرسوا في فكر الكثير من أبناء الأمة وأجيالها المعاصرة مبدأ الفصل بين الدين والدولة، واستطاعوا مع الأسف أن يربوا أفراداً وأجيالاً على أساس هذا المفهوم المنحرف. ولقد أورثت هذه التربية عقيدة متفوقة معزولة في المسجد أو المنزل لا مكان لها على أرض الواقع ولا موقع لها في الشارع ولا المدرسة ولا المجتمع والسوق والمحكمة والسياسة وبناء الدولة وغيرها وغيرها. إنها عقيدة ممسوخة مشوهة قابعة في عزلة نكدية جعلت من الدين فكرة

مشلولة ومجرد هوية موروثة نحملها دون أن نعي لها دوراً أو أثراً في حياتنا . وفي الشق المقابل انطلق أفراد وأجيال من هذه الأمة في شتى ميادين الحياة متجربين عن العقيدة الخالصة المؤثرة ، ومستبدلة الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وأصبح الفرد يعيش حياته تحت حتمية الواقع وضرورة المادة - كما تحلو لهم التسمية - فهبطت اهتماماته وطموحاته إلى مستوى المادة البحتة بسبب أمرين اثنين ؛ أولهما هو تغييب دور العقيدة الفاعلة في حياة الفرد ، وثانيهما الضغط الاجتماعي الاقتصادي السياسي الذي تخضع له معظم شعوب الأمة الإسلامية مما جعل الاشتغال بالضرورات الحياتية البدائية همّاً عظيماً ومسؤولية تنوء بها الأفراد والجماعات . ونحن لا ننكر هذه الضرورات الحياتية وإنما نأسف على هؤلاء المتطبعين بمفاهيم العلمنة لأنهم يفوتون على أنفسهم فرصة الاحتساب في سياق مرورهم بهذه المعاناة والشدة كما يفوتون على أنفسهم مطامح أسمى وأبقى من حاجات الجسد المادية التي يشاركه فيها الحيوان .

نحن لا ننكر الواقع المؤلم الذي تعيشه أمة المسلمين ، ولكن هل من المحتم أن نعيش هذا الواقع منسلخين عن عقيدتنا وديننا؟ وإذا كانت أوروبا قد رفضت الكنيسة واكتفت بالعلمنة وادعت أن لا سبيل إلى " الثورة الصناعية " إلا بهجر الدين فهل من المحتم علينا أن ندعن لهذه الفرضية التاريخية رغم أربعة عشر قرناً من الرصيد الحضاري التاريخي لمنهج الإسلام ولأمة المسلمين الذي يثبت خلاف هذه الفرضية الباطلة؟ لقد مرت الدعوة الإسلامية في مهدها بمحنة اقتصادية اجتماعية رهيبة تمثلت في فترة الحصار الاقتصادي والاجتماعي الآثم الذي فرضته قريش على بني هاشم وبني المطلب : " فكتبوا بذلك كتاباً تعاقدوا فيه على ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلم بنو المطلب رسول الله ﷺ للقتل

وعلقوا الكتاب في جوف الكعبة^(١)، وكأننا نقرأ قرارات المقاطعة الاقتصادية التي تكابر بها الأمم المتحدة على الشعوب المسلمة في حاضرها هذا. واستمر الحصار الآثم ثلاث سنوات حتى كان المسلمون يأكلون ورق الشجر ولا يجدون شيئاً من حاجاتهم الحياتية من ملابس ومطعم ومشرب، فهل حصر النبي ﷺ وصحابته وعشيرته همهم ومطامحهم في إطار تلك الحاجات الحياتية البحتة، أم ماذا؟ فكيف إذا استمرت الدعوة وهي وليدة في مهدها، وكيف تابع رسول الله ﷺ وأصحابه بناء مجتمع ودولة في السنوات القلائل التالية لهذا الأزمة؟ لقد كان حق هذه الدعوة الوليدة أن تجهض ولا يبقى لها أثر يذكر لو أن الرسول ﷺ وصحابته حصروا همهم وغاياتهم في إطار المادة، بل إن هذه هي غاية ذلك الحصار أصلاً، ولكن ذلك لم يحدث وما كان ليحدث وإيمان الرسول ﷺ وصحابته هو ذلك الإيمان وهمتهم في طاعة الله وحمل رسالته هي تلك المهمة. فلا بد لنا من أن تمثل هذا الرصيد التاريخي إذاً وأن نسقطه على واقعنا ونتدبر حق التدبر قول الله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة ٢١٤) هذا هو المطمح إذا: متى نصر الله؟ وليس المطمح متى نأكل حتى نشبع ونشرب حتى نرتوي ونكنز المال حتى تطفح به المصارف وبنى البيوت حتى نتفاخر بزخارفها...

وهكذا نجد أنه في حين توجهنا مفاهيم العلمنة إلى اختزال طموحات الفرد في أطر المادة البحتة والضرورة الحيوانية البسيطة سواء أكان ذلك في واقع الشدة أم الرخاء، فإن الإسلام يوجهنا نحو الارتقاء بهذه الطموحات إلى مستوى إعلاء كلمة الله والتشوف لرفع راية العقيدة وحاكمية الله عز وجل على أرضه تنفيذاً لأمره في إقامة الخلافة والعبادة الشاملة.

(١) فقه السيرة النبوية - د. البوطي.

وبهذا تتبين لنا المنظومة التي تعمل العلمانية من خلالها على النحو التالي :

علمانية <<< سلخ العقيدة عن واقع الحياة >>> إقصاء فكري << شلل حركي <<< فشل وظيفي للفرد والمجتمع

وتحاول التيارات العلمانية ترسيخ مفاهيم العلمنة وعزل الدين في نفوس الأفراد والأجيال من خلال شبهات وادعاءات عديدة أذكر بعضها فيما يلي :

١ - شبهة عدم واقعية الإسلام وعدم صلاحيته لمشاكلنا المعاصرة .

٢ - حصر الإسلام في إطارٍ تاريخي ضيق من خلال ربط تعاليم الإسلام بالظروف المرحلية الراهنة للجزيرة العربية وقت الدعوة وحصر الإسلام في تلك الحقبة الزمنية .

٣ - الربط بين واقع التخلف لدى أمة المسلمين وبين تمسكهم بالدين ، وضرب المثال بأوروبا زاعمين أنها لم تصل إلى الثورة الصناعية إلا بعد رفض سلطان الكنيسة (أي الدين) في حياة الناس والمجتمع .

٤ - غرس شبهة تعارض العلم والدين وادعاء أن الدين في جزء منه على الأقل قائم على الخرافات والأوهام والغيبيات التي لا تتناسب مع علوم القرن الحالي .

٥ - ادعاء حق التشريع للناس من خلال نظم " الديمقراطية " (أي حكم الشعب) ونفي أحقية الله عز وجل بالتشريع لأن النظم " الشيوعية " نظم استبدادية - بزعمهم - ولا تتماشى مع حرية الإنسان . (ونحن لا نسمي نظام الحكم في الإسلام نظاماً ثيوقراطياً بالمعنى الذي عرفه ويعرفه الغرب ، ولكنهم يعرضون الحكم الإسلامي بهذه الصيغة المشوهة لما يعرفونه من كراهية شعوبهم لها) .

وهكذا اجتمعت الادعاءات والشبهات المغرضة وشوشت على عقول الناشئة والأجيال المعاصرة ، وجرت نسبة كبيرة من أفرادها وراء سراب العلمانية ونحيت وأبعدت عن أهداف ومطامح الإسلام وعقيدة الإسلام ، إنه إقصاء للفرد والجيل عن الهدف الأرقى والمبدأ الأسمى للحياة . وبهذه الوسيلة يهتز إيمان الفرد والجيل بثوابته العقيدية ومبادئه الفكرية وتضطرب دوافع الالتزام بالأهداف التي ترسمها هذه العقيدة .

٢) طمس وتغييب وقائع التاريخ المعاصر :

وهذه الوسيلة أكثر خصوصيةً بواقعنا نحن وأكثر تلبساً بواقع الصراع الذي نعيش، حيث إن هذه الوسيلة تهدد بظهور جيل جديد لا يعرف شيئاً عن معالم الصراع المعاصر مع المتربصين الكائدين لهذه الأمة ولهذا الدين العظيم، جيل لا يعرف شيئاً عن المعلم الكفري الخياني الذي خلفه كمال أتاتورك بالتآمر مع أعداء الدين من اليهود على إسقاط الخلافة الإسلامية، جيل لا يعرف شيئاً عن صبرا وشاتيلا ولا عن دير ياسين وعين الحلوة، ولا عن قانا ولا الحرم الإبراهيمي الشريف، ولا عن المساجد التي حولت إلى ملاه وإسطبلات، ولا عن بيوت آبائه وأجداده التي سويت بالتراب، ولا عن حرق المسجد الأقصى وتدنيسه...^(١). نحن مهددون بجيل لا يدرك الخلفية العقيدية والتاريخية للصراع الذي تعيشه أمتنا، ومهددون إذاً بجيل لا يمثل هذه الخلفية ولا يحملها في قلبه ولا يتحرك بها ولا أجلها.

نحن مهددون بجيل لا يفقه معنى قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَقْنَتُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (التوبة ١٣)، لأنه جيل لا يعلم وقائع وأحداث وتاريخ "أول مرة" بدأ فيها العدو الحاقد حربه الكريهة ضد الإسلام، لأننا - مع الأسف - نربي أولادنا على وقائع وأحداث اسمها البيت والسيارة والوظيفة، أما ما تبقى فصم بكم عمي. نحن نربي أولادنا على قاعدة كلية اسمها: "ليس لنا علاقة بما يجري حولنا" ولو كان ما يجري حولنا نار تاكل الأخضر واليابس، ليس لنا علاقة! ليس لنا علاقة بما يجري في فلسطين لأننا لسنا فلسطينيون، وليس لنا علاقة بما يجري في تركيا لأننا لسنا أتراك، ولا بما يجري

(١) إن هذه الوقائع هي للتمثيل لا الحصر، ولقد اخترت معالم الصراع في فلسطين - رغم تعدد مآسي الأمة الإسلامية المعاصرة - لأن قضية فلسطين أكثر قضايا المسلمين المعاصرة عمومية وأقلها إقليمية في أذهان الكثيرين بسبب طبيعة الوضع الديني والتاريخي لها، وإلا فإن في قلوبنا جرح لكشمير وآخر لبوسنة والهرسك وآخر لكوسوفا والصومال، والشيشان وأفغانستان والفلبين ولبنان وغيرها من المآسي التي يحاول الكائدون طمسها وعزل أحداثها عن أذهان أجيالنا.

في الصومال لأننا لسنا صوماليون ، وليس لنا علاقة بما يجري في بلدنا ووطننا المحدود لأنه لا علاقة لنا "بالسياسة"! أصبحت "السياسة" مصطلحاً نطلقه على كل ما لا يجوز للفكر انتهاكه من حرمانات وممنوعات ، وكل ما لنا علاقة به هو العيش بهدوء وسلام وتأمين الحاجات الحياتية وإلهاء النفس والفكر ببعض الممارسات التعبدية التي أصبحت تقليداً وعادة أكثر من كونها نسكاً وعبادة.

نحن لا نستغرب إذا أن تضيق دماء شهداء أمتنا الأبرار ، ولا نستغرب أن تضيق حقوق أمتنا ، ولا نستغرب أن تضيع قضايانا ، ولا نستغرب بعد ذلك كله أن يقوم أطفالنا برحلة سياحية يوماً ما إلى مدينة القدس ليزوروا معبد سليمان وهيكل يهود! إن هذا النوع من الإقصاء الفكري لا تمارسه إسرائيل ولا أوروبا ولا روسيا ولا أمريكا بصورة مباشرة ، أتدري من يمارسه إذا ؟ إنه أنا وأنت! الأب والأم في المنزل نعم نحن الذين نمارس هذا الطمس مع أبنائنا لأننا نريد لهم "السلامة" ، والسلامة حسب تصورنا - مع الأسف - تعني الانسلاخ عن واقع أمتنا المسلمة والتقوقع في زاوية الوظيفة أو الأسرة أو الشهادة الجامعية . فلماذا يا ترى نقوم بهذا التدليس والطمس المتعمد ؟ ولماذا نحجب عن الجيل الناشئ رصيد الأحداث والتاريخ المعاصر الحري بتحريك دوافع التغيير فيه؟ أترانا نريد أن نحكم على الجيل القادم بالفشل سلفاً لمجرد أننا فشلنا نحن في تغيير الواقع المؤلم الذي نعيش فيه؟ فمن الذي أعطانا الحق في إطلاق مثل هذا الحكم ، ومن الذي أعطانا الحق بحرمانهم من فرصة التغيير؟

(٣) التثبيط والتثبيس :

إن من أسوأ وسائل الإقصاء الفكري التي نمارسها في البيت والمدرسة والشارع هو تثبيط الهمم والعزائم الفردية عن مجرد التفكير في التغيير ناهيك عن مد يد التغيير الفعلية والتفكير في وسائله ، وذلك من خلال التثبيس من جدوى التعامل مع الواقع المشاهد وتضخيم حجمه وتهويل أمره مع تحقير وتهميش الدور الفردي

والتقليل من شأن أي اثر لهذا الدور . وكأن أحداً لا يليق به سوى الاهتمام بالأكل والشرب والملبس، بل لعل هذا مستكثر عليه أيضاً، ولعمر الحق أصبح حالنا كحال ذلك الذي هجاه الشاعر وذمه قائلاً:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ولعلنا قد غفلنا ونحن نخذل ونشط غيرنا عن أمر خطير وهو أن الشيطان والتخذيل خصلة من خصال المنافقين حري بنا أن نترفع عنها، ألم تر معي قول الله عز وجل: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا لِلنَّاسِ إِلَّا لِيُبْغِضُوا لَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (التوبة ٤٧)، وإن هذه الوسيلة تفضي إلى فتور شديد في همة الفرد وإقصاء لفكره وهمه عن واقع أمته المحتاج للتغيير، ونحن نرى هذا - مع الأسف - في كثير من شبابنا وفتياتنا الناشئين على هذا المبدأ: مبدأ الإقصاء الفكري، مبدأ: وماذا أستطيع أن أفعل؟ مبدأ: إن الجميع ساكت فلماذا علي أن أتكلم أو أهتم؟!

لقد أصبح الشاب يعتقد أن مستواه الفكري لا يناسبه إلا الاهتمام بمباريات كرة القدم والرياضة أو أحدث الأفلام والمسلسلات أو آخر صحيفات الموضة وتقليعاتها، بل نجد من شبابنا من يضع حلقة أو اثنتين في أذنه وسلسلة في عنقه، وهكذا تحول رأس الشاب من حامل فكر وعقل إلى حامل زينة وحلق وسلاسل فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم. ترى كيف نستغرب مع هذا نداء الصهاينة حين اقتحموا المسجد الأقصى يرددون: "محمد مات، خلف بنات، فليسقط الإسلام"!

(٤) المناهج الدراسية:

إن خلو المناهج الدراسية التي يتعلمها الطفل والشاب طيلة اثني عشر عاماً من أي ربط مع واقع أمته وواقع صراعها وأحداث ومعالم هذا الصراع وأبعاده الدينية والاجتماعية والسياسية والتاريخية، إن هذا الخلو أخذ دوره في منظومة الإقصاء

الفكري بلا ريب، وكأن مناهج الدراسة هذه قد أخذت على عاتقها مهمة تخريج جيل يتيم دعي لا يعرف له أصلاً ولا فصلاً، ولا انتماءً ولا هويةً.

إن مناهج الدراسة في كثير من البلاد المسلمة ترسخ مبدأ العلمانية من جهة، وتعري موادها الدراسية من أي إشارة إلى خلفية وطبيعة الصراع الذي تعيشه أمتنا وتساهم في ترسيخ سلام زائف مع علو خبيث منكر، متجاهلة معنى السلام الحقيقي الذي يأمر به الله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة ٢٠٨)، فاستبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، واختارت الدخول في السلم مع الشيطان ونبتت كتاب الله وراء ظهورها كأنه لا يعينها. والخطورة في هذا الطرح العاري لمناهج مدارس أطفالنا وشبابنا هو عدم وجود الطرح الموازن والمعاوض في بيوتنا. إن دور المنزل كان مكتملاً لدور المدرسة عند بلوغ الطفل سن الدراسة، هذا ما كان الأمر عليه في السابق، ولكنني أنهه إلى أن دور المنزل في هذه المرحلة يجب أن يكون دوراً أساسياً لا دوراً مكتملاً فقط وذلك طالما أصرت المدرسة والجامعة والشارع والمجتمع على فرض مفاهيم الإقصاء والتغريب. فقد تستغرق إعادة صياغة مناهج الدراسة في مدارس أولادنا بعض الوقت، لكن شيئاً من الوقت لا يلزم لتحويل بيوتنا فوراً إلى خلايا عاملة لصناعة ذلك الفرد الذي سيغير هذا الواقع وهذه المناهج ويزيل الأكمام من على الأفواه والغشاوات من على العيون.

والحق أن ما تقدم من وسائل ليس إلا من باب الإشارة ببعض على الكل، إذ أن كل الواقع الذي نعيش فيه هو واقع إقصاء فكري واختزال عقلي للفرد والأسرة والمجتمع. وهذا الخطر من أكبر الأخطار التي تتربص بأطفالنا وشبابنا، فلا بد من تدبر السبيل إلى مكافحة هذا الخطر، وهذا ما سنتناوله فيما يلي إن شاء الله.

وسائل مكافحة الإقصاء الفكري :

يبدو بدهياً أن من الضرورة بمكان توجيه وسائل المكافحة ضد وسائل الكيد السابقة، وسوف نعرض فيما يلي لوسيلة المكافحة الملائمة لكل من أساليب الإقصاء التي أشرنا إليها :

(١) تصحيح مفهوم العقيدة والعبادة والحاكمية :

إن مفاهيم العلمنة القائمة على فصل الدين عن واقع الحياة والدولة لا يمكن دحضها إلا بتصحيح مفهوم العقيدة والدين في نفوس أفراد الجيل الناشئ، ولذلك لا بد من التحول إلى التعليم الفاعل للدين في البيوت والأسر على أساس كونه منظومة حياتية متكاملة منقادة لحكم واحد فقط هو حكم الله عز وجل، وأن الاقتصار على بعض الجوانب التعبدية الفردية أو الجماعية لا يغني وحده في رفع الحرج والمسؤولية عن كاهلنا تجاه هذا الدين. وإن الغرابة التي وجدتها في عقول كثير من الشباب والشابات المثقفين والمتعلمين والحائزين على أعلى الشهادات الجامعية تجاه موضوع تحكيم الشريعة وكونه أصلاً من أصول الدين إضافة إلى الغبش الشديد والضبابية التي تعتري هذه المسألة في أذهانهم تجعلني أؤكد مرات ومرات في كل موضع من هذا الكتاب على أن غرس هذه المفاهيم لا بد من أن يكون في الصغر، ولا بد من أن يكون في سن التشكيل العقلي لا بعده، وفي سن التلقي والتعلم المنفعل لا بعده. إن مفاهيم الدين والحاكمية واضحة في أذهان العلماء والمشايخ ومعروضة في بطون الكتب بوضوح شديد، فليست المشكلة صعوبة في الفهم أو تعسر في الإدراك لهذا البعد الحيوي للدين، وإنما تكمن المشكلة في تقبل هذه المفاهيم - أي الحاكمية - وفي غياب الرفض والنفور من ظلمات العلمانية والقوانين الوضعية المتسلطة على رقابها. وإذا كانت المشكلة مشكلة قبول لا مشكلة فهم، فإن الحل يكمن في البدء المبكر جداً في غرس هذه

المفاهيم في نفس الطفل مبكراً جداً، وإذا كنا نفرض على الطفل منذ نعومة أظفاره سلطة الأهل وسلطة الأقارب وسلطة العرف والمجتمع ونراه يلتزم ذلك كله، فما المانع من فرض سلطة الخالق عز وجل وشريعته الخالدة عليه منذ تلك السن أيضاً؟ أم أن الأمر يقتصر على التهريب بكلمة "حرام" أو "إن الله سيعاقبك بالنار" عندما يتمرد الطفل على سلطة الأهل أو العرف، وكأن حالنا حال أولئك الذين وصفهم الله تعالى في القرآن: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الأنعام ١٣٦). فهذه أول خطوة في مكافحة خطر الإقصاء الفكري ألا وهي إفهام الطفل والشاب أن الدين منهج متكامل لا يغني بعضه عن بعض، وأن محاولة اختزال مفهوم الدين في إطار عبادات تجري مجرى العادات أمر مناف لحقيقته ومرفوض جملة وتفصيلاً.

٢) تصحيح مفهوم المسؤولية الفردية:

ولعلنا نحن الأهل والمربين الذين نحتاج إلى تصحيح هذا المفهوم في عقولنا أولاً قبل أن نصححه في عقول الناشئة. إذ أن تزعزع إيماننا بدور الفرد له دور كبير في اتجاهنا نحو إقصاء أولادنا وفلذات أكبادنا عن ساحة الصراع التي نعيش فيها ونريد أن نضرب الذكر عنها صفحاً وتجاهلها وتخليع عدم وجودها أصلاً. إنه استسلام هزيل للواقع وعدم اعتراف للفرد والذات بالطاقة والموهبة التي وهبها الله إياها للتغيير. إن آدم عليه السلام عندما أسندت إليه مهمة الخلافة وإلى جنسه من بعده لم يتوانى عن هذه الأمة بحجة أنه فرد لا يستطيع أن يغير شيئاً، بل استطاع هذا الفرد - بفضل الله - أن يظهر عجز الملائكة الذين تساءلوا حول صلاحيته للمهمة، استطاع أن يظهر عجزهم هم عن القيام بالمهمة. وباشر آدم عليه السلام المهمة بمفرده وحملها من خلفه ذريته. بل انظر إلى أمر أشد من هذا، انظر إلى قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام بعد أن أعلن كلمة التوحيد مدويةً عاليةً فلاقى في سبيلها ما لاقى

من التهكم والسخرية ثم التعذيب بالإحراق، فغادر قومه بشخصه ولكنه ترك أثراً،
أتعلم ما هو الأثر الذي تركه؟ لقد ترك كلمة التوحيد : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي
عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الزخرف ٢٨)، ثم تأمل أشد هذه المواقف غرابة وقوة
وصلابة ؛ رسول الله ﷺ يرد على عمه وعلى قريش وعلى الدنيا بأسرها حين ألحوا
عليه ترك الرسالة : « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري
على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » بأبي هو وأمي
ﷺ . وإنني أرى في عينيك اعتراضاً أخى الكريم، تقول أن هؤلاء الذين
استشهدت بهم أنبياء ورسول فأين نحن منهم؟ وأقول لك : وهل بعث الله عز وجل
الأنبياء والرسل إلا للاقتداء بهم والتمثل بهم والسير على نهجهم : ﴿ أُولَئِكَ
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهِهِمْ أَقْتَدِ ﴾ (الأنعام ٩٠) .

فالفرد مسؤول وحجم مسئوليته بحجم طاقته لا ريب، ولكنه مسؤول. وإذا كان
مسؤولاً فليس بوسعه أن يغمض عينيه عن الواقع مهما كان هذا الواقع كبيراً، لأن
جزءاً من هذا الواقع الكبير يتعلق به. لذا كان لزاماً عليك أن تبدأ بولدك وهو طفل
صغير لتعلمه المسؤولية الفردية ؛ مسئوليته في نصيح أقرانه إن أخطأوا أو الإنصات
إليهم إن نصحوا، مسئوليته في طاعة والديه ومسؤولية أخوته الصغار في احترامه،
مسئوليته في الإنكار على من رمى شيئاً من الأوساخ في الصف أو المدرسة أو
الشارع، ومسئوليته في الإنكار على ما حوله من منكر بحسب استطاعته والعمل
على التغيير والمبادرة ما أمكن ضمن إطار الواقع الصغير من حوله، فتجد أنه كلما
كبر طفلك كبر الواقع الذي يحيط به وكبرت معه همته في العمل والمساهمة الفاعلة
في بناء ونقد وتغيير هذا الواقع الضخم وفق منهج الشرع الحنيف. قلت : جرب هذا
أيها الحبيب، وجربيه أيتها الغالية ؛ جرب مع نفسك ثم زوجك ثم ولدك، وانظر
كيف تتحول إلى كتلة مندفعة من الهمة والعزيمة والنشاط الموجه نحو مرضاة الله
عز و جل .

٣) تصحيح معيار النجاح والفشل :

قلنا أن التئیس والتشيط هما من وسائل الإقصاء الفكري وذلك من خلال بث فكرة عدم جدوى المجهود الفردي في مقابلة الواقع الضخم، والرد على هذه الفكرة الخبيثة يكون بتصحيح معيار النجاح ومفهوم النجاح الفردي - وغير الفردي - في الإسلام، فمعيار النجاح في الإسلام إنما هو مدى استفراغ الوسع وبذل الجهد وليس معيار النجاح ما يتحقق على أرض الواقع من نتائج ولا بضمان هذه النتائج قبل العمل وبذل الجهد. فأنت ناجح إسلامياً بقدر ما تخلص نيتك وتشحذ همتك وتستفرغ طاقتك، ولا تتوقع أبداً ولا تنتظر أن ترى أثر ونتيجة ذلك الجهد في مدى حياتك أو قبل مماتك؛ إن حصل وشهدته فيها ونعمت، وإلا فلا تنتظر القطاف في الدنيا بل انتظره في الآخرة، وها هو أبو ذر الغفاري يبكي عند فتح صقلية وتوافر الخيرات وتواردها على المسلمين ويقول حين يسأل عن بكائه والحال حال فرح : أخشى أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا!

مخطئ إذاً من يظن أن النجاح مرهون برؤية النتائج، ومخطئ من يستجيب للتشيط والتخذيل بحجة عدم تحقق الثمرة المرجوة في مدى حياة الفرد. ومخطئ من يقصي واقع الأمة وقضاياها عن فكره واهتمامه بحجة أنه لا جدوى ولا أمل في النجاح. وهنا نكتة دقيقة وهي أن انتظار ثمرة العمل في الدنيا قد تفضي بالفرد أو الجماعة العاملة النشطة إلى محاولة استعجال النتائج وترك التمهل والروية ومحاولة تجاوز واختصار خطواتٍ مرحليةٍ مهمة مما قد يوقعهم في نتيجة الفشل والإجهاض المبكر لعملهم ونشاطهم الإسلامي مما يضيف إلى رصيد الهزيمة والفشل في نفوس المشبطين المخذلين ويظهر دعواهم في عدم جدوى الجهد الفردي بصورة أكثر قبولاً بعد أن ظهر البرهان العملي - فيما يزعمون - على فشل هذا العمل والجهد، فتنبه لذلك ولا تستعجل النتائج، وسر على خطى مطمئنة متمهلة واعلم أن موعد القطاف الآخرة وأن ما تحصل عليه في الدنيا نعيم معجل في دار زائلة.

٤) التكافل الاجتماعي - الاقتصادي :

قلنا أن الانشغال بضروريات الحياة من مأكّل ومشرب وملبس ومنكح قد اختزل طموحات الكثير من شبابنا وشاباتنا إلى مستوى هذه البدائيات المشتركة مع الحيوان. ونعتقد أن ذلك سبباً مباشراً من أسباب الإقصاء الفكري والشلل الوظيفي للفرد. ومن المهم عدم إغفال هذه الضروريات إذا أردنا مكافحة خطر الإقصاء، وأرى أنه لا بد من إيجاد صيغ تكافلية اجتماعية اقتصادية تعين الأفراد على تحقيق ضرورات الكسب المعيشي دون استنزاف كل طاقة فكرية أو طموح فردي لديهم.

إن التكافل الاجتماعي الاقتصادي على مستوى الأسرة فالقراية فالحي ضرورة لا بد منها في مواجهة واقع الضيق الاقتصادي الذي تعانيه معظم الشعوب المسلمة. ولا بد من العمل الحثيث من خلال برامج الزكاة والمعونات والكفالات والقروض الحسنة وإغاثة الملهوف وإعالة اليتيم ورعاية الأرملة والعناية بالزمن. . لا بد من هذا كله حتى نتيح للفرد مجال التوقف عن الدوران في فلك الطعام والشراب واللباس وأخذ قسط من الراحة يتنفس فيه الصعداء ويفكر فيه بعقله دون أن تناديه قرقرة معدته الجائعة أو رعشة جسده البارد أو صراخ طفله الجائع. . . فالله الله يا أغنياء المسلمين، يا أصحاب الأموال والتجارات، هلموا إلى تجارة لن تبور ومرابحة مضمونة مع الله عز وجل.

نريد أن يكون لكل فرد في المجتمع حد أدنى مشترك من المأكّل والمشرب والملبس والرعاية الصحية والتعليم اللائق، ولن ننظر هذا من حكوماتنا ودويلاتنا المشغلة عنا، ولن ننظر وزارات التعليم والصحة والإسكان والميرة، لا؛ إنما سنبدأ العمل من خلال أمرين ومحورين اثنين هما :

أ) تقوى الله عز وجل إعمالاً لأثر الآية الكريمة التالية : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف ٩٦).

ب) التراص والتكافل وإعمال مفهوم الجسد الواحد : يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرَّصُونَ ﴾ (الصف ٤)، وعن النبي ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وقوله ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يظلمه ولا يسلمه » .

نعم ؛ هكذا سنهيئ الظرف لكل طفل لأن ينمو بكرامة ، ولكل شاب بأن يرتقي بطموحاته فوق المنزل والوظيفة والسيارة ، ولكل فتاة بأن ترتقي فوق واقع الامتحان الرخيص لها ولعقلها وفكرها ولدورها في بناء الأمة . وأما تفاصيل هذا البناء الاجتماعي وتفاصيل إعمال هذه النصوص الشرعية فستجدها في المسجد والحي والشارع والسوق والمدرسة والمنتدى لأن هذا مما لا يجدي الكلام النظري فيه إلا بالقدر اللازم لتنفيذ كل خطوة بعينها ، فإلى هناك إن شاء الله .

ومن المهم في هذا المجال إعادة الدور لمفهوم ونظام "الأسرة الكبيرة" ؛ الأسرة التي تبقى مترابطة متماسكة متساندة بعد زواج الأولاد فيها ، لا سيما في هذا العصر الذي بدأت تصغر فيه الأسر حجماً وعدداً ، فلا بأس من إبقاء التقارب الحسي والمعنوي بين الأب والأم وأولادهم وأزواج أولادهم وأسرهم لتكون الأسرة الكبيرة القوية بدلا من الأسر الصغيرة الضعيفة ، ويكون هذا بدوره هو الإطار الأول لتحقيق التكافل الذي يضمن للطفل والشاب الوقاية من خطر الإقصاء الفكري والجري اللاهث وراء متطلبات الجسد البحتة .

٥) تغيير مناهج التدريس :

نريد في مرحلة لاحقة عندما يشتد عود الأسرة والحي والمجتمع أن نبداً بممارسة الضغط - ضمن الأصول والشرع - على المسؤولين التربويين لتغيير المناهج الدراسية لأطفالنا وأولادنا بحيث تلائم واقع الأمة وتلائم الدور المنوط بجيلها الناشئ . فلا بد من الضغط على المدرسة والمدرس والمفتش والمراقب

والوكيل والوزير بأسلوب النصح اللائق الذي وصفه شرعنا بقوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل ١٢٥) واضعين في الحسبان ضوابط النصح والاحتساب بالقلب واللسان مع مراعاة متغيرات الواقع حتى لا نخرج بمفسدة أعظم أو نصير إلى مآل أشد ضرراً من حيث أردنا تحقيق مصلحة للمسلمين، فليتنبه. وريثما يتم ذلك فإنه لا مندوحة للأبوين عن مراقبة هذه المناهج عن كثب وتوجيه فكر الطفل والشاب لتمييز الخبيث من الطيب والعمل على تنقية ذهن الطفل والشاب من الشوائب والدس والتشويه الذي تطفح به مناهجنا الدراسية.

وبهذا نكون قد تناولنا ملامح هذا الخطر القابع على واقع جيلنا الناشئ تعريفاً وتوصيفاً لوسائله وعرضاً لسبل مكافحته التي لا تقتصر على ما ذكرت، وإنما ما ذكرت يصلح بداية لذلك الجهد التغييري، ونأمل أن نرى آثار مكافحة هذا الخطر قريباً في طروحات وأفكار شبابنا المتقدم إيماناً وحرارةً وذكاءً ونشاطاً.

الخطر السابع: الإلهاء والتحويل:

يهدف أسلوب الإلهاء والتحويل - ونعني به إلهاء فكر الفرد وتحويل طاقته عن مصرفها الصحيح - الذي يسلكه الكائدون لأهل هذا الدين إلى استنزاف طاقات الشباب المسلم فيما لا يجدي، وتفجير حماسه واندفاعه في مجالات لا طائل منها وصولاً به إلى الصيغة الفردية الخاملة من الناحية الإسلامية بحيث يتعطل الدور الفردي في البناء والتغيير، مما يخل في النهاية بدور الجيل الجديد في قلب صفحة الواقع المنحط الذي نعيش فيه في واقعنا المعاصر.

والحقيقة أن هذا الأسلوب قد تمكن من أولادنا وأطفالنا بصورة لا مثيل لها، وأصبح الواحد من أطفالنا وشبابنا أسيراً لنوع أو أنواع شتى من وسائل الإلهاء والتحويل؛ الإلهاء عن الغاية الحقيقية من وجوده، والتحويل عن سبل تحقيق هذه الغاية.

وسوف أركز في هذا المبحث على عرض صورتين فقط من صور هذا الخطر بحيث يستطيع القارئ أن يقيس عليهما الكثير مما سواههما ، وهذان المثالان اللذان سنتطرق إليهما تفصيلاً فيما يلي هما :

أ) "دروس الدين".

ب) الرياضة.

فلنتأمل هاتين الصورتين ، ولنعمل على حماية ووقاية أطفالنا من الوقوع فريسة لها ولغيرها عسى أن يتلهى جيل الغد بالغايات السامية عن الدانية ، ويتحول إلى جادة الحق عن طريق الانحراف والضلال ، آمين .

أ) "دروس الدين" :

قد تعجب أخي الكريم وتعجبي أختي الغالية من عنوان هذا الخطر بل ومن كونه خطراً أصلاً ، لا سيما ونحن قد عقدنا للكتاب عنوان : "تربية الطفل للإسلام" ؛ إذ كيف يتفق أن تكون دروس الدين خطراً على الطفل فيما نحن نريد تربيته على الدين؟!

قلت : إن هذا الاستعجاب الذي يعتريك هو نفسه مصدر الخطر على الطفل والشاب ، ذلك أن مصدر هذا الاستعجاب لديك هو التعامل مع المصطلحات والعناوين من خلال الظاهر فحسب لا من خلال المعطيات والمعالم الحقيقية لهذه المسميات . وليس هذا العرض قدحاً أو عيباً في أحد ، وإنما هي محاولة لهتك الستار الذي تخبئ خلفه واحدة من أخبث وأمكر سبل استنزاف شبابنا وشاباتنا وقلذات أكبادنا . لقد أضحي التلاعب بعواطف المسلمين المخلصين ديدناً يسير عليه الكائدون لهذا الدين وشباب هذا الدين ، لا سيما الشباب المندفِع المتحمس المتقدم نوراً والمشتعل نشاطاً ، فكان لا بد من استنزاف هذه الطاقة وكان محتمماً السعي نحو تأطيرها ضمن إطار يحجم هذه الشعلة الحماسية فيحيلها إلى نوع من الهباء المنثور لا غنى فيه ولا طائل منه ، في حين يجري الشاب وراء سراب وهم يخيل إليه فيه بلوغ الهدف وتحقيق الغاية .

وقبل الخوض في هذا الأمر - الذي ترددت في الخوض فيه بدايةً تحسباً لسوء الفهم ثم عزمت على السير فيه والاعتماد على توفيق الله ثم على كياسة وفطنة القارئ - قلت: لا بد من إقرار بعض الثوابت في البداية حتى لا يتوهم الخلاف فيها في سياق العرض التالي وحتى تكون معياراً مرجعياً لنا نضبط به سلامة الأمر المدروس أو انحرافه، وهذه المقررات الثابتة هي:

(١) إن علوم الدين إنما تؤخذ مكاشفةً ومشافهةً من علماء هذه الأمة وورثة الأنبياء فيها، فليست هذه دعوةً إلى هجر حلقات العلم والانكباب على بطون الكتب دون تمييز ولا تدقيق، بل على العكس تماماً. نحن نصر على أن ينهل أطفالنا وشبابنا من علمائنا ولكننا نرفض استغلال هذه الضرورة وتصيغها في صورة مناهضة للسير الإسلامي الصحيح كما سنبين ونرفض إضفاء مسمى حلقة العلم على صور شتى من وسائل استعباد الشباب فكرياً وحركياً.

(٢) إن ظهور أثرٍ سلبي وتراكم خطير لأمر ما لا يستلزم القدح في نية الفاعل للأمر كما أنه لا يستلزم خطأ العمل حتماً، بل قد يكون الخطأ في الأسلوب أو التوقيت أو التقديم والأولوية. والحاصل أن الأمر الذي يفرز كمّاً من التراكمات السلبية الخطيرة يصبح خطيراً في ذاته بغض النظر عن الدافع الأصلي له، ويصبح لزاماً علينا مكافحته ووضع حد له مهما كان الأمر.

(٣) إن وضع اليد على مناط الخطر وبيان وجوده على أرض الواقع لا يستلزم ادعاء كون هذا الخطر جزءاً من منظومة ضخمة تهدف إلى الانقضاء علينا وعلى ديننا وإن كان لا بد من التأكد من عدم ذلك والتوثق منه. والشاهد هنا أننا لا نريد أن نهول المسائل إلى حد الرهبة والوجل كما أننا لا نريد إهمالها إلى حد عدم الاكتراث بمخاطرها. ولقد ذكرنا في غير موضع أننا لسنا من أنصار التفسير التأمري للواقع، بمعنى أن ليس كل عمل سيئ أو خطر جائم على صدورنا هو جزء من منظومة عالمية تتربص بنا - وإن كانت هذه المنظومة موجودة حقاً - إذ أن هذا التفسير يتحول إلى "شماعة" نعلق عليها أخطاءنا وإلى

مبرر لعدم مساءلة أنفسنا عن تقصيرنا، إضافةً إلى أنه يقرر في الفؤاد حالة من الوهن واليأس والخنوع والإحباط ويخذل صاحبه عن المقاومة والسعي نحو التغيير. فليس معنى الإشارة إلى هذا الخطر أن نتوجس من كل ما يحمل اسم الدين إذ أن هذا هو أحد أهداف وآثار أمثال هذه "الدروس" كما سنبين، ولكن معنى ما نقول هو الحذر والحيطه وعدم الانسياق وراء المسميات بعواطفنا المجردة وحسن الظن الساذج.

بمثل هذه الثوابت نمضي في استقصاء هذه الظاهرة والتعرف على مكان من الخطر فيها وسبل التعامل معها إن شاء الله تعالى، وأطلب منك أيها الحبيب أن تكون متنبهاً لهذا الأمر ومتديراً لما يلي من كلام حتى لا تلتبس الأمور علينا ولا تشكل المسائل علينا إن شاء الله.

أريد أن أقدم ببيان أن "دروس الدين" هذه التي سنتعرض لها بالذكر والنقد في هذا الموضوع ليست منتشرة في كل المجتمعات الإسلامية بنفس القدر، لذا فإن القارئ قد يجد مصداق ما نذكره هنا على أرض الواقع الذي يعايشه بدرجات متفاوتة بين مجتمع وآخر، وحديثي لا يقتصر على المجتمعات الإسلامية العربية وإنما يمتد إلى الجاليات الإسلامية في بلاد المهجر لا سيما الغرب، والمهم هنا أن تكون على حذر من الأمر سواء ألسنا واقعاً في مجتمعاتنا أم كان لا يزال في طور التسرب إلى مجتمعنا الذي نعيشه فيه.

فلقد ظهرت وانتشرت "دروس الدين" المستترة هذه كظاهرة تثير الكثير الكثير من علامات الاستفهام وتبعث على الكثير من العجب، وهي تعول أكثر ما تعول على العاطفة الدينية والحماس الشبابي عند صغار السن والشباب. والعجيب أن دروس الدين هذه التي انتشرت في بعض المجتمعات العربية المعاصرة مدة تيف عن العقد من الزمن لم يظهر لها أي أثر عملي إيجابي على واقع المجتمع يوحى بوجود فاعلية حية لهذه الدروس في تغيير السير العلماني والسير الهوائي للمجتمع المنحرف عن النهج القرآني والسنة النبوية ولو على مستوى النهي عن بعض

المنكرات المعلومة من الدين بالضرورة أو الأمر ببعض المعروف المعلوم من الدين بالضرورة أيضاً. أي أن هناك فجوة كبيرة بين هذه الدروس وبين المجتمع، وكأن هذه الدروس ليس من أهدافها مد يد التغيير إلى المجتمع بل ربما كان العكس هو المراد كما سنوضح. وقد يعترض البعض على هذه الملاحظة متأثراً بازدياد شيوع بعض مظاهر التدين في ساحة المجتمع كالتزام الفتيات بالحجاب أو حضور بعض "المناسبات" الدينية، ولكن هذا الاعتراض هو نفس ما نحذر منه؛ أي أننا نلمس من هذه الدروس الدينية توجيهها نحو اختزال الشخصية الإسلامية في بعض مظاهر التدين بغية احتواء الطاقة الدينية عند الشباب وحبسها ضمن أوعية هذه المظاهر التي تعطي للنظر صورة براقة توهمه أن كل شيء على ما يرام وأن "الدين بخير"، وتلبي عند الشباب تعريف الهوية الإسلامية في أشخاصهم بينما هي - من خلال ذلك كله - تنأى بالشباب عن المعتزك الحقيقي؛ معتزك العلمانية ومعتزك التدين الواعي الساعي نحو تحكيم شرع الله في أرض الله، حتى أن الحجاب المنتشر بين كثير من الفتيات لا يختلف كثيراً - من حيث تأثيره في المجتمع - عن حجاب الراهبات في الأديرة، لأنه حجاب "شخصي" وتعبد علماني أو بوذي لا يمد ناظريه إلى مناحي الحياة الأخرى.

وفيما يلي بعض معالم الإشكال في أمثال هذه الدروس (ولقد استقيناهما من بعض من يحضرون مثل هذه الدروس):

(١) هذه الدروس تعقد في الجملة في البيوت وتحاول أن تضيء على أجوائها شيئاً من الأهمية المفتعلة وكأن الجميع ملاحقون، وكأن من في هذه الدروس قد أوكلت إليهم مهمة إنقاذ البشرية وأن الكل يتربص بهم ليجهز عليهم ويثد جهودهم. وهذا من أمكر أساليب التعامل مع صغار الشباب الذين تميل نفوسهم بطبيعتها إلى مثل هذه الانفعالات التي تحمل معها روح التحدي والمغامرة والشعور بالأهمية، وتتوافق - ظاهراً - مع روح الإسلام في مجابهة "المستحيل"، وبالتالي فإن هذه الأجواء تفجر هذه الطاقة الشبابية وتستنزفها فيما لا يجدي ولا

يغير ولا يسمن ولا يغني من جوع، بل إنه مجرد اختزال مآكر للطاقة الشبابية في سبيل سراب فارغ ووهم زائف.

(٢) هذه الدروس تعقد - على الأقل في بعض المجتمعات - في سياق واقع يهدف إلى تجفيف منابع التدين بصورة أو بأخرى، وفي ذات الوقت نرى لهذه الدروس درجة من الانتشار والتمكين لا يمكن أن تكون غائبة عن أعين القوى الساهرة على تنفيذ مخطط التجفيف لأن هذا الانتشار فوق إمكان الغفلة عنه، كما أننا لا يمكن افتراض أنها تتجاهله مطلقاً لأنها "دروس دين"! إن هذه الشبكة الضخمة من دروس وحلقات الدين منظورة ومعلومة للساهرين على مخطط التجفيف إذاً، وهي معارضة - في الظاهر - لأهداف مخطط التجفيف، أفلا يطرح ذلك سؤالاً حرجاً عن الدور الحقيقي الذي تلعبه هذه الدروس؟!

وقد يعترض البعض قائلاً: لو كان الأمر كما تقول فلماذا لا تكون هذه الدروس علنية في المساجد والأماكن العامة طالما هي ليست خافية عن أعين المراقبين؟ قلت: إن الجواب هو ما قدمته في النقطة السابقة من غرض زرع الوهم في أفئدة الحاضرين والمنتسبين لهذه الدروس بأنهم يقومون "بمهمة خطيرة" في حمل لواء الدين في سياق الواقع المتعفن الذي تعيشه مجتمعاتنا؛ إنه أسلوب إلهاء وتحويل للطاقة والفكر الشبابي فيما لا يجدي وتصريف محكم للطاقة الإنتاجية الحية للشباب دون اللجوء إلى المواجهة المباشرة أو الكبت المباشر المولد لردة الفعل.

ومرة أخرى أقول أن ما سبق لا يستلزم أن تكون هناك مؤامرة أو تواطؤ خفي مشترك بين الجهتين؛ أعني جهة القائمين على تجفيف منابع التدين وجهة المشرفين على هذه الدروس، إلا أنني لا أستغرب أن يكون ذلك حاصلًا فعلاً، فلقد شهد زماننا من مرضى النفوس ما لا يستغرب معه شيء، ولكنني أقول - من باب حسن الظن والتفاؤل - أن هذه الدروس بهذه الصيغة لا تخدم أي هدف إيجابي للدعوة، وإنما تخدم - ولو بصورة غير مقصودة - مخطط الإقصاء الفكري ومخطط الاستنزاف الفكري لشباب الأمة وطاقتها، فهذه الدروس في أحسن حالات الظن بها غير مجدية ومضیعة

للوقت والجهد وملهاة للشباب عن دورهم الحقيقي في تغيير المجتمع ، وبالتالي فمهما كانت النوايا والدوافع وراءها ، وسواء أوجد التواطؤ مع الغير أم لم يوجد فإن علينا تجنب هذه الصيغ العقيمة المختزلة " للنشاط" الديني .

(٣) كثيراً ما تكون هذه الدروس الدينية المنزلية موجهة نحو الفتيات الصغيرات منهن والكبيرات ، ونحن نتيقظ بشدة تجاه أي أمر يتناول الفتاة المسلمة ونتحسس برهفة مفرطة أي أمر ينفرد ببناتنا تأثيراً ، لأن الفتاة المسلمة هي "المصنع الإسلامي" لجيل الغد وما بعد الغد ، ولهذا فلا نتحمل أبداً أي تفريط فيهن أو تعريضهن لسوء .

لذلك نحن نتساءل: لماذا التركيز على الفتاة في مثل هذه الدروس؟ فنجد أموراً كثيرة تفسر الأمر منها كون الفتاة أكثر عاطفية وأكثر ميلاً للتأثر بما يستميل العواطف ، لا سيما العواطف الدينية وعاطفة البذل والعطاء والتضحية ، كما أن الفتاة أقل احتمالاً لأن تتفلسف من قبضة هذه الدروس للتحوّل إلى وجهة " ناشطة" ضمن أي إطارٍ حركي فاعل مؤثر فعلاً كما هو الحال في الفتيان الذين هم أكثر احتمالاً لذلك ، والأمر الثالث هو أن إحكام القبضة على الفتاة يعني إحكام القبضة على الأسرة وبالتالي الجيل كله .

(٤) ثم نتطرق إلى المحتوى " الفكري" لهذه الدروس فنجد فيها من المخالفات العقيدية والشرعية ما يحيلها إلى دروس "لا دينية" ، بل إن كثيراً منها يسير في اتجاهات أشبه ما تكون باتجاهات التصوف المنحرف التي لا تنتهي إلا باستعباد الشيخ لمريديه وباختزال طاقة التلميذ التعبدي في إطار واحد فقط هو إرضاء أستاذه . وتأمل معي إلى نماذج حية واقعية لما يجري في دروس الدين هذه :

١ - الأستاذة أو "الآنسة" وهي مدرسة الحلقة تجلس في الأعلى بينما يجلس على الأرض أسفل منها " الطالبات " اللواتي أتين لدرس الدين هذا . ولا يصح للطالبة أن تتحدث أو تسأل بدون إذن ، وبدهي أنه لا يصح لها أن تجلس على مرتفع مواز لمكان جلوس الآنسة أو الأستاذة .

٢ - الأستاذة تتذمر في الدرس وتعرض عن الحديث لأنه لم يحدث لديها "تجلي" بسبب حدوث أمرٍ خارقٍ من الطالبات ، وهنا يأتي التكليف بقراءة شيء من الآيات أو الأذكار أو الأوراد حتى يحدث "التجلي" وتتمكن الأنسة من أداء الدرس .

٣ - الأستاذة توجه الفتاة الشابة الصغيرة إلى ضرورة وأهمية المواظبة على حضور الدروس دون استثناء مهما كان العذر ولو اضطرت إلى مخالفة أمر أمها وأبيها والخروج من المنزل بدون إذنهما أو حتى بدون استئذانهما لأنها على "الحق" وأهلها على "الباطل" . إذاً هو زرع لروح المعاندة والخروج على الأهل ، ولا حجة للقاتل بأن الطاعة للأهل مشروطة بعدم الأمر بمعصية لأن منع الأهل ولدهم أو ابنتهم من حضور درس ديني بعينه ليس معصيةً وليس أمراً بمعصية ، فماذا إذا؟ إن القضية قضية إيجاد شرح في الأسرة الواحدة مع تزيين ذلك بكلمات ومصطلحات عاطفية وتشبيه مواقف عقوق الوالدين والخروج عن أمرهما هذه بمواقف الصحابة الكرام الذين خالفوا آباءهم وأمهاتهم في قضية العقيدة والشرك ، وأين هذا من ذاك ؛ أين خروج الفتاة بدون إذن وليها من مجاهدة الصحابة لعقائد الشرك في أهلهم ومكابدة صنوف العذاب على أيديهم؟ سبحانك هذا بهتان عظيم!

٤ - وإن تعجب أخي الكريم أختي الغالية فاعجب لذلك النظام الهرمي الذي يجمع "الأستاذات" اللواتي يشرفن على هذه الدروس ؛ إذ أن لكل أنسة أو أستاذة مرتبة لا تتعدها إلا بتصديق وموافقة من "الشيخة الكبيرة" ، ثم ما هي علامة كل مرتبة أو درجة؟ لا تضحك إذا قلت لك أنها عبارة عن لون الحجاب أو منديل الرأس الذي ترتديه! فهناك مرتبة لمنديل الرأس الأزرق وأخرى لمنديل الرأس الأسود ، وهكذا دواليك . خرافات وترهات وبدع وافترافات ما أنزل الله بها من سلطان ، وما جاء منها من النبي ﷺ برهان . بل لعمرى إنها لأشبه بالمنظمات الماسونية التي تجعل أكياس الورق على رؤوس أعضائها كي تغلق بها على عقولهم بعد أن عميت أبصارهم والعياذ بالله .

الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْلُكُمْ ﴾ ، وأصحاب هذه الدروس يجعلون حلم الفتاة أن تصل إلى مرتبة منديل الرأس الأزرق ! تأمل هذا ثم قل لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

٥) إن الكثير من هؤلاء "الأستاذات" و"الشيخات" يعمدن إلى تسخير المريدات والفتيات لأجل خدمتهن الخاصة باسم التدين والتعبد والانتماء ، حتى ليصبح هاجس الفتاة كيفية التقرب من الأستاذة أو الشیخة والفوز برضاها والاحتراز من إغضابها ، ولقد سمعنا وشاهدنا من الأستاذات من يعلمن النساء المريدات أن عليهن أن "يزكين" عما يملكه من خلال تسخير ممتلكاتهن ومقدراتهن لأجل خدمة رفيقات الحلقة وأستاذتها ، فإذا بها تتحول إلى سائق شخصي للشیخة ، وإذا بها تصبح طاهية لأفضل الطعام كي تقدمه للشیخة ، وإذا بها تخرج من بيتها وتقطع المسافات الطوال لتلحق بـ "الدرس" والحلقة . إنها عملية ابتزاز واستمراء لا غير ، وأين هذا كله من الدين والإسلام والعقيدة والتربية النبوية؟! أين هذا من هدي الرسول ﷺ : "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله" . فما بال أقوام يرفعون أنفسهم فوق مستوى الغير استكباراً في الأرض واستخفافاً بعقول الناس؟ ألا فليتيق الله هؤلاء ، ألا فليتيق الله هؤلاء .

٦) أما ما يتم تعليمه مما هو "ديني" فعالباً ما يكون قوامه تحفيظ القرآن الكريم دون شرح أو تفسير - بالنسبة للصغيرات - أما الأكبر سناً فلا يتجاوز المحتوى التعليمي بعض الأمور الفقهية البسيطة الظاهرة . وهذا كله جيد ولكنه لا يستدعي هذه الهالة الضخمة من التحضير والحضور و"السرية" لهذه الدروس ، ولا يستلزم أن تحتكر هذه الدروس والحلقات فكر الفتاة المسلمة وتوجيهها وتربيتها وفق منهج هذه الدروس . وبكلام آخر نقول أن بوسع الفتاة المسلمة تعلم كل ما هو علم ديني حق مما يعرض في هذه الدروس دون لزوم هذه الأجواء والبيئات المصطنعة وبعيداً عن هالات القدسية التي تضافى على أستاذات وأنسات هذه

الدروس . هذا ناهيك عن المخالفات والبدع التي تتم ممارستها في هذه الحلقات من قراءة الموالد والذكر الجماعي والتكليف بأعداد محددة من الأذكار على صفة معينة ليس لها من الدين دليل صحيح ...

(٧) إن الأمثلة التي ذكرت وركزت فيها على الفتيات وانخراطهن وجذبهن إلى هذه الدروس والأجواء لا يعني أن الفتيان بمنحى عن أمثال هذا الخطر، إذ أن الشاب كثيراً ما تختزل شخصيته وتطوع في إطار العصبية المذهبية أو التعصب لشيخه، وكثيراً ما تكتنف هذه الأنواع من الدروس ملامح الاهتمام بالمظاهر والأشخاص بعيداً عن روح العقيدة الإسلامية النقية . كما أن كثيراً من البدع تجد طريقها إلى هؤلاء الشباب سواء أكان من خلال الممارسات الجماعية لصنوف الذكر الجماعي البدعية أو الموالد وغيره مما يضيق المقام عن حصره ويكتفى بمثاله عن مجموعه .

هذه بعض الملامح العامة التي تجعلنا على توجس وترقب وريبة من دور هذه الدروس الحقيقي في حياة الشباب المسلم بنات وبنين، ولا يحسن أحد أن ما ندعو إليه هو التوقع والانطواء، إنما أدعو إلى الوعي في الدين والتدين، وعبادة الله عز وجل لا عبادة الأشخاص والمذاهب، وعدم الانجراف وراء مظاهر الأمور بعاطفة مجردة عن التفكير والتدبر والربط مع معطيات الواقع ومخططات الكائدين لهذه الأمة .

فما هو الحل لمواجهة هذا الأمر؟

الحل بسيط وسهل وميسر إن شاء الله لمن أخلص قلبه لله وأعمل فكره بتحرر من أسر الأشخاص والهالات و"الشيخات"، وجعل همه معرفة الرجال بالحق لا معرفة الحق بالرجال . وفيما يلي بعض الأمور التي أرى أنها تعين في الخروج من هذه الإشكاليات والتخلص من دوامة هذه الدروس :

(١) علينا أن نعي تماماً أن الإسلام دعوة عالمية وأنا كمسلمين بهذا المعنى الدعوي العالمي الذي نحمل من خلاله منهج إنقاذ البشرية لا نحفظ بأسرار، وليس لدينا

ما نخفيه، ولا نتكتم على أمورٍ خفية. إن منهج الإسلام في تربية الفرد واضح ومباشر ولا يحتاج إلى أجواء السرية التي تتلبس بها هذه النشاطات الإسلامية الوهمية، ولا تحتاج إلى هذا التضخيم الفارغ لحراجة هذه النشاطات أو أهميتها.

وبناءً على هذا، فإن نوع العلم الشرعي الذي يحتاجه ابنك وابنتك لا يحتاج أن تخرج بهم - بعد أن تجهد في تربيتهم في المنزل - إلا إلى مكان واحد ألا وهو المسجد وحلقات العلم العلنية المفتوحة، وتذكر أنك في هذه المرحلة لا تعلم ولدك فقه السياسة الشرعية ولا فقه النوازل ولا فقه الإمارة، إنما تعلمه بدايةً الفقه الشرعي العيني الضروري له، فقه العبادات وفقه السلوك وفقه الآداب الإسلامية، واعلم يا رعاك الله أنه لم ولن يجروا أحد على أن يقلب حقائق هذه المعلومات الفقهية في العلن لأن الله عز وجل قد جعل في هذا الدين مهابة تتوقف عنده الفئران صاغرة عن أن تلوث بأذيالها صفحة الدين الجميل. فلا داعي إذاً لأن تذهب ابنتك إلى بيت فلانة أو علانة ولا لولدك أن يذهب إلى منزل فلان أو علان كي يتعلم فقه الطهارة وفقه الصلاة والصيام والتجويد ونحوه، فأليك المسجد وإليك دروس العلم المفتوحة، ومراكز تحفيظ القرآن الكريم فإن ذلك كله يكفي ولدك في هذه السن المبكرة، ويكفيها في هذه المرحلة من التربية.

٢) علينا أن نتحول من التدين المنفعل إلى التدين الواعي، التدين الذي نعلم به منهج الله عز وجل ورسوله ﷺ ونعلم به مراتب التقوى والعمل وفق هذا المنهج لا وفق منهج ألوان مناديل الرأس ومراتب التجلي ودرجات الكشف والفناء. وهذه مهمتك أيها الأب والوالد الراعي لأسرتك، وناشدتك الله أن تسأل نفسك: كم مرة عدت من صلاة الجمعة فجمعت زوجك وأولادك وحادثتهم وناقشتهم وعلمتهم بما سمعت من فم الخطيب على المنبر؟ كم مرة جالست ولدك وحدثته في فقه دينه كي تلبى رغبة المعرفة وتهذب لديه طاقة العمل وتنفي عن ذهنه ما يبث في عقله من معارضتك للدين والتدين؟ قلت: اسأل نفسك هذه الأسئلة ثم

اعلم أنه بقدر ما تنصرف عن اهتمامك بولئك بقدر ما ينصرف ولذك إلى الاهتمام بهذه الدروس والحلقات التي ما انتظمت إلا لاستنزاف طاقات وعقول الشباب، وأعني الدروس التي وصفت آنفا لا دروس المساجد وحلقات العلم العامة.

(٣) علينا أن نفرق بين احترام العلم والعلماء ومعرفة مكائهم وهو كله من أوامر الشرع، وبين تقديس الأشخاص والاتباع الأعمى لفلان أو فلانة أو إعلان أو علانة، واعلم تماماً أن كل أحد يؤخذ منه ويرد إلا المصطفى ﷺ، فلا تخدعك هالات المجالس والأرائك المرتفعة وتقييل الأيادي واستدرار الرضا والعطف، بل اصرف هذا التذلل كله لوجه الحي القيوم، واعلم أن العلم الشرعي الصحيح السليم لا يزيد صاحبه ومبتغيه إلا نوراً وعزاً وكرامةً، فإن أنت أحسست في نفسك ذلاً وصغاراً فاعلم أنك لا تأخذ علماً إنما تتبع شخصاً اتباعاً أعمى.

(٤) علينا أن نعلم أولادنا النظر في المسائل ومحاكمتها والتدبر في مآلاتها - كل بحسب سنه - حتى يتوقفوا عند المتناقضات ويتبينوا الأمور المتضاربات؛ فدرس الدين الذي يربي على الإسلام لا يمكن أن يوجه في الوقت نفسه إلى ما نهى الإسلام عنه كما تقدم، ولا يكون الخروج لدرس الدين سبباً في استجلاب مفسد وتعطيل مصالح أولى وأهم بمعيار الإسلام نفسه. فقم يا أخي الكريم بتعليم أولادك هذه المعايير البسيطة، واحرص على أن يكون توجيهك وحرصك على عدم انخراط أولادك في هذه الدروس والأنشطة الجوفاء التي تسمى باسم الدين احرص على أن يكون ذلك مشفوعاً بإفهام أولادك سر هذه الإعراض بما يناسب سنهم، واحرص على أن يكون مشفوعاً بالبديل السليم سواء أكان مدارس الإسلام والقرآن والسيرة النبوية في منزلك أو في المسجد أو في حلقة العلم الموثوقة العلنية المعروفة. وحذار من أن يكون اعتراضك على مشاركة أولادك في هذه الدروس سبباً في استشعار أولادك عدم اكتراثك بالدين - ولا يحدث ذلك إلا إذا أهملت جانب التربية الإسلامية فيهم - والطريق إلى اتقاء ذلك هو أن يرى أولادك فيك الأب الفاضل وفيك أيتها الأم الفاضلة اهتماماً سليماً بالإسلام وقُدوةً

صالحة لاقتفاء الأثر وفق منهج الإسلام، وإلا فإنك تجعل للمغرضين إلى أولادك وأسرتك سبيلاً.

وأخيراً، فأرجو ألا يساء فهم هذه المسألة التي عرضت لها في هذه العجالة، والله أشهد أنها ليست إلا نصيحة لوجهه تعالى لا أبتغي فيها قدحاً ولا تجريحاً ولا إساءة ولا عيباً، إنما التحذير والنصيحة، وإن ابنك مني كابني مني، وإن ابنك مني كابنتي مني، أحرص على ما ينفعهم وأغار عليهم أن يستخفهم أو يستغلهم كائن من كان. فتأمل ما ذكرت بتجرد للحق ورغبة لمعرفة الخبيث من الطيب، واعلم أن الخطب جلل والفتة كبيرة، فلا تبتئس من الحيرة فيها، ولا تجعل لليأس والقنوط إلى قلبك سبيلاً، واعلم أن الحق أبلج منير مهما اجتمعت الحوالك والظلمات.

(ب) الرياضة :

مما لاشك فيه أن الإسلام يدعو إلى تعهد كل من الروح والجسد بالرعاية والعناية، ولا ريب أن بناء الجسم السليم القوي هو خير في الإسلام من الركون إلى الضعف والهزال. ولا ينكر أحد ما للرياضة والتمارين من أثر نافع في بناء الجسم وتقويته، وإن أنواعاً من الرياضات المختلفة تلزم الفرد المسلم لا سيما من يتوسم في نفسه القدرة على خوض الميادين الجهادية حرصاً منه على ألا يكون محلاً لنكايه غير المسلمين فيه حين يؤتى من باب الضعف.

فلا بد للمربي إذاً من أن يلحظ دور هذا العامل في تربية طفله، بحيث يجعل لجسده حظاً من العناية والرعاية من خلال ألعاب الرياضة المناسبة. وهذا الأمر الذي وصفناه ليس مكمناً للخطر بطبيعة الحال حين ندرس دور الرياضة في إلهاء وتحويل أطفالنا وشبابنا عما يليق بهم ويصلح لهم من هموم، إنما هو أمر آخر، ألا وهو استدراج الشباب من خلال هذا الباب وإشغالهم وإلهائهم "بالرياضة" والألعاب الرياضية بغية تحويل طاقاتهم وكموناتهم عن الوجهة الأولى والأجدر إلى هذه الوجهة غير المجدية.

وما أريد التنبيه عليه في هذا المقام هو بعض الظواهر الجديرة بالاهتمام والتي أفرزتها النشاطات الرياضية في بلاد المسلمين والعالم سواء أكان على مستوى الفرق الرياضية المحلية أم على المستوى العالمي. ولا أريد أن يفهم من هذا التنبيه الإنكار على الرياضة كمبدأ أو فكرة فهذا تفريط، ولكن نبين في هذا المقام مجالات الإفراط في الاهتمام بالألعاب الرياضية والفرق الرياضية. وتذكر أخي الكريم أختي الغالية أن تنظر إلى هذا الخطر ضمن منظومة الأخطار الأخرى التي بينها ليظهر لك الأثر الحقيقي لوسيلة الإلهاء والتحويل هذه في تدمير طاقة الجيل وتبديد اهتماماته وطمس هويته.

فما هي هذه الأخطار المترتبة على انتشار ألوان الألعاب الرياضية المنظمة؟

(١) تبديد الوقت :

لم تعد اللعبة الرياضية تقتصر على التمرين الدوري أو اللعبة الخاصة بين فترة وأخرى، بل أصبحت هاجساً تنظم لأجله الأعمال بغية التفرغ لمشاهدة المباريات، وتضيع الأوقات بالساعات من أجل متابعة المنافسات الدورية المحلية والدولية والعالمية في شتى صنوف الرياضة. وهذا مما لا يماري فيه أحد صغيراً كان أم كبيراً، طفلاً أم شاباً أم كهلاً، فالكل يعترف بإنفاق جزء ثمين من وقته في متابعة الأحداث والمباريات الرياضية.

(٢) تبديد الطاقة :

إن طاقة الشاب لا تخرج عن أن تكون طاقة فكرية أو جسدية أو مزيجاً منهما. ومما هو مشاهد أن الإغراق في النشاط الجسدي إلى حد الإرهاق يعطل من ترجمة الطاقة الفكرية إلى واقع عملي حي يعكس عبقرية الشاب وابتكاريته، فضلاً عن أن مجالات ممارسة الإبداع الفكري في مجتمعاتنا الإسلامية تكاد - مع الأسف - أن تكون معدومة بالمقارنة مع مجالات ممارسة الألعاب الرياضية.

ومن جهة أخرى فإن التشجيع المعنوي والمادي الهائل الذي يناله "أبطال" الرياضة مع عدم وجود تشجيع يُذكر في المجالات الفكرية والعلمية والأدبية بالمقارنة مع الرياضة يدفع بالشباب إلى التوجه نحو المجالات الرياضية والجسدية والعزوف عن مجالات الإبداع الفكري التي لا تعود على صاحبها بتشجيع ولا جوائز ولا شهرة ولا غير ذلك مما يحصل عليه أبطال الرياضة. إنها عملية وأد غير مباشرة للطاقة الفكرية للشباب من خلال زرع وبث روح الزهد في هذه المجالات والتشجيع على المجالات الرياضية التي لا تبني أمة ولا تحقق تقدماً ولا تنجز هدفاً.

(٣) تبديد الأموال :

وهذا أمرٌ ناطقٌ بنفسه ويبعث على الأسف الشديد تجاه هذه الأموال الهائلة التي تنفق وتبذر وتصرف فيما لا طائل تحته؛ أموالٌ تقدر بالملايين تهدر وتبذر في أمور لو افترضنا جوازها فلا يمكن أن نغض النظر عن احتلالها الدرك الأسفل من سلم أولويات الأمة المسلمة والجيل الناشئ، ناهيك عن التبذل للرياضيين الأجانب ومشاهير الرياضة العالمية من الكفار مع ما يؤدي إليه ذلك من إعجاب الشباب وتربية الناشئة على الاغترار بهؤلاء والتمثل بهم والتأسي بسلوكهم ومظهرهم. ولا يخفى على أحد أن كثيراً من أطفالنا وشبابنا - نتيجة هذا الإعجاب - يحفظون من أسماء مشاهير الرياضة من الكفار ويتأثرون بهم أضعاف أضعاف ما يحفظون من أسماء الصحابة الكرام، ولعلهم قلدوا أولئك "المشاهير" في المشية والكلام واللباس والسلوك والشذوذ والانحراف والضياع. وبلادنا تدفع الأموال بالملايين لاستجلاب صنوف الرياضة التي لا تمت لديننا ولا لأعرافنا ومجتمعاتنا بصلته، ومع هذه الرياضات تأتي صنوف نجسة من البشر ترتع في بلاد المسلمين وتتمتع بخيراتهم وتفسد عقول شبابهم في حين ترسم على شفاهنا ابتسامة بلهاء تحاول التعبير عن تحقيق شيء وما هو بشيء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

٤) تحول الرياضة إلى ذريعة لفعل المحرمات :

فهذه بعض الرياضات كسباقات الخيل وغيرها تصبح ذريعة للقيام بالمراهقات والمقامرات ، وهذه الرياضات أجمع لا تخلو من سفور وخلاعة ، وها هي - مع الأسف - الفرق الرياضية النسوية تنتشر في بلادنا فإذا بالسروال القصير يصبح "مشروعاً" في عرف مجتمعاتنا لأنه "زي رياضي" ، وها هي دولنا المسلمة تشارك في الدورات الرياضية العالمية بفرقنا النسائية "المتطورة" وهن يرتدين - أو لا يرتدين - أزياءهن الرياضية السافرة وهن كاسيات عاريات ، ثم تتوج هذه النسوة ميداليات النجاح والوطنية والولاء لأنهن يمثلن "الوطن" ؛ فانظر يا رعاك الله إلى هذه النماذج التي نبذلها لأبنائنا وبناتنا للاقتداء والتأسي .

٥) تنمية روح العصبية والنزعة العصبية عند الأطفال والشباب :

فكم من شحناء وبغضاء ، وكم من مشاحنات وشجارات جرت بين الشباب بسبب تعصب هذا لفريق كذا وذاك لفريق كذا من الفرق الرياضية ، وكم نرى من نزعات العصبية تجاه الفرق المختلفة وأثر ذلك في تنمية روح التعصب والكره والغل في النفوس ، وكأنه لم تكفنا - على مستوى الدول - القومية العربية والوطنية العقيمة حتى تغزنا - على مستوى المجتمع والشارع والمدرسة - عصبيات جوفاء حمقاء تجاه هذا الفريق الرياضي أو ذاك ، ولربما هجر أحدنا أخاه لا لسبب إلا لمثل هذه العصبية ، بل إن البعض لا يزوج ابنته ممن يتقدم إليها لأنه يشجع فريقاً غير الفريق الذي يشجعه هو ! وأمور ووقائع أخرى كثيرة تتمثل فيها المثل القائل : المضحك المبكي . وهذا خطرٌ عظيمٌ أخى الكريم لأنه يعطل في نفس الشاب إمكانية تنمية علاقة المحبة والتعاون والتكافل مع الغير ، وبالتالي فلا بناء في المجتمع ولا تراص بين أفرادهِ ولا تكافل ولا تعاون .

٦) الإلهاء عن العبادات وصنوف الطاعات :

فبين مضيع للصلاة بسبب مباراة كرة قدم إلى مضيع للصيام بسبب "إرهاق التدريب" إلى منشغل عن السنن والرواتب والنوافل بما أشغل به نفسه من الرياضات والتدريبات ، إلى منصرف عن المسجد إلى النادي وعن حلقة العلم إلى قناة التلفاز الرياضية ، وهكذا نجد الشباب منغمساً في صنوف الرياضات منشغلاً بها عن العبادات والنوافل والسنن ، زاهداً في الآخرة متلهياً بالدنيا ، فأى فوز لهذا الشاب ؟ وأي نفع تعود عليه بها هذه الرياضات ؟

٧) تحول الرياضة من وسيلة إلى هدف :

لقد قلنا في المقدمة أن الرياضة من حيث هي رياضة تقع ضمن ما يشجع عليه الإسلام طالما هي بقدر ، وطالما هي تخدم أهدافاً معتبرة شرعاً مثل الترويح عن النفس بالمباح وتنمية وتقوية الجسد والعود على الشدة والقوة تحضيراً للجهاد ومنازلة الأعداء . . . ولا يجوز للمسلم - شأنه في هذا الأمر شأنه في غيره من الأمور - أن يمضي هكذا على غير هدف وعلى غير هدى وبدون ضابط ؛ فالرياضة لا بد أن تكون لهدف من الأهداف المذكورة أو المباحة ، وهي بهذا تنضبط بالقدر المحقق لهذا الهدف ، ولا تصبح مجالاً لإفراط ولا تفريط . ومن الواضح أن انشغال الجماهير المسلمة بمجال الرياضة يفوق بشدة حاجتها الحقيقية لها والكفيلة بتحقيق أي هدف مشروع لممارسة الرياضة . وبمعنى آخر فلقد تحولت الرياضة من وسيلة لتحقيق أهداف القوة والسلامة الجسدية والاستعداد الجهادي والترويح عن النفس ، تحولت إلى هدف بذاته مجرداً عن الأهداف المعتبرة بحيث انكب الشباب على الرياضة لمجرد أنها رياضة لا لأنها تحقق لمسلم قوة تمكنه من الانخراط في معسكر الجهاد أو الذب عن دين الله وسنة رسوله ﷺ ، وهكذا أصبحت الوسيلة هدفاً ، وضاع الهدف الأصلي وتبددت طاقة الشباب هباء .

(٨) تغذية دعوى القومية والوطنية :

ونقصد بالقومية والوطنية تلك التي تتعارض مع معاني الوحدة الإسلامية والأخوة في الدين والولاء والبراء لله تعالى ، لا الوطنية التي هي بمعنى حنين المرء لقومه وبلده ومحل نشأته فهذا أمر فطري مشروع ، وإنما المنبوذ شرعاً هو أن يكون ولاؤك أيها المسلم لقطعة أرض أو خارطة وطن أو عشيرة بلد ، لا سيما حين يتعارض ذلك الولاء مع الولاء المجرد لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين . ولذلك ، نجد أن المباريات والدورات الرياضية الإقليمية التي تتنافس فيها فرق "الدول الإسلامية" مع بعضها البعض وهي تجعل هدفها الفوز بـ "الكأس" أو بـ "اللقب" وتغذي في روح المشجعين هذه النزعة القومية ، ويزداد هذا المعنى سوءاً عندما تضيف أجهزة الإعلام الوطنية ألقاب البطولة والكفاح والشهامة والعزة والكرامة وألقاب الولاء الوطني والتمثيل الوطني على الفرق والأفراد الرياضيين الممثلين للدولة الواحدة وكأن هذا الفريق أو الفرد يخوض معركة جهادية لتحرير أرض المسلمين أو فتح أرض الكافرين ، وإنك ترى من الحماسة والانفعال على وجه البعض ما يشعرك بأنه يكاد ينفجر وهو يشجع هذا الفريق أو يحقق على ذاك الآخر ، وما الأمر إلا انجراف أو انخداع بهذه الدعاوى الجوفاء ؛ وأي شيء تحققه الرياضة في بناء الحضارة إذا كان البناء الحضاري لا وجود له أصلاً في منظومتنا الفكرية والعملية؟!

ومن جهة أخرى نجد أن الكثير من الأحداث الرياضية العالمية تتزامن مع أحداث ونوازل عظيمة تفتك بجسد أمتنا من غزو عدوٍ لبلد مسلم أو ذبح شعب مسلم أو تجويع شعب مسلم ، كل هذا ونحن منشغلون بمتابعة كأس العالم لرياضة كذا وكأس أوروبا لرياضة كذا . ولا يهمنا أن أذكر وقائع بعينها أو أرقاماً محددة لأن هذا الذي أنبه عليه واقعٌ حيٌّ مشاهد في كل يوم وفي كل وقت تعطي فيه أذنك للمذيع أو تشغل نفسك فيه بالمرناة أو تبادر فيه بالانتماء للنادي الرياضي بدون

ضوابط وأهداف . ولا زلت أذكر عندما كنت طالباً في كلية الطب في جامعة دمشق وحدث أن تزامن وقت مباريات كأس العالم لكرة القدم مع شهر الامتحانات الفصلية ، فما كان من بعض الطلاب إلا أن تقدموا بطلب إلى عمادة الكلية لتأجيل الامتحانات لما بعد المباريات حتى لا تتعارض الامتحانات مع هذا الحدث العالمي المهم ، والحمد لله لم تأبه عمادة الكلية إلى هذا الطلب الفارغ ولكن الشاهد هنا هو في منهج تفكير طلابنا وطالباتنا - بعضهم على الأقل - من حيث الاهتمام بأمور فارغة تماماً ، بل ومن حيث الخلل العميق في ترتيب الأولويات في فكر واهتمام الطالب لا سيما في المرحلة الجامعية . وهذا مثال ينسحب على كل مجتمعاتنا العربية والإسلامية وعلى كل مستوياتنا التعليمية .

وبعد فهذه بعض المظاهر المعاينة التي تدل على افتتان مجتمعاتنا وناشئتنا بالرياضة ومتعلقاتها ، وهي مظاهر خطيرة بالنظر إلى أثرها في استنزاف طاقة الشاب الفكرية والعملية . فما هو الحل المقترح لمواجهة مثل هذه الأخطار ؟

أقدم فأقول أن حل المسألة من أساسها هو في يد حكوماتنا ومسؤولينا الذين يساهمون في تضخيم المجال الرياضي في حياة المجتمع فوق ما يتصور به صلاح المجتمع . ولهذا نحن ندعو حكوماتنا التي فوضت أمر هذه الأمة إلى ثلاث مسائل على الأقل في هذا المجال :

١) الحد والتقليل من الإنفاق في المجال الرياضي وتحويل هذه الأموال الهائلة إلى المجالات العلمية والفكرية من خلال نشر المراكز العلمية والأدبية الفاعلة ونشر الكتاب والعلم والندوات العلمية لمواكبة التطورات العلمية الحقيقية . وكذلك إنفاق هذه الأموال في تحديث وتحسين المدارس قلباً وقالباً من خلال تجهيز العلمي الحديث للمدارس التي يتكدس فيها الطلاب تكدس السمك في علبه السردين ، ومن خلال إعادة النظر في المناهج الدراسية تحديثاً لها من الناحية العلمية ، وتطهيراً لها من الناحية العقيدية .

٢) الحد والتقليل من التضخيم الإعلامي للأحداث الرياضية وتبديد أوقات المشاهد بأحداث رياضية في كل بقعة من بقاع الأرض . والعمل على الحد مطلقاً من الوجود الأجنبي في ساحتنا الإعلامية ؛ فالمشاهد المسلم ليس بحاجة إلى أن يعرف أن "مارادونا" قد كسر ساقه - وليته قد كسر رقبته - أو أن غيره قد كسر يده أو بدل قصة شعره أو بصق على مدربه ، وغير ذلك من التفاهات والسخافات التي تشغل إعلامنا بها ، ولكن المشاهد المسلم بحاجة إلى أن يعرف كم من المسلمات اغتصبن في البوسنة والهرسك وكوسوفا ، وكم من الأطفال قتلوا في العراق ، وكم من الحوامل بقرت بطونهن في صبرا وشاتيلا ، وكم من الشباب محبسون في سجون فرنسا ، وكم من الكيد الصهيوني والماسوني الغادر يحاك للمسلمين في أمريكا ، وكم وكم وكم وكم

٣) وضع خطط وأهداف معينة للتطبيق في المجال الرياضي بحيث لا تكون الرياضة هدفاً بعينها بل تكون وسيلةً لتنمية جيل صحيح سليم البنية قوي البدن ، وأن يربط هذا كله بالهدف الأكبر ألا وهو الانخراط في المنظومة الجهادية التي تؤمل من خلالها تحرير أرض المسلمين بدءاً بالقدس الشريف وانتهاءً بآخر ذرة تراب في الصين وذلك حتى تتحول الرياضة من لهو عديم الفائدة إلى عمل من جنس العبادة التي يؤجر القائم عليها والقائم بها إن شاء الله .

وقد يضحك القارئ عندما يقرأ هذه المطالب التي أوجهها إلى حكومات المسلمين وقد يقول في نفسه : وهل حكوماتنا مهتمة بما تقول؟ أم هل ستصت أو تستجيب لما تطلب؟ وأقول إن حكوماتنا ليست من جنس غير البشر ، وليسوا إلا أناساً من بني جلدتنا ، ولن يعدم فيهم أو في بعضهم أو في أحدهم لحظة صدق مع نفسه وربه ربما يكون أحوج ما يكون فيها إلى دعاء مخلص من أحد الرعية أو توجيه صادق من أحد المخلصين ، ولا تعدو الكلمة في هذا المقام كونها نصيحة نريد بها وجه الله تعالى ، والحديث الشريف يبين لنا أن : "أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر" وليس كل حكامنا جائراً وليس كله مفقود الأمل ، وإذا كنا مأمورين بالجهاد مع كل أمير بر وفاجر والجهاد ذروة سنام الإسلام ، أفلا نكون

مأمورين بإسناد النصح إلى حكامنا وأمرائنا ومسئولينا أيما كان حالهم؟ فيا أخي لا تستسلم لشعور القنوط واليأس وفقد الأمل، ولا تشغل بفلان أو علان ؛ بل انشغل بنفسك وبما ألقاه الله عليك من تكليف واعمل به لأجل الله، ثم ليكن غيرك مسؤولاً عن نفسه عندما يرفض الاستجابة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . على كل حال هذا استطراد أخرجني عن مجال البحث هنا، فعود على بدء نقول إن هذه المطالب الثلاثة هي بيد المسؤولين في أجهزة الدولة أسأل الله عز وجل أن تؤخذ بعين النظر والاعتبار .

وتبقى مسئوليتنا كأفراد تجاه هذا الخطر المترتب على الانشغال بالرياضة واللهو الرياضي، وهالك بعض الأمور التي تعينك على اتقاء هذا الأمر ووقاية المجتمع والجيل منه إن شاء الله تعالى :

(١) إدراك أن المباح ليس كله على درجة واحدة، وأن المباح ينضبط بمقدار ما ينشغل المرء فيه، فإن من المباح ما يصبح الانشغال فيه مطلقاً مكروهاً أو حراماً بحسب نوع المباح، والرياضة لا تخرج عن هذا الضابط؛ فهي فعل مباح من الله ولكنه مباح بالقدر الذي يحقق به غايته من الترويح عن النفس وتقوية الجسد، أما أن ينشغل به على الدوام أو على الغالب فإنه يخرج من المباح إلى المكروه وربما إلى الحرمة إذا ضيع الفروض والعبادات لأجلها . فتنبه لهذا الأمر لأنه يعينك على ضبط المسألة عند أولادك بحيث تجعل لهم ضابطاً ومعياراً في مجال ممارسة الرياضة فلا تشغل عن صلاة ولا تلهي عن ذكر ولا تخرج عن ضوابط الأدب والسلوك الإسلامي، أي أنك أخي الكريم ستقوم بتهذيب الميل الرياضي عند طفلك وولدك من خلال هذه الضوابط الشرعية إن شاء الله تعالى . ولا مانع من التوسعة في بعض الأوقات بحيث يزداد في ممارسة هذه المباحات وذلك مثلاً كالتوسعة في المباح من الرياضات والمنافسة الرياضية أيام العيد والفرح وما شابه ذلك، ولك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، ففيما روته أم المؤمنين عائشة عن لعب ولدان الحبشة بالحرا

والدردق تقول: وكان يوم عيد يلعب السودان بالدردق والحراب، فإما سألت النبي ﷺ وإما قال: «أتشتهين تنظرين؟» فقلت: نعم. فأقامني وراءه، خدي على خده وهو يقول: «دونكم يابني أرفدة» حتى إذا مللت قال: «حسبك؟» قلت: نعم. قال: «فأذهبي» (صحيح البخاري) والشاهد هنا هو التوسعة على الأهل والناس في يوم العيد بمزيد من فعل المباحات.

(٢) وضع هدف معين للرياضة في ذهن الشاب كما قدمنا حتى يكون متعبداً لله بهذا النشاط المباح الذي يمارسه فتكون غايته تحقيق معنى الحديث الشريف: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»، وليجعل قدوته في هذا المجال صحابة رسول الله ﷺ؛ فهذا هو الفاروق رضي الله عنه يسخر قوته ومهافته في سبيل الله وها هو خالد بن الوليد يقضي حياته مجاهداً في سبيل الله، وها هم صبيان المسلمين يتصارعون ويتنافسون أمام رسول الله ﷺ ليحفظوا بإذنه في المشاركة بالمعارك، وها هو التوجيه النبوي الكريم: «ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي». ولا يكن المثل الأعلى في حياة ولدك أو ابنتك فلانا من الرياضيين الأجانب الكفار أو غيرهم ممن لا يحفظ الله حداً ولا يقيم له شريعاً فإن مثل هذه القدوة حرة بأن تورد ولدك وابنتك موارد الهلاك والعياذ بالله.

(٣) الحد من الوقت المصروف لمتابعة أنواع الرياضات والمنافسات الرياضية سواء أكان من خلال المرناة أم المذياع أم المجلات الرياضية، والعمل على شغل وقت ولدك وابنتك بالنافع من القراءة والبرامج المفيدة ولا سيما حفظ القرآن وحضور دروس العلم والندوات العلمية الشرعية والكونية فإنها أجدر بالنفع وأقوم للطفل والشاب، ولا تدري لعل ولدك يكشف في نفسه ميولاً علمياً أو موهبةً معينة من خلال هذه الندوات والأنشطة فيعمل على تعهدها فينفع نفسه وأمه بها. ولا يقتصر البديل على الأمور الجادة بل لا بد من الترويح عن النفس بأنشطة متنوعة كرحلات الشباب الكشفية والمعسكرات الصيفية المنضبطة شرعاً.

٤) توعية الشباب تجاه هذا الأخطبوط الرياضي الذي يريد أن يصرفهم عن مهمتهم الحقيقية ، وبث روح الوعي والفهم تجاه كل ما يجري حتى يتولد لديهم الدافع على مقاومة هذه المغريات وعدم الانشغال بها عما هو أهم وأولى لهم ولأمتهم في دينهم ودنياهم .

وهكذا نكون قد عرجنا على مجال آخر من مجالات الإلهاء والتحويل في إشارة موجزة سريعة أرجو أن تحقق مبتغاها في إثارة الوعي في ذهن المربي والأب والأم والشباب تجاه منظومة الكيد العالمية المسخرة لتحطيم الشباب المسلم كما هو مسطور في بروتوكولات حكماء صهيون ، ولا يبقى بعد هذا إلا إخلاص النية لله تعالى ووضع أيدينا بأيدي البعض لنهب ونكافح هذه المخاطر ونمضي سوية في بناء الإنسان المسلم والجيل المسلم إن شاء الله تعالى . ولا يخفى أن ما قدمناه هو مجرد أمثلة لهذا الكيد فما عليك إلا أن تقلب ناظريك وتندبر فيما حولك لتقع على أمثلة أخرى من وسائل هذا الكيد الخبيث .

الخطر الثامن: التدمير الجسدي . النفسى المباشر :

يقول الله عز وجل : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (ال عمران ١١٨) . هذا تحذير من الله عز وجل لنا من فئة المنافقين ، وفي آية أخرى في سورة الحشر يصف الله عز وجل المنافقين بأنهم إخوان الذين كفروا من أهل الكتاب : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (الحشر ١١) . فهذه "الأخوة" والمناصرة بين المنافقين والكفار وأعداء الدين جملة تشكل في مجملها خطراً حقيقياً مترتباً بأمثا على صعيدين اثنين ؛ صعيد خارجي يمثل الكفار المعلنون بكفرهم ، وصعيد

داخلي خبيث يمثلته المنافقون المندسبون بين حنايا مجتمعنا الإسلامي وينفثون سموم الحقد الكافر في الجسد الإسلامي، ولا ريب أن منظومة الكيد هذه تستلزم منا الحذر منها ومن وسائل التدمير والتخريب التي تسخرها في حربها الحقودة ضد المسلمين. ولقد تبين من الآية الأولى أنهم "لا يألونكم خبالاً" فهم لا يوفرون جهداً ولا يتورعون عن أي عمل أو أسلوب مهما بلغ من الخسة والدناءة والوحشية، ولو كان ذلك العمل دس السم في الحلوى التي تقدم للأطفال كما فعل ويفعل إخوان القردة والخنازير في أرض فلسطين، ولو كان ذلك العمل تدمير أجيال الشباب بالمخدرات والمسكرات والمدمرات الروحية - الجسدية، وذلك ما يسعى إليه "حكماء" صهيون من خلال أذرع الفساد الأخطبوطية التي تنتشر كالسرطان في بلادنا. لا بد لنا من أن ندرك أن هؤلاء قوم ينتمون إلى البشرية اسماً وينتمون إلى الحيوانية بكل صفاتها الوحشية المفترسة فعلاً وقولاً وعملاً. ولهذا وجدت لزاماً علي أن أفرد مبحثاً خاصاً بوسائل التدمير التي تتناول الفرد مباشرة - لا سيما الطفل والشاب - والتي يسعى من خلالها أعداء الإسلام في الخارج وعملاؤهم الخسيسون من الداخل إلى تدمير جيل الشباب والأطفال بل والأجنة. وسوف أفيض قدر الإمكان في ظواهر وعلامات هذه الوسائل حتى يتمكن كل منا إن شاء الله من مراقبتها واكتشافها والتعرف على آثارها المدمرة سعياً نحو وقاية وحماية أطفالنا وشبابنا ومجتمعاتنا منها، وصيانة لطاقات جيلنا الناشئ من هذا الاستنزاف القاتل.

وسوف أسرد تعداداً لأهم وأخطر هذه الوسائل ثم نتعمق في دراستها بعض الشيء بإذن الله تعالى، ولكن لا بد لنا من التنبيه على أمر مهم قبل الخوض في ذلك ألا وهو ضرورة إقبال القارئ الكريم على التعرف على هذه الأخطار دون تحرج ودون شعور سلبي من طرحها ومحاولة سبر هذه الأخطار في بيته وحيه ومجتمعه الذي يعيش فيه، ولا يمني نفسه بإنكار احتمال تعرض أولاده لذلك وأن أولاده "بخير" ولا يمكن أن يقدموا على هذه المنكرات (ولكم رأينا من عوارض الدهشة والذهول

على الأهل حين يواجهون بواقع الأمر) والمهم أن تدرك أيها الحبيب أننا لا نسرد هذه الأخطار ولا نشير إليها لسوء ظن بأولادنا بل العكس تماماً؛ نحن نشير إليها لحسن ظننا بأولادنا وحباً لهم في الله وضناً بهم من أن يقعوا فرائس لحيوانات لا ترحم ولا تميز ضحيتها طفلاً كان أم شاباً، صغيراً كان أم كبيراً. فليس في التعرف على هذه الأخطار ومكافحتها ومساءلة وتوعية الأولاد عنها ومراقبتهم تحسباً من الوقوع فيها ليس في ذلك كله إساءة لنا أو لأولادنا أو سوء ظن بهم، بل هو الحب في الله والرعاية في الله ثم هو الواجب والمسؤولية التي لا بد من التزامها أمام الله عز وجل، وليس المقام مقام مداراة وملاطفة إنما هو مقام الحزم والجد والشدة إن لزم الأمر. واعلم أخي الكريم أختي الغالية أن سهام الغدر والخيانة هذه لا تفرق بين ولد وآخر ولا بين شاب وآخر كما أن رصاصات البنادق وقنابل النابالم لم تميز بين طفل وشاب ولا امرأة وكهل ولا فتاة وأم على كل أرض مسلمة دنسها أعداء هذه الأمة الحاقدون.

وإليك سرداً لأهم وسائل التدمير المباشر التي يتعرض إليها أطفالنا وشبابنا :

أ) المخدرات والمسكرات والدخان.

ب) الدعارة ووسائل منع الحمل.

ج) الإعلام الموجه المرئي والمسموع والحاسوبي.

د) المنظمات الشبائية والدعوات البدعية المنحرفة.

وسوف نمضي سوية في استعراض هذه الوسائل بشيء من التفصيل إن شاء الله.

أولاً: المخدرات والمسكرات والتدخين:

وهذه الوسائل أوضح من أن يشار إليها من حيث إيقاع الضرر بالفرد والأسرة والمجتمع والأمة بأسرها، ولا أراني بحاجة إلى كثير من التكرار والإقرار لما هو بدهي معروف، ولكنني أشير إلى هذه الوسائل من حيث ضرورة تحصين الأسرة ضدها والعمل على وقاية أطفالنا وشبابنا منها. إننا إخواني في مرحلة تداعت فيها

وسائل الوقاية والحماية الكبرى من مجتمع ودولة، أصبحت المعركة فيها على مستوى الأسرة والفرد معركة مباشرة مع هذه المدمرات وغيرها، فحديثي في هذا المقام هو للأب والأم والشاب والشابة، فلقد أصبحت هذه الأخطار على عتبات بيوتنا بل في حجرات بيوتنا، ولا مجال لانتظار المنقذ بل المنقذ هو أنت أخي المسلم وأنت أختي المسلمة، وليس المدرسة والمجتمع ولا القانون الدولي ولا اللجان الدولية "لمكافحة المخدرات" . . نريد أن نتحرر من هذه الأوهام والسذاجات ؛ أوهام "الرعاية" الدولية للأمم المتحدة والدول "المتطورة"، وهالك أكثر الدول "تطوراً" قد ظهرت فيها فضيحة صارخة حيث انكشف أمر ضلوع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في تهريب المخدرات من أمريكا اللاتينية إلى أمريكا نفسها وبيع هذه المخدرات في الشارع الأمريكي من أجل تمويل عملياتها الاستخباراتية المدمرة في أمريكا اللاتينية، ثم تريد أن تركز إلى أمريكا وغيرها من الدول "المتطورة" التي تسير الأمم المتحدة ومن في الأمم المتحدة! وتريد أن تركز إلى "قلق" الأمم المتحدة من تأثير شباب الدول "المتأخرة" بأخطار المخدرات، وهل الأمم المتحدة إلا دمية تحركها آلة الكيد الصهيونية الخبيثة. أما ذلك السرطان الخبيث المسمى "إسرائيل" فأخطبوط لا يفتأ يمد أذرعه التدميرية وشبكات المخدرات والدعارة والجاسوسية في بلادنا في حين تجد - مع الأسف - مصداق قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ (المائدة ٥٢) ويفتحون البلاد على مصراعيها لأحفاد القردة والخنازير يعيشون فيها فساداً. لا بد من أن نستيقظ أيها الحبيب ونذكر أن الهدف هو أنت وأنا، ابني وابنتك، ابنتي وابنتك الذين حملنا لا إله إلا الله في قلوبنا وأبيننا أن نرفع هامنا بسواها.

بناءً على ذلك وجدت من المناسب - بل ومن المهم - أن يتعرف كل أب وأم على بعض المظاهر السلوكية والجسدية والنفسية عند الطفل والشاب التي تعتبر مشعرات وعلامات للخطر إذ قد تعكس انخراط الطفل أو الشاب في استعمال

المخدرات أو الإدمان عليها، وليس الهدف - كما تقدم - إلا إنقاذ هؤلاء الفتية ومنع انتشار هذا الوباء وكشف شبكات التدمير وتعريضها أمام الناس بإذن الله عز وجل.

مشعرات ومظاهر الخطر المنبهة على احتمال تعاطي الشاب للمخدرات:

(١) الميل المفاجئ أو غير المتوقع إلى العزلة والانفراد وقضاء الوقت منفرداً: يجب التنبيه لهذا العرض لأنه لا يخلو من شرين أحدهما انخراط الشاب في نشاط أو سلوك شاذ منحرف أو ضار يخجل أن يكشف عنه، وثانيهما هو احتمال تعرضه للضغط من أجل الانخراط في ذلك. ولا بد من ممارسة أسلوب لطيف لكسب ثقة الشاب وعدم اللجوء إلى أساليب الاتهام والتعنيف التي قد لا تزيد الشاب إلا بعداً عن أهله وأسرته وقربته، والوقاية الحقيقية من هذه الظاهرة تكون بملء أوقات فراغ الشباب ومشاركتهم في أوقاتهم وإدراجهم في نشاطات معروفة ظاهرة، والمساءلة اللطيفة والحكيمة تجاه هذه الظاهرة عند حدوثها. وحذار من التفريط في الكشف عن خلفيات عزلة الشاب أو الفتاة، فهذه المرحلة من أبكر مراحل الخطر وإن الكشف عنها مبكراً يقي من الانخراط في مصيدة المخدرات إن شاء الله تعالى، فليتنبه.

(٢) التدهور التدريجي أو المفاجئ في التحصيل الدراسي :

وهذه علامة مهمة لأنها تعكس استنزافاً لوقت وطاقة الشاب في مصيدة المخدرات وما يتبعها من رفقة سوء ونشاطات منحرفة هدفها استجلاب المال لسد النفقات الباهظة لشراء المخدرات والحصول عليها. ومن البدهي أن ملاحظة أي تدهور في مستوى التحصيل الدراسي عند الشاب والشابة يستلزم أن يكون الأهل على علم ودراية ومتابعة لمستوى التحصيل الدراسي لأولادهم بداية، فالمسألة متكاملة لا يمكن تجزئتها، ولا بد من أن يستشعر الأولاد ملاحظة الأهل لهم ومتابعتهم لتحصيلهم الدراسي حتى يكونوا على يقين من أن أي تغير أو تدهور فيه لن يمر دون ملاحظة ومساءلة.

(٣) ازدياد طلب المال واستدرار المال :

وهذه أيضاً مسألة مهمة جداً إذ أنه في أسرة يقوم فيها العائل بتأمين حاجات أسرته لا يتوقع أن يتجاوز مصروف الشاب أو الفتاة الخاص ما يحتاجه الواحد منهم من ثمن مستلزمات دراسية وبعض الأشياء الخاصة المعروفة والمقدرة عرفاً بما يتناسب مع المستوى الاقتصادي للأسرة، وإن أية زيادة مفاجئة في حجم الإنفاق المالي للأولاد أمر جدير بالاهتمام والمساءلة لا على سبيل الشح والبخل بل على وجه العناية والخوف من أن يكون إنفاق المال في وجه ضار أو أن يكون الشاب متورطاً في مشكلة أو مصيبة كالانخراط في مصيدة المخدرات. كما يجب الانتباه إلى أن بعض الأولاد قد يقومون بالعمل في أوقات الفراغ - وهذا جيد لا بأس به طالما العمل مشروع ونافع - فإذا كان هذا العمل مأجوراً فلا بد للآب من مراقبة مدخول ولده من هذا العمل من حيث ملائمة هذا المدخول لنوع العمل (فلا يكون العمل صغيراً تافهاً والأجر كبيراً باهظاً) ومن حيث كيفية إنفاق المال الذي يكسبه بنفسه احترازاً من أن يكون المورد والمصرف غير مشروع.

(٤) المظاهر النفسية :

ومن هذه التظاهرات النفسية ظهور أعراض التوتر والقلق النفسي عند الشاب أو الفتاة، والأرق والسهر الدائم، والانسحاب من الأطر الاجتماعية والميل إلى العزلة والتوحد واضطراب نظام النوم. كما أن لبعض المخدرات أعراضاً نفسية خاصة مثل الإهلاسات البصرية والسمعية والحسية (الإهلاس : عبارة عن استشعار حسي وهمي لمؤثر حسي غير مادي، كأن يتخيل أو يتوهم الفرد رؤية أو سماع شيء غير محسوس لغيره)، كما يمكن أن يكون الوسن عرضاً لاستعمال أنواع أخرى من المخدرات كالمنومات والمبثبات، وكذلك الهذيان والضيق وغير ذلك من الاضطرابات النفسية كالاكتئاب والقلق، والمهم هو ملاحظة هذه الأعراض والتغيرات النفسية والاستفسار عنها والبحث في خلفياتها من أجل إنقاذ أولادنا وتداركهم قبل فوات الأوان.

(٥) رفاق السوء :

فالمرء على دين خليله ، ولا أحد أشد تأثيراً على المرء من قرينه ؛ إن كان قرين خير وصلاح فهو ذاك ، وإن كان قرين سوء فليس منه إلا السوء ، ولا شك أن تأثير الأقران على الأفراد تأثير قوي جداً لا يمكن إهماله أو تجاهله لاسيما أنهم في أحوال كثيرة يقضون مع الشاب فترات أطول مما يقضيه مع أهله . ولا بد لنا في هذا الزمان من أن نعتبر رفقة السوء مشعراً للخطر بذاته وجرساً للإنذار يدفعنا إلى التنبيه واليقظة تجاه الأولاد مراقبةً واستقصاءً لسلوكهم وصرفاً لهم عن هذه الرفقة وتحويلاً لهم نحو الرفقة الصالحة .

(٦) التدخين :

ولقد اعتبرت التدخين مشعراً على الخطر بذاته - على الرغم من أنه أحد الأخطار التي نحذر منها - لعدة أسباب ؛ أحدها أن التدخين يمثل علامة فعلية على انهيار مقاومة الشاب أمام إغراء الدخان وعدم كفاية وازعه الشخصي لرد هذا الإغراء ووقوعه فريسة لضغط هذا الإغراء أو ضغط الأقران الذين قدموه له ، وهذا كله يعني أن هذا الشاب عرضة للوقوع فريسة سهلة للمخدرات والسموم الأخرى وأننا لا نستطيع أن نركن إلى وازعه الشخصي أو محاكمته العقلية في مواجهة هذه الأخطار وحده . والسبب الثاني هو أن تجار وعملاء المخدرات لا يتورعون عن دس هذه المخدرات في أي شيء سواء أكان طعاماً أم شراباً أم كان - كما في هذه الحال - التبغ ولفافات التبغ ، وهدفهم من ذلك تعويد الشاب بصورة لا إرادية وغير مباشرة على المادة المخدرة وإحداث حالة إدمان حقيقية لديه ثم يصارحون الشاب بهذا الإدمان ويكشفون له عن المادة المخدرة التي أدمن عليها وأصبح أسيراً لها فيكون قد وقع فريسة سهلة لوحوش المخدرات عن طريق " السيجارة " البريئة (كما يتوهم الشاب لكثرة انتشارها بين أفراد المجتمع الذين لا يراعون حد الله تعالى في حرمتها) ، ويكون التدخين في هذه الحالة عبارة عن إدمان فعلي لا على التبغ فحسب بل على غيره من المواد المخدرة القاتلة أيضاً . وهذه مسألة

يجب على الأهل أن يتنبهوا لها وينبهوا أولادهم عليها سواء أكانت " السيجارة " معلبة أم لا فإنه كله سم زعاف ، ثم ما أدراك بما تدسه لك شركات التبغ الأمريكية اليهودية من سموم؟!

٧) رفض العلاج والتداوي والذهاب إلى الطبيب عند المرض :

وسر هذا هو اعتقاد الشاب أو الشابة المتعاطي للمخدرات أن بإمكان الطبيب اكتشاف إدمانهم وإعلام الأهل بذلك ، وهذه مسألة دقيقة لا نريد لها أن تكون سبباً للتشكيك في كل شاب أو شابة وإنما هي علامة خفية دقيقة للاستئناس تؤخذ في عين الاعتبار مع جملة التظاهرات الأخرى ، ويجدي في هذه الأحوال تطمين الولد واكتساب ثقته ومصارحته بلطف وهدوء ومساءلته بأسلوب لين هين ، فأولادنا أحبابنا في الله لا نريد لهم ضرراً ولا نظن بهم سوءاً ، إنما هو الحرص والحرص فقط .

٨) بعض الأعراض الجسدية المتكررة :

ومنها احتقان العينين والتعرق الزائد والحمى والاقياء وتسرع القلب والإسهال والرجفان وتوسع الحدقات والآلام العضلية والبطنية ، وكذلك وجود علامات لحقن الإبر في الساعدين كل هذا مشعر خطر يجب أن ينبه الأهل إلى احتمال تعاطي أولادهم لمخدرات ووجوب التحري عن ذلك بأسرع ما يمكن بالاستعانة مع أهل الخبرة في الطب والصحة الجسدية - النفسية .

٩) التبدل المفاجئ في السلوك :

سواء أكان أسلوب الكلام أم المشي أم المعاملة ، وسواء أكان في المظهر العام واللباس وقصة الشعر وغير ذلك من الأنماط السلوكية لا سيما تلك المستقاة من الطابع الشبابي الغربي المتزمر المتمرد على كل القيم والضوابط الاجتماعية والأخلاقية .

١٠) التورط في مشاكل قانونية أو مشاكسات ومشاجرات متكررة خارجة عن العادة.

وأود أن أنبه بعد استعراض هذه العلامات والمشعرات المهمة إلى أن التورط في استعمال المخدرات والإدمان عليها يمر عادة في ثلاثة مراحل تشكل كل منها مرحلة متقدمة أشد خطورة على الشاب المتورط في هذه المصيبة وهذه المراحل هي:

أ) مرحلة العرض والتجربة :

وهي المرحلة التي تتقدم ما يليها من مراحل وفيها يتم تعرف الشاب أو الشابة على المواد المخدرة من خلال أقران السوء أو غيرهم، وقد يقدم على "تجربة" بعض هذه المخدرات من باب الفضول أو اللجوء إلى "حل" مشكلة ما من مشاكله أو أزماته النفسية التي قد يكون متعرضاً لها. وأهم هذه المشاكل التي تدفع بالشاب إلى الإقدام على هذه الخطوة هي التفكك الأسري وضعف الوازع الديني وغياب استشعار مراقبة الله تعالى إضافة إلى غياب دور الأسرة من حياة الشاب بسبب الانحلال الأسري أو انشغال الأهل بتوافه الأمور، وتشكل هذه المرحلة مرحلة صراع عند الشاب ما بين الانخراط في هذه المصيدة واللجوء إلى المخدرات كـ "حل" لمشاكله من جهة، وبين الانسحاب وعدم الاستجابة لضغط الانجراف وراءها من جهة أخرى، وهو تحدٍ حقيقي لقدرة الفرد على المقاومة والصمود أمام ضغط الواقع السيئ وهو تحدٍ يفشل الكثيرون في اجتيازه. والمهم في هذه المرحلة أنها أفضل المراحل من حيث إمكانية إنقاذ الشاب أو الفتاة من الوقوع في أسر المخدرات.

ب) مرحلة التورط والسعي للحصول على المخدرات :

وذلك بعد تجربتها والاستجابة لحث الأقران على استعمالها و"التمتع" بشيء من آثارها. وهي المرحلة التي يبدأ فيها التغير والاضطراب الذي ذكرنا بعض مظاهره بالظهور بشكل واضح.

ج) مرحلة الإدمان :

وفيها يندمج الشاب في حلقة المخدرات وعند هذه المرحلة تكون مظاهر الإدمان أشد ما تكون وضوحاً ولا يغفل عنها إلا مهمل غير مكترث، وهذه المرحلة لا شك أصعب المراحل وأشدّها على الشاب والأهل بحيث لا يتمكنون في الغالب من تجاوز هذه الأزمة بدون مساعدة أهل الخبرة والاختصاص، والمهم ألا يتخرج الأهل من ذلك لأن فيه مصلحة ولدهم وإن كان فيه نوع "فضيحة".

فما هي أساليب الوقاية من المخدرات ؟

سؤال لا بد من أن يعلم جوابه كل أب وأم وكل أسرة ومرب ومربية، لأن في هذا الجواب - إن شاء الله - نجاة فلذات أكبادنا من هذه المصيدة الخبيثة. ويتمثل حل هذه المسألة في درء الدوافع المؤدية إلى خوض مرحلة التجربة والتعرض التي تؤدي إلى غيرها من المراحل. وسوف نتناول بعض سبل الوقاية هذه على مستوى الأسرة:

١ - تربية الشباب في إطار من الثقة والصراحة والطمأنينة بحيث يركن الشاب إلى أهله ويصارع أبويه بأي عارض أو مشكلة تواجهه فلا يضطر إلى اللجوء إلى أي طريق آخر للهروب من مشاكله أو حلها. إن الشاب الذي يسقط فريسة للمخدرات هو الشاب الذي لا يجد أمّاً حنوناً يطمئن إليها، ولا أباً رؤوفاً يثق به ويستريح لمصارحته، ولا أسرة مستقرة غير متزلزلة بخلافاتها وصراعاتها، عندما يغيب ذلك كله يلجأ الشاب إلى الخارج وإلى الطريق وإلى العصابات والشوارع وأقران السوء فيسقط فريسة لذلك كله حينذاك.

٢ - ملاحظة أقران وأصحاب الأبناء والتعرف عليهم وعلى أهلهم وخلفيتهم الاجتماعية والخلقية والدينية، ولا بأس في أن يتعارف أهالي الأولاد المتصاحبين بصورة ودية اجتماعية يتم من خلالها الاطمئنان على البيئة الأسرية لأقران الأبناء، كما يتم تبادل الآراء والنصح والمشورة حول ما يلائم الأبناء.

٣ - الحرص على عدم ترك الحبل على الغارب في مجال المصروف المادي وأن يحاسب الأبناء على إنفاقهم ويعدوا لذلك الحساب جواباً بحيث لا يكون الإنفاق غير متناسب مع وضع أحدهم، كما لا يكون الإنفاق في مصرف حرام.

٤ - توعية الأولاد - في السن المناسبة - تجاه مخاطر المخدرات وحقيقة الخطر الذي تمثله، وتنبههم إلى عدم أكل أو شرب أو تدخين أي شيء من شخص لا يعرفونه حق المعرفة ولا يثقون به حق الثقة مهما كان الأمر، ولو اضطر إلى قبول الشيء مجاملةً ثم طرحه جانباً دون أن يتناوله.

٥ - مراعاة أن يتنبه الأهل إلى العلامات والأعراض التي ذكرناها واستقصاء وضع الأولاد بناءً عليها.

٦ - تنمية الوازع الديني عند الشاب وتوعيته بحرمة تناول المخدرات واستلزام ذلك للعقوبة والإثم.

بقي أمر مهم في مجال مكافحة المخدرات والمسكرات والتدخين ألا وهو دور علماء هذه الأمة في توعية الناس وتبصيرهم بموقف الشرع من هذه المنكرات، وعلى الآباء والأمهات أن يطالبوا علماءهم وفقهاءهم وخطباء الجمع بأن يكشفوا النقاب ويميطوا اللثام عن حكم هذه الآفات وحكم تعاطيها وترويجها. ولقد آن الأوان والله لإعادة حكم الشرع في حدود الخمر والمخدرات، وأن لعلماء الأمة أن ينصحوا لأمتهم وحكامهم بأن يعيدوا حكم الله في الأرض إذ لا نجاة إلا بذلك، فما انتشار مفسدة المسكرات إلا من أثر تضييع حد الخمر وعقوبة تعاطيها كما قرر الله عز وجل، فإذا بعلمانية التشريع تجر علينا ويلات الخراب والدمار الاجتماعي، وإذا بأسر تنهار وشباب يضيع وأجنة تتشوه، وإذا كان القتل عقوبة من يقتل فرداً فما بالك بمن يقتل أمة بأسرها ويئد جيلها الشاب؟!!

وما قلناه في الخمر والمخدرات ينطبق على التدخين، لقد آن لعلمائنا أن يعلنوها على الملأ - لا في بطون الكتب والمؤتمرات الفقهية فحسب - يقولوها بوضوح: التدخين حرام حرام حرام - على الراجح من أقوال الفقهاء - حرام بيعها

وشراؤها وتدخينها، وحرام إهدار طاقات الأمة وأرواح الشباب فيها، نريد أن نسمع ذلك على منابر الجمعة وفي حلقات الوعظ والعلم وعلى أجهزة الإعلام، وحسبنا هنا أن نعلم أن التدخين شر محض لا خير فيه البتة في مجال الصحة النفسية والجسدية، فضلاً عن تسبب التدخين في نقض نمو الأجنة والتخلف العقلي، فضلاً عن حرمان الأسرة من جزء من قوتها الذي يهدر في شراء الدخان، فضلاً عن السموم التي تدس في لفافات التبغ وغير ذلك . . .

ويكفي في تقرير حرمة هذا الشر الخبيث قول نبينا محمد ﷺ: « لا ضرر ولا ضرار » وقد تبين أنه ليس للتدخين مصلحة واحدة ترجح على أذى مفسدة من مفسده فعله ضرره من كل وجه، وفي هذا كفاية لمن أراد أن يستبين الحق، أما من يريد أن يجادل فنحن لا نجادل وإنما نجعل الله بيننا وبين من يعتمدون على هذه الأمة ويحجبون عنها الحق.

ثانياً: الدعارة ووسائل منع الحمل والإجهاض:

جاء في ورقة العمل الخاصة بالشباب - المؤتمر العالمي الرابع للمرأة برعاية الأمم المتحدة في بكين ١٩٩٥ - تحت بند المجال الصحي ما يلي (مترجماً):

"يجب أن تكون برامج التثقيف الجنسي الملائمة في المجتمع بما في ذلك الصحة التناسلية وتنظيم الأسرة، يجب أن تكون موجهة بشكل خاص إلى الشباب، كما أنه لا بد من تدريب وإعداد فئة من الشباب ليكونوا مرجعاً لأقرانهم يستشيرونهم في هذه الأمور وتكون مهمة هذه الفئة نشر المعلومات عن الصحة التناسلية والصحة الجنسية"، كما جاء في بند التوصيات في ورقة العمل نفسها ما يلي:

"تنظيم برامج للتثقيف الجنسي في المجتمع بحيث توظف هذه البرامج الشباب ليكونوا "قدوة" ومرجعاً استشارياً للأمور المتعلقة بالممارسة الجنسية "السليمة" والصحة التناسلية وتنظيم الأسرة".

كما جاء ضمن هذه التوصيات: "العمل على تدريب الطاقات المهنية الطبية كي تسبر المسائل الصحية النسائية بغض النظر عن عمر الأنثى وخلفيتها وحالتها الاقتصادية وتصوراتها الجنسية (أي من حيث الشذوذ الجنسي أو عدمه وهو ما يسمونه (sexual orientation)^(١)".

وجاء في مقالة طبية أمريكية تتناول موضوع ممارسة الجنس عند المراهقين ما يلي: "يجب أن ينظر الطبيب إلى السلوك الجنسي عند المراهق على أنه انعكاس للعديد من الحاجات العاطفية والضغط الاجتماعي - الثقافية، إضافة إلى المتعة الجنسية المفترضة"^(٢)، بل انظر إلى موضع آخر من نفس المقال يناقش الدوافع غير الجنسية - بزعمهم - للسلوك الجنسي عند المراهقين فتعزوها في جملة ما تعزوها إلى "الضغط" المفروضة من قبل الوالدين على الأبناء يقول: "وفي حقيقة الأمر فإن إصرار الوالدين على منع النشاط الجنسي هو الذي يؤدي إلى جعل السلوك الجنسي وسيلة مهمة في يد المراهق؛ إن هذا المراهق كثيراً ما يبحث عن أفراد من الجنس الآخر يرفضون ما يتعرضون له من ضغوط في هذا المجال ليمارسوا الجنس معهم"^(٣).

بهذه المقدمات "العلمية" أردت أن أكشف عن مسلسل الإفساد والتدمير الخلقي والانحلال الاجتماعي الذي يسعى إليه أعداء هذه الأمة تحت مسميات براقة ومصطلحات جذابة وتوصيات ومقالات "علمية"، وبهذا تظهر كثير من أهداف هذه المؤتمرات - أو قل المؤامرات - جلية واضحة. لقد كان مؤتمر السكان أولاً ثم تبعه مؤتمر المرأة العالمي، وقد سبق هذا وذاك وتلاه اجتماعات وتحضيرات ولجان وبحوث كلها تريد أن تصيغ آلية مد أذرعها الأخطبوطية لتتسرب وتندس

(١) ورقة العمل الخاصة بالشباب - المؤتمر العالمي الرابع للمرأة - بكين ١٩٩٥.

(٢) Pediatric Annals. 24:6 June. 1995.

(٣) المرجع السابق.

في مجتمعاتنا وتنال من البنية الاجتماعية الأخلاقية لهذه الأمة تحت مظلة واقية من العلمانية الماكرة التي تحمي هذه المنكرات وتسخر قوة القانون لحمايتها، وتحت ستار زائف من "العلم" الذي لا يتورعون عن ليه وتحريفه بأي صورة ليجعلوه على هواهم - لم لا وهم الذين حرفوا كلام الله عز وجل، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾

ولا أريد في هذا المقام أن أتحدث عن "بروتوكولات حكماء صهيون" ولا عن الاختلاط والسفور، ولا عن ميوعة الشباب وسطحياتهم وضحالتهم، لا أريد أن أعيد توجيه الإشارة إلى ما هو واضح جلي فألقي باللوم على بروتوكولات حكماء صهيون ونحن قد هجرنا سنة محمد ﷺ، ولا على السفور والاختلاط ونحن لا نربي بناتنا على الحجاب بمعناه الحقيقي، ولا على الميوعة والسطحية ونحن لا نربي شبابنا على الشدة والصلابة... إنما أريد أن أتناول بعض المكائد التي تنصب لشبابنا وشاباتنا في مجال الدعارة والانحلال الخلقي حتى لا ينخدع الفرد الصادق المتوجه إلى الله ببعض الشعارات الزائفة ويكون على حذر منها.

وهذه بعض ملامح الخطر في هذا الكيد الخبيث:

(١) الانتقال من طور الكيد الخفي إلى طور العلنية والصفاقة والتي نلمس فيها محاولة فرض التوصيات المتعلقة بالمسائل الجنسية على مجتمعاتنا وذلك من خلال الربط ما بين قبول هذه الفروض والتصورات من جهة واستمرار "المعونات" المالية المقدمة لمجتمعاتنا ودولنا الإسلامية من جهة أخرى. نعم إنه ابتزاز فكري لا ريب لكنه لغة العصر ولغة القوة أو قل هي "الحضارة" بتعريف الدول "الكبرى". إن الناظر من بعيد يقول: إن توصيات الأمم المتحدة ومؤتمراتها مجرد كلام لا يلزمنا أن نأخذ به فلماذا نخوفنا بهذه الأمور وتفترض المؤامرة فيها؟ قلت: هذا صحيح ولكننا نغفل بهذا الفهم البسيط الساذج عن أمر مهم وهو أن الأمم المتحدة - والدول المسيرة لها - حين تحدد

تصوراتها في مجال من المجالات تربط مساعداتها ومعونتها وبرامجها "التنموية" بتطبيق ما تعتبره التصور الصحيح بحيث تلزم الدول والمجتمعات الأخرى بهذه التصورات وبقبول هذه التصورات في مقابل استمرار المعونات المالية والبرامج "التنموية" التي تقدمها الأمم المتحدة والدول المسيرة لها. وواضح أن هذه المناورة السطحية لا تضر إلا ضعاف الإيمان من جهة والمجتمعات التي لم تظلم نفسها عن هذه المعونات من جهة، ولكن ألا ترى معي أن هذين الوصفين الأخيرين ينطبقان علينا بكل أسف؟! لا بد لنا إذاً من تقوية الإيمان أولاً وفظم النفس عن هذا الفتات الذي يذر في أعيننا ثانياً مطمئنين إلى وعد الله تعالى في الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة ٢٨).

٢) محاولات التصيغ والتبرير العلمي للسلوك الجنسي المنحرف والشاذ، وقبول السلوك الجنسي الشاذ على أنه واقع ضمن الطيف "الطبيعي" للتعبير الجنسي عند الإنسان وأنه لا يصح مؤاخذه المرء على اقتراف الشذوذ الجنسي وأنه لا غرابة في هذه الممارسات البتة. وقد وصل الطرح العلمي لهذه المسائل إلى درجة محاولة الربط المصطنع بين الاستعداد "الوراثي" عند الفرد وبين السلوك الشاذ كاللواط مثلاً. وواضح ما ينجم عن ذلك الربط الفارغ المتلبس باسم العلم من إيهام من لا علم له بأن هذا السلوك الشاذ أمر لا يد للمرء فيه أو في اختياره. (وقد تناولنا هذا الأمر في مبحث التخلخل الأسري فليرجع إليه).

٣) نشر وسائل منع الحمل ووسائل التشخيص المبكر للحمل والإجهاض: إن إصرار المجتمعات الغربية واللاإسلامية على معالجة عواقب انتشار الزنا والسفاح ومعدلات الحمل المرتفعة بين المراهقات غير المتزوجات إما بطريق الزنا أو الدعارة المنظمة تعتبر بلا شك معالجة سطحية عقيمة لأنها لا تتعدى مستوى التعامل مع العواقب الصحية مع إهمال مسببات هذه العواقب وهذه

النسب العالية من الحمل السفاح . إن هذه المقاربة السطحية للمشكلة قد دفعت بالمجتمعات الغربية إلى إباحة وتقنين الإجهاض بكل أنواعه إضافة إلى نشر وسائل منع الحمل وعلاج الأمراض المنتشرة بطريق الجنس . ولقد بلغ هذا الوباء مبلغاً استفحلت معه المشاكل الصحية الناجمة عن الزنا ، وإليك بعض الإحصاءات من مصادر طبية أمريكية : تذكر مقالة طبية تحت عنوان " الحمل في سن المراهقة pregnancy during adolescence " أن معدلات الحمل عند الفتيات دون العشرين من العمر تبلغ حوالي مليون حالة حمل سنوياً في الولايات المتحدة الأمريكية . ومحصول هذا الحمل هو حوالي ٤٨٠,٠٠٠ حالة ولادة وحوالي ٣٠٠,٠٠٠ إلى ٤٠٠,٠٠٠ حالة إجهاض (منها ١٥٦,٠٠٠ حالة إجهاض "علاجي" - أي على يد أطباء في عيادات الإجهاض - والباقي إجهاض عفوي أو محرض)^(١) ، وأمام مثل هذه الإحصاءات يصير الغرب على تجاهل أو إنكار أصل المشكلة وأس البلاء ، ويعمد إلى مقارنة تعنى بالعواقب الصحية والتبعات الاقتصادية للحمل السفاح والزنا - دون نجاح حقيقي - بإباحة الإجهاض وكأننا نعيش - من خلال هذا الإجهاض "القانوني" - جاهلية وأد الأطفال مرة أخرى على يد المجتمعات التي تزعم أنها تقود ركب الحضارة الإنسانية المعاصرة .

إن هدفي من استعراض هذه الإحصاءات والمقاربات الغربية هو التحذير والتنبيه من عواقب التقليد الأعمى الذي تمارسه مجتمعاتنا مع الغرب ؛ بمعنى أن هذه الإحصاءات ستصبح إحصاءاتنا نحن في يوم ما - والعياذ بالله - إذا ما بقينا سائرين على نهج الغرب ووفق تصوراته ، نلتهم ما يقدمه لنا التهاماً ونكب عليه انكباباً .

إن مراكز الأمومة والطفولة التي ترعاها الأمم المتحدة وتنتشر في الدول الإسلامية تقوم بتقديم كل وسائل منع الحمل مجاناً ، وأقول : علينا أن نتساءل ،

(١) : Pediatrics in Review , vol. 15 No. 1 , Jan.1994 .

لماذا؟ وعلينا أن نتساءل عن عواقب ذلك. قلت: إن وسائل منع الحمل ذريعة لانتشار فاحشة الزنا عند من يشكل الحمل رادعاً لها من الزنا خشية الفضيحة واللوم (مع أن الأحرى بالمسلم والمسلمة أن يكون الرادع عنده هو خوف الله عز وجل إلا أن علينا أن نتعامل مع الواقع العملي في هذه المرحلة)، فعلياً أن نكون حذرين منضبطين بالنسبة لاستعمال وترويج وصرف وسائل منع الحمل بحيث تصرف - إن كان لها حاجة مشروعة - بشكل منضبط سليم، ورأيتي الشخصي ألا تكون مجانية لمن ليس مضطراً لها لسبب صحي أو ضرورة عينية. والعلة في هذا الضبط هو سد ذريعة الزنا والفاحشة كما تقدم. ونفس الأمر ينطبق على وسائل تشخيص الحمل المبكر عبر الاختبارات المنزلية لأن هذا يكون دافعاً للإجهاض المبكر قبل انكشاف أمر الحمل والفضيحة. أما الأمر الثالث فأخاطب به ضمير كل طبيب مسلم وطبيبة مسلمة يخشى الله عز وجل وهو أمر الإجهاض - ولا أتحدث بطبيعة الحال عن الإجهاض المشروع لسبب صحي - أعني إجهاض الحمل السفاح؛ فليقلق الله كل من جعل مهنته وقسمه الطبي وسيلة لنشر الفاحشة والرذيلة والكسب الحرام، فليقلق الله. إن المجتمع الغربي يريد لأن يبيع لشبابه وشاباته الزنا والمتعة الحرام طالما هم ملتزمون بوسائل منع الحمل ومعالجة الأمراض الجنسية، وهم يريدون لمجتمعاتنا مثل ذلك، تأمل معي: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ (النساء ٨٩)، ونحن نريد لمجتمعاتنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء ٣٢).

٤) نشر الرذيلة عبر كل وسائل الإعلام المرئي والمسموع والحاسوبي: ولا بد من ملاحظة استفحال أمر هذه الوسائل الإعلامية لا سيما بعد "الغزو" التقني من خلال محطات الإرسال الفضائية لقنوات البث المرئي ومن خلال الشبكة البينية الحاسوبية Internet وما تحمله من محتوى لأخلاقي سافر. وإن الآثار الخطيرة لهذا الغزو الإعلامي بالنسبة لمحتوى الدعارة والانحلال الجنسي تتمثل في عناصر مهمة منها:

١ - تحفيز وتأجيج النزوات والغرائز الكامنة عند الشباب مع عدم وجود إطار مشروع لتفريغ هذه الشهوة . وإن التراكم الكمي والنوعي لهذه المؤججات يفضي في النهاية إلى تفريغ هذه الشهوة في إطار الحرام سواء أكان هذا الحرام مخالطة غير مشروعة أو ممارسات جنسية قاصرة عن الزنا أو ارتكاب الزنا نفسه أو الشذوذ الجنسي من لواط وسحاق وغيره .

٢ - تعويد النفس على المنكر بحيث تستسيغه ولا تستنكره ، ونحن نعلم أن الإنكار هو مشعر الرفض بحيث أن غياب إنكار المنكر يشعر بعدم رفض الفرد للمنكر كما يشعر باستساغته له ، وليس أسوأ على قلب المسلم من أن يتحجر ويقسو قلبه فلا ينكر منكراً ولا يغضب لانتهاك حرمة من حرّمات الله عز وجل . وبهذا تتحول المسألة من قضية نزوة وشهوة إلى خطر حقيقي على عقيدة الفرد توشك أن تأخذ بقلبه كله والعياذ بالله .

٣ - إضاعة الوقت وتبديد المال والجسد : ونحن أمام حديث رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به؟ » . قلت : أمام هذا الحديث لا بد من أن نخشى من إضاعة الوقت ونحذر من تبديده دون هدف أو غاية مشروعة ، ولا يخفى على أحد ما تفضي إليه برامج الدعارة والإعلام الجنسي الفاضح من إضاعة الوقت وإفناء الجسد والنفس فيما لا طائل تحته وإنفاق المال في غير المشروع ، وكأن حال الشاب مع هذه المحرمات هو مخالفة كل جزئية من جزئيات هذا الحديث ؛ فحين يسأل عن عمره فيما أفناه يجيب : أفنيت عمري في مشاهدة أفلام الدعارة ومتابعة قصص الجنس ومراقبة صور الممثلات والممثلين . وحين يسأل عن جسده فيما أبلاه يجيب : أبليت جسدي في ركض لاهث وراء غوائل الشهوة ، وأبليت جسدي في بهيمية الجنس الحرام . وحين يسأل عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه يجيب : اكتسبت مالي من حرمان أسرتي إياه وأنفقته في

شراء وسائل متابعة الإعلام الفاضح وأدوات اللهو الحرام . وحين يسأل عن علمه ماذا عمل به يجيب : لقد علمت أن هذا حرام ولكني لم أعمل به ! فتأمل يا رعاك الله ؛ تأمل وتصور لو أن هذه الإجابات المخزية كانت تنطلق على لسان ولدي أو ولدك بين يدي الله عز وجل والعياذ بالله .

وبهذا نكون قد استعرضنا بصورة خاطفة خطورة ما يجري على ساحة المجتمع المسلم من مكائد وسائل دس الانحلال الخلقي ، فهناك بعض الوسائل المقترحة للتصدي لأذرع الانحلال الأخطبوطية هذه الآخذة بالتمدد والانتشار في مجتمعاتنا أوجزها فيما يلي :

وسائل الصمود والتصدي أمام وسائل الانحلال الخلقي :

١- نشر الوعي الفردي والأسري والجماعي تجاه وسائل نشر الرذيلة والدعارة :

لا بد من الإشارة إلى هذه المنكرات بوضوح وصراحة والتوحد صفاً لمواجهتها ومكافحتها ومكافحة كل يد خبيثة تتعامل مع ذاك العدو الحقود تعمل على نشر هذه الوسائل في مجتمعاتنا ، ولنتحول من المنافسة على ترويج وسائل الدعارة والانحلال وتسويقها إلى المنافسة على ترويج وإشاعة وسائل مكافحتها ؛ فإليك يا صاحب متجر الأشرطة الصوتية والمرئية أقول : اتق الله واعلم أنه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق ٣-٢) واعلم أن الرزق لا ينقص بكفك عن بيع الشريط الحرام والأغنية الحرام والمسلسل الحرام ، وإن كانت دريهمات تجنيها من بيع المادة الحرام تسوغ لك وأد شاب أو شابة في مستنقع الرذيلة ووحل الفاحشة فاعلم أنك بهذه الدريهمات تطعم نفسك وابنتك وفتيت أجسادكم بالسحت الحرام . وإليك أيها الأب والأم أقول : اتق الله في بيتك وكن على حذر مما تستجلبه لبيتك من وسائل التسلية واللهو والترفيه ، واحرص على أن يكون ما في بيتك حلال حلال ، وأعرض عن الحرام ما استطعت ، وإياك أن تقع في مصيدة "مسيرة التيار" فعسى أن يوصل هذا التيار إلى غضب الله والعياذ بالله .

وإليك أيتها الأخت المسلمة أقول: الحذر الحذر مما تبثه أجهزة الإعلام العالمية حول مواضيع الأسرة والجنس، واعلمي أن حياضك الآمن هو دين الله عز وجل، ولا يكن ثمن كيلو الأرز الذي تدفعه مراكز " رعاية " الطفولة والأمومة هو ترويج وسيلة منع الحمل دون ضابط أو هدف، ولا يكن ضريبة المعونة التي تدفعها بعض الأجهزة العالمية دس فكرة غريبة أو منهج منحرف في مجتمعنا المسلم.

٢ - ضبط انتشار وسائل منع الحمل والكشف المبكر عن الحمل والإجهاض:

وضابط ذلك هو الغرض العلاجي الطبي المشروع ضمن الإطار الأسري المشروع بحيث لا تكون هذه الوسائل مروجية بحيث يحصل عليها من شاء متى شاء وكيفما شاء. وأقول إن وجود وسائل الكشف المبكر عن الحمل في بلادنا التي تفتقر إلى البرامج الصحية لمتابعة الحمل لا يخدم ولا يحقق أي هدف ذي معنى، اللهم إلا ابتغاء ستر الحمل بالإجهاض منعاً لفضح الرذيلة، وبكلام آخر أقول إن الأخت المسلمة المتزوجة ليس لديها ما يمنعها من مراجعة الطبيب لكشف الحمل، وتبقى وسائل كشف الحمل المبكر المتوفرة تجارياً ترفاً حضارياً عقيماً عديم المعنى بالنسبة لها، وبقي أن نتساءل عن حاجة غير المتزوجات إلى كشف الحمل؟! ^(١). أما مسألة الإجهاض فالأمر أمانة - كما قدمنا - في عنق الطبيب والطبيبة المسلمين، والواضح أنه ما لم يكن الإجهاض لضرورة صحية فإنه إزهاق نفس بغير نفس، وأحيل القارئ إلى مصادر الفقه المتناولة لهذه المسألة، ولكن الشاهد هنا هو أن الحمل الفاضح للسفاح كثيراً ما يكون الرادع الوحيد الذي يمنع من ممارسة الزنا، فإذا ما فتحنا الباب لإزالة هذا الرادع لم يبق ما يمنع ضعاف الإيمان من ممارسة هذه الفاحشة والتلبس بها. فليترك الله هؤلاء إذاً وليتوبوا إلى الله عز وجل عسى أن يعفو عنهم.

(١) هذا كلام عام بالطبع وأنا لا أقول حلال أو حرام وإنما أنبه إلى ضرورة الحذر من انتشار ما ضرره أكبر من نفعه لا سيما أنه لا ضرر من عدمه أصلاً، فليتنبه.

٣ - الزواج المبكر:

ذكرنا أن تأجيل الغريزة الجنسية لا بد من أن يتبعه تفريغ الشهوة، ونحن أمام كل ما تقدم لا نجد مندوحة عن تهيئة الإطار المشروع لتفريغ الغريزة المتأججة في هذا العصر والزمان، ولا يخفى أن الزواج هو الإطار الوحيد المشروع لذلك.

نقول هذا ونرى - مع الأسف - حجم تلك العقبات في طريق الشباب الراغب في الزواج، وأقول أنه ما لم يبادر الأهل من الطرفين؛ أهل الفتاة وأهل الشاب إلى تذليل العقبات أمام الزواج المبكر لأولادهم فإنه لا مانع من سوء العاقبة إلا الله تعالى. فعن رسول الله ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»، والحقيقة أنه أمام ما يواجهه الشباب من صعوبات في طريق الزواج نجد أن جزءاً غير قليل من المسؤولية يقع على عاتق الأهل بسبب ما يشترطون ويطالبون به أو بسبب ممانعتهم لأصل الفكرة، وأنقل في سياق هذا الكلام فتياً سمعها كاتب هذه الأسطر من فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - في أرض الله الحرام في شهر الله الحرام يقول: إن تزويج الأب ابنه أولى من أداء فريضة الحج عند من يملك مالاً يكفي أحد الأمرين دون الآخر لاسيما إن خيفت الفتنة. وأنا أتساءل في واقع الأمر: كم منا يملك من الفهم الشرعي الصحيح ما يقدم به تزويج ابنه على أداء فريضة الحج؟! ومتى نتحول عن فصل العبادات الحياتية عن العبادات النسكية بحيث نستشعر أن منع الرذيلة بالزواج هو عبادة كعبادة الحج والصوم والصلاة، وأن بناء مجتمع مسلم سليم قوياً هو عين ما تعبدنا الله تعالى، متى؟

٤ - وأعود فأكرر أنه لا بد من إعادة إقامة حدود الله عز وجل في مواجهة الفاحشة المستفحلة الآخذة بالانتشار.

وهنا نكتة مهمة وهي أن تعطيل حدود الله وعدم إقامتها ليس مسؤولية حكوماتنا فحسب - وإن كان الجزء الأكبر من المسؤولية واقعاً عليها - بل إننا نحن

أفراد المجتمع مسؤولون من وجهه عن هذا التعطيل وذلك بسبب السكوت عن عدم إقامة هذه الحدود وربما القبول القلبي لذلك لأننا غير " مقتنعين " بأن هذه الحدود تناسب إنسان القرن الواحد والعشرين . إذا بداية حل هذه المسألة هو إعادة فهم هذه الحدود باعتبارها أصلا من الدين لا مجرد خيار نملك أن نمارسه أو لا نمارسه وفق هوانا ورغباتنا . ولقد فصلنا الأمر في مبحث المخدرات فليرجع إليه .

ثالثا : وسائل الإعلام الموجه المسموع والمرئي والحاسوبي :

لقد تناولت هذا الأمر من الناحية الجنسية بما يغني عن التكرار في هذا الموضوع ، إلا أنني أود أن أشير إلى أن الإعلام كوسيلة من وسائل التدمير النفسي المباشر لا يقتصر على النواحي الجنسية والأخلاقية فحسب ، بل يتعداه إلى النواحي السلوكية الأخرى من عنف وإجرام وانحراف . وإليك فيما يلي بعض الإحصاءات الأمريكية عن دور وسائل الإعلام في حياة الشباب المراهق الأمريكي :

١ - من المقدر أن المراهق الأمريكي يقضي وسطيا حوالي ١٥٠٠٠ ساعة في مشاهدة المرناة مقارنة بحوالي ١١٠٠٠ ساعة يقضيها في صفوف الدراسة إلى حين تخرجه من المرحلة الدراسية الثانوية .

٢ - أظهر استبيان عام ١٩٨٨ أن المراهق الأمريكي يتعرض لمشاهدة ١٤٠٠٠ مشهد جنسي على المرناة كل عام ، وأن معظم هذه المشاهد تكون سفاحا (أي في التصور المعروض) .

٣ - يقضي المراهق الأمريكي حوالي ٢-١ ساعة يوميا في مشاهدة الأغاني المصورة music video ، وإن حوالي ٧٥٪ من محتوى هذه الأغاني يتناول الجنس والعنف .

٤ - ذكر تقرير المعهد القومي للصحة العقلية عام ١٩٨٢ أن المراهقين الأمريكيين يعتبرون وسائل الإعلام المصدر الثالث بعد الأهل والأقران للتأثير على سلوكهم ومواقفهم . (قلت : فإذا تصورت حال المراهق الذي يغيب أهله عنه تبين لك انفراد الأقران والإعلام في التأثير على المراهق) .

وهذه إحصاءات أمريكية كما تقدم ، وللأسف لا أرى مانعاً من انطباقها على واقع مجتمعاتنا المسلمة حين ننظر إلى المحتوى الإعلامي الموجه عبر القنوات الفضائية وشبكات الحاسوب وما إلى ذلك . ولقد بدأنا نرى - مع الأسف - الآثار الاجتماعية السيئة المنعكسة عن هذا المحتوى الإعلامي المنحرف ، ابتداءً بالتقليد الأعمى للممثلين والممثلات المنحرفين والمنحرفات ، وانتهاءً بتشكيل " العصابات " الشبابية المتسكعة الضائعة المنحلة ، ومروراً بالانحراف السلوكي والانحراف الإجرامي ؛ لقد بدأنا نرى ونسمع من مشاهد العنف والإجرام ما تقشعر منه الأبدان ، وبدأنا نرى من الجرائم والعنف ما هو غريب بطبيعته وقسوته وحيوانيته عن مجتمعاتنا ، جرائم ما سمعنا بها إلا في بلاد الغرب والكفر وإذ بنا نراها تنبعث من جنبات مجتمعاتنا ومن واقع حياتنا نحن ، ناهيك عن الخروج عن الأسرة والتحلل من الانتماء الأسري وعقوق الوالدين وقطع الرحم وغيرها من الويلات الاجتماعية .

قلت : وليس من سبيل إلى مواجهة هذا الطغيان الإعلامي إلا بإعلام مضاد ؛ إعلام إسلامي بديل يتمثل في الشريط الإسلامي والبرنامج الإسلامي والمسلسل الإسلامي والصحيفة الإسلامية والصفحات الإسلامية الحاسوبية . لا بد من صناعة إعلامية إسلامية حقيقية تشكل واقعاً قادراً على الصمود من جهة وعلى ملء الفراغ في حياة الطفل والشباب من جهة أخرى . إن برامج الأطفال الحالية تربى الطفل على الميوعة ، وبرامج الشباب الحالية توجه نحو الانحلال والخنوثة ، وما لم نقدم للطفل والشباب البديل الإسلامي فسيظل الطفل مائعاً والشباب منحرفاً منحلاً ، وسيتفاقم أمر هذا الخطر إلى حيث لا يفيد الندم . وإنني أتوجه إلى ذوي الكفاءة والمؤهلات العلمية الإعلامية وأدعوهم وأنبههم إلى ضرورة الاضطلاع بهذه المهمة ؛ نريد المجلة والصحيفة المسلمة من الصحفي المسلم ، والبرنامج التلفزيوني من المخرج المسلم ، والبرنامج الحاسوبي من المهندس المسلم ، وهكذا نريد أن نصنع جهازاً إعلامياً فاعلاً يسد فراغ الشباب ويواجه كيد الاستكبار العالمي ، ثم بعد هذا نريد إقبالاً من الأهل والشباب على تشجيع هذه الصناعة الإعلامية ونريد منهم مقاطعة ورد الإعلام

الغربي الموجه، نريد أن يفظم هذا الجيل عن طبق الاستقبال الفضائي القابح على ييوتنا كالشيطان، وبهذا يقوم كل منا بدوره في مواجهة هذا الخطر إن شاء الله.

رابعاً: المنظمات الشبابية :

لقد تعددت تنوعت صور وصيغ التواجد والغزو الفكري والعقدي في مجتمعاتنا، وكثيراً ما يقع الشباب فريسة لهذه الصيغ المتغلغلة في مجتمعاتنا والمتلبسة بلبوس شتى. ولا بد من الحذر الشديد من هذه المنظمات والتجمعات الشبابية التي تتظاهر بصورٍ وديعة مسالمة ولا تبرز أهدافها في التغيرير بعقائد وسلوكيات وانتماء الشباب. ومن أمثلة هذه فروع المنظمات الماسونية، ونادي الليونز، ونادي الروتاري، ومنظمة الشباب المسيحي YMCA ومنظمة الشابات المسيحيات YWCA وغيرها من المنظمات، إضافة إلى المدارس الغربية الدولية المنتشرة في بلادنا مثل المدارس الأمريكية والألمانية والفرنسية وهي كلها تستتر بستار الأنشطة الاجتماعية والثقافية والتعليمية وتسعى إلى جلب الشباب واستدراجهم وتنظيمهم بغية استفراغ طاقاتهم في مجالات سلوكية منحرفة أو عقائدية ضالة، إضافة إلى دورها في جمع المال لمؤسساتها الأم، ولا يخفى على أحد الدور الذي تلعبه أذرع الصهيونية العالمية في تسيير هذه المنظمات وتوظيف هذه الأموال في محاربة الإسلام.

وإنه لتظهر في مجتمعاتنا بين الفينة والفينة تظاهراتٌ بدعية منحرفة وممارسات عقديّة سلوكية شاذة من شعوذة وسحر وضلال وعبدة شيطان وغيره من الأمور الغربية جداً عن روح المجتمع المسلم وبيئته العقديّة، مما يشير في النفس شبهة كبيرة حول دور مثل هذه المنظمات في بث وترويج هذه الضلالات والفتن بين الأوساط الشبابية المسلمة. ومن المؤسف أن تجد بعد هذا كله أن من الآباء والأمهات من يضعون أطفالهم وأولادهم في دور حضانة أو مراكز صيفية تابعة لمنظمة YMCA ذات الهوية الواضحة المعلنة مثلاً، أو يبعث بأولاده إلى

مراكز صيفية في أوروبا بمفردهم من أجل أن يتعلموا "اللغة" الأجنبية، ولا أدري ما بال هؤلاء؛ أهى الغفلة؟ فهذه تذكرة. أم هو الإعراض؟ فالحذر الحذر إذ يقول الله تعالى محذراً كل معرض: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ (طه ١٢٤).

وعلى كل حال فليست التبعة والمسؤولية كلها واقعة على عاتق هذه المنظمات والمخططات الهدامة، ولا يصح لنا أن نلقي باللوم كله على مؤامرة الكيد العالمي ضد الإسلام ولا نريد الركون إلى تبرير واقعنا المتأخر بإلقاء التبعة على الغير في حين نغض الطرف عن تقصيرنا نحن الأفراد أباً وأماً ومسؤولاً، ولكننا في واقع الأمر لا نستطيع أن نغض النظر عن الدور الحقيقي الذي تمارسه هذه المنظمات والنوادي الشبابية في تخريب وانحراف الشباب المسلم. ولكم يحز في قلبي أن أرى بنات المسلمين في دور الرقص و"الباليه" وشباب المسلمين في دور الموسيقى، والأنشطة المختلطة التي لا نراعي فيها ضابطاً شرعياً ولا خلقياً، كما لا نستطيع أن نغض أعيننا ونتجاهل الانبهار الظاهر لشبابنا بالتيارات الفكرية الغربية التي تبثها أمثال هذه المنظمات.

وإننا أمام واقع وجود هذه المنظمات في بلادنا لا نملك إلا المواجهة لوقاية شبابنا من آثارها الخطيرة، وأعدد فيما يلي بعضاً من سبل هذه المواجهة المقدورة لنا إن شاء الله تعالى:

١ - توعية الأهل والشباب تجاه الأهداف الخبيثة لهذه المنظمات، والتحذير من الانتماء إليها، والتحذير مما فيها من مرافق اللهو الخبيث والمنكرات والمعاصي.

٢ - إيجاد البدائل المشروعة لملء فراغ الشباب، فلقد آن الأوان لأن تعود للمساجد دورها الحقيقي في استفراغ طاقات الشباب، كما آن الأوان لإيجاد البدائل من الأنشطة الاجتماعية التي تملأ فراغ الشباب وتمنعهم من الانجراف

وراء تلك المنظمات والنوادي المشبوهة، ومن هذه الأنشطة المشروعة مثلاً الرحلات الكشفية غير المختلطة والنوادي الاجتماعية الخاصة بالشباب أو الشابات التي تراعي ضوابط الشريعة، والرحلات العلمية وحلق العلم وتحفيز القرآن الكريم والدروس الوعظية في المساجد تحت إشراف علمي واضح من علماء الأمة ومسؤوليها لمنع الدس والاستغلال السيء لها.

٣ - المقاطعة الفاعلة لكل هذه النوادي والمنظمات والمدارس بحيث نضطرها إلى الإقفال والرحيل بعد أن تياس من شبابنا وتفتقر إلى المدخول المادي الذي يمد نشاطها.

٤ - مطالبة الجهات المسؤولة في أجهزة الدولة بمراقبة محتوى هذه النوادي الفكرية والثقافية والاجتماعي ووضع الضوابط والحدود التي تحمي الشباب مما يبيث فيها. والأصل هو مطالبة حكوماتنا والضغط عليها من أجل إنهاء التواجد الفعلي لمثل هذه الأوكار الشيطانية القابعة في بلادنا.

وبعد، فالأمر أكبر من أن يحاط به في وريقات قليلة وعجالة من الوقت، إلا أنها إشارات وتنبهات أرجو أن أكون قد استطعت من خلالها أن ألفت أنظار إخواني وأخواتي من الآباء والأمهات والشباب والشابات إلى بعض وسائل التدمير الجسدي - النفسي المباشر لأطفالنا وشبابنا المسلمين. كما أنني قد شفعت ذلك كله باقتراحات لوسائل المكافحة والصمود والوقاية ما أمكنني ذلك، وأرجو ألا يضمن أحد باقتراح أو تنبيه أو تذكرة يراها، فنحن هنا في مقام التناصح والتذكير ولست أهلاً لغير ذلك، وكل ما عرضت هو من باب النصيحة التي أسأل الله تعالى أن تكون خالصةً لوجهه الكريم، والمهم في كل ما تقدم هو أن نحول من مرحلة الخمول إلى مرحلة الجد والنشاط والحذر والعمل بجِدٍّ وهمّةٍ على مد يد التغيير لننتقل بأنفسنا كمربين إلى دور نشط مؤثر في تربية أولادنا ووقايتهم من هذه الأخطار، والله تعالى هو موفق.

وبهذا نكون قد أنهينا هذا الفصل من الكتاب وقد عرضت فيه جملة من الأخطار المترتبة بأطفالنا وشبابنا والتي أرجو أن تكون قد اتضحت لنا على وجه يدفع بنا إلى التشمير عن السواعد وفض الغشاوات من على الأعين والعمل على إنفاذ قوله تعالى في مواجهتها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ ﴾ (الصف ٤) .

وننتقل بعد هذا إلى الفصل الثاني من الكتاب والذي نتناول فيه مراحل التطور الروحي الحركي عند الطفل مع محاولة ربط تلك المراحل مع ما يناسبها من مبادئ وتوجيهات وأهداف تربوية إسلامية وصولاً بأطفالنا إلى تشكيل ذلك الجيل الفريد؛ الجيل المسلم، فعلى بركة الله .



التربية والتطور الروحي الحركي للطفل

نستعرض في هذا المبحث إن شاء الله مراحل التطور الحركي لدى الطفل منذ الولادة وحتى البلوغ، ونحاول في سياق العرض ربط المعالم الرئيسة في هذا التطور بما يلائمه من توجيه سلوكي - تربوي بحيث نغتنم فرصة صياغة معلم حركي ما لتكون وفق المنهج السلوكي التربوي الإسلامي . وبكلام آخر نقول إننا نريد أن يكتسب الطفل السلوك التربوي الإسلامي عند كل مرحلة يتعلم فيها سلوكاً حركياً بحتاً، فنعلمه آداب الطعام عندما يبدأ بتعلم تناول الطعام لا بعده، ونعلمه آداب الكلام عندما يبدأ بتعلم الكلام لا بعده، ونعلمه آداب المشي مع بداية تعلم المشي لا بعده، وبهذا نتحول بالتربية من أسلوب تصحيح الخطأ إلى أسلوب إنشاء الصواب بدايةً، وهذا - فيما نرى - أرسخ وأثبت لهذا الصواب في نفس الطفل بحيث يكون الانحراف عنه هو الشاذ الذي لا يلبث أن يعود للصواب بتوجيه لطيف أو لفظة عابرة عوضاً عن تقويم الاغوجاج الأصيل الناجم عن ترك هذا التطور الحركي عرضةً لما يعترضه من مؤثرات فاعلة أو منفعة وقت اكتساب هذا المعلم الحركي . وهذا الأسلوب يقتضي عناصر عدة أحاول إيجازها فيما يلي :

(١) أن يكون المربي على بينة مما تتميز به كل مرحلة عمرية من معالم حركية، فيدرك أن هذه السن التي يبدأ الطفل فيها بتعلم المشي أو الكلام أو الطعام وهكذا . . حتى لا يفوت فرصة اغتنام مرحلة اكتساب هذا المعلم الحركي كما ذكرنا . وسبيل تحقيق هذا العنصر هو الوعي والتعليم عبر مختلف الوسائل كالنشرات المبسطة التي تعرض لكل فئة عمرية، أو البث الإعلامي المرئي والمسموع الذي يمكن أن يسخر بسهولة ويسر لنشر هذا الوعي، إضافة إلى دور الاختصاصيين من أطباء وتربويين وقائمين على دور الحضانة، وسوف نعرض لهذه المعالم مقرونة بأعمارها بالقدر المناسب لهدف هذا الكتاب لاحقاً إن شاء الله .

٢) أن يكون المربي فاعلاً نشطاً في عملية صياغة اكتساب هذه الحركات، فلا يدع الطفل في فترة تعلم الحركة عرضة لشيء من المؤثرات الخارجية التي قد تصيغ هذه الحركة أو السلوك صياغةً غير منضبطة بالمنهج الإسلامي، وهذا يحتاج تفرغاً تاماً في السنوات الأولى من العمر بحيث يتمكن المربي من بث المؤثر الصالح ودرء المؤثر الفاسد.

٣) أن يكون المربي على بينة من الأساليب التربوية المقبولة والملائمة لعمر الطفل وللسلوك المراد تعليمه (انظر فصل الأساليب التربوية في هذا الكتاب)، بحيث يستخدم الوسيلة الملائمة للسلوك ولعمر الطفل في آن واحد.

٤) أن يبدأ المربي - في العمر المناسب - بالربط الغائي لهذه الصياغة التربوية، بحيث يبدأ ينمي في نفس الطفل معياراً مرجعياً للخطأ والصواب يشكل منهجاً لمحاكمة المؤثرات الخارجية التي قد يتعرض لها مستقلاً بذاته وبعيداً عن الرقابة الأسرية (عندما يبدأ بالذهاب إلى المدرسة مثلاً والخروج مع الصحبة، وهكذا...). وهذا دقيقٌ ومهم ويختلف سن البدء به باختلاف تمييز الطفل ونضجه ولا يمكن حصره في سن محدد لكل الأطفال، ولكنني أشير إلى نقطة مهمة وهي أن أقل درجات هذا الربط الغائي هو ما يكون في نفس المربي ذاته بحيث يكون باعثاً مستمراً على سلوك هذا المنهج التربوي والمثابرة عليه، فليتببه لذلك فإنه دقيق.

إذاً نحن نريد في الحقيقة أن نتقل بالتربية إلى طور فاعل مؤثر في التشكيل السلوكي للطفل وقت اكتساب السلوك ليصبح المنهج الإسلامي أصيلاً في هذا التشكيل. وهذا يؤدي - إن شاء الله - إلى إنشاء جيل مصنوع على يد الإسلام ومجبول بمنهج الإسلام، وفي هذا ما فيه من تدارك الفجوة الكبيرة ما بين أجيال المسلمين المعاصرة ولحظة توقف المد الحضاري الإسلامي منذ قرون. ولا بد من ملاحظة أنه في الحقبة الزمنية التي أشرقت فيها شمس الإسلام على الحضارة الإنسانية واصطبغ واقع المجتمع وواقع الحياة اليومية بالمنهج الإسلامي كان الجيل

الناشي يجد نفسه وسط خضم من التيارات والتأثيرات الخارجية المصطبغة بصبغة الإسلام، فلم يكن هناك أي تعارض بين ما يلقي من توجيه في المنزل وما يلقي في حلقة الدرس وما يرى في الشارع وفي السوق وفي كل منحى من مناحي المجتمع. بل كان هناك تناغم وتكامل بين مختلف هذه التيارات فكان من الممكن حينها أن نقبل بأسلوب التربية "المنفعلة" حيث ندع الطفل يخضع لهذه التأثيرات الخارجية غير متخوفين من النتيجة. أما في الواقع المعاصر الذي نعيش فيه فلا يمكن أن نقبل بأسلوب التربية المنفعلة هذا بسبب الطبيعة الخبيثة للتيارات المحيطة بالجيل الناشئ، وبسبب التزاحم والتضاد الشديد بين ما يلقي في المنزل والمدرسة والشارع. فتأمل هذا فإنه مهم جداً.

وسوف نسلك في هذا المبحث طريقاً نعرض فيه أهم معالم هذه التطورات الروحية الحركية، ثم نستعرض محاور السلوك الرئيسية المتعلقة بهذه المعالم كما يوجه إليها القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ، ونحاول من ثم الربط بين هذه العناصر لتحديد الوقت المناسب للبدء بغرس هذه التوجيهات السلوكية في نفس الطفل، ونشير من طرف خفي أيضاً إلى الأسلوب الملائم لهذا الغرس حيث إننا قد أفردنا فصلاً خاصاً بالأساليب التربوية. ونريد التأكيد على مفهوم "الفترة الذهبية" لقبولة السلوك المعني قوله إسلامية كما نشير إليه في موضعه، ونأمل أن يؤدي ذلك كله إلى إحداث وعي حقيقي لدى الأم والأب والمربي بحيث يتم الأمر ويترجم إلى حيز الواقع بإذن الله.

وأنوه إلى أنني سأستند في تحديد المراحل التطورية الحركية إلى ما هو معتمد في أمهات كتب طب الأطفال والكتب المرجعية في هذا المجال، حيث إن هذه المراجع تستند في تحديد هذه المعلومات إلى استقرارات ومشاهدات لآلاف الأطفال عبر مختلف المراحل العمرية لتحديد السن الوسطي لاكتساب كل طور حركي، وليس في اعتماد هذه المصادر مخالفة لمسلك هذا الكتاب في الاستناد إلى المصادر الشرعية الموثقة، إذ أن هذه المعلومات هي مما يندرج تحت إطار العلم التجريبي علم الهوية والذي يعترف به الشرع مصدراً للعلم طالما كان وفق أصوله المعروفة،

ومن جهة أخرى نحن لا نملك مصادر بيانية خاصة بنا في هذا المجال، ولعل هذا قصور ينبغي تداركه، ولكننا نستطيع الاعتماد على هذه المصادر بالنظر إلى طبيعة المعلومات التي نتناولها حيث تنعدم أهمية الفروق الطفيفة المتوقعة بين هذا المصدر وما يمكن أن يكون من مصادر خاصة بنا، لأنه من المعلوم أن مجمل التغيرات التطورية بين الأطفال الطبيعيين لا تتجاوز بضعة الشهور زيادةً أو نقصاناً، ونحن لسنا بحاجة إلى هذه الدقة بدايةً، إذ أننا نهدف إلى تحديد المرحلة أو الفترة الحرجة لكل سلوك مكتسب وهذا يمتد - كما هو واضح - بضعة شهور بطبيعة الحال^(١). وعلى كل حال لقد أحببت أن أوضح الأمر كي لا يظن القارئ الكريم أن في منهج الكتاب تناقضاً، لاسيما أنني أستشهد بالمراحل التطورية الحركية البحتة، ولا أعير انتباهاً للدسائس التي تتناول التطور النفسي أو الروحي للطفل ابتداءً بخزعבלات فرويد وانتهاءً بترهات التطور الجنسي عند الطفل، وسنعرض لهذه الأباطيل في مواضع أخرى إن شاء الله.

بعد هذه المقدمة نقول إن التطور الحركي للطفل ينقسم - من حيث الدراسة - إلى أربعة محاور هي : التطور الحركي العام، والتطور الحركي الدقيق، والتطور اللغوي، والتطور الاستعرافي الاجتماعي. ونحن لا نرى بأساً بهذا التقسيم، لاسيما أن لكل من هذه المحاور ما يلائمها من المنهج التربوي الإسلامي. فعلى سبيل المثال نجد أن المشي معلم حركي عام يلائمه آداب المشي في الإسلام، وتناول الطعام معلم حركي دقيق يلائمه آداب الطعام في الإسلام، والكلام معلم لغوي يلائمه آداب الكلام في الإسلام، والتعامل مع الغير معلم اجتماعي استعرافي يلائمه آداب وأصول التعامل مع الغير في الإسلام، وهكذا دواليك. فلننتقل إذاً في هذا المبحث لنتناول كل محور تطوري على حدة، وسوف نقوم باستعراض سريع

(١) قلت : وليس هذا حجة في عدم تدارك هذا النقص في المعلومات لدينا بل يجب تداركه، غاية ما في الأمر أننا نستطيع المضي في بحثنا بناء على ما يتوافر لدينا من معلومات ريثما يتم استكمال ما ينقصنا من علوم خاصة بنا.

للمعالم التطورية في كل محور، وتتبع ذلك بنماذج من المتعلقات السلوكية الإسلامية ثم نعمل على الربط بين العنصر التطوري والعنصر السلوكي محاولين الوصول إلى صيغة واقعية وعملية في هذا المجال.

أولاً: التطور الحركي العام

يتناول التطور الحركي العام مجمل الطاقات الحركية التي تمكن الطفل من التحكم بجسده بصورة عامة ابتداءً بالسيطرة على ثباته وتوازنه الجسدي وانتهاءً بالقدرة على التنقل والتحرك. ولهذا التطور معالم حركية مشهودة ومتميزة حسب عمر الطفل، ويلاحظ أن معظم هذه التطورات تحدث في فترة السنوات الخمس الأولى من العمر، ولا يطرأ عليها من ثم تغيرات أو تطورات كبيرة. وأريد أن أحدد هدفاً واضحاً لهذا الإطار التطوري يتمثل في تحقيق القدرة على المشي بصفته الصيغة الأرقى للتنقل عند الإنسان. فالمشي يمثل الصورة الكبرى للتطور الحركي العام، وبه تتعلق جملة من السلوكيات التربوية المهمة من المنظور الإسلامي. وإليك سبراً عام لهذه الرحلة منذ الولادة:

نلاحظ على العموم أن الرضيع يبدأ بالسيطرة على وضعية الرأس ثباتاً عند الشهر الثاني من العمر، وينجذب إلى وضعية الجلوس محافظاً على ثبات رأسه عند الشهر الثالث للعمر، وعند حلول الشهر الرابع يتمكن من رفع رأسه وهو منكبٌ على بطنه، كما أنه قد يتمكن من التقلب من وضعية الانكباب (أي الاستلقاء البطني) إلى وضعية الاستلقاء الظهرى، ولا يلبث أن يتمكن من الجلوس بشيء من الدعم والمساندة عند الشهر السادس من العمر، كما يكون قد تمكن من التقلب في كلي الاتجاهين (من البطن للظهر ومن الظهر للبطن) ثم تبدأ مرحلة مهمة في التنقل الحركي هي مرحلة الزحف بحلول الشهر التاسع أو أبكر بنحو شهر أو اثنين، كما قد يتمكن من الوقوف على حواف الأثاث من كرسي أو سرير ويأخذ بالتنقل واقفاً شيئاً فشيئاً، وتكون القدرة على المشي قد أخذت تترسخ عند السنة من العمر أو

أبكر قليلاً، ويتدرج الأمر إلى الركض في حوالي الشهر السادس عشر إلى الشهر الثامن عشر، كما يبدأ بصعود الأدراج بشيء من العون في هذه السن أيضاً. وبحلول السنة الثانية من العمر تترسخ القدرة على الركض وصعود الأدراج ونزولها، وعند السنة الثالثة يتمكن الطفل من ركوب دراجة ثلاثية العجلات كما يتمكن من القفز، وتترسخ هذه المهارات بحلول العام الرابع من العمر. وبعدئذ يكون التطور الحركي العام منصباً على تحقيق درجة أعلى من التوازن الحركي العام والمهارات فوق العادية بحسب استعداد الطفل وميوله ومواهبه، بحيث لا يعتبر التفاوت فيها عجزاً بالضرورة.

وبعد، فهذا تجوال سريع في رحلة التطور الحركي العام التي يتدرج الطفل عبر مراحلها، وهي تحوم في مجملها حول تحقيق استقلالية التنقل والحركة متمثلةً بالمشي السوي في أفضل وأرقى صوره وهيئاته. وإن الكثير من العلل قد تعترض سبيل هذا التطور مما يجعل دور الأم والأب كبيراً في ملاحظة اكتساب الطفل لهذه المهارات في السن المتوقعة، وإلا فإننا ننبه بشدة على ضرورة استشارة الطبيب عند أي إشارة على تأخر هذا التطور أو تعثره من أجل الوقوف على أية علة عكوسة يمكن تصحيحها في الوقت المناسب، وبالتالي نحافظ على نمو الطفل ونضجه وتطوره الحركي سليماً. ولقد أثبت جدولاً يفصل هذه المعالم بحسب السن المتوقع لاكتسابها، لتتمكن الأم من ملاحظة أي تأخر أو شنوذ عن السير المتوقع، ولتتمكن من العمل على ترسيخ هذه المهارات في "السن الذهبية".

والآن، ما هي الآداب الإسلامية التي تتعلق بهذا التطور الحركي ؟

لقد سبقت الإشارة إلى أن القدرة على المشي السوي هي الحد الأدنى المتوقع والمقبول في سلم النضج الحركي العام. وسوف نبداً ببيان بعض ما يتعلق بالمشي من آداب إن شاء الله، ولكنني أريد أن أمهد لهذه الآداب الإسلامية بملاحظة أمرٍ لطيف تعرضه لنا آية قرآنية كريمة، حيث يقول الله عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ

دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ (النور ٤٥).

هذه الآية تعرض للتنوع المشاهد في طريقة "المشي" عند مختلف المخلوقات، وهي لا تعدو هذه الأحوال الثلاثة: الزحف بطناً أو المشي منتصباً أو المشي على أربع. والملاحظ هنا أن الزحف بطناً يتلازم مع المخلوقات الوضيعة الضعيفة المتردية في سلم الرقي بين المخلوقات (كالزواحف والثعابين والديدان وغيرها...)، وأن المشي على أربع يتلازم مع المخلوقات الأقوى والأكبر والأسرع تنقلاً وحركة (كالسباع والكلاب والفيلة وغيرها من معظم الحيوانات...) ولكن هذه المخلوقات رغم قدرتها الحركية الفائقة تظل حانية ظهورها مقتربة بهامها من الأرض فهي وضيعة من هذه الناحية، وأما الذي يمشي على رجلين فهو الإنسان الذي ليس بالوضع الزاحف على بطنه، وليس بالقوي الحركة سريع التنقل على أربع كالسباع، ولكنه وسط - من الناحية الجسدية - حيث يمشي على رجلين فيكون أسرع مما يزحف على بطنه وأبطأ مما يمشي على أربع، ألا إنه أرقى من هذا وذاك إذ يتميز بالمشي منتصب القامة مرتفع الرأس حيث كرمه الله تعالى بذلك: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين ٤) ولهذه المرتبة مقتضيات مهمة هي:

(١) على الإنسان أن يلحظ تكريم الله له في الخلق فيتبع أوامره في الأخلاق والآداب، ويحافظ على هذا التكريم بما شرعه الله له من آداب وضوابط. وهذا هو دور بعض الآداب الإسلامية التي سنعرض لها إن شاء الله.

(٢) على الإنسان أن يلحظ ضعفه وفقره إلى الله من جهة أنه قبل أن يتمكن من المشي على رجلين كان في مرحلة سابقة - هي مرحلة الرضاعة والطفولة - بنفس مرتبة المخلوقات التي تمشي على بطنها فكان ضعيفاً "وضيعاً"، فأمدّه الله بمدد جسدي وبقوة فأصبح "يزحف" على أطرافه الأربعة، ثم أمدّه بتكريم وترق أكثر عندما بلغ مرحلة أكثر نضجاً ووعياً فجعله منتصباً على رجلين، ثم هو يصير كهلاً فيضعف ويعود على ما بدأ به من ضعف، فإذا به يزحف ويمشي على بطنه

إذا وصل إلى أَرذل العمر . والشاهد في الأمر أن للإنسان الذي يغفل عن قراءة صفحات الكون والمخلوقات دليل من نفسه على حقيقة ضعفه وافتقاره إلى الله - هذا من جهة المشي فقط فما بالك بباقي الأمور - وإن شهود هذه المراحل مهم حتى لا يغتر الإنسان بنفسه ولا ينسى ما كان عليه من ضعف وما سيؤول إليه من ضعف، فيعترف لله وحده بالفضل والمنة على نعمة المشي !

وهكذا نمضي في البحث على بينة من هذا الأمر وعلى يقين بضرورة التزام الخلق الإسلامي الذي شرعه الله تعالى، الله الذي وهبك القدرة على المشي ورفعك على باقي المخلوقات التي تمشي مهينة ضعيفة على بطنها أو تمشي بجسد قوي دون كبرياء أو كرامة .

وعند استقراء الآيات القرآنية نجد أن لفظ المشي بمعنى السير على الأقدام قد تكرر ثمانية مرات - ثلاث منها في آية واحدة هي التي تقدمت في سورة النور - ونجد أن خمسة المواضع الأخرى تتعلق تعلقاً مباشراً بأداب المشي وأخلاقه، وسوف أسرد هذه الآيات حسب ترتيب نزولها ثم نمضي سوياً في تدبرها إن شاء الله .

يقول عز وجل : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (الفرقان ٦٣)، ويقول عز وجل : ﴿ فَجَاءَتْهُ أَحَدُهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

(القصص ٢٥) وذلك في سياق قصة موسى عليه السلام مع الفتاتين في مدين، ويقول عز وجل : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ (الإسراء ٣٧)، ويقول تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (لقمان ١٨-١٩) .

وأول ما يلاحظ في هذه الآيات أنها كلها مكية، ونحن نعلم أن عناية القرآن

المكي إنما كانت بالعقيدة والأخلاق والآداب لأنها الأرضية والأساس الذي يتم على أساسه التكليف ، والطفل غير مكلف بالتكاليف الشرعية النسكية إنما هو في مرحلة تعهد عقائدي وسلوكي وأخلاقي ، وإن إهمال هذه الأمور في مرحلة ما قبل التكليف عند الطفل يحرم الطفل من القاعدة والأساس العقائدي والسلوكي والأخلاقي السليم الذي يمكنه من تلقي التكاليف الشرعية لاحقاً . من أجل ذلك تجدني أصر في كل موضع من هذا الكتاب على استحضار هذه المسألة في ذهن الأم والأب في أبكر فترة ممكنة وفي أصغر المراحل العمرية لأن في ذلك - إن شاء الله - ضمان البيئة السليمة والمنهج النفسي - الفكري الصحيح الموافق لمنهج الله عز وجل . وإذا كنا نجهل من الناحية العلمية طبيعة الفهم والتلقي عند الطفل في سنوات عمره الأولى - على فرض أننا نجهل ذلك كله - فليس هذا الجهل حجة لنا في تأخير العناية والرعاية التربوية السلوكية ، بل هو على العكس مدعاة للالتزام بالمنهج التربوي السليم منذ اللحظات الأولى لحياة الطفل حتى لا نفوت أدنى فرصة للتأثير على الطفل تأثيراً إيجابياً . فالجهل إذاً حجة علينا لا حجة لنا ، فليتبه!

وبتدبر الآيات الكريمة التي أثبتناها أعلاه نظهر لنا مجموعة فريدة من الآداب التي يربينا عليها القرآن الكريم فيما يتعلق بالمشي ، وهاك إشارة مجملة لذلك :

(١) النهي عن المرح والتكبر في المشي والحث على السكينة والوقار ، ويبدو ذلك واضحاً في قوله تعالى : " ولا تمش في الأرض مرحاً " . ونلاحظ أن الحث على هذا السلوك قد لازمته شيء من أسلوب الترغيب والترهيب معاً ، فمن باب الترغيب جعل الله عز وجل المشي هوناً - أي بسكينة ووقار وبدون استكبار - جعله وصفاً لعباد الرحمن ، ووصف العبودية هو أعلى مقامات الوصف للمخلوق ، كما أن اسم "الرحمن" يوحى بقرب عباد الله الذين يلتزمون هذا السلوك من رحمته تعالى . ومن باب الترغيب بين الله عز وجل بعد من يختال في مشيه ويتكبر فيه عن حب الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (لقمان ١٨) ، وهو بين الترغيب والترهيب يذكر الإنسان بحقيقته وحقيقة ضعفه :

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء ٣٧).

فهذا أدب إسلامي مهم في المشي، ولاحظ أخي القارئ كيف اقترن بثلاثة أساليب تربوية يمكن أن يستعين بها الأم والأب والمربي في تربية الطفل حسب مستواه العقلي والفكري.

(٢) القصد في المشي : والقصد لغةً يحتمل عدة معانٍ، ألا إن ثلاثة من هذه المعاني تتناسب بشكل خاص مع الغرض الشرعي وهي : القصد بمعنى استقامة الطريق والسير (بالمعنى الحسي)، والقصد بمعنى الأم (أي التوجه) والقصد بمعنى الاعتدال. فأما المعنى الأول فيتناسب في الواقع مع السكينة والوقار بحيث يسير الإنسان مستقيماً سوياً لا يترنح ولا يتخبط ولا يهذي على غير هدى، وأما المعنى الثاني أي الأم فيتناسب مع كون المرء مطلوباً منه أن يكون متجهاً دوماً إلى غرض وأن تكون أفعاله ذات غاية، وأما المعنى الأخير فيكون كما ذكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى : "واقصد في مشيك" فقال : أي امش مشياً مقتصداً ليس بالبطيء المتشبث ولا بالسريع المفرط بل عدلاً وسطاً بين بين.^(١)

(٣) الاستحياء : وهذا أدب رفيع متميز وسوف أخطب به جنس النساء خاصة لأنه - أي الحياء - زينة المرأة المسلمة وخصيصة التي ترفع بها على من دونها من النساء غير المسلمات. ولقد جاءت صفة الاستحياء في المشي في القرآن الكريم في سياق وصف الفتاة المسلمة الصالحة : ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ (القصص ٢٥)، فالمشي يجب أن يتلبس بصفة الاستحياء لا سيما عند الفتاة والبنت المسلمة. وعند النظر في معاني صيغة استحياء (على وزن استفعّل استفعالاً) نجد المعنى متضمناً للطلب - أي طلب الحياء، وللصيرورة أي صار حياً، وللمطاوعة أي انقاد لخلق الحياء. وهي كلها معانٍ موافقة للمراد الشرعي، ومعنى ذلك أن البنت المسلمة - في مثالنا هذا - عليها أن تراعي في

(١) تفسير القرآن العظيم - الحافظ ابن كثير.

مشيها طلب الحياء (وذلك بالتزام أسبابه من سترة وعفة ووقار ورزانة)، والعمل على صيرورتها حيية منقادة لهذا الخلق الطيب. وهذه أمور يجب أن تراعى منذ الصغر والطفولة، ولا يجوز إهمالها بدعوى صغر سن الطفلة، لأن عدم التزام هذه الآداب ينطبع في ذهن الطفلة صغيرة فتتأثر به في سلوكها كبيرة، وهكذا فعندما نستعرض معالم التطور الحركي العام عند الطفلة ونحدد سن بداية الجلوس والمشي وغيره مما تتعلق به هذه الآداب فلا بد من استحضار هذه الآداب وتوجيه الطفلة إليها شيئاً فشيئاً بحيث تتعلم الطفلة بالتدريج كيف تجلس ساهرة ما يجب ستره وكيف تمشي محافظة على عدم انكشاف ما لا يجوز كشفه، فإذا بهذه الآداب والسلوكيات تصبح جزءاً من شخصية الطفلة ذاتها ومن ماهيتها، ويصبح للطفلة رادع بل دافع من نفسها لالتزام هذه السلوكيات. ولعل مثال هذا الأمر ما يتهاون فيه بعض الأمهات والآباء في جعل البنات الصغار يرتدين ملابس السباحة - أو ما تعارف عليه العامة المتفرنجين بالمايوه - بحجة أنها صغيرة ولا تفهم، ولا أدري من أين نأتي بهذا التقييم السطحي لعقلية البنت الصغيرة وبأي حق نحكم عليها بعدم الفهم، ثم لا تلبث هذه الطفلة أن تكبر وهي قد تعودت على أن ارتداء "المايوه" أمر عادي ومسموح به فإذا بها تطالب بهجره وتركه لأنه "حرام"! ولا يجولن بخاطر أحد أن هذه تعقيدات وعراقيل في حياة الطفلة، لا يا أخي ويا أختي، إن التعقيدات والعراقيل الحقيقية إنما هي إهمال الطفلة صغيرة تربي على تأثيرات المجتمع الشاذة والمنحرفة ولا تراعى فيها شيء من هذه الآداب، ثم مطالبتها عند النضج والبلوغ بالتحول إلى سلوك الإسلام وأدب الإسلام، إن التعقيدات والعراقيل تنجم من اصطدام ما تربت عليه الطفلة بما تطالب به في وقت لاحق؛ تربي على السفرور ثم تطالب بالحجاب، تربي على السلوكيات الصبيانية ثم تطالب بآداب العفاف والرزانة والأنوثة، وهكذا دواليك . . .

إذاً عندما تبدأ الطفلة بتعلم الجلوس نبدأ بالتوجيه اللطيف نحو أمور بسيطة دقيقة

فلا تعود على الجلوس مباحة ساقها مثلاً، وعندما تبدأ بالمشي والحركة يراعى ستر ما يجب ستره حتى تتعود على ألا ينكشف منها شيء إذا ما تعثرت ووقعت، وحين تبدأ بالركض والحركة السريعة يزداد مراعاة أمر الستر، وهكذا تترقى بصورة تدريجية بسيطة من مرحلة إلى أخرى حسب ما يناسب الطفلة وتطورها الحركي. ولاحظ معي أخي وأختي أن هذه المهارات كلها تكون قد استكملت وأتقنت في السنين الثلاثة الأولى من العمر.

والآن بعدما عرضت لبعض المسائل المتعلقة بالمشي من ناحية الآداب الإسلامية، أريد أن أختتم هذا المبحث بالتنبيه على بعض النقاط المهمة المتعلقة بمسؤولية الأم والمربية عن سلامة الطفل محاولين أن نربط النواحي الطبية بالمسؤوليات الشرعية لنخرج ببعض الفوائد إن شاء الله:

(١) إن التطور الحركي العام الذي يتعلق بصورة كبيرة بعملية التنقل والحركة يلقي على عاتق الأم عبئاً ثقيلاً بالنسبة إلى سلامة الطفل. فمع أول بادرة تطويرية عند الشهر الرابع يبدأ خطر السقوط من مرتفع نتيجة تقلب الطفل من بطنه إلى ظهره أو العكس، فلا تهمل أم طفلها وتتركه دون رقابة، والأولى ألا تضعه على مكان مرتفع أصلاً. ثم مع ترقى الأمر وتتمكن الطفل من الزحف تبدأ مرحلة جديدة من الاستكشاف والحركة، وهي مرحلة يحرص الطفل فيها على الوصول إلى كل شيء ووضع كل شيء في فمه، وهنا يكون دور الأم حرجاً في مراقبة المنزل لخلوه من كل عنصر مؤذ وضار، وعليها أن تكون ذكية منتبهة؛ فلا تترك أكياساً فارغة هنا وهناك كي لا يكون الطفل عرضة للاختناق بها، ولا تترك دواءً أو مواد كيميائية يطالها الطفل فيجعلها في جوفه، ولا تترك المجال مفتوحاً أمام الطفل للوصول إلى موقد ناري أو كهربائي أو دهليز درج أو سلم إلى آخر ذلك من الأمور الدقيقة. ولتعلم الأم أن رقابتها لهذه الأشياء تزداد أهمية مع ترقى الطفل في السنة الأولى إلى مرحلة المشي ثم في

السنة الثانية إلى مرحلة الركض وصعود ونزول الأدراج ، فلتنتبه لكل ذلك لأنها مسؤولة أمام الله عز وجل عن سلامة هذا الطفل أو الطفلة .

(٢) العناية الشديدة بالتغذية السليمة للطفل لأن النمو الجسدي السليم مهم جداً لسلامة التطور الحركي للطفل ، فتحرص الأم على الغذاء السليم - والرضاعة أفضل ذلك على الإطلاق - كما تحرص على تعريض الطفل للشمس بصورة كافية غير مؤذية حتى لا يصاب الطفل بالخرع (وهو نقص الفيتامين د الذي يؤدي إلى اعتلال نمو الجهاز العضلي الهيكلي) ، كما تراقب الأم أي علامة غير طبيعية من حيث تأخر الطفل عن الركب التطوري أو من حيث ظهور أعراض غير طبيعية على الطفل كالرخاوة الشديدة أو تقوس الساقين أو غير ذلك فتراجع الطبيب مباشرة للحيلولة دون تأصل هذه الأعراض إن أمكن . وليس هذا ترفاً طبياً أو فلسفة تحضيرية ، إنما هو واجب شرعي في صيانة وحفظ أجساد هؤلاء الأطفال سعياً إلى نمو ونضج جسدي عقلي سليم . ونحن إنما نفيض في شرح بعض هذه الأمور لأننا لا نملك في معظم البلاد الإسلامية نظاماً صحياً وقائياً يعمل على رصد هذه العلامات ولا نقول أننا بحاجة ماسة إلى ذلك إذا استطعنا إحداث وعي علمي شرعي صحيح لدى الآباء والأمهات بحيث يقومون هم برصد هذه العلامات ومراجعة الطبيب لذلك ، فالحق أن لدينا أولويات صحية أشد حاجة من هذا النوع من الطب الوقائي ، ولكن ذلك لا يعني إهماله بالكلية بطبيعة الحال . ونحن الأطباء نعمل بدورنا إن شاء الله على حث وتفعيل أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة على بث الوعي الصحي والوعي التطوري السليم بين مختلف شرائح المجتمع وصولاً إلى درجة الرقابة الصحية الوقائية على مستوى المنزل والأسرة إن شاء تعالى .

(٣) مراعاة ما تقدم من آداب وسلوكيات وذلك على مرحلتين : المرحلة الأولى هي التعويد الجسدي على ما يصح من طرق الجلوس والمشي (كما تقدم في عنصر الاستحياء) ولو لم يفهم الطفل مغزى الأمر في البداية ، لأن ذلك يحدث تعويداً

لطيفاً لا شدة فيه ولا غلظة حتى يتعود الطفل على السلوك الجسدي البحت مع شيء من الربط المتكرر بمبدأ الخطأ والصواب، وسوف نرى في مباحث لاحقة إن شاء الله أن الطفل يبدأ بالاستجابة إلى النهر والنهي بكلمة "لا" و "كخ" في مرحلة مبكرة (حوالي الشهر الثامن إلى التاسع) فمن الممكن إذا البدء بترسيخ هذه المبادئ شيئاً فشيئاً. أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الإفهام الفكري وهذه تعتمد على درجة من النضج والوعي الفكري يتناسب مع سن أكثر تقدماً من المرحلة السابقة وذلك مع حلول العام الثاني وما يليه.

بعد هذا ننتقل إن شاء الله إلى مبحث التطور الحركي الدقيق، ولقد أثبت في نهاية هذا المبحث جدولاً لأهم معالم التطور الحركي العام وسن اكتسابها فليرجع إليه.

ثانياً: التطور الحركي الدقيق

يتعلق التطور الحركي الدقيق عند الطفل باكتساب المهارات الحركية الدقيقة التي تمكنه شيئاً فشيئاً من التعامل مع المحيط الخارجي بصورة سليمة خالية من العيوب والعلل بهدف تحقيق غايات مختلفة مما يحتاجه الطفل ضرورةً لجسده - كالغذاء للنمو - ومما يحتاجه ضرورةً لشخصه - كالكتابة للتعبير عن رأيه. ولا بد لمن يعتني بالطفل ويقوم بتربيته من أن يكون على إطلاع عام على المعالم الرئيسية لهذا التطور لسببين مهمين هما :

(١) التعرف المبكر على أي تأخر أو تعثر في اكتساب هذه المهارات، لأن التعرف الباكر على تخلف هذا التطور والكشف المبكر عن سبب ذلك التخلف هو أنجح السبل لتصحيح هذا الخلل وإزالة العثرات الكامنة في طريق التطور الحركي الدقيق للطفل إذا كانت هذه العثرات مما يمكن إزالته وتصحيحه.

(٢) القيام بتعليم الطفل هذه المهارات تعليمياً صحيحاً وفق منهج صحيح يتوافق مع مبادئ التربية والسلوك الإسلامي، لأن عدم القيام بذلك يعني أن الطفل سيتعلم هذه المهارات الحركية وفق ما يجده أمامه من نماذج سلوكية بغض النظر عن

كونها نماذج سليمة أم معيبة . ويظهر أثر هذه المشكلة بصورة أخطر في حالات الغياب التام للنموذج الإسلامي من محيط الطفل الناشئ .

و لن أخوض في تفاصيل التطور الحركي الدقيق لأن موضع هذا الأمر إنما هو العلوم الاختصاصية ، ولكنني أقدم فيما يلي سبراً عاماً لما نراه علماً ضرورياً لكل مرب ومربية :

تتمثل طليعة التطور الحركي الدقيق في بدء التعامل مع المعطيات الخارجية باليد لمساً وإمساكاً ونقلًا وتحريكاً . ففي حوالي الشهر الثالث والنصف من العمر يبدأ الرضيع بإمساك الخشخيشة علامة على بدء التعامل اليدوي مع الأجسام ، وعند الشهر الرابع يقوم الرضيع بمد يده للإمساك بما يقدم له ، وهذه علامة بدء التوافق البصري الحركي حيث يتمكن الطفل من التعرف على عناصر محيطه بحاسة بصره ويوافق ذلك أمر حركي لمد اليد للتعامل مع هذا المحسوس ، ويغيب في هذا السن منعكس القبض اليدوي (المنعكس هو رد فعل لا إرادي يتم استجابة لمؤثر خارجي ، ومنعكس القبض اليدوي يؤدي إلى قبض اليد عند ملامسة جسم خارجي لراحة اليد) وإن غياب هذا المنعكس للطفل بالتعامل مع المدركات الحسية قبضاً وإفلاتاً ، بحيث يأخذ ويترك الجسم المقدم له . وحين يبلغ الرضيع الشهر الخامس والنصف تقريباً يكون قد تمكن من نقل الأجسام من يد إلى أخرى مما يسمح له باستقصاء الجسم بصورة أوسع وأشمل ، كما يسمح له بمقارنة الأجسام بعضها ببعض . ويتقدم الأمر في الشهر الثامن بتحقيق معلم حركي دقيق مهم هو الإمساك بالإبهام والموحدة^(١) ، وهذه خطوة مهمة جداً في التعامل مع الأجسام الصغيرة

(١) درج الناس على تسمية الإصبع الثانية من اليد بالسبابة ، وهو اسم فاعل من سب يسب بمعنى شتم ، وهذا اسم فاعل من فعل منهي عنه في الإسلام ، ولما كان المسلم يستخدم هذه الإصبع في الإشارة عند التشهد في الصلاة أو عند إعلان الشهادة اخترنا لفظ "الموحدة" ليكون ذلك بديلاً عن الاسم المكروه "السبابة" وليكون إعلاننا للتوحيد في ذاته ، وهذه ملاحظة قد سبقني إليها غيري ولكنني قصدت الانتقال من مجرد الإشارة إلى الأمر إلى استعمال هذه اللفظة البديلة فعلاً وواقعاً

وللتمكن من الإمساك بدقائق الأجسام، وعند السنة من العمر يتمكن الطفل من قلب صفحات كتاب مما يهيئه للمشاركة في مطالعة الكتاب وقت القراءة له (وهو غالباً ما يكون كتاباً حاوياً على رسوم وصور تتناسب مع المستوى الاستعرافي للطفل)، وفي الشهر الثالث عشر يتمكن الطفل من الرسم والخط العشوائي على الورق بقلم يمسه، ويبلغ عند الشهر الخامس عشر معلماً آخر حيث يتمكن من بناء برج ذي مكعبين علامة على بدء تفتح آفاق الابتكار والاستحداث عند الطفل، والمقدرة على جمع العناصر وتأليفها، وتتطور هذه المهارة لتصل في الشهر الثاني والعشرين (أي حوالي السنتين من العمر) إلى درجة بناء برج ذي ستة مكعبات على الأقل.

ويستمر التطور الحركي الدقيق باكتساب مزيد من المهارات اليدوية بصورة خاصة، ويتمثل ذلك بزيادة المقدرة على رسم الأشكال الهندسية واستخدام القلم والورق، كما يتمثل بزيادة المقدرة على تركيب وبناء الأشكال المختلفة بمكعبات اللعب والتشكيل. ولا أراني ني حاجة لكثير من التفصيل في هذا الموضوع لأنه يدخل في المجال الاختصاصي من جهة، ومن جهة أخرى فإن الطفل الذي تجاوز المراحل السابقة ووصل سن الثانية من العمر محققاً لمجمل المعالم الحركية الدقيقة غالباً ما يكون سليم البناء الجسدي - العقلي، وغالباً ما يستمر في سيره التطوري وفق ما جبل عليه شريطة أن يستمر تقديم الفرص والمحفزات المفعلة والمنمية لهذه المهارات. وإنما أردت التفصيل في السنتين الأوليتين للعمر لأنهما سنتان حرجتان جداً وسريعتا التغيير والتطور.

بقي موضوع مهم من ناحية التطور الحركي الدقيق هو ما يتعلق باليدوية handness أي كون الطفل مستخدماً ليد يميني أو اليسرى بصورة سائدة في مجمل مهاراته اليدوية. والأمر دقيق لأنه يتعلق بأمر نبوي وبمفهوم شرعي دقيق يفصله لاحقاً في هذا المبحث إن شاء الله بعد أن نبسط ما يتوافر لدينا من علم تجريبي في هذا المجال.

فمن الناحية الطبية العصبية نعلم أن السيطرة الدماغية على وظائف الأعضاء سيطرة عالية التخصص عموماً، ولكن هذه السيطرة والتخصص الوظيفي لا يكونان تامين عند الولادة، بل إن نمو الدماغ لا يكون تاماً عند الولادة فنمو الدماغ يستمر - من الناحية الكمية والحجمية - حتى نهاية السنة الثانية من العمر تقريباً (ويلاحظ أن هذه هي نفس فترة الرضاعة الطبيعية وكأن بين الأمرين تلازماً وتوافقاً) ويتم خلال هذا الزمن اكتساب كثير من التخصص الوظيفي لمختلف وظائف الجسم من لغة وحركة وغيرها. ومعلوم أيضاً أن كل فص دماغي يسيطر - عموماً - على النصف المقابل من الجسم بحيث يسيطر الفص الدماغى الأيمن على حركة الشق الأيسر للجسم والعكس صحيح. ولكن إضافة إلى هذا التخصص الوظيفي المعكوس المتمثل في سيطرة كل فص دماغي على شق معاكس من الجسم نجد أن بعض الوظائف العامة يسيطر عليها فص دماغي واحد بشكل منفرد تقريباً، ومن هذه الوظائف وظيفة اللغة واليدوية. وتشير الإحصاءات العلمية الاختصاصية الواردة في هذا المجال إلى أن ٩٠% من عامة الناس ذوو يدوية يمنى وأن نصف الدماغ المسيطر عند هؤلاء هو الفص الأيسر (ونعني بفص الدماغ المسيطر أي المتخصص في وظيفة اللغة واليدوية وهو تخصص "مكتسب" إلى حد ما في تطور ونمو الدماغ حتى سن معينة) وأن ١٠% من عامة الناس ذوو يدوية يسرى ولكن معظم هؤلاء يكون فص الدماغ المسيطر على اللغة عندهم هو الأيسر أيضاً (حوالي ٩٠% من ذوي اليدوية اليسرى فص الدماغ المسيطر هو الأيسر بينما يكون الأيمن عند ١٠% فقط) بحيث نجد في النهاية أن ٤% فقط من مجموع الناس يكون فص الدماغ المسيطر عندهم هو الأيمن. يقول مؤلف كتاب "المتن الوجيز في العلوم العصبية" د. روبرت كنجزلي: "إن ترابط اليدوية اليمنى مع يسارية السيطرة الدماغية على وظيفة اللغة ترابطاً ظاهر عند معظم الناس، ولا يشذ عنه سوى ٤% من عامة الناس تتمثل لديهم السيطرة الدماغية على اللغة في النصف الدماغى الأيمن. وإن سبب سيادة هذه السيطرة اليسرى غير معروفة" ثم يقول في موضع لاحق: "إن كثيراً من الناس الذين

تتمثل السيطرة اللغوية عندهم في الفص الدماغى الأيمن قد عانوا من أذية دماغية في الفص الأيسر في فترة ما حول الولادة، ويفترض أن التخصص اللغوى قد انتقل عند هؤلاء من الفص الأيسر المتأذى إلى الفص الأيمن كأسلوب معاوض، مما يثبت أن الفص الأيمن قابل لاكتساب وظيفة اللغة". انتهى.

وغاية ما أريد إبرازه من الاستعراض والمشاهدات السابقة ما يلي:

- ١- إن عامة الناس لديهم يدوية يمنى (٩٠%) وسيطرة دماغية لغوية يسرى (٩٦%)
- ٢- إن التخصص الوظيفي اللغوي أمر تطوري - كسبي في المراحل المبكرة للتطور الدماغى.

هذا مع العلم بأن المعلومات المتوافرة لدينا من الملاحظات والمشاهدات التجريبية والطبية لا تفضي إلى علم يقيني فيما يتعلق بهذه الوظائف من حيث العوامل المؤثرة في توزيع التخصص الوظيفي لها، لكننا نعلم أن السائد هو اليدوية اليمنى وأن التخصص الوظيفي في الدماغ ليس بالضرورة حتمية جبلية بل إن للمؤثرات البيئية دور فيه، وأنه لا مانع علمي أو عقلي يمنع من اكتساب وظيفة اليدوية أو السيطرة اللغوية في الدماغ الأيمن أم الأيسر.

وهكذا نكون قد استعرضنا في سبر عام معالم التطور الحركي الدقيق في المراحل المبكرة لحياة الطفل، واستنتجنا أن متعلقاته هي المهارة اليدوية بصورة خاصة، واستطردنا في بسط علمي طبي لمسألة اليدوية تمهيداً لما يأتي من تعقيب على هذا الأمر من ناحية تربوية شرعية. ونستطيع عموماً بعد ذلك أن نحدد عدداً من المهارات والسلوكيات المتعلقة بالتطور الحركي الدقيق مما له صلة وتطبيق في التوجيهات التربوية الإسلامية، وهذه المهارات هي:

- ١ - اليدوية
- ٢ - القراءة والكتابة
- ٣ - تناول الطعام
- ٤ - اللعب

المنهج التربوي الإسلامي والتطور الحركي الدقيق :

هذه المحاور الأربعة تعتمد على تطور المهارات الدقيقة عند الطفل من جهة، وتتعلق بها مجموعة من التوجيهات الشرعية والآداب الإسلامية من جهة أخرى. وسوف نحاول الخروج بصيغة تعين المربي على استحضار هذه الضوابط عملياً في سياق العملية التربوية، وأؤكد على ضرورة عدم الاستهتار بالأمر كون الطفل صغير السن أو "قليل الفهم" فيما نحسب، فتحسن لا نملك من العلم ما يبين لنا أن الطفل "قليل الفهم" أو الإدراك، بل إن العكس هو الصحيح. وما لم نمد الطفل بالنموذج والتطبيق والقُدوة الحسنة السليمة لكل سلوك أو مهارة يكتسبها فإنه سيتمثل في نفسه ما يجده حوله من قدوة سيئة أو سلوك منحرف بلاريب. وسوف نتناول هذه المحاور كلاً على حدة:

١- اليدوية:

لقد قدمنا وجهة النظر الطبية العصبية المفندة لاحتمية اليدوية والتي يتذرع بها البعض لتبرير عدم اليدوية اليمنى. وأضيف ها هنا دليلاً علمياً آخر عسى أن يزيد الأمر وضوحاً ويكون جسراً ما بين المعلومة الطبية والمعلومة الشرعية إن شاء الله تعالى. وهذا الدليل العلمي عبارة عن بعض المشاهدات السريرية المتفرقة التي تثبت بواقعها إمكان "نقل" وإعادة توزيع وظيفة اللغة مما يدل على إمكان إعادة توزيع غيرها من الوظائف الدماغية ضمن حدود سن معينة. فلقد دلت المشاهدات السريرية عند عدد من الأطفال الذين أصيبوا بأذية دماغية بعد أن تحددت معالم اليدوية وتحدد توزيع وظيفة اللغة في جهة معينة من الدماغ أن أذية هذه المراكز المتخصصة بحيث تؤدي إلى تعطلها عن وظيفتها يؤدي إلى إعادة توزيع هذه الوظيفة إلى الجهة الدماغية المعاكسة. وهذه المشاهدات السريرية الثابتة تدلل عملياً على إمكان حدوث إعادة التخصص الوظيفي ضمن حدود سن معينة. ومن جهة أخرى فإن الكهول والبالغين ومن تجاوزوا السن التي يمكن فيها إعادة التخصص

الوظيفي هذا لا يزالون يبرهنون على إمكان اكتساب مهارات اليدوية في اليد الأخرى عند إصابة اليد السائدة عندهم بالشلل مثلاً، وهذا يدل على إمكان استعمال اليد المخالفة للتخصص الوظيفي إلى حدٍ ما على الأقل.

إن هاتين المشاهدين عند الأطفال والكهول تفضي بنا إلى النتيجة المهمة التالية وهي أن وظيفة اليدوية أمر تطوري كسبي وليست أمراً جبلياً حتمياً وإن كنا نقبل أن هناك اتجاهًا عاماً نحو تسييد أحد جهتي الدماغ للسيطرة على هذه الوظائف. ويستمر هذا التطور الكسبي التطوري إلى مرحلة تالية يصعب بعدها - إن لم يصبح مستحيلاً - أن يعاد توزيع هذا التخصص. أما حدود هذه السن فهي ما بين الثلاث والخمس سنوات تقريباً. وهذه النتيجة المهمة توصل إلى ما يلي :

١- أن وظيفة اليدوية ليست جبرية .

٢- أن هناك سناً حرجة يجب أن يتعلم الطفل فيها هذه الوظيفة على الوجه الصحيح حتى ترسخ لديه على ذلك الوجه .

أما من الناحية الشرعية فإن لدينا العديد من التوجيهات الشرعية التي تأمر بالتيا من وباستخدام اليد اليمنى في معظم الوظائف باستثناء ما يتعلق بأمور ذات صفة خاصة كالطهر فيؤمر باستخدام اليسرى - وأهم هذه الوظائف في مجال المهارات اليدوية هو تناول الطعام ، كما ورد في التوجيه النبوي الشريف : « يا غلام ، سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك » (صحيح البخاري) ، يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني : "ويدل على وجوب الأكل باليمين ورود الوعيد في الأكل بالشمال ، ففي صحيح مسلم من حديث سلمة بن الأكوع ، أن النبي ﷺ رأى رجلاً يأكل بشماله ، فقال : « كل بيمينك » . قال : لا أستطيع . قال : « لا استطعت » . فما رفعها إلى فيه بعد^(١) .

والشاهد في الحديثين أن هناك أمراً شرعياً باستخدام اليد اليمنى ، كما أن هناك رفض لحجة عدم الاستطاعة ، وهذان الشاهدان يفضيان بنا إلى نتيجة هي أن اليدوية

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري - الحافظ ابن حجر العسقلاني - جزء ١٠ .

أو القدرة على استخدام اليد اليمنى تقع ضمن الاستطاعة الفردية وليس فيها من الحتمية أو الجبرية شيء بدليل ما يلي :

١- إن الأوامر الشرعية والتكاليف الشرعية لا تكون بالتكليف بما لا يطاق، والأمور الجبرية مما لا يطاق مخالفتها وبالتالي لا يأمر الشرع بمخالفتها، فكون الشرع يأمر بأمر ما يمثل دليلاً على وقوع هذا الأمر ضمن دائرة الإمكان عند عموم المكلفين. يقول الله تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ .

٢- لو كان الأمر خارجاً عن حدود الاستطاعة لما دعا الرسول ﷺ على الرجل لمخالفة أمره والرسول ﷺ هو الرؤوف الرحيم بالمؤمنين كما وصفه الله عز وجل : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة ١٢٨).

بقي أن نوضح أمراً آخر وهو أن الاستطاعة كما أنها ضابط عام في التكليف فإنها تكون ضابطاً خاصاً بالأفراد بحسب الظروف الفردية، وهنا يتبادر السؤال التالي : ما ذنب الشخص الذي اكتسب اليدوية اليسرى بسبب سوء التعليم أو التربية وقد قلت أن هذه الوظائف تصبح ثابتة بعد سن معينة، وكيف يكلف بما هو ليس بمستطاع له؟

سؤال مهم، ونقول في جوابه : إن هذا السؤال من جملة الأسباب التي تؤكد فيها في كتابنا هذا على ضرورة الاهتمام بالطفل في أبكر مراحل حياته وهذه مسؤولية كبرى على المربين، وجواباً على هذا السؤال نقول أنه في هذه الحالة التي تكون اليدوية يسارية عند الفرد لأي سبب فإن على الفرد في هذه الحالة أن يعمل جهده في التدريب على استخدام اليد اليمنى في الأمور التي جاء التكليف الشرعي بها بصورة خاصة - وهي تناول الطعام في مثلنا هذا - ولا مانع من أن تكون المهارات اليدوية الدقيقة الأخرى كالكتابة والصناعة الحرفية وغير ذلك باليد اليسرى وإن كانت خلاف الأولى. ولا شك في إمكانية قيام الفرد بذلك التدريب وإن كان قد كبر واعتاد على اليسارية بسبب سوء توجيه وملاحظة المربي لأننا نرى في الواقع أن مثل هؤلاء عندما يصاب أحدهم بشلل في اليد اليسرى بسبب مرض ما فإنهم يعملون جهدهم

وينجحون في المعاضة باليد اليمنى ، فإذا كان هذا هو الحال من أجل الضرورات الحياتية فلا أقل من أن يبذل جهداً مماثل من أجل الضرورة الشرعية ، أعني ضرورة الانقياد لأمر الله عز وجل ورسوله ﷺ .

هذا ما اهتمت إليه وهذا ما اطمأن إليه قلبي في هذا الأمر ، وجزى الله خيراً من رأى صواباً خلاف هذا فقدمه لنا مشفوعاً بالدليل ، والله المستعان .

(٢) القراءة والكتابة:

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ (العلق ١-٥) . هذا ما ابتدأ به خطاب المكلفين عبر خطاب رسول الله ﷺ : اقرأ . والقراءة يلزمها الكتابة فكانت الإشارة إلى القلم ، والقراءة تكون - حسب منهج السورة - في صفحتين اثنتين ؛ الصفحة الكونية والصفحة الشرعية ، فالصفحة الأولى يشير إليها قوله تعالى: ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾ إشارة إلى التدبر في مخلوقات الله عز وجل وصفحة الكون ، والصفحة الثانية يشير إليها قوله تعالى : [الذي علم بالقلم] إشارة إلى العلم الشرعي الذي لا يكتسب إلا بالخبر من الله عبر رسله وأنبيائه . ولقد كرم الله عز وجل الإنسان فمُنحه القدرة على القراءة والكتابة وعلمه ما لم يعلم . وإن قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ يشير إلى أن التعليم يهدف إلى تغيير واقع الجهل في الإنسان وهو واقع متلبس به منذ ولادته كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٢٧ ﴾ (النحل ٧٨) ، فلا بد من أن يبدأ تعهد الفرد بالتعليم من لحظة الولادة هذه التي يتلبس فيها بالجهل بعد خروجه إلى هذه الدنيا من ظلماته الثلاث ، ولا يكون التعهد بالتعليم مطلوباً من المربي قبل ذلك لعدم اكتمال وسائل التلقي بعد وإن كان للجنين تعهد آخر بالتربية لا مجال للخوض فيه في هذا المقام .

فما علاقة كل ذلك بالتطور الحركي الدقيق للطفل؟

لقد مر معنا أن الطفل يشرع - في حدود السنة من العمر - بمد يده لتقليب صفحات كتاب ما أو بالمساهمة في ذلك الفعل على أقل تقدير، بل إنه يبدأ بالنظر إلى الرسوم والصور المعروضة له في هذا العمر أيضاً. وإن تطور هذه المهارات الدقيقة من تقليب كتاب أو دفتر وما يتبعه بعد بضعة شهور من إمساكٍ بالقلم والخط به عشوائياً ثم بشكل أكثر انتظاماً ... إن هذا كله يمثل فرصةً للشروع في التعليم المنهجي المعتمد على الكتاب والقلم وتأسيس أصول ومبادئ هذه العملية التعليمية، كما أنه يشكل مسؤوليةً جديدة في مراقبة ما يقدم لأجهزة استقبال الطفل من صورة في كتاب أو رسم في دفتر أو مشهدٍ على شاشة المرناة (التلفاز). ولا بد من العمل على الربط ما بين تقليب الكتاب والقراءة منه بشكلٍ منهجي دوري بحيث يدرك الطفل الغرض من الإمساك بالكتاب ومن تقلبيه، وأرى تخصيص جزءٍ من كل يوم للقراءة فقط دون أي شاغلٍ آخر بحيث تقضي الأم والأب هذا الوقت في توجيه الطفل نحو كيفية التعامل مع الكتاب ثم القراءة البسيطة له، والهدف من هذه القراءة اليومية تعويد الطفل على هذا المنهج وليس الهدف منه أن يتعلم محتوى الكتاب الذي نقرأه له مباشرةً لأنه من الواضح أن مستوى النضج العقلي للطفل لا يسمح بذلك في هذه السن المبكرة، وهنا قد يطرح البعض تساؤلاً عن القيمة الحقيقية لهذه "القراءة" التي لا يتعلم منها الطفل شيئاً مما نقرأه له، والجواب على هذا التساؤل ما قدمته من أننا لا نستهدف تعليم الطفل محتوى الكتاب في هذه المرحلة وإنما نهذف إلى تعليمه وتعويده على مبدأ القراءة وتخصيص الوقت لذلك وتعويده على التعامل مع الكتاب، وهذا كله يؤمل منه أن يحدث أثره على المدى البعيد إن شاء الله تعالى. ولكي نضيف بعداً آخر لهذه العملية أقترح أن يكون جزء من هذه القراءة اليومية من كتاب الله عز وجل وفي لك فوائد عديدة منها ما يلي :

أ- أنها عبادة وتدبر للقارئ نفسه فلا يضجر بمستوى ما يقرأه للطفل من كتب أخرى ولا يستشعر أنه "يضيع" وقته بالقراءة للطفل.

ب - أنها ربط لمبدأ القراءة بما لا بد من قراءته وتعلمه للفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

ج - أنها وإن لم يع الطفل معناها فلا بد من أن تناله بركتها ، وهذا ما لا يحصل بقراءة أي كتاب آخر . وراجع إن شئت أحاديث النبي ﷺ في فضل قراءة سورة البقرة مثلاً وكونها مدعاةً لدخول الملائكة بيتك وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة في فضائل قراءة القرآن . ولعلنا نستطرد في هذا الأمر في مبحث التطور الاستعرافي للطفل إن شاء الله .

ولا بد إضافة إلى ذلك من تقديم الكتب الخاصة بالطفل بحسب سنه ، فهي ذات دور مهم في تنمية ملكته اللغوية والاستعرافية ، وما أردت توضيحه ها هنا هو ضرورة ربط تطور المهارات الحركية الدقيقة عند الطفل بما يلائمها الأهداف التربوية .

(٣) تناول الطعام:

وهذه مهارة يدوية تتطلب درجةً من التوافق البصري الحركي والتوافق الحركي الحركي ، ولقد تقدم معنا بيان السن الذي تترك به كل من هذه المهارات ، ومرةً أخرى أقول أنه لا بد من ربط هذه المهارات بمتعلقاتها وفق منهج الإسلام منذ بزوغ هذه المهارات عند الطفل ، لأن الإنشاء خير من الترميم ، فلا نسلم الطفل لتعلم ممارسات خاطئة ثم نعمل إلى تصحيحها بعد رسوخها في سلوك الطفل وممارسته ، (ولا يعني هذا عدم تصحيح الخطأ وإنما يعني أن الأولى هو التربية المستقيمة بدايةً) .

والحق أن تناول الطعام يتطلب عدداً من المهارات الاستعرافية واللغوية بالإضافة إلى المهارات الحركية الدقيقة ، إلا أن ذلك لا يعني تعطيل العملية التربوية إلى حين استكمال هذه المهارات بأسرها وإنما يقدم ما يناسب سنه وتطوره من توجيه وتعليم ويقوم الأبوان باستكمال الباقي مما لا يقدر عليه الطفل نيابةً عنه (كالتسمية نيابةً عن الطفل إلى حين قدرته على ذلك كما سنبين لاحقاً) .

وسوف نتناول حديث رسول الله ﷺ في هذا الباب ليكون محوراً للبحث إن شاء الله، فعن عمر بن أبي سلمة قال : كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصفحة، فقال لي رسول الله ﷺ : " يا غلام سمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك". فما زالت تلك طعمتي بعد.^(١) وهذا حديث عظيم في باب التربية نتناوله بشيء من التفصيل في مبحث وسائل التربية إن شاء الله وأقتصر هنا على آداب الطعام التي شرع رسول الله ﷺ يعلمها ذاك الغلام في حينه.

فهاك ثلاثة أعمال متعلقة بتناول الطعام وهي :

١- التسمية.

٢- التيامن.

٣- الأكل مما يليه.

فإذا نظرنا أولاً إلى مدلول لفظ "الغلام" وجدنا الحافظ ابن حجر يقول في شرح الحديث : "كنت غلاماً أي دون البلوغ، يقال للصبي من حين يولد إلى أن يبلغ الحلم غلاماً." اهـ. فكل مرحلة ما قبل البلوغ هي سن مناسبة لتعليم وترسيخ آداب الطعام سواء أكان التعليم بالممارسة والقنوة من قبل المربي أم بالتوجيه والإرشاد المباشر حسب قابلية الطفل للفهم والاستيعاب. فعنصر التسمية في بدء الطعام مثلاً لا يتصور أن يمارسه الطفل قبل سن الكلام بألفاظ مزدوجة مركبة (أي حوالي الشهر الثامن عشر من العمر تقريباً) ولكن هل يعني ذلك أن يأكل الطفل ويشرب دون تسمية مدة ثمانية عشر شهراً من عمره أو نيف؟! بالطبع لا. فالتسمية عند الطعام لها أهداف جليلة لا يجوز تعطيلها منها الاعتراف بنعمة الله وطرده الشيطان من مجلس الطعام ومنعه من أن يأكل معه وصون بركة الطعام، وهذا كله مطلوب ومحتاج إليه بالنسبة للطفل ولا يجوز حرمانه منه، ويمكن تحقيق هذه المنافع للطفل بقيام من يطعمه بالتسمية بدلاً منه ففي ذلك تحقيق لهذه الأهداف من جهة، وتعويد للطفل

(١) فتح الباري- الحافظ ابن حجر العسقلاني - ج ١٠ - ص ٦٠٣ - حديث ٥٣٧٦.

في باكورة سنه على سماع التسمية وتعلمها حتى إذا كان السن المناسب لتوجيه الطفل إلى هذا السلوك القولي لم يكن الأمر غريباً أو جديداً عليه .

وكذلك الحال بالنسبة للتيامن حين الأكل ، ولقد تقدم معنا مبحث مطول عن الناحية الطبية والشرعية للتيامن ، وإذا أخذنا سن ثلاث سنوات تقريباً كحدٍ فاصل لتأصل اليدوية عند الطفل علمنا مجدداً أهمية التأكيد على هذا السلوك في أبكر سنٍ ممكنة ، كما أن التيامن يتناول من يناول غيره الطعام فيلقمه باليد اليمنى ، فلا تقطعم الأم طفلها طعاماً أو تلقمه لقمةً إلا يمينها ففي ذلك تحقيق هدف التيامن - وهو الانقياد لأمر النبي ﷺ والامتثال لأمره واجتناب مشاركة الشيطان له كما ذكر الحافظ ابن حجر في حديث عائشة مرفوعاً : " من أكل بشماله أكل معه الشيطان " (رواه أحمد) - كما أن فيه تحقيق القدوة الحسنة لتعليم الطفل هذا السلوك . وهنا نقطة مهمة وهي ضرورة أن نميز بين أمرين من أمور التطور الحركي الدقيق عند الطفل أحدهما مد يده إلى فمه للطعام والآخر استخدام اليدين معاً لاستكشاف الأجسام والأجرام والعالم المحيط به فلينبه الأبوان إلى الفارق بين هذين السلوكين حتى لا ينهر الطفل عن استخدام اليدين في الاستكشاف والتحسس والتعرف على الأجسام الذي قد يلازمه أحياناً وضع الجسم في الفم لا بهدف الطعام بل بهدف التحسس والتمييز (ويجب الحذر من وضع أجسام صغيرة ممكنة الابتلاع خشية الاختناق) ، ولكن ينهر الطفل عن وضع الطعام في فمه بغير يده اليمنى ، ويمكن اللجوء إلى جملةٍ من أساليب النهر والزجر علماً بأن الطفل يبدأ بالاستجابة إلى النهر بكلمة "لا" حوالي الشهر الثامن من العمر ، أو بالإلهاء بأن يضع في يده اليسرى لعبة ما فيضطر الطفل إلى أخذ الطعام باليمنى وهكذا .

أما الأكل مما يليه فتوجيهه يتطلب مهارة حركية واستعرافية لا يتصور حصولها مجتمعة في سنٍ مبكرة؛ فمن الناحية الاستعرافية يبدأ الطفل بفهم التعليمات البسيطة والاستجابة لها قرابة الشهر الخامس عشر من العمر ويبدأ ذلك بالترسخ في الشهر الثامن عشر من العمر بحيث يمكن أن يستجيب لبعض التوجيهات والتعليمات ،

ويتناسب ذلك مع تطور المهارة الحركية الدقيقة بحيث يتمكن من تناول طعامه باليد ثم المعلقة في الشهر الثامن عشر من العمر تقريباً، ولعلنا نقبل سن السنتين من العمر كحدٍ لترسخ هذه المهارات الحركية والاستعرافية بحيث نتوقع تجاوباً جيداً من الطفل تجاه آداب الطعام المتقدمة في الحديث الشريف، ولكن ذلك لا يحصل بدون جهد ولا يكون إلا ثمرة تدريب وتعليم وقوة مستمرة طيلة الفترة المتقدمة على عمر السنتين. وإذا كان لفظ "الغلام" يصلح للامتداد الزمني المحدد بما قبل البلوغ فلقد علمنا الآن المعالم العامة التي تحدد أي جزء من هذه الفترة يشكل السن المناسب للبدء بترسيخ هذه الآداب بحيث يكون الأمر في هذه السن أمر تعليم وتوجيه ويكون في السنوات اللاحقة من العمر أمر تذكير وتقويم.

وهكذا نكون قد عرضنا نموذجاً مفصلاً للتوافق ما بين العلم الشرعي والعلم الطبي ونكون قد تعرفنا على مدى التناغم الحقيقي ما بين تعاليم الإسلام والخلق الإنساني وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ١٥٠

(٤) اللعب :

يجب التنبيه إلى أن تطور المهارات الحركية الدقيقة عند الطفل يوافقه ميل الطفل إلى الاستكشاف والاستطلاع وإلى التعرف المستمر على محيطه. وإن هذا التفاعل المستمر مع المحيط يعزز بدوره التطور الحركي للطفل، بمعنى أن تطور الطفل الحركي يعتمد على تفعيل بيئي محيطي مستمر. وحين نتحدث عن اللعب في مجال التربية لا نقصد مجرد اللهو والعبث وإنما نتحدث عن اللعب من حيث هو وسيلة لتفعيل الطفل وتنمية قدراته الحركية والاستعرافية واللغوية أيضاً. ومخطئ من يظن أننا حين نصر على جدية مناهج وغايات التربية نقحم الطفل في عالم من الجدية الصارمة ونمنعه من أن يعيش حياته كطفل، أقول : مخطئ من يظن ذلك.

وسوف نتناول اللعب - إن شاء الله - في باب الوسائل التربوية، وإنما يعني في هذا المقام أن أعرج على بعض الأمور المتعلقة بالتطور الحركي الدقيق عند الطفل.

وأول ما أود التأكيد عليه هنا هو أن التطور الحركي الدقيق عند الطفل يعتمد عموماً على التحفيز والتفعيل المستمر للطفل إذ أن هذا التفعيل مهم جداً لأجل التطور السليم في هذا المجال (كما أنه مهم في مجال التطور اللغوي الاستعرافي)، وإن علاقة هذا الأمر باللعب هو ضرورة ملاحظة ما يقدم للطفل في كل سن بحيث يكون مناسباً لتطور الطفل من جهة ومفعلاً لمزيد من التطور واكتساب المزيد من المهارات من جهة أخرى. ألا تلاحظ معي أن كثيراً من معالم التطور الحركي الدقيق التي أشرنا إليها تعتمد على تقديم جسم أو جرم ما للطفل؟! فعندما نقول أن الطفل يتمكن من الإمساك بـ "الخشخيشة" في الشهر الرابع من العمر تقريباً، ألا يعني ذلك أن أحداً قد قام بتقديم هذه الخشخيشة للطفل ليمسك بها؟ وهكذا قس كل معلم حركي من إمساك كوب أو قلم أو بناء برج من المكعبات، إن هذا كله يشير إشارة واضحة إلى ضرورة القيام بهذا التفعيل والتحفيز، وانظر معي إلى أمرٍ دقيق: ألا ترى معي أننا إذا حذفنا من جدول معالم التطور الحركي الدقيق كل معلم يعتمد على تقديم مادةٍ ما للطفل ألا ترى معي أن هذا الجدول يصير شبه فارغ تقريباً!

أريد أن أؤكد على أننا حين نتكلم عن تربية طفل وتنشئة جيل نريد له حمل راية الإسلام فإننا لا نتحدث فقط عن ضوابط شرعية ومناهج شرعية للتعليم والسلوك، وإنما نتحدث أيضاً عن إعداد طفل سليم الجسم والروح إعداداً يوصله إلى مرحلة يتحقق فيها مناط التكليف الشرعي، وإن هذا لا يمكن أن يتم مع إهمال الطفل وتسليمه إلى محيطه الخارجي دون شديد عناية ورعاية وتوجيه. وإذا كان اللعب خصيصة من خصائص حياة الطفل كطفل، فلا بد من أن يكون لهذه الخصيصة دورٌ في تطور الطفل الروحي الحركي، ولذا تحتم علينا التعرف على الخصائص المرحلية لعمر الطفل لنتمكن من إثراء هذه التجربة من جهة والتخفيف من سلبياتها المحتملة من جهةٍ أخرى. ففي مجال التطور الحركي الدقيق نلاحظ الأمور التالية على سبيل المثال:

١- ضرورة الحرص على تأسيس سليم للتوافق البصري - الحركي : يقوم الطفل الوليد في الشهور الأولى من العمر بمجموعة من الأفعال التلقائية الانعكاسية تعرف بـ " المنعكسات " وتخدم هذه المنعكسات بعض الوظائف الحياتية الأساسية للطفل كمنعكس " الجذر " الذي يسمح للوليد بالالتفات نحو ثدي أمه عند ملازمة خده له وذلك بسبب ضرورة الطعام . وإن تطور الطفل الروحي الحركي يستلزم الانتقال المرحلي من هذه الأفعال الانعكاسية التلقائية التي لا تعبر ضرورة عن " نضج " فكري أو تطور دماغي إلى نوع من الأفعال الإرادية المقصودة المعبرة عن تطور دماغي ونضج فكري وكسب لمهارات حركية ولغوية وغيرها . وإن هذا الانتقال كما أنه يعتمد على وجود جهاز عصبي سليم التركيب والتخلق ، فإنه بحاجة أيضاً إلى ذلك التفعيل البيئي المتكرر من محيط الطفل المباشر - وهو الأم - في السنوات الأولى من العمر . ومن أهم مجالات التطور هذه التطور في التوافق البصري - الحركي بمعنى تلقي الطفل للمعلومة البصرية وتحليلها في دماغه ثم إصدار الأوامر من الدماغ للتعامل مع هذه المعلومة فيصدر الأمر إلى الأعضاء الحركية لالتقاط هذا الجسم المشاهد ، وإن مثل هذا التطور يحتاج متابعة من الأم لتتأكد من سلامة التلقي الحسي البصري (بحيث تراجع الطبيب فوراً عند وجود أي شك لديها في أن طفلها لا يرى بشكل جيد لتتم معالجة ما له علاج معروف من أسباب ذلك) كما يحتاج إلى تفعيل مستمر للطفل من خلال تقديم ما يناسبه من ألعاب وأشكال تنمي ملكة التوافق البصري الحركي لديه . إذاً لا بد في هذه السن المبكرة من الحرص على تقديم ما هو مفيد ومحفز من الألعاب والمجسمات حتى يطور الطفل ملكة التعامل معها من جهة ويتم التنبه إلى أي تأخر في ذلك من جهة أخرى عله يفيد تداركه .

٢- الحرص على سلامة الطفل فيما يقدم له من ألعاب : فتراعي أنه في السنتين الأوليتين من العمر يميل الطفل إلى وضع كل ما يصل إلى يديه في فمه لا

لجوع ولا لعطش ولكن لمجرد الاستكشاف والاستطلاع ، ولهذا يجب أن يراعى في الألعاب المقدمة للطفل أن لا تكون صغيرة إلى الحد الذي يخشى معه الاختناق من جراء استنشاق أو ابتلاع هذه الأجسام الصغيرة مع ما يترتب على ذلك من أذية حياتية أو دماغية . وإن هذه المسؤولية مسؤولية شرعية يحاسب عليها أمام الله عز وجل من كانت عهدة التربية في ذمته ، وليس الأمر نافلةً من القول بل إن حديث النبي ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » (صحيح البخاري) يؤكد ذلك .

فليست رعاية المنزل القيام بجماذاته وإنما رعاية المنزل أرقى من ذلك بكثير ، إنه رعاية وصناعة الإنسان فيه ، ولا شك أن الأم التي تغفل - غفلة استهتار وجهل - عن طفلها فتقدم له ضاراً أو تفشل في وقايته من سوء بسبب تقصير في سبب من أسباب الوقاية الممكنة هي أم مقصرة تربوياً وشرعياً ، وأنا أقول أن الأم مسؤولة ولا أقول إن الأب غير مسؤول ، بل كلاهما مسؤول ، ولكن الخصوصية التي تتميز بها الأم في مجال التربية يجعل دورها حرجاً في هذه الأمور التربوية ، وهي إنما تستحق أمك ثم أمك ثم أمك بهذا .

٣- الحرص على تقديم الألعاب التي تنمي موهبة الابتكار والاختراع عند الطفل كلما تقدم به السن : ولعل من أفضل هذه الألعاب ما كان قائماً على مبدأ فك وتركيب وبناء وتعمير أشكال وأبنية من مكعبات أو أجسام قابلة للفك والتركيب بما يتناسب مع سن الطفل ، إذ أن ذلك يؤدي إلى تنمية الموهبة العقلية والمهارة الحركية الدقيقة للطفل ، كما أنه يغرس فكرة " البناء " في ذهن الطفل .

هذه بضعة أمور أحببت أن أشير إليها في مجال التطور الحركي الدقيق ، أمل أن تشكل ركيزةً للبداية في التعامل مع الطفل بوعي شمولي وبحس يقظ تجاه المسؤولية الشرعية والتربوية تجاه هذه الطفل .

ثالثاً : التطور اللغوي

يتعلق التطور اللغوي عند الطفل باكتساب القدرة والمهارة اللازمة للتواصل مع الغير تلقياً وإصداراً، وإن اللغة تتجاوز في مفهومها الحقيقي مجرد الكلام لتتسع وتشمل قالباً فكرياً شاملاً يؤثر بنفسه في هذه اللغة كما تؤثر اللغة فيه، كما أنها لا تقتصر على الكلام من حيث وسيلة التواصل إذ أنه يمكن التواصل أحياناً بالإشارة والإيماء ونحوه. وسوف نتناول إن شاء الله المراحل المختلفة للتطور اللغوي عند الطفل، ثم نعمل على ربط كل مرحلة بجملة من المبادئ التربوية الإسلامية المهمة كدأبنا في الأبحاث السابقة. ونحن نهدف من التعريف بهذه المراحل التطورية والعمر المتوقع لها تنبيه الأم والأب على أي مشعر أو إشارة دالة على تأخر هذا التطور حتى تتم المداخلة مبكراً من أجل علاج أي حالة مرضية عكوسة قد تسبب مثل هذه التأخر، لا سيما أن هذا التأخر يصل إلى درجة لا عكوسة إذا لم يتم تدارك الأمر مبكراً.

وفي البداية أشير إلى أن تطور اللغة يعتمد على عنصرين اثنين وهما : التفعيل والنطق. فلا بد من تفعيل الطفل وتحفيزه من جهة، ولا بد من سلامة أجهزة الاستقبال لذلك (وهي السمع والبصر)، ثم لا بد من حدوث النطق الذي هو وسيلة الاتصال مع العالم الخارجي من جهة أخرى، ولا بد من سلامة أجهزة النطق لذلك (وهي الدماغ الذي يصيغ المحتوى اللغوي واللسان الذي يترجم ذلك المحتوى إلى لغة منطوقة). هذا عرض مبسط جداً لشبكة اتصال الفرد مع محيطه الخارجي استقبالياً وبنياً.

وأستعرض فيما يلي بعض المعالم على طريق التطور اللغوي عند الطفل، كما أنني قد أثبتت جدولاً في نهاية البحث يشير لتلك المعالم. فعند الولادة يكون السمع عند الوليد فاعلاً ويكون الوليد قابلاً لتلقي المؤثرات السمعية. وهو ينصت إلى الأصوات ويلتفت نحوها بحلول ٢-٤ أسابيع من العمر، ثم لا يلبث أن يهدل

بصوته ويعبر عن حاجاته بتغير نغمة بكائه عند الشهرين من العمر ، ويصبح هديله بعدئذٍ رداً على الغير وتفاعلاً معه عند عمر ٤ شهور ، كما يأخذ بالثرثرة ويلبي ذلك قهقهة الطفل بالضحك عالياً عند الشهر الخامس إلى السادس من العمر ، ويأشرف غيره باللعب والزقزقة ويدير رأسه للأصوات المألوفة ، وإذ به في الشهر التاسع من العمر يستجيب لنداء اسمه ويفهم مدلول النهي بـ " لا " ، ويثرثر بمقاطع متعددة ويقلد الأصوات . وبحلول العام الأول من العمر يستطيع لعب لعبة الاستخفاء ويحب تأمل الرسوم والأشكال في كتاب أو نحوه ، ويستجيب لبعض التعليمات البسيطة مثل مه أو كخ كخ ، ويقلد بعض الكلمات ، حتى إذا بلغ الشهر الخامس عشر من العمر تراوح عدد الكلمات التي يرددها ما بين ٥ - ١٥ كلمة وقد يخلق بعض الكلمات ويستخدمها لمدلول خاص عنده ، ويستطيع أن يشير إلى ١ أو ٢ من أعضاء جسمه ، وعندما يبلغ الشهر الثامن عشر من العمر نجده يستطيع الإشارة إلى أجزاء جسمه والربط بين كلمتين ، ويزيد رصيده اللغوي عن الخمسين كلمة ببلوغ السنة الثانية من العمر تقريباً ، ويردد عدة عبارات مؤلفة من كلمات مزدوجة ويبدى اهتماماً بالسماع إلى القصص القصيرة وقد يبدأ باستعمال الضمائر . وفي السنة الثالثة من العمر يكون معظم كلامه مفهوماً للغير وتجده يتحدث بعبارات قصيرة ويستعمل صيغ الجمع والأزمنة ويبدأ فضوله يتظاهر بالسؤال المتكرر بصيغة لماذا؟ وماذا؟ ثم في السنة الرابعة يسأل عن لماذا؟ وأين؟ ويستعمل ستة كلمات على الأقل في عباراته ويكون كلامه مفهوماً للغير إجمالاً ، فإذا بلغ الخامسة من العمر استطاع أن يحكي قصة قصيرة بعبارات تامة ، ويستخدم الأزمنة المناسبة والضمائر ويعد من واحد إلى عشرة ويسمي ٤ ألوان ، كما تستبين سلامة مخارج النطق والحروف لديه ، ويلبي ذلك دخول المدرسة أو الحضانة لتزداد المهارة اللغوية وترقى وفق المنهاج الدراسي المناسب وترسخ لديه ملكة القراءة والفهم والكتابة بحسب العمر .

هذه بعض الملامح العامة للتطور اللغوي عند الطفل ، والعملية في الواقع أشد تعقيداً مما ذكرت ، والنكتة في الأمر كما بينا سابقاً هي أهمية التحفيز والتفعيل

المستمر ، وهذا وإن كان مطلوباً لكل محور من محاور التطور الروحي الحركي إلا أنه أشد حرجاً في عنصر اللغة ومجالها ، إذ أن الطفل المعزول عن بيئة محفزة ومهيئة لإسماعه اللغة المنطوقة يتأخر تطوره اللغوي تطوراً بيناً قد يصل إلى العدم؛ فالتطور اللغوي محورٌ تطوري لا يمكن اكتسابه دون تعليم وسماع وتلقي ، ولهذا الأمر شاهدٌ من القرآن الكريم يقول تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة ٣١ - ٣٢) ، سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (البقرة ٣١ - ٣٢) ، فالكلام والنطق الذي اختص به الإنسان هو النتيجة المباشرة لتعليم الله عز وجل إياه حتى إن الملائكة أعلنت عجزها عن هذه المهارة إلا بتعليم الله عز وجل إياها لهم ، وإن المشاهدات الطبية تؤكد لنا ذلك أيضاً ؛ فالأطفال المهملين المحرومين من التفعيل الاجتماعي - الروحي يفتقرون إلى التطور الروحي الحركي السليم لا سيما في مجال اللغة ، فليتنبه لذلك .

ولا بد لنا كأهيات وآباء من أن ندرك عظم المهمة الملقة على عاتقنا في هذا المجال ، ولا يجوز أن نحرم الطفل من حقه في العناية والتعهد بحجة أنه " صغير لا يفهم " ، إذ أن مجرد قصور إدراكنا وفهمنا عن استيعاب حقيقة وعي الطفل وإدراكه وفهمه لا يُجَوِّزُ لنا حجب الطفل عن حقه من هذه العناية والتعهد ، ومن الواضح أن كثيراً من الناس قد ترسخ في أذهانهم أن الطفل والوليد والرضيع " لا يفهم " وهذا ليس صحيحاً بالضرورة؛ هو لا يفهم كما نفهم نحن ربما ، ولكن ذلك لا يعني أنه لا يفهم أو يتأثر على نحو ما بما يقع على سمعه وبصره ومداركه ، والمهم ألا نقع في هذه المغالطة التي ترسخت في أذهان الكثير من الناس حتى أصبحت بحكم البدهي ، وتأمل معي قول الله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ (مريم ٢٩) قلت : لا شك أن كلام المسيح عيسى بن مريم في المهد كان معجزةً خارقةً على خلاف العادة ، ولكن الشاهد في الآية هو الرد العفوي على لسان القوم حين أشارت مريم إلى وليدها ليكلموه فكان استنكارهم مباشرة

بالسؤال الاستكاري : " كيف نكلم من كان في المهد صبيّاً ؟ " دليلاً على رسوخ هذه الفكرة في عقولهم ونفوسهم وهي أن الطفل لا يفهم ولذلك هو لا يرد على كلامنا بكلام، وأنا أقول : نحن لا نعلم كيف يفهم الطفل وكيف يحلل ما يصل إلى مداركه من قول وكلام، ونحن نعلم أنه يسمع ما نقول ونعلم أنه لا يستطيع أن يرد علينا بكلام منطوق مفهوم، ولكننا لا نعلم بعد كيفية تعامل عقله مع هذه المدركات الحسية، ولذلك أقول أن لا يجوز أن نهمل الطفل لمجرد جهلنا بكيفية تلقيه للمدركات، وأقل ما نعلمه عن الطفل هو أن تطوره العقلي عامةً واللغوي خاصةً يعتمد على تفعيل مداركه السمعية فوجب تعهد ذلك بالطيب من القول والنافع من الكلام والسليم من اللغة، ولقد أشرنا إلى أمور مهمة مما يتعلق باللغة في باب اللغة العربية تحت عنوان حجب اللغة فليرجع إليه.

وأريد أن أشير فيما يلي إلى بعض الملامح التربوية العامة في مجال التطور اللغوي التي يعنى بها الإسلام بوجه خاص لنحاول الربط بينها وبين ما تقدم من معالم التطور اللغوي عند الطفل، وأريد أن أتناول هذه الملامح كما يلي :

- ١ - صفة بيئة التربية .

- ٢ - صفة السلوك التربوي في مجال اللغة .

- ٣ - نماذج يجب اجتنابها .

أولاً : صفة بيئة التربية :

إن الطفل منذ ولادته عبارة عن آلة تسجيل تعمل ليلاً نهاراً لا يغيب عنها مسموع ولا يضل عنه منطوق. وأريد أن أؤكد على كل أم وأب ضرورة العناية بسلامة البيئة المحيطة بالطفل كمّاً وكيفاً؛ أما كمّاً فبحيث لا يكون هناك نقص وقصور في تفعيل التطور اللغوي عند الطفل، وأما كيفاً فبحيث يكون محتوى هذا التفعيل صالحاً نافعاً موافقاً لهدي الله عز وجل وتوجيهات نبيه ﷺ. وتأمل معي أخي الكريم أختي الغالية قول الله عز وجل : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ

فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾
 (التوبة ٦) ، يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: "يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه
 عليه (وإن أحد من المشركين) الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم
 وأموالهم (استجارك) أي استأمنك ، فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله أي القرآن
 تقرأه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله (ثم أبلغه مأمنه) أي
 وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه (ذلك بأنهم قوم لا
 يعلمون) أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في
 عباده" (١). قلت: إذا كان هذا شأن المؤمن والمسلم مع المشرك الكافر الذي أباح الله
 دمه وأمره الله تعالى أن يتعهده بإسماعه الكلام الحسن - كلام الله عز وجل - أفلا
 يكون من باب أولى أيها المسلم أن يكون ذلك الإسماع لطفلك وولدك وأهلك في
 بيتك الذين أوجب الله لهم الحماية والتقوى من النار في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (التحريم ٦)

أفلا يكون من باب أولى أن تسمعهم كلام الله في بيتك وتسمعهم القرآن وتسمعهم
 أمر الدين لتبلغ دعوة الله إليهم لا سيما أن علة ذلك البلاغ - وهي الجهل أو عدم
 العلم - متحققة عند الطفل كما تقدم. والحاصل أنه لا يكون حالنا مع أطفالنا أقل
 من حالنا مع المشركين ، ولا تكن عنايتنا بأن يطرق ذكر الله مسامع أطفالنا أقل من
 عنايتنا بأن يطرق ذكر الله مسامع المشركين ، فتأمل هذا فإنه دقيق جداً .

ومعنى هذا الكلام ومؤداه أمر من اثنين : فإما أن تتحول بيوتنا ومجتمعاتنا
 ومدارسنا إلى مصابيح هدى ومنابع نور يصدر عنها ذكر الله آناء الليل والنهار
 فنستطيع أن نعتمد حينها على التربية "المنفعلة" المعتمدة على التأثير العفوي
 بالمحيط ، وإما أن نتعهد الطفل بسويغات كل يوم نسمعه كلام الله عز وجل ونعلمه
 أمر الدين إذا ما فشل المجتمع في تحقيق بيئة تربوية مناسبة يعتمد عليها فتتحول

(١) تفسير القرآن العظيم - الحافظ ابن كثير .

من التربية المنفعلة إلى التربية الفاعلة. وأياً ما كان الأمر فإننا نصر على أن ينال الطفل حظه من ذكر الله ثم لتكن الطريقة ما كانت.

بعد هذا نستعرض آيتين أخيرين من سورة إبراهيم حيث يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (إبراهيم ٢٤) ثم قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم ٢٦) ؛ فهذه الكلمة الطيبة إن هي إلا قوله " لا إله إلا الله " ، والكلمة الخبيثة إن هي إلا كلمة الكفر ، ولا بد لنا من أن نتأمل وصف الأصل الثابت في الكلمة الطيبة والأصل المعلوم في الكلمة الخبيثة ونحاول أن نربط رسوخ لفظ الشهادة ومعناه في قلب المؤمن بالتبكير في تعهد قلبه منذ الصغر ، وأنا لا أحصر المعنى في هذا وإنما أريد أن نحدد دور التربية في تحقيق ذلك الرسوخ للكلمة الطيبة ، وأن نرى أهمية دور التربية في الوصول إلى إحدى الحالتين : الكلمة الطيبة المتأصلة في النفس أو الكلمة الخبيثة العارضة الغاشية على النفس . ولا يخفى على عاقل أنه - بإذن الله وفضله - كلما بكرت في التعهد بالتربية الإيمانية قولاً وعملاً كلما رسخ ذلك في قلب الطفل فالشاب فالكهل ، وكلما أصبح لكلمة لا إله إلا الله أصل ثابت في نفس الطفل كالشجرة الطيبة الضاربة في أعماق الأرض والشامخة بفرعها في أعلى السماء ، فتأمل هذا ثم تفكر في دورك أيها المربي في إنشاء وتربية ولدك وابنتك على نحو ما تقدم .

ثانياً : صفة السلوك التربوي اللغوي :

لا يخفى أن للكلام اعتبارات كثيرة من حيث المعنى المنطوق وصيغة النطق وطبقة الصوت ولهجته ونغمته وغير ذلك من صفات الكلام ، ولقد عني الإسلام بهذه الحثيات أشد العناية وقد تناولنا في المطلب السابق العناية بالمعنى ، وأريد هاهنا أن أشير إلى الأدب القرآني في الكلام من حيث المبني ، ونسأمل ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْظُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (لقمان ١٩) . إنها حثيات دقيقة قد يتغاضى المرء عنها ولا يقيم لها

بالأ، ولكن الإسلام قد جاء ليضع بصمته على كل جزئية وحيثية من حياة الفرد المسلم ليصبغه بصبغة الإسلام، وإن صبغة الإسلام في هذا الموضع هي التوسط وغيض الصوت وحفظ اللسان والترفع عن النكارة في الكلام والصوت من خلال ذلك التحذير الشديد: "إن أنكر الأصوات لصوت الحمير"؛ بل إن الله عز وجل قد أمر بغض الصوت أثناء العبادة: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَوَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء ١١٠). فهذه أمور لا بد من تنشئة الطفل عليها لأنه يصعب تغييرها عندما تترسخ لديه بشكل منحرف. ولعلك تتساءل إذاً: متى نبدأ بتعهد الطفل بهذه الآداب والضوابط؟ قلت: منذ ولادته! لقد بينا فيما سبق سنة رسول الله ﷺ في التأذين في أذن المولود والأذان عبادة وقد قدمت لك الآية الكريمة التي تأمر بعدم المجاهرة ورفع الصوت بالعبادة، فلنعلم أن التزام هذا الأمر ينطبق على سنة التأذين في أذن المولود، وبهذا تبدأ بالالتزام بهذا الضابط منذ الولادة، ثم أنت تلتزم الضوابط الأخرى من حيث معنى الكلام ومبناه لأنك قد علمت أن الطفل "يسجل" كل ما يسمعه في ذاكرته وعقله إلى حين سن النطق والكلام، ولقد قدمنا الحديث عن حرص الإسلام على نقاء ما يقدم لمسامع الطفل ومداركه وضرورة موافقة ذلك كله لمنهج "الكلمة الطيبة". وبهذا ترى معي أن المسألة لا معنى فيها للسؤال عن "متى"؟ وإنما السؤال هو عن "كيف"؟ كيف نؤمن للطفل هذه البيئة التربوية الموافقة لهذه الضوابط؟ والجواب هو التزام السلوك الإسلامي في نفسك لتكون قدوة ومنبعاً لتعليم السلوك الحسن في الكلام واللغة على النحو الذي أشرنا إليه. ويمكن مراجعة مزيد تفصيل في هذه الأمور في التطبيق التربوي على سورة لقمان فليرجع إليه في هذه الكتاب.

هذه صفة السلوك اللغوي من حيث المبنى، أما من حيث المعنى فلقد تقدم الرسم العام لمنهج التربية فيه وهو التزام مسار "الكلمة الطيبة" ويندرج تحت هذه المسار جزئيات كثيرة جداً كالالتزام الصدق واجتناب الكذب والكف عن الكلام فيما لا يجدي وعدم التناجي إلا بالبر والتقوى واجتناب الغيبة والنميمة واجتناب اللعن

من التربية المنفعلة إلى التربية الفاعلة. وأياً ما كان الأمر فإننا نصر على أن ينال الطفل حظه من ذكر الله ثم لتكن الطريقة ما كانت.

بعد هذا نستعرض آيتين أخريين من سورة إبراهيم حيث يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (إبراهيم ٢٤) ثم قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم ٢٦) ؛ فهذه الكلمة الطيبة إن هي إلا قوله " لا إله إلا الله " ، والكلمة الخبيثة إن هي إلا كلمة الكفر ، ولا بد لنا من أن نتأمل وصف الأصل الثابت في الكلمة الطيبة والأصل المعلوم في الكلمة الخبيثة ونحاول أن نربط رسوخ لفظ الشهادة ومعناه في قلب المؤمن بالتبكير في تعهد قلبه منذ الصغر ، وأنا لا أحصر المعنى في هذا وإنما أريد أن نحدد دور التربية في تحقيق ذلك الرسوخ للكلمة الطيبة ، وأن نرى أهمية دور التربية في الوصول إلى إحدى الحالتين : الكلمة الطيبة المتأصلة في النفس أو الكلمة الخبيثة العارضة الغاشية على النفس . ولا يخفى على عاقل أنه - بإذن الله وفضله - كلما بكرت في التعهد بالتربية الإيمانية قولاً وعملاً كلما رسخ ذلك في قلب الطفل فالشباب فالكهل ، وكلما أصبح لكلمة لا إله إلا الله أصل ثابت في نفس الطفل كالشجرة الطيبة الضاربة في أعماق الأرض والشامخة بفرعها في أعلى السماء ، فتأمل هذا ثم تفكر في دورك أيها المربي في إنشاء وتربية ولدك وابنتك على نحو ما تقدم.

ثانياً : صفة السلوك التربوي اللغوي :

لا يخفى أن للكلام اعتبارات كثيرة من حيث المعنى المنطوق وصيغة النطق وطبقة الصوت ولهجته ونغمته وغير ذلك من صفات الكلام ، ولقد عني الإسلام بهذه الحثيات أشد العناية وقد تناولنا في المطلب السابق العناية بالمعنى ، وأريد هاهنا أن أشير إلى الأدب القرآني في الكلام من حيث المبنى ، ونتأمل ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (القمان ١٩) . إنها حثيات دقيقة قد يتغاضى المرء عنها ولا يقيم لها

بالأ، ولكن الإسلام قد جاء ليضع بصمته على كل جزئية وحشية من حياة الفرد المسلم ليصبغه بصبغة الإسلام، وإن صبغة الإسلام في هذا الموضع هي التوسط وغيض الصوت وحفظ اللسان والترفع عن النكارة في الكلام والصوت من خلال ذلك التحذير الشديد: "إن أنكر الأصوات لصوت الحمير"؛ بل إن الله عز وجل قد أمر بغض الصوت أثناء العبادة: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَوَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء ١١٠). فهذه أمور لا بد من تنشئة الطفل عليها لأنه يصعب تغييرها عندما تترسخ لديه بشكل منحرف. ولعلك تتساءل إذاً: متى نبدأ بتعهد الطفل بهذه الآداب والضوابط؟ قلت: منذ ولادته! لقد بينا فيما سبق سنة رسول الله ﷺ في التأذين في أذن المولود والأذان عبادة وقد قدمت لك الآية الكريمة التي تأمر بعدم المجاهرة ورفع الصوت بالعبادة، فلنعلم أن التزام هذا الأمر ينطبق على سنة التأذين في أذن المولود، وبهذا تبدأ بالالتزام بهذا الضابط منذ الولادة، ثم أنت تلتزم الضوابط الأخرى من حيث معنى الكلام ومبناه لأنك قد علمت أن الطفل "يسجل" كل ما يسمعه في ذاكرته وعقله إلى حين سن النطق والكلام، ولقد قدمنا الحديث عن حرص الإسلام على نقاء ما يقدم لمسامع الطفل ومداركه وضرورة موافقة ذلك كله لمنهج "الكلمة الطيبة". وبهذا ترى معي أن المسألة لا معنى فيها للسؤال عن "متى"؟ وإنما السؤال هو عن "كيف"؟ كيف نؤمن للطفل هذه البيئة التربوية الموافقة لهذه الضوابط؟ والجواب هو التزام السلوك الإسلامي في نفسك لتكون قدوة ومنبعاً لتعليم السلوك الحسن في الكلام واللغة على النحو الذي أشرنا إليه. ويمكن مراجعة مزيد تفصيل في هذه الأمور في التطبيق التربوي على سورة لقمان فليرجع إليه في هذه الكتاب.

هذه صفة السلوك اللغوي من حيث المبنى، أما من حيث المعنى فلقد تقدم الرسم العام لمنهج التربية فيه وهو التزام مسار "الكلمة الطيبة" ويندرج تحت هذه المسار جزئيات كثيرة جداً كالالتزام الصدق واجتناب الكذب والكف عن الكلام فيما لا يجدي وعدم التاجي إلا بالبر والتقوى واجتناب الغيبة والنميمة واجتناب اللعن

وسيرة نبيه ﷺ لتقف على الكثير الكثير من التعاليم الإسلامية المتناولة لهذا الشق من السلوك الإنساني فالمقام ها هنا يضيق عن استيعاب ذلك كله .

بقيت الإشارة إلى أمر مهم من الناحية الطبية ذي علاقة بتطور اللغة عند الطفل وهو ضرورة مراقبة المعالم التطورية لاكتساب اللغة عند الطفل من أجل التنبيه إلى أي مشعر يشير إلى تأخر تطور اللغة لدى الطفل وإحالة الأمر مباشرة إلى طبيب الأطفال أو الأسرة ليقف على السبب المفضي لذلك التأخر إن وجد ، إذ أن كثيراً من هذه الأسباب قابلٌ للعلاج أو المساعدة مما يعين على تدارك تطور اللغة السليم عند الطفل ، ولا بد من الحذر من تأخر التشخيص في هذه الحالات لأن التأخر اللغوي قد يتأثر بصورة غير عكوسة يصعب تداركها بازدياد التأخير في المداخلة والعلاج .

وأريد أن أؤكد على الأهل عدم التهاون في المسألة ، ولئن أبدى الأهل فرط اهتمام مع سلامة الطفل خير لهم من أن يبدو إهمالاً مع عجز الطفل وحاجته للعلاج . وإن من أكثر الأسباب شيوعاً لتأخر النطق عند الأطفال نقص السمع لأسباب عديدة ، وهذه مشكلة يمكن تشخيصها بسهولة والمداخلة العلاجية ممكنة لكثير من هذه الأسباب . كما أن بعض الأسباب الأخرى لتدهور أو تأخر النطق قد يكون تشوهاً خلقياً في الفم كانشقاق الحنك أو الشفة مما يؤثر على السمع والنطق السليمين ، وهذه آفات قابلة للعلاج الجراحي عموماً إلا أن لعنصر الوقت وزمن المداخلة الجراحية دوراً حرجاً في الوصول بالطفل إلى جانب السلامة والحفاظ على سلامة النطق والكلام لديه . ومن الأسباب الأخرى مثلاً الخلل في شكل الفك أو الأسنان مما يؤثر في سلامة النطق ومخارج الحروف وهذه قد تخضع للعلاج أيضاً ، وتوجد أسباب أخرى لا مجال للخوض فيها لأنها تدخل في مجال العلوم الاختصاصية ، ولكن ما أردت تنبيه الأهل عليه هو المتابعة مع الطبيب عند أدنى شك في وجود آفة سمعية تؤثر على التطور اللغوي السليم للطفل ، والأمر بعد البلاغ والبيان أمانة في عنق الأبوين أمام الله عز وجل .

وبهذا أكون قد أتيت على المحور الثالث من مراحل التطور الروحي الحركي ، وسوف نتقل بدراستنا في المطلب التالي إلى محور التطور الاستعرافي إن شاء الله .

التطور الاستعرافي عند الطفل

الوظيفة الإستعرافية عبارة عن مجموعة من الوظائف العقلية والقدرات التفكيرية التي تمكن الإنسان من تحليل المحسوسات والتعامل معها وإصدار رد الفعل المناسب لها أو الموقف المناسب منها. ولا يمكن أن ننظر إلى الوظيفة الاستعرافية للإنسان دون أن ندرك ونعترف بمحدودية علمنا بالكنه الحقيقي لكثير مما يتعلق بهذه الوظيفة كالعقل والتفكير والذاكرة والعاطفة وغير ذلك مما لا حصر له مما يتعلق بهذه الوظائف. وعند النظر في وسائل الاستقبال التي زود الله تعالى بها الإنسان نجدها تتركز في ثلاثة عناصر هي السمع والبصر والفؤاد (راجع مبحث أدوات التلقي) إضافة إلى وسائل استقبال أخرى ذات صبغة حسية بحتة تقريباً كالشم والتذوق والألم وغير ذلك. ورغم جهلنا بكثير من عناصر الوظيفة الإستعرافية إلا أننا نستطيع أن نستقري معالم هذه الوظيفة عبر مراحل نمو الطفل ونستطيع أن نلمس بوضوح الاهتمام الشديد للقرآن الكريم والسنة المطهرة بتهديب هذه الوظيفة وتسخيرها في خدمة الإنسان باعتبار أنها مناط التكليف. فالعقل الذي هو ضد الجنون، والإدراك الذي هو ضد العمه أمران يتعلق بهما التكليف الشرعي ابتداءً كما في الحديث: «رفع القلم عن ثلاث الصبي حتى يحتلم والنائم حتى يفيق والمجنون حتى يعقل»؛ فإذا كان الأمر كذلك وكان العقل - بغض النظر عن كنهه وماهيته - هو مناط التكليف كان لزاماً علينا أن نقف على المظاهر والمعالم الرئيسية الدالة على سلامة تطور هذه الوظيفة الإستعرافية عند الطفل ثم العمل على ربط مراحل التطور هذه بما يناسبها من توجيهات وصياغات منهجية شرعية كما مر معنا في الأبحاث السابقة. وسوف أسلك نفس طريقة المباحث السابقة من موضوع التطور الروحي الحركي دون أن أفيض في أدوات الوظيفة الإستعرافية لأننا قد تناولناها في مبحث مستقل بعنوان "أدوات التلقي"، وإنما أؤكد هنا على استعراض المعالم التطورية الإستعرافية مع ذكر ما يناسب ذلك من توجيهات وتطبيقات تربوية شرعية إن شاء الله.

ففي فترة الوليد وما بين ٢-٤ أسابيع من العمر يبدأ الوليد بتثبيت نظره على المدركات البصرية، كما يبدأ بالتنبه والالتفات تجاه المدركات السمعية، وهذه أمانة من الأمانة الأولى الدالة على التعامل الحسي - الاستعرافي مع المحيط الخارجي. ثم يأخذ هذا الإدراك بالترقي فإذا بالرضيع يأخذ بالتبسم استجابةً لإثارة الأم أو الأب له وذلك بحلول الشهر الثاني من العمر، ويبدأ التعلق بالأم وترسخ مع ذلك قدرة الرضيع على تمييز أمه من غيرها حتى إذا وصل الشهر الرابع من العمر تأكد لدى الرضيع تمييز الأشخاص بين أم وغيرها كما يبدأ بالضحك والتفاعل مع من يشيره ويضحكه ويلعبه. فإذا بلغ الشهر السادس من العمر أخذ الطفل يبادر غيره بالضحك والابتسامة وإصدار الأصوات الملفتة للانتباه، ويبدأ بإظهار علامات والفرح أو الحزن وعدم الرضا تجاه ما يسره أو يحزنه. فإذا بلغ الشهر التاسع أخذ يستمتع بملاعبة أخوته أو أمه أو أبيه لا سيما الألعاب المعتمدة على الإثارة والتشويق (كلعبة الاستخفاء) كما يبدي الطفل تحرجه وانزعاجه من الأجنبي (أي الغريب)، وعندما يبلغ الطفل السنة من العمر يأخذ باللعب ببعض الأدوات والوسائل ذات الاستعمال الخاص كالمشط والهاتف وقد يأخذ بتقليد استعمالها أحياناً. وبحلول الشهر الخامس عشر من العمر يبلغ التطور الاستعرافي درجةً تمكن الطفل من تقليد بعض سلوك الكبار كاصطناع التحدث على الهاتف أو الإمساك بالمشط محاولاً ترجيل شعره وغير ذلك مما يدل على وعي الطفل تجاه هذه الوسائل وما تؤديها من وظائف وغايات ولو كان ذلك عبر مجرد الربط بين الشيء ومشاهدة استعمال الأكبر سناً له، وهذا يدل على دقة ملاحظة الطفل في سنٍّ لعلها أبكر من سن القيام بالتقليد الصحيح للفعل وهذا يشير إلى أن الطفل يفهم ويدرك بدرجة أكبر من الظن السائد بأنه "لا يفهم" ولا "يدرك".

أما حين يبلغ الطفل الشهر الثامن عشر من العمر فإن الأمر يتطور بحيث يدرك الطفل أماكن تواجد ما أخفي عنه من ألعاب وأدوات، كما يشارك في اللعب المعتمد على التصور والتمثيل (كالتحدث عبر لعبة بشكل هاتف...) كما يحب

اللعب مع غيره من الأطفال، وبحلول السنتين من العمر تترسخ لديه المهارات السابقة إضافةً إلى تمكن الطفل من ابتكار وسائل للوصول إلى غاياته التي قد تعترضها بعض الصعوبات (فيحضر الكرسي مثلاً ليتسلقه ويصل إلى الطاولة أو المكان المرتفع . .) فهذه سنٌ تظهر فيها بوادر الابتكار العملي، كما يبلغ به النضج الاجتماعي مبلغاً يدفعه إلى تقليد الكبار، وعند السنة الثالثة يضاف إلى ما سبق معرفة الطفل لاسمه وعمره وجنسه، ويبلغ درجة أكبر من التفاعل الاجتماعي فيجلس وينصت للقصة القصيرة ويستمتع باللعب المتبادل والتفاعل مع الغير. وعند السنة الرابعة من العمر يزداد الطفل قدرةً على التفاعل مع الغير ويطلق العنان لخياله وتصوراتهِ، كما يستطيع التعرف على أحرف الهجاء ويكون قد أتقن ضبط عادات التبول والتغوط غالباً (ويكون بدء تعويده على ذلك في فترة أبكر تختلف من طفل لآخر وتتراوح عموماً ما بين ١٨ شهراً إلى سنتين وتمتد إلى السنة الثالثة بحسب استعداد الطفل وهي كلها سنٌ مقبولة على العموم). وبحلول السنة الخامسة من العمر يكون الطفل قد بلغ من التطور الاستعرافي ما يمكنه من حسن الاستماع والإنصات ومن القيام ببعض أو معظم شؤون نفسه (كارتداء وخلع ملابسه) وينفذ التوجيهات ويتقيد بالإشارات المسداة إليه.

هكذا نكون قد عرّجنا على بعض المعالم الرئيسية للتطور الاستعرافي عند الطفل حتى سن الخامسة من العمر وهي - كما قررنا في أكثر من موضع في الكتاب - السن الذهبية للتربية، ولقد أثبتُ جدولاً في نهاية هذا البحث يشير إلى العمر والمعالم التطورية الموافقة له في هذا المجال. ونحن نجد عموماً أن هذه المعالم تصب في مجملها في بوتقة واحدة وهي تحديد وصياغة المحتوى العقلي للطفل وبدايات الإدراك والتفاعل مع المحسوسات وبدايات رد الفعل تجاه هذه المحسوسات. وسوف أحاول فيما يلي الربط بين عدد من هذه المعالم التطورية وعددٍ من الأهداف الشرعية للتربية لنقف على صورة تحقيق وصياغة هذه المعالم وفق منهج التربية الإسلامية إن شاء الله. وفيما يلي بعض النماذج التي نذكرها للمثال

لا للحصر إذ أن المقام مقام إشارة وتمثيل لا مقام حصر وتفصيل :

١ - مسؤولية الفرد عن وسائل الإدراك الحسي (السمع والبصر والفؤاد)

٢ - دور القدوة والأسوة في التربية والتعليم

٣ - تعليم سنن الفطرة وآدابها

٤ - أسلوب القصة والقراءة

٥ - الهوية الجنسية

ونستعرض هذه النماذج فيما يلي متناولين مفهومها والسنن الملائمة لاعتبارها والعناية بها عند الطفل .

(١) مسؤولية الفرد عن وسائل الإدراك الحسي :

لقد وقفنا في مبحث آخر مستقل في هذا الكتاب على تفصيل لأدوات التلقي الرئيسية كما عرضها القرآن الكريم، ولن أكرر ذلك هاهنا وإنما نأخذ نفس الآية الكريمة التي بنينا عليها ذلك المبحث لتكون نقطة انطلاقنا في هذا العرض من الوجهة الإستيعافية للطفل الناشئ، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء ٣٦)، ونريد أن نحدد هاهنا أمران؛ أولهما المرحلة التي تبدأ بها هذه المسؤولية، وثانيهما المسؤول بعينه .

فأما تحديد المرحلة التي تبدأ بها هذه المسؤولية فلا بد أن تتعلق بالمسؤول عنه وهو - كما أشارت الآية - السمع والبصر والفؤاد؛ إذاً لا بد من أن تبدأ المسؤولية من الوقت الذي تأخذ به هذه الوسائل في العمل وتلقي المدركات والمحسوسات وقد تبين معنا في مبحث أدوات التلقي أن هذا الوقت يبدأ بخروج المولود إلى الدنيا، ومعنى ذلك ابتداء المسؤولية منذ تلك اللحظة، ويبقى السؤال الآخر المهم: من المسؤول عن هذه الحواس؟!

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ؛ لقد خطر لي بتدبر هذه الآية أن المسؤولية المذكورة عن أدوات التلقي الثلاث السمع والبصر

والفؤاد لا بد أنها واقعة ضمن إطار التكليف . فإذا تأملنا في إطلاق النص في هذا الموضوع اعترضنا إشكال ظاهرٌ غير حقيقي في نفسه؛ هذا الإشكال هو إسقاط التكليف عن الصبي حتى يبلغ الحلم كما في حديث النبي ﷺ : « رُفِعَ القلم عن ثلاث عن الصبي حتى يحتلم وعن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق » ، في حين أننا نقول أن ابتداء المسؤولية تجاه أدوات التلقي هو منذ الولادة ، ويرتفع هذا الإشكال بالقول بأن هذا الحديث يقيد المسؤولية المطلقة الواردة في الآية ويحددها في فترة التكليف فقط بالنسبة لنفس الفرد صاحب الحواس . ولكن هذا الجواب يغفل أموراً مهمةً جداً بالنسبة للفرد المعني فلا يصح دون إمعان النظر والتفكير ، وأشير فيما يلي إلى هذه الأمور التي يغفلها مثل هذا التقييد والتفسير :

١- إن هذا التقييد يرفع المسؤولية عموماً عن هذه الحواس في مرحلة ما قبل البلوغ أو التكليف ، وهذا خطيرٌ جداً لأن هذه الفترة التي نلغي فيها مسؤولية أي أحد عن هذه الحواس هي الفترة الحرجة والدقيقة جداً بالنسبة إلى تشكيل وصياغة منهج التلقي والإدراك بهذه الحواس ، وهذا التشكيل إنما يتم بتأثيرات المحيط الخارجي ومن الواضح أن رفع المسؤولية عن حواس الفرد في هذه الفترة يعني أن أحداً يمكنه أن يسيء التأثير في هذه الحواس دون أي محاسبة أو مساءلة وهذا لا يتفق مع أبسط مبادئ المسؤولية في الإسلام ، فالكل راع والكل مسؤول عن رعيته ، وإنما كانت حاجة الرعية إلى الراعي لافتقارها لأمرٍ من الأمور ، وواضح أن المسؤولية عن هذه الأمور تنتقل من الرعية إلى الراعي ولا ترتفع هذه المسؤولية إلا بأحد أمرين وهما وفاء الراعي بهذه المسؤولية أو انتقال العهدة إلى الرعية عند استيفاء عناصر الأهلية أو القدرة على ذلك .

٢- إن هذا الجواب يعني أن الفرد المعني سيتحمل - مع بداية البلوغ أو سن التكليف - المسؤولية عن حواسه بعد أن اعترأها ما اعترأها من تأثير وتشكيل كما أسلفنا ، أي أن هذا الفرد لا يتسلم حواسه التي يصبح مسؤولاً عنها وهي على حالتها الأصلية من النقاء والصفاء ، وإنما يتسلمها وقد أحدث فيها غيره؛ وقد يكون

غيره قد أحدث فيها بخير وقد يكون قد أحدث فيها شر ، وواضح أن وضع المسؤولية كلها على الفرد المعني دون أن يتكلف من ساهم في تشويه هذه الحواس والإساءة إليها أمرٌ فيه ظلم ويفتقر إلى العدل الذي هو سمة التشريع الإسلامي .

٣- والأمر الثالث الذي هو نتيجة الأمرين السابقين هو انتفاء الدافع لدى الراعي أو المربي للقيام بحسن تعهد هذه الحواس عند الطفل أو الطفلة .

وبناءً على هذا فإن تقييد المسؤولية على النحو المتقدم يفوت فرصة العناية الشاملة والمثلى بهذه الحواس وحسن تعهدها والقيام بأمرها . ولهذا وبالنظر إلى مجمل ما تقدم أقول أنه لا بد من إعادة النظر في ما تعود عليه الضمائر في الآية الكريمة ؛ فإذا نظرت إلى الضمير الأول وهو الهاء في "عنه" وجدته يعود على السمع والبصر والفؤاد أو على اسم الإشارة "أولئك" (الذي يشير إلى هذه الحواس) وهذا لا إشكال فيه . وأما الضمير الثاني في الآية (وهو ضمير مستتر تقديره "هو") وهو نائب فاعل اسم المفعول "مسؤولاً" فنجدته موافقاً لصيغة اسم المفعول المفردة ، وقد يقول قائل إن هذا الضمير يعود إلى الفرد صاحب هذه الحواس - وهذا موضع الإشكال في نظري بسبب ما تقدم - قلت : لعل الإشارة بالضمير المفرد هنا لا تشير إلى الفرد من الناس بل تشير إلى جنس الإنسان عموماً أو جنس الإنسان المسلم خصوصاً ، فيكون المقصود من الضمير "هو" المستتر جنس الإنسان ككل ولا يكون المقصود زيد أو عمر أو أحمد أو فلان بعينه ، وهذا محتملٌ في اللغة ويحل كل الإشكاليات المتقدمة ؛ لأننا لو عينا الضمير المفرد بعين فلان من الناس لزمنا تقييد المسؤولية بما بعد سن التكليف ورفع المسؤولية عن هذه الحواس ما قبل هذه السن - ولقد عرضنا لإشكاليات هذا الطرح - في حين أننا لو عينا الضمير المفرد بجنس الإنسان أمكننا أن نؤول المسألة بحيث يكون الفرد المعني مسؤولاً عن حواسه بعد سن التكليف بينما يكون المربي أو الكافل لهذا المعين في طفولته مسؤولاً عن هذه الحواس قبل سن التكليف ، وبهذا يكون "الإنسان" عموماً مسؤولاً عن هذه الحواس

كما يشير ظاهر الآية، كما يكون "الإنسان" خصوصاً في موضعه التربوي أو في موضعه الشخصي مسؤولاً عن هذه الحواس بحسب دوره وموضعه منها، وهذا يرفع الإشكاليات التي أشرنا إليها ولا يتعارض مع مبادئ الشريعة والكتاب والسنة، والله أعلم.

وهكذا نستطيع أن نوجز ما تقدم فنقول إن الحواس الرئيسية وهي السمع والبصر والفؤاد تكون عاملة منذ الولادة - ولو بدرجة غير تامة - وأن المسؤولية عن هذه الحواس والمدرجات المؤثرة فيها تبدأ منذ تلك اللحظة وتقع على عاتق المربي في مرحلة ما قبل التكليف ثم تنتقل إلى الفرد نفسه بعد بلوغ سن التكليف. ولنعلم أن تأثير التربية الذي نحن بصدد دراسته إنما يقع في أكثره في المرحلة الأولى أي التي يكون فيها المربي مسؤولاً عن تعهد هذه الحواس فليتبه لذلك. وأنت تجد بمراجعة معالم التطور الاستعرافي للطفل حقيقة هذه المسألة وحقيقة أن الطفل يتفاعل مع الواقع المحيط بحسب استقباله للمحسوسات الموجودة سواء أكانت مسموعة أم مرئية أم "محسوسة"، وأنا آمل من الإفاضة في هذه المسألة أن نعيد لهذه الفترة الحرجة من التربية أهميتها الحقيقية وأن نجعلها نصب أعيننا وموضع اهتمامنا، ولا نهمل هذه الفترة ونترك الطفل عرضة لشتى المؤثرات بمعزل عن ضوابط المنهج التربوي الإسلامي.

٢) دور القدوة والأسوة الحسنة في التربية والتعليم :

الأسوة لغة هي القدوة، والقدوة هي ما تسنت به واقتديت به. وإن الدور الذي تلعبه القدوة والأسوة في مجال التربية دورٌ عظيم لا ينزع فيه أحد، لا سيما في المراحل المبكرة من تطور الطفل التي يعتمد فيها على تقليد الغير حيث إنه لا يملك رصيداً فكرياً ولا تجريبياً كافياً ليسن لنفسه السنن فيلجأ الطفل إلى التقليد والتأسي بالغير ريثما ينضج وينمو، والمهم في الأمر أن تقليد القدوة في حياة الطفل قد يترسخ في نفسه على أنه هو الصواب ولا تحدثه نفسه بمراجعة ما اكتسبه من الآباء والأجداد أو المربين على سبيل التأسي.

ونحن نجد أنفسنا أمام آيتين في القرآن الكريم هما أصلٌ عظيمٌ في هذا المجال، سواء أكان من حيث ترسيخ أسلوب الأسوة في التربية أم كان من حيث مصدر التأسي والافتداء الذين توجه إليهما الآيتان من جهةٍ أخرى. ولا بد لكل مربٍّ من أن يضع هاتين الآيتين في اعتباره حتى لا يغفل عن مقتضياتهما المهمة في باب التربية.

فأما الآية الأولى فهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ﴾ (الأحزاب ٢١)، والآية الثانية هي قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ الْآ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبْنَيْهِ لِاسْتِغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۖ﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۖ﴾ (المتحنة ٤-٦).

فإذا تدبرنا هذه الآيات بتمعن وجدنا أن الآية من سورة الأحزاب قد وردت في سياق التعليق على غزوة الأحزاب والحث على الجهاد والبذل والعطاء والثبات وهي في مجملها سلوكيات وأعمال ظاهرة، بينما تدور الآيات في سورة الممتحنة حول محورٍ مهم جداً هو محور الولاء والبراء، وهي بذلك تتناول صميم العقيدة الإسلامية. إن تدبّر وملاحظة هذه المواضع التي وردت في سياقها الأمر بالتأسي بالرسول ﷺ وبإبراهيم عليه السلام تسمح لنا بإدراك الأبعاد الحقيقية المرادة من عملية التربية والتي تتناول - كما يتضح من الآيات - كلاً من البعد السلوكي العملي والبعد الاعتقادي العلمي. ونحن نجد اتفاقاً عاماً على أن السلوك الحسن عند الطفل لا بد له من قدوة حسنة في المربي، وهذا أمرٌ جيد ويتناسب مع البعد السلوكي

العملي للتربية بالقُدوة، ولكننا نجد غفلةً عند الآباء والأمهات عن تحقيق الأسوة الحسنة في مجال العقيدة - لا سيما مسألة الولاء والبراء - وكثيراً ما يُعوّل على "الفطرة" والمحيط الاجتماعي العام لتعهد هذا البعد، في حين يوجهنا الله عز وجل إلى إيجاد أسوة حسنة للتربية في هذا المجال وبصورة واقعية فاعلة، أي إننا لا يمكن أن نقبل بإهمال هذا البعد التربوي وتركه عرضة لمؤثرات الواقع المحيط بالطفل دون إيجاد صيغة فاعلة يتأسى بها الطفل في هذا المجال، بل لا بد من تحقيق القدوة والأسوة الحسنة في مجال العقيدة والولاء والبراء ليكون ذلك مثلاً يحتذى به الطفل ويختزنه في رصيده الفكري والعقائدي والعلمي ريثما ينضج ويكبر.

وإن الأسلوب التربوي في هذا المجال ليس عملية تلقين لعلوم العقيدة فذلك مسلك آخر لا يناسب هذا المقام، وإنما الأسلوب التربوي الواجب سلوكه في مجال العقيدة هو ما تحدّد بسلوك وفعل إبراهيم عليه السلام في الآية؛ الإنكار على مظاهر الشرك وإعلان البراء من كل مظهر من مظاهر الشرك والكفر بالله، وإعلان التأييد والولاء لكل مظهر من مظاهر توحيد الله عز وجل. ولا بد من تأمل الآية جيداً حتى نقف على هذا الأسلوب فلقد كان أسلوباً مباشراً بسيطاً لم يكن فيه جدالٌ وعلم كلام ومحاضرات ومناظرات وإقناعات [وأنا لا أنكر على هذه الأساليب جملةً وإنما أشير إلى عدم مناسبتها لهذا الموضع وعدم مناسبتها لوعي الطفل وطبيعة التربية] وإنما كان في أسلوب إبراهيم عليه السلام إعلانٌ قولِي عملي مباشر باستنكار مظاهر الكفر والبراءة منها وتأييد مظاهر الإيمان والولاء لها، تأمل معي: ﴿إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾؛ فهذا استنكار علني استثنى فيه المعبود الحق الوحيد - وهو الله تعالى - وأعلن البراءة من هذه المعبودات الوهمية، ثم ماذا كان من مقتضيات هذا الاستنكار والبراء؟ تأمل معي: "وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده". فالقضية ليست مجرد عقيدة "نظرية" وإنما هي علمٌ وعملٌ على النحو الذي تقدم.

وهكذا نستطيع أن نلخص المسلك التربوي في مجال العقيدة في العناصر التالية :

١- التزام السلوك العملي الظاهر الموافق لمنهج الإسلام بحيث يُحقق الأسوة في المجال السلوكي العملي .

٢- الإنكار القولي والعملي على كل مظاهر الكفر والشرك المتواجدة في محيط الطفل .

٣- تأييد كل مظاهر الإيمان بالله المتواجدة في محيط الطفل وتعزيزها وتقويتها .

وحتى ترسخ هذه العناصر في أذهاننا بصورة واقعية عملية أعطيك أمثلة لما نمارسه في حياتنا مما يخالف هذا المنهج فبضدها تتميز الأشياء ؛ فالأب الذي يمنع أو ينصح أولاده بحرمة التدخين وضرره ثم يرسل ولده ليشترى له لفافات التبغ والدخان ويقوم بالتدخين أمام أولاده يخالف منهج الأسوة الحسنة في المجال السلوكي العملي . والأب الذي ينهى أولاده عن الكذب ثم يكذب على مرأى ومسمع منهم والأم التي تنهى ابنتها عن رفقة السوء ثم تخالط من لا همَّ لهنَّ إلا النيمة والغيبة والهمز واللمز ، والأم التي تخرج سافرة متبرجة متعديّة لحدود الله تخرق التزامها بالسلوك الحسن الذي يمثل القدوة الصالحة لبناتها . . . والأمثلة كثيرة في هذا المجال - أعني مجال السلوك - يتعرف عليها من يستقرئ الواقع المشهود لكل منا . أما في المجال الاعتقادي العلمي - وخاصةً باب الولاء والبراء - فإننا نكاد نجد خمولاً حقيقياً في تمثّل هذا المحور في حياتنا كأفراد ومربين ، وتأمل معي كي ترى كيف يحتفل كثير من المسلمين بمناسباتٍ لا تمت لدين الإسلام بصلة فهي ما بين البدعة الضلالة والتقليد الحرام ؛ نحن نرى كل عام احتفال المسلمين بأعياد "الميلاد" و "أعياد" الكريسماس " ورأس السنة الميلادية وعيد الحب وعيد الأم وعيد المولد النبوي وعيد الهالوين (Halloween أي عيد "جميع القديسين") وغيرها وغيرها من البدع والضلالات والكفريات . وكم رأينا من الآباء والأمهات يصطفون بأولادهم صفوفاً طويلة لالتقاط صورة لأولادهم مع " بابا نويل" Santa clause ، بل إن من المسلمين من يشتري شجرة وينصبها في بيته ويزينها ويقدم لأولاده الهدايا

بهذه المناسبة "الجميلة" والأعجب من هذا السلوك هو الحجة التي يقدمها الأهل لتبرير هذا التصرف، يقولون: وما عليه! إنهم أولاد يحبون أن يفرحوا فما المانع من ذلك؟! وآخر يقول لك: لا تُعقّد لنا الأمور إنهم أطفال ولا يفهمون هذه الأمور، إنها مجرد مناسبة للفرح!

وهذه أمثلة قليلة وغيض من فيض، والشاهد في الأمر أننا لسنا مقصرين في الإنكار على مظاهر الشرك وفي تحقيق البراءة من كل مظاهر الكفر فحسب، بل إننا نتجاوز هذا التقصير لنقوم عامدين مختارين بالتزام هذه المظاهر الشركية وبنوع من الولاية لأهل الكفر والشرك سواء أكان بمحبتهم أو تقليدهم أو اتباعهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع كما قال أبوي هو وأمي ﷺ: «حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» (صحيح البخاري).

إنك أيها الأب وأيتها الأم عندما تقول لولدك - من خلال سلوك التقليد ومن خلال عدم الإنكار على مظاهر الكفر والشرك - تقول له إن هذه المظاهر أمرٌ لا بأس به، وأن التزامها أمرٌ لا حرج فيه، وبالتالي فإنك تमित في قلبه روح الإنكار على الكفر والشرك ومظاهرها؛ إنه خرقٌ للقدوة الصالحة في مجال الاعتقاد، ومخالفة للمثل القرآني الذي ضربه الله عز وجل في مسألة الأسوة الحسنة والقدوة الحسنة في مجال العقيدة كما بيّنت الآية في حادثة إبراهيم عليه السلام مع قومه، فلا بد أخى المسلم من أن نجعل من أنفسنا من بيوتنا قدوةً وأسوةً حسنة لا في مجال السلوك فحسب بل في مجال العقيدة أيضاً، وأسلوب ذلك كما تقدّم هو التأييد القولي لمظاهر الإيمان والإنكار القولي على كل مظهر من مظاهر الشرك بما يتناسب مع عمر الطفل وتطوره، وأقل صور هذا الإنكار هو المقاطعة أو عدم المشاركة في السلوك أو المظهر الشركي أو الكفري.

إن هذا الزمن والظرف الذي يحيط بواقع المسلمين يفرض علينا التركيز على المرحلة العمرية المبكرة للطفل من أجل صناعة عقائدية متينة خاصة في سن ما

قبل المدرسة والتي يمكن أن تمتد حتى الخامسة أو السادسة من العمر حسب القدرة - ولا خسارة في ذلك البتة - ولا تخالناً الأمر مضیعة جهدٍ أو تبديد وقتٍ فيما لا يجدي وقد یبُنتُ لك في مقدمة هذا المبحث السن التي يبدأ الطفل فيها بتقليد الكبار، وأقول مراتٍ ومراتٍ : نحن لا نعرف كل شيء عن كنه الوظيفة العقلية الفكرية والإدراكية للطفل ولكنني قدّمتُ لك أحاديث وآیات تدلل على أن زمن بدء التلقي والتأثر بالمحيط يبدأ من وقت الولادة، فلا تتهاون في مسألة القدوة والأسوة يا أخي فإن أقل ما ينال ولدك منها - أي القدوة الحسنة - هو بركة الله عز وجل وتوفيقه، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الأعراف ٩٦).

فلنبادر للتو إذاً إلى تطهير بيوتنا من كل مظهر غير إيماني سواء أكان تمثالاً بحجة الفن أم صورة بحجة الذكرى، أم شجرة عيد ميلاد بحجة الفرح والاحتفال، وتذكر أخي الغالي أن بيتك إما أن يكون مكاناً تزوره ملائكة الرحمن إذا ما أنت طهرته من كل مانع وإما أن يكون مرتعاً للشياطين - معاذ الله - إذا ما أنت تركته عرضة لمظاهر الشرك والكفر والجاهلية، وإنني لأحبُّ لولدي ولولدتك أن يتربى ويتربى في بيت تحفه الملائكة فلنعمل أنا وأنت على هذا والله تعالى المستعان، ثم لنراقب أقوالنا وما يتفلّت من ألسنتنا ولنراقب أفعالنا وما لها من دلالة إيمانية حتى نكون أسوة حسنة في السلوك والعقيدة لا يحارُ أبناؤنا فينا ولا يُخدعُ أبناؤنا بانخداعنا وبتقليدنا واتباعنا لأعداء الله وأعداء دين الله دين الإسلام العظيم.

بقي أن نشير إلى أن سن الخامسة عشر شهراً (أي حوالي السنة والنصف من العمر) هي السن التي يبدأ فيها ظهور سلوك التقليد عند الطفل بصورة بدائية بسيطة، ولا بد من مراعاة ألا يتأخر التزام القدوة الحسنة عن هذه السن حتى لا تفوت هذه الفرصة في هذه السن الحرجة، ثم اعلم أنه لا نهاية لهذه المسؤولية ولا ضرر في الالتزام الأبكر من هذه السن بالنسبة للطفل (وإن كان الالتزام الدائم واجباً

في حق نفس المربي لأجل نجاة نفسه ولكننا نتحدث عما يهم الطفل)، واعلم أخي وأختي أن الطفل في سنين العمر الخمسة الأولى عبارة عن جهاز تسجيل يعمل على الدوام فهو يلتقط ويخزن كل صغيرة وكبيرة وكل شاردة وواردة، فاحرص على ألا يلتقط منك إلا خيراً، واحرص على تقديم البيان والنصح والنقد - حسب ما يناسب كل سن - لما يسمعه الطفل أو يشاهده مما هو مخالف لدين الإسلام، وبالله التوفيق.

(٣) تعليم سنن وآداب الفطرة :

سنن الفطرة وآدابها مظهر من مظاهر عناية الإسلام بحياة المسلم في كل جزئية وكل صغيرة في حياته، ليخرج به في حلة بهية من الكمال الإنساني في الجوهر والمظهر، وليرتقي بجنس الإنسان عن درجة البهيمية البحتة. ولقد بينت السنة المطهرة تلك الآداب وفصلتها، وتناولتها كتب الفقه بالتفصيل الوافي فليس لي غرض في إعادة سردها وتفصيلها في هذا الموضع إذ يستطيع كل منا أن يعود إليها ويراجعها في مظانها، إلا أنني سأسردها من خلال الأحاديث الدالة عليها ثم أتناولها من الناحية التربوية ودور المربي في تعليم سنن وآداب الفطرة للطفل والطفلة كل بحسب ما يناسبه.

أما سنن الفطرة وآدابها فهي كما دلَّ عليها حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: « الفطرة خمس: الاختتان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الإبط » (متفق عليه). ثم هناك من الآداب ما يتعلق بالطهارة كالاستنجاء مثلاً والاستنزاه من البول وآداب قضاء الحاجة وطهارة الحائض والمحتلم وغيره كثير مما له نوع خصوصية وفيه عنصر حياء، وليس لي غرض كما ذكرت في ذكر كل هذه الآداب ولا في تفصيل أحكامها بل تراجع كلها في كتب الفقه، ولكن نتناول بعض المسائل التربوية المتعلقة بهذه التعاليم وذلك من خلال جملة من الأحاديث النبوية الشريفة، فلنتدبر سويةً هذه المسائل فيما يلي إن شاء الله تعالى:

الحديث الأول:

في صحيح البخاري - كتاب الحيض - عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض فأمرها أن تغتسل، قال: «خُذِي فُرْصَةً^(١) من مسك فتطهري بها». قالت: كيف أتطهر بها؟ قال: «تطهري بها». قالت: كيف؟ قال: «سبحان الله! تطهري». فاجتذبتها إليّ فقلت: تتبعني أثر الدم.

الحديث الثاني:

في صحيح البخاري - باب الحياء في العلم - عن أم سلمة قالت: جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟^(٢) قال النبي ﷺ: «إذا رأت الماء» فغطت أم سلمة - يعني وجهها - وقالت: يا رسول الله، وتحتلم المرأة؟ قال: «نعم تربت يمينك، فقيم يشبهها ولدها؟»

الحديث الثالث:

في صحيح البخاري - باب من استحيا فأمر غيره بالسؤال - عن محمد بن الحنفية عن علي قال: كنت رجلاً مذاءً^(٣) فأمرت المقداد أن يسأل النبي ﷺ فسأله، فقال: «فيه الرضوء».

الحديث الرابع:

عن ابن عباس قال: مر النبي ﷺ بحائط من حيطان المدينة - أو مكة - فسمع صوت إنسانين يُعذبان في قبورهما فقال النبي ﷺ: «يُعذبان وما يُعذبان في كبير» - ثم قال: - «بلى؛ كان أحدهما لا يستتر من بوله وكان الآخر يمشي بالنميمة» وفي رواية: «لا يستنزه من بوله».

(١) فرصة أي فتيل قطن.

(٢) احتلمت أي رأت في منامها أنها تجماع.

(٣) مذاء من المذي وهو الماء الذي يخرج من الرجل عند الشهوة أو الملاعبة.

هذه طائفة من الأحاديث في كل منها طرفان: سائل ومسؤول، متعلّم ومُعَلِّم، طرف في طور التربية وطرف مربّ. فإذا تأملت في الأحاديث الثلاثة الأولى وجدت في كل منها خصلة متكررة مع كل سائل ومتعلّم هي خصلة الحياء، ووجدت أن هذه الخصلة تكاد تمنع المتعلم من السؤال أحياناً حتى وجدت السائلة تُقدّم عذرها في السؤال قائلة: "إن الله لا يستحي من الحق"، ووجدت السائل يبعث غيره للسؤال، بل انظر كيف كان الحياء من المربي ﷺ حتى امتنع عن التصريح ولجأ إلى التلميح فتداركت أم المؤمنين عائشة الأمر وبيّنت للسائلة بصراحة ما كان يشير إليه النبي ﷺ ولعل السائلة قد فهمت تلميح النبي ﷺ ولكنها أرادت أن تستوثق لأنها لا تسأل لمجرد "رفع العتب" كما يقولون وإنما تسأل لتعلم وتمارس وتطبّق دينها وشرعية ربها، لذلك قالت أم المؤمنين عائشة - كما ذكر البخاري في الباب - : «نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهنّ الحياء أن يتفقهنّ في الدين». ونحن نستخلص من هذه الأحاديث أموراً مهمة منها:

(١) إن بعض مسائل الدين الواجب تعلمها لها من الخصوصية في شأن الفرد ما يدفع به إلى الحياء الذي يخشى معه عدم حصول العلم إما لحياء السائل أو لحياء المسؤول - وهو حياء غير شرعي إذا ما منع فعلاً من التفقه والعلم الضروري - ولكن المهم أن هذا الحياء وإن كان غير شرعي فإنه ممكن وواقع في الحياة العملية.

(٢) لا بد لتجاوز حاجز الحياء المانع من العلم من واحدٍ من أمرين اثنين هما :
أ- وجود شخص وثيق الصلة قريب من السائل يستطيع أن يعلمه مسألته مع تجاوز عنصر الحياء، وهذه الصلة الوثيقة بين العالم والمتعلم قد تكون مماثلة الجنس بحيث يعلم الرجل الرجل وتعلم المرأة المرأة (كما في الحديث الأول) وقد يكون مجرد القرب من العالم كما في الحديث الثالث، وقد يكون قرابة الدم كتعليم الأب ابنه والأم ابنتها (وهذا ما أريد الإشارة إليه خصوصاً في مجال التربية).

ب - حصول الإيمان القوي عند المتعلم الذي يرجح على كفة الحياء غير الشرعي فيدفع بالسائل إلى السؤال رغم استحيائه من المسألة كما في نساء الأنصار اللواتي امتدحت عائشة رضي الله عنها إيمانهن .

فما علاقة هذا كله بالتربية؟

قلت : إن على الأب والأم أن يدركا أن طائفةً من العلوم الفقهية ولاسيما تلك المتعلقة بآداب الفطرة وسننها وأحكام الطهارة والنظافة وآداب الغسل والاستنجاء . . هي مما يجب تعليمه للطفل والطفلة لأنه من العلوم الشرعية العينية ويتلبس بها شيء من الحياء الطبيعي ، وإن تعليم هذه الآداب الشرعية منوط بالوالدين بحيث لا يتوقع أن يكون الحياء بين الأب وابنه والأم وابنتها حاجزاً يمنع من تعليم دقائق هذه الأمور على وجه صحيح ، فلا يكبر الولد وتكبر البنت على جهل بأمور دينهما الشخصية فيقعا بعد ذلك بين شقي الرحى ؛ رحى الجهل ورحى " الحياء " . كما نريد من الآباء والأمهات أن يزرعا في قلوب أولادهما إيماناً راسخاً يولد دافعاً قوياً على تحصيل العلم الشرعي الصحيح بالرغم من أي مانع يحول دون ذلك كالحياء الطبيعي ونحوه . .

ومن المهم في هذا الزمن إدراك حرجة هذه المسائل لا سيما في الحال التي تسود المجتمعات الآن من انعدام الحياء الشرعي وبث سموم التخريب والإفساد الاجتماعي وتنظيم ذلك عبر ما يسمونه " الثقيف الجنسي " وغيره ، بحيث أصبح لزاماً على الأهل والمربين أن يبدوا شديدة عناية بهذه المسائل عند الطفل والطفلة . والسؤال التالي هو : ما هو الوقت المناسب لبث هذه التعاليم وتعويد الطفل عليها؟

للإجابة عن هذا السؤال نعود للحديث الرابع - حديث ابن عباس - لنقف فيه على أسلوب تربوي مهم جداً مارسه النبي ﷺ في هذا الموقف ألا وهو استغلال الفرص والمناسبات لتعليم الناس أمور دينهم بصورة عفوية لا تصنع فيها ولا تكلف ، وبدون حاجة لأسلوب التلقين المباشر الذي يكون أكثر حدة وجفافاً من أسلوب التأريخ والتعريض والإشارة الذي يمكنه أن يتجاوز به حواجز الحياء والموانع

الأخرى من التعلم . وبهذا يكون جوابي على السؤال المتقدم عن السن المناسبة لتعليم هذه الآداب والسنن هو أن على الأب والأم استغلال العمر الملائم والفرص والمناسبات لتعليم أبنائهم ما ينبغي تعليمه مما له صفة حياء أو مما يتعلق بخصوصيات الطفل أو الشاب . فعلى سبيل المثال نجد أن السن المناسبة لبدء تعليم عادات وآداب التبول والتغوط والسيطرة عليهما هي عموماً سن ثمانية عشر إلى أربعة وعشرين شهراً على تدرج وتمهل ورفق ولين ودون لجوء إلى أي من أساليب الشدة في هذا المجال . والشاهد في الأمر أنه حين البدء بتدريب الطفل على التحكم في عادات التغوط والتبول تكون الفرصة قد سنحت للبدء بتعليمه آداب الخلاء والاستنجاء شيئاً فشيئاً وتدرج مناسب من خلال تعويد الطفل على سماع الأذكار الخاصة بدخول الخلاء والخروج من الخلاء (تراجع هذه الأذكار في مظانها) وإن لم يكن قادراً بعد على ترديدها ، وهكذا نستغل فرصة النضج الاستعرافي في هذا المجال ونربط ذلك بالآداب الإسلامية المتعلقة به .

ثم نأتي إلى سن التمييز حيث الأمر بالتفريق بين الأولاد في المضاجع فتكون مناسبة لبدء تعويد الولد والبنت على بعض المفاهيم المتعلقة بالجنسين من حيث احترام الخلوة والخصوصية ، وتكون هذه التعاليم مشفوعة بالتعاليم القرآنية حول موضوع الاستئذان فهذه سن ملائمة لإفهام الولد والبنت بعض ما يتعلق بمفهوم الجنس من حيث خصوصية الذكر والأنثى ومن حيث احترام خلوة الآخرين وتعويدهم على ذلك ، ألم تر معي إلى قول الله عز وجل : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَدِينَكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝۵۸ ﴾ (النور ٥٨) .

ثم بدخول مرحلة البلوغ وما يتبع ذلك من تبدلات جسدية - نفسية عند الشاب والفتاة تكون المناسبة والفرصة سانحة لتعليم آداب الطهارة والنظافة الجسدية والغسل عند حصول مبرراته وهي الاحتلام فحسب في هذه المرحلة وحتى الزواج .

وهكذا، فالشاهد في الأمر هو أن نركز اهتمامنا على ربط كل خُلق وأدب إسلامي مع المرحلة التطورية الإستعرافية المناسبة دون تأخير أو فصل، وذلك حتى يتطور الخلق الإسلامي وتتطور الشخصية الإسلامية في فكر الطفل تطوراً طبيعياً موافقاً للتطور الجسدي - النفسي الاستعرافي لديه . ونركز اهتمامنا على استغلال العلاقة الوثيقة بين الآباء والأمهات والأبناء والبنات لترسيخ التعاليم الدينية الخاصة التي يشوبها عنصر الحياء بسبب طبيعة موضوعاتها حتى لا يقع الشاب والفتاة في مأزق الحياء أم الجهل .

(٤) أسلوب القصة والقراءة :

قال تعالى في محكم تنزيله : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ (العلق ١-٥) . ولا شك أن من أهم الوظائف الإستعرافية وظيفته التخاطب والاتصال بين المحيط الداخلي والمحيط الخارجي - من خلال ملكة اللغة - من أجل إثراء المحيط الداخلي للفرد من جهة وإسهام الفرد في محيطه الخارجي من جهة أخرى . ولا شك أيضاً أن مرحلة التلقي سابقة على مرحلة العطاء، ومن ثم كان التوجيه القرآني المتقدم بالقراءة؛ القراءة في صفحة الكون والقراءة في صفحة الكتاب بهدف التعلم . ومن المهم أن نراعي الطور النضجي للطفل حين اختيار وسيلة التعليم المناسبة ومن الواضح أن القراءة وسيلة بعيدة المنال على الطفل في سنوات عمره الأولى، ولكن هل يعني هذا إهمال تعليمه؟ لقد نفينا هذا في موضع آخر من الكتاب حيث أثبتنا أن الطفل يتأثر ويتلقى من محيطه منذ ولادته، وبناءً على هذا نقول أن الانتظار إلى مرحلة قدرة الطفل على القراءة للبدء بتعليمه أمرٌ مرفوض في منظومة التربية الإسلامية . وأود الإشارة فيما يلي إلى الوسيلة البديلة الملائمة للتطور

الاستعرافي للطفل في مرحلة ما قبل القراءة؛ وهذه الوسيلة هي وسيلة القصص التي تستغل ملكة الإنصات والاستماع عند الطفل. فلقد تبين معنا أن الطفل في سن الثانية إلى الثلاث سنوات من العمر يستطيع أن ينصت ويستمع إلى القصص القصيرة ذات المحتوى السهل البسيط المباشر. وللأسف فإن هذه القابلية والقدرة على الإنصات والانتباه والمتابعة تُهدر عند أطفالنا إما بإهمالها بالكلية أو بترك الطفل عرضة لوسائل التأثير السمعي البصري من مرناة (تلفاز) ومذياع وغيرها من وسائل الإعلام التي لا يكاد يخلو منها بيت مسلم؛ فإذا بالطفل عيناه معلقتان بشاشة المرناة، وإذا بالطفل لا يقع سمعه إلا على أغاني المذياع والمرناة، وإذا بقابلية الطفل المبكرة على التلقي والتعلم تُهدر وتضيع وتستغل لبث محتويات فكرية أقل ما فيها سوءاً أنها سطحية هزيلة تافهة وأشد ما فيها أنها تعمل على خراب ودمار العقيدة والفكر والأخلاق عند الطفل كما يبدو لنا باستقراء الواقع مع كل أسف.

وإنما ذكرت هذا بغرض التنبيه على ضرورة البديل الإسلامي؛ فإن كان لا بد من المرناة فليكن البرنامج مفيداً إما لغوياً أو أخلاقياً أو تربوياً أو عقدياً مع لزوم الرقابة الأسرية لكل ذلك، وإن كان لا بد من الأغنية والنشيد فليكن النشيد الهادف بلا خلاعة ولا ميوعة ولا سطحية ولا خنوثة ولا إسفاف ولا مجون ولا معازف ولا مزامير شيطانية، وإن كنت ممن يقرأ القصة للطفل - وهذا مطلوب ومراد - فليكن قصص الصحابة والسلف الصالح بأسلوب بسيط قريب من فهم الطفل، وليكن قصص القرآن بأسلوب شيق ميسر ملائم لفهم الطفل أيضاً، وهذا نداء إلى أهل الخبرة والاختصاص لكتابة المزيد من القصص الإسلامي للأطفال وإخراج البرنامج الإذاعي للأطفال وإخراج البرنامج المرئي للأطفال (وإن شيئاً من هذا موجود والله الحمد ولكننا بحاجة إلى المزيد الكمي والنوعي الذي نواجه به الطغيان الإعلامي المعارض للإسلام)، وهذا نداء إلى الآباء والأمهات إلى الرقابة الشديدة على ما يطرق سمع الطفل وبصره وإلى ضرورة الاضطلاع بجزء هذه المهمة، فما يضرك أيها الأب والأم أن تقضي ربع ساعة قبيل نوم الطفل تروي له قصة أو تحكي له حكاية،

على ألا تكون الحكاية حكاية "سندريلا" ولا تكون القصة قصة "ميكي ماوس"!

أنا لا أقول بتعقيد حياة الطفل ولا أقول بتحميل عقل الطفل فوق طاقته، ولكن أقول ألا نختزل عقل الطفل وقدراته ولا نلوث فكره وعقله الناشئ بما هو ضار له في حقيقة الأمر، وأقول ليكن قصص الأطفال المناسب لأعمارهم ذا مغزى وهدف، وليكن على الأقل خالياً من الضرر الفكري، لتكن الشخصيات والأسماء ملائمة لفكرنا وثقافتنا وديننا.. وانظر يا رعاك الله إلى أطفالنا وما يحفظون من أسماء وشخصيات : ساسوكي، ساندريلا، هايدي، بوبي، ميكي، جوفي، باجزباني، وهلم جرا... قلت: انظر واسأل نفسك : هل يتعلم الطفل في روسيا وأمريكا وأوروبا أسماء كعمرو وزيد وأحمد وعلي وهند وخالد أم أن ما يتعلمونه - حتى على مستوى قصص الأطفال ورسوم الأطفال - هي من جنس ثقافتهم ولغتهم وهويتهم الحضارية؟

إنه مجرد تنبيه أنه إخواني وأخواتي إليه : لنكن على بينة مما نفعل وعلى حذر مما يدسه الغير، وما علينا إلا أن نفكر ونتدبر في آثار كل خطوة نخطوها وكل فعل نفعله وكل سلوك نسلكه، أما أن نسير هكذا على غير هدى فلا، فما غاية ذلك إلا الدخول في جحر الضب كما يدخله الغير ممن نقتل ونقتل. ولك أيها الغالي في سيرة الرسول ﷺ وقصص القرآن وسيرة الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة ما يغنيك عن القصص المستعار من الغرب والشرق وعن حكايات أوروبا وأمريكا، ولا تنس أن تستحضر في أثناء خطابك للطفل بهذه القصص والسير تجريد القصد لله عز وجل وتوحيد السير نحو مبتغى رضاه وعند ذلك سوف تستشعر أهمية ما تفعل وعندها يصاحبك من التوفيق - بإذن الله - ما لا تجده بغير ذلك السبيل أبداً. وقد تستغرب أيها الغالي إصرارنا على الحفاظ على سلامة الأسماء والشخصيات رغم أنها مجرد أسماء، والحقيقة أنها ليست مجرد أسماء، بل هي جسور اتصال بين الفرد وتاريخه، فالطفل الذي لم يألّف الأسماء العربية الصحيحة سيجد في نفسه جفوة عندما يكبر ويقرأ عن الصحابة والسلف لما سيجده في

أسمائهم من غرابة ووحشة، فأين خالد وحمزة وعمرو و أبو بكر وخديجة وعائشة من بوبي وهايدي وميكي وسوزي؟!

٥) الهوية الجنسية :

لا أريد أن أخوض بالقارئ الكريم في متاهات فرويد الجنسية، كما لا أريد أن أهمل خطورة الكثير من الطروحات الاجتماعية و" العلمية " المعاصرة، ذلك أننا - مع الأسف - نعاصر مؤثرات بيئية واقعية شديدة الخطر على أبنائنا وبناتنا سيئة التأثير فيهم، حتى أصبحت البدهيات والمسلمات عرضة لإثارة الشبهات والفتن والابتلاءات. ولعلنا تناولنا شيئاً ونموذجاً من هذه المؤثرات في الفصل الخاص بالأخطار المحدقة بالطفل المسلم، وما أريد التأكيد عليه في هذا الموضوع هو ترسيخ بعض المبادئ الإسلامية المهمة في مجال التربية والتطور الاستعرافي في مجال الهوية الجنسية وبيان بعض الحالات الحقيقية التي قد يلتبس فيها الأمر على الوالدين والعمل على مقارنة ذلك والتعامل معه مقارنة صحيحة إن شاء الله.

الهوية الجنسية: ونقصد بها معرفة الطفل كونه ذكر ومعرفة الأنثى كونها أنثى، وإدراك وجود خصوصية لكل من الجنسين كما نزل بذلك القول الحق. ألم تر معي قول الله عز وجل في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٦﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٧﴾ (آل عمران ٣٦-٣٧). نعم، يجب ألا نخلط في عقولنا وأفهامنا ما بين مساواة الذكور والإناث في مجمل الحقوق والتكاليف والثواب والعقاب في ميزان الشريعة وبين اختلافهما في الصفات الخلقية والوظائف والمسؤوليات وبعض الجزئيات التشريعية المنوطة بهم تبعاً لذلك. إن المساواة لا تعني المماثلة وهذا مستفيض في كل العقول واللغات والمجتمعات بدليل عدم خلو أي لغة أو ثقافة معتبرة من مصطلح "ذكر

وأثنى" ولو كانت المماثلة والمطابقة التامة مُتصورةً في أي ثقافة أو لغة لخلت من المصطلح المميز لكل منهما. إن سوء فهم هذه الجزئية يُشكل على كثير من الناس حتى كيندفع البعض - مع الأسف - إلى نبذ كل خصوصية سلوكية "تُميّز" الفتاة عن الشاب والشاب عن الفتاة والطفل عن الطفلة والطفلة عن الطفل، مع أن الحق الذي لا مرأى فيه هو وجود ذلك الاختلاف والتمييز. ونحن نصر على إشعار الطفل الذكر بخصوصيته (لا بفوقيته واستعلائه) وإشعار الطفلة الأنثى بخصوصيتها (لا بدونيتها وازدراءها) وعند ذاك نحقق المساواة ولا نفقد التخصص والتمييز وما يُناط بذلك من مهام عظيمة.

ومن الناحية الإستعرافية يبدو أن الطفل يبدأ بتمييز جنسه حوالي الشهر الثامن عشر ويترسخ الأمر لديه بحلول الشهر الثلاثين إلى السادس والثلاثين من العمر، وهذه أعمار تقريبية أرى ألا نركن إليها كثيراً بل ننظر إليها على أنها الحدود القصوى "للتساهل" في التركيز على بث الخصوصية الجنسية وملامح الهوية الجنسية عند الطفل حتى لا نقع في إشكالات مستقبلية. ولا بد من التنبيه على عدم محاباة الأطفال بناءً على جنسهم فلا نفضل الذكر لذكورته ولا تفضل على الأنثى لأنوثتها أو العكس، ومع الأسف لا نزال نرى مظاهر الفرح والبشر والسرور تعتلي وجوه القوم عند ولادة الذكر ونرى الوجوم والحزن والأسى يعلوهم عند ولادة الأنثى، وكأننا نعيش في الماضي الذي أنكر عليه القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٥ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ١٦ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ ١٧ أَمْرٌ يُدْشِرُهُ فِي النَّارِ ١٨ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ١٩﴾ (النحل ٥٨-٥٩).

أما العمر الذي يجب ممارسة العدل فيه حين التعامل مع الأولاد ذكوراً وإناثاً وعدم التفريق بينهم في ذلك، قلت: إن زمن ذلك هو الولادة وصاعداً بدليل الآية السابقة التي نعت على من يتذمرون من ولادة الأنثى، وهل هذا إلا نوع تفريق وظلم

في التعامل؟! فليكن شغل الأبوين إذاً هو شكر الله على النعمة وإعمال الجهد في حسن التربية لا التحسر على جنس المولود ولطم الخدود وشق الجيوب .

فإذا ما تجاوزنا ذلك بقي على الأهل اجتناب أي عامل من عوامل الانحراف السلوكي في المجال الجنسي . وما أريد أن أؤكد عليه هنا في المجال الاستعرافي عند الطفل هو منع أي مظهر من مظاهر " الخنوثة " من التلبس بالطفل ، لأنه يبدو أن ذلك يتطبع في فكر الطفل أو الطفلة وسلوكهما بحيث قد يصعب الانفكاك عنه لاحقاً ، ولقد ورد الحديث الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال » (صحيح البخاري) . فمن واجب الأبوين الحرص على تربية أولادهم على السلوك والخلق الذي يلتزم فيه كل من الولد والبنت بالمظهر السلوكي المناسب لجنسه ، فلا يتهاون في الخلاعة والميوعة والحركات اللينة عند الولد والشاب كما لا يتهاون بالصيانية وتقليد الذكور والرجال عند النبت والشابة . قلت : ويتناول ذلك اللباس والكلام والمشي والعادات الاجتماعية الموافقة للشرع وكل ما له علاقة بتمييز الرجال عن النساء حسب العرف الاجتماعي السائد . ولكم يؤسفنا ما نرى من تقلد الشاب سلسلة ذهبية في العنق وشعر طويل كذيل الفرس ومشية متراقصة خليعة ، ولكم يؤسفنا ما نرى من الفتيات المتصايبات قصيرة الشعر سافرة متكلفة المشي مسترجلة ، بل لعلها تطلق من فمها دخان التبغ أبشع ما يكون منظرأً ورائحةً (وليس هذا بطبيعة الحال مخصصٌ به للشباب ، فالتدخين حرام على الشاب حرام على الفتاة كما بينا في مبحث التدمير الجسدي النفسي المباشر فليرجع إليه) .

ولكن لا بد من التنبيه إلى أمرٍ مهم أشار إليه الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرحه الحديث المتقدم ، يقول : " وأما من كان ذلك من أصل خلقته فإنما يؤمر بتكليف تركه والإدمان على ذلك بالتدرج ، فإن لم يفعل وتمادى دخله الذم ولا سيما ما بدا منه ما يدل على الرضى به ، وأخذ هذا واضح من لفظ " المتشبهين " ، وأما إطلاق من أطلق كالتنوي أن المخنث الخلقي لا يتجه عليه اللوم فمحمول على ما

إذا لم يقدر على ترك التثني والتكسر في المشي والكلام بعد تعاطيه أسباب المعالجة لترك ذلك، وإلا متى كان ترك ذلك ممكناً ولو بالتدريج فتركه بغير عذر لحقه اللوم^(١). وهذا مهم جداً لأننا أصبحنا نعرف بدقة الكثير الكثير عن الحالات المرضية والطبية التي تتظاهر بمظاهر الخنوثة سواء أكان مرضاً خلقياً أم وراثياً أم مرضاً غدياً استقلابياً، ولا بد للأهل من أن يدركوا أن بعض هذه الحالات يمكن اكتشافها مبكراً بعد الولادة (بل قبلها أحياناً) ومعالجتها واتقاء مشكلة الخنوثة العرضية المترتبة عليها إذا لم تعالج عند الطفل أو الطفلة (ومثال ذلك المرض المعروف بفطر تصنع قشر الكظر الخلقي الناجم عن اعتلال بعض الإنزيمات الخلقي)، ومنها ما يمكن معالجته جراحياً كبعض التشوهات الخلقية في الجهاز التناسلي، ومنها ما يمكن معالجته دوائياً كبعض الأمراض الوراثية (كتناذر كلاينفلتر وتناذر تورنر حيث تفيد الإعاضة الدوائية لتحسين المظاهر الجنسية لتوافق جنس المريض)، وليس هذا موضع التفصيل في أعراض ومعالجات هذه الأمراض وإنما النكتة في الأمر أن علاج هذه الأمراض الممكن علاجها أصبح مما يدخل ضمن الاستطاعة على اجتناب مظاهر الخنوثة الخلقية فأصبح عدم الاستطباب والمعالجة مستحقاً للوم كما أشار إليه ابن حجر العسقلاني. وليس الأمر بيد الأبوين من حيث المعالجة ولكن واجبهما في هذا المقام هو التنبيه المبكر لأي عرض شكلي أو خلقي أو سلوكي يشير إلى مظهر خنوثة عند الطفل في أبكر عمر ممكن وإعلام الطبيب به حتى يتمكن من استقصاء الأمر والعمل على التشخيص المبكر والعلاج المناسب الذي يجنب الأهل والطفل أو الطفلة مشاكل كثيرة في المستقبل، ولا مبرر لإهمال هذه المسألة التي يمكن أن تتفاقم بتأثيرات نفسية شديدة على الطفل أو الطفلة والأهل إذا ما ترك الأمر وشأنه، ولا معنى للتخوف من "العيب الاجتماعي" الفارغ، وأي عيب في أن الله قد ابتلى فلاناً بمرض ما، بل إن الواجب هو التحرر من هذه القيود الفارغة والسعي نحو الاستطباب والعلاج، فالأمر أمانة في عنق الأهل

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري. الحافظ ابن حجر العسقلاني ج ١١ ص ٥٢١.

والطبيب والدولة ؛ فهي أمانة في عنق الأهل من حيث المراقبة وإعلام الطبيب عند الاشتباه ، وفي عنق الطبيب من حيث التشخيص وتوصيف العلاج ، والدولة من حيث تأمين العلاج لكل طفل على قدم المساواة .

بقي أن نقول أن ذلك السفه والخلط والإسفاف الذي يشير إليه الغرب حول الجنوسة المثلية (أي الشذوذ الجنسي) وكون المسألة أمراً طبيعياً لا يستلزم إنكاراً ولا رفضاً ولا مقاومةً فكلامٌ عجيب وخلط مريب أفردت له مقالاً في مبحث الأخطار المحدقة بالطفل فليرجع إليه . كما أن ما فاضت به كتب الطب والطب النفسي والاجتماعي حول ما يسمى بعقدة "أوديب" (وهي كره الطفل لأبيه لأنه ينافسه على أمه جنسياً) وعقدة "إليكترا" (وهي كره الطفلة لأمها بسبب منافستها على أبيها جنسياً) كما زعم اليهودي الخبيث فرويد فمحض هراء لا يستحق ذكراً إلا من باب التنبيه والتحذير ، وما أريد أن أنبه القارئ الكريم إليه هو أن أمثال هذه الانحرافات تُلبس بلبوس العلم ثم تقدم لأبنائنا وبناتنا ومجتمعاتنا على أنها "علم" يجب قبوله واحترامه وتطبيقه والعمل بمقتضاه دون مساءلة أو تشكيك ، وأنا أقول بملء فمي أنه دجلٌ وكذب وافتراء وليس من العلم في شيء اللهم إلا في عقل فرويد المبني على الجنس والمنبثق من الجنس والمنصب في الجنس ؛ كل شيء في فكر فرويد وتناجه "العلمي" محوره الجنس وكفأك بهذا انحرافاً في الفكر والمنهج والسلوك .

بهذا نكون قد عرجنا على نماذج مختلفة عرضنا فيها لفقراتٍ ومراحل من التطور الاستعرافي للطفل وعملنا على ربطها بالتوجيهات التربوية والسلوكية الإسلامية ، وآمل من خلال تقديم هذه النماذج أن أثير ذهن القارئ إلى إعمال النظر والتدبر في آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ ، والربط بين مزيد من التعاليم ومزيد من المراحل التطورية للطفل لنخرج بصيغة تطبيقية لمنهج التربية الإسلامية تصنع لنا جيلاً نتوسم فيه معالم القرآن ورسم النبوة الهادية ، وإنما هذا هو غرض الكتاب بأسره ، فجزى الله خيراً من استمع قولاً فاتبع أحسنه ، وجزى الله خيراً من وقع على خطأ لي فنبهني عليه أو انتبه إلى ما لم أنتبه إليه فذكرني به ، والله المستعان .

وسائل التلقي

تشكل الحواس صلة الوصل ما بين الإنسان والمحيط ، وهي نافذته على العالم يتلقى منه المحسوسات ومفتاح اتصاله بالعالم يساهم فيه من خلالها بنتاجه الفردي .
والتربية ليست إلا عملية تعهدٍ للكمون الفردي للطفل بحيث ينجم عن هذا التفاعل بين بيئة التربية واستعدادات الطفل نمطاً فردي مميز لكل شخص .

فالتربية إذاً مؤثرٌ خارجي يميل بالطفل نحو تنمية أحد الإلهامين الفطريين - أو كلاهما بنسبة معينة - اللذين بينهما لنا الله عز وجل في قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿ ٥ ﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿ ٦ ﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿ ٧ ﴾ (الشمس ٧-١٠) . ولا شك أن عملية التزكية الفردية أو التدسية الفردية لا يصح التكليف بمقتضياتها قبل البلوغ لأن مناط التكليف غير متحقق إذ أن القلم مرفوع عن الصبي حتى يحتلم ، فهل تتعطل التزكية والتدسية فيما قبل البلوغ إذاً ؟ وهل تبقى حواس المرء معطلة مجمدة إلى حين يتسلم زمام أمره ويصبح مكلفاً مسؤولاً عن نفسه ، أم ماذا؟!

إذا قبلنا مبدأ التربية القائم على التفاعل بين الطفل والبيئة والذي بينا أنه يعتمد على إدراك المحسوسات من خلال أدوات التلقي والحس ، وعلمنا أن حواس الطفل فاعلة عاملة منذ الولادة على أقل تقدير تبين لنا أن هناك تفاعلاً قائماً بين الطفل والبيئة قبل سن البلوغ بكثير ، وهذا التفاعل هو محور رئيسي من محاور التربية ، فمن يكون المسؤول عن هذه التربية إذاً؟ وكيف تصاغ أهداف هذه التربية ريثما يبلغ الطفل أشده ويصير مسؤولاً هو عن تربية وتعهد نفسه؟!

إن مسؤولية التربية هذه تقع بلا شك على عاتق الأبوين إذ أنهما المؤثران الفاعلان في حياة الطفل وهما الضابطان الرئيسيان لمجمل ما يتعرض له الطفل بداية . ولهذا كان لزاماً على الأبوين أن يتعرفا بالتفصيل على الأهداف التي يجب

تكريس وسائل وأدوات التلقي عند الطفل لأجلها ، وأن يتعرفا على دورهما التربوي في تعهد هذه الوسائل في مرحلة ما قبل البلوغ إلى أن يصل الطفل سن التكليف فيتسلم زمام أمره ويتعهد حواسه بالمسؤولية حينذاك . وسوف نعرض في هذا الفصل إن شاء الله أهم أدوات التلقي عند الإنسان ، ونتناول بالبحث وظيفة هذه الأدوات وهدفها ومقتضى العمل بها في حياة الفرد ودور التربية المبكرة في ذلك كله .

لقد درجنا على تعلم أن الحواس الخمس هي السمع والبصر والحس والشم والذوق ، وهذا صحيح - من الناحية التشريحية الوظيفية - بلا ريب . كما تعلمنا أن هذه الحواس تمثل أدوات الاتصال مع العالم الخارجي ، كما تمثل وسيلة التفاعل ما بين الفرد وبيئته . بيد أن هناك وسيلة أخرى هي المتلقي النهائي والمصدر الأساسي لكل ما يستشعره المرء ولكل ما يصدر عنه ، وهذه الوسيلة هي الفؤاد أو القلب . ونحن نجد أن القرآن الكريم يركز على ثلاث حواس رئيسية هي أدوات التعلم والاستشعار عند الإنسان ، وواضح أن ذكر عدد معين من أدوات الحس والتعلم لا يعني الحصر فيها وإنما يفيد الأهمية القصوى لها ويوجه نحو ضرورة الاعتناء بهذه الأدوات والحواس إذ أن عليها مدار التعلم والتعامل مع المحيط ، كما أن عليها مدار التكليف والثواب والعقاب .

والأصل فيما ذكرناه هو قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل ٨٧) ، فأدوات التلقي المذكورة في الآية هي السمع والبصر والفؤاد ، ومن المهم النظر في هذه الآية بتدبر عميق حتى نستبين بعض الأسس العامة التي يجب تقريرها في الذهن حين التعامل مع أدوات التلقي والحواس ، ولقد توصلت إلى بعض من هذه الأسس فيما أحسب وأعرضها فيما يلي :

١ - الآية تقرر حال الجهل المطلق عند الوليد لحظة ولادته ، ونحن نعلم أن الجنين يقوم ببعض الوظائف الحيوية في رحم أمه قبل الولادة فهو يتحسس الأصوات

ويتألم ويمص ويبلع ويركل ويرتكس . . ولكن هذه الوظائف التي يقوم بها هي وظائف مشتركة مع الحيوان فلا يتعلق بها مفهوم العلم والجهل الذي تتناوله الآية . وإذا أردت أن تدرك مفهوم العلم والجهل المقصود في هذه الآية فتأمل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا آمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة: ٦) . فالعلم بالله وبدينه عز وجل هو المقصود الحقيقي لكل ما يتعلمه الإنسان من خلال حواس السمع والبصر والقلب وغيرها ، والآية تحدد أن حال الوليد هو الجهل المطلق (بدليل النكرة " شيئاً" في سياق النفي "لا تعلمون" فهذه من صيغ العموم) وهذا يتناول - فيما يبدو لي - الجهل بالله عز وجل ، ولا أقول الجهل بوجود الله أو وحدانيته وإنما أقول الجهل بالله فيما لا سبيل إلى معرفته إلا بالإخبار منه سبحانه وتعالى ، فتنبه لهذا الفارق فإنه دقيق جداً . نحن نتكلم إذاً عن العلم بالله وبشرائعه وبما يريده منا مما لا يمكن التوصل إليه بغير سبيل الإخبار ، ولا نريد أن يختلط الأمر على أحد فيظن أن الوليد جاهل بوجود الله ووحدانيته إذ أن ذلك مركز في الفطرة بلا شك إلا أنه غير كافٍ وحده للتعبده به ، والله تعالى يقول : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٧٢) ، وحديث النبي ﷺ : « ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » (حديث صحيح) ، فوجود الله ووحدانيته مركز في نفس كل مولود وهي ليست المقصودة بالجهل الوارد في الآية ، إنما الجهل - كما قدمنا - كائنٌ بتفاصيل الشريعة والعبادات وبأسماء الله وصفاته وغيره مما لا طاقة للعقل بالتوصل إليه حتى لو بقيت الفطرة سليمة . وحال الجهل هذه حال سيئة للإنسان لأنها من جنس جهل الكافر والمشرِك بالله كما تبين في الآية من سورة التوبة . لذلك وجب على الإنسان وتحتم عليه العمل

على استبدال العلم بالجهل ، والعمل على تغيير واقع الجهل في نفسه إلى واقع العلم بالله علماً يوصله إلى النجاة يوم القيامة . وبمثل هذا الفهم تتبين لنا نعمة الله عليك بإمدادك بوسائل التلقي والاستقبال لهذا العلم الذي أرسله الله تعالى من خلال أنبيائه ورسله وملائكته وكتبه .

٢ - تبين الآية أن الله عز وجل خلق للإنسان وسائل التلقي - السمع والبصر والفؤاد - بسبب حال الجهل التي هو عليها ، مما يفيد أن الهدف من هذه الوسائل هو استعمالها في سبيل تغيير واقع الجهل إلى واقع العلم بالله علماً يؤدي إلى معرفته والتقرب إليه تعالى والتعبد والتأله له والفوز بجنته والنجاة من ناره في الآخرة . فلا يصح أن نغفل عن الهدف من إعطاء الله عز وجل الإنسان هذه الحواس ، ولقد صرح القرآن الكريم بذلك : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ١٠١ ﴾ (الإنسان ٢) ، وإن هذا الابتلاء الذي يتعرض له الإنسان ويتعامل معه وفق ما تعلمه وتلقاه بوسائل الحس والإدراك هو الذي يحدد مصير الإنسان في الآخرة ، ولذلك فإن من فاتته هذا الأمر وغفل عنه وضيع حواسه ومداركه فيما لا فائدة منه في اجتياز هذا الابتلاء والاختبار إنساناً خاسراً هالكاً لا محالة ، تأمل معي قول الله عز وجل : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٠٢ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ١٠٣ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ١٠٤ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ١٠٥ ﴾ (ق ١٩-٢٢) فتأمل كيف جعل الغفلة ناجمة عن تعطيل البصر وتعطيل البصيرة بالتالي فكان سبب هلاك المرء !

وسائل التلقي والإدراك والحس إذاً ليست مسخرة لمجرد التسلية واللهو والمتعة في الدنيا ، إنما هي وسائل استقبال وقبول العلم النافع المؤدي إلى النجاح في ابتلاءات الدنيا والفوز برضا الله في الآخرة ، ولا يخفى ما يترتب على التفريط في هذا المعنى من مصيبة وهلاك عافانا الله .

٣ - توجهنا الآية إلى ضرورة شكر الله تعالى على منّ علينا بحواس الإدراك وأدوات التلقي التي هي وسيلة إخراجنا من الجهل إلى العلم ومن الظلمات إلى النور، وأريد أن ألفت انتباهك هنا إلى أن كثيراً من الأوامر أو الإخباريات تتكرر في القرآن الكريم في آيات عديدة وتتنوع في هذه التكرارات خواتيم الآيات في معظم الأحيان، إلا أنني وجدت أن الآيات المتكررة التي تُذكر بِمَنْ الله ونعمته علينا بتزويدنا بحواس السمع والبصر والفؤاد وجدها كلها تنتهي بالتذكير بالشكر وبتقصير الناس في ذلك، تأمل معي الآيات التالية :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل ٧٨)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (الملك ٢٣)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان ٢-٣)، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (المؤمنون ٧٨)، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (السجدة ٩) . قلت: هذا التكرار وهذه التذكرة ليست إلا دليلاً على عظم حق الله علينا في شكر هذه النعم وعلى مدى تقصير الناس في أداء هذا الشكر إليه سبحانه وتعالى . ونحن مقصرون حقاً في شكر هذه النعم وفي أداء ما علينا تجاه الله فيها، فليكن هذا الأمر نصب أعيننا حتى نعمل على تجاوز هذا التقصير ونبذل قصارى جهدنا في سبيل تأدية الشكر لله عز وجل عليها عسى أن يشملنا كرم الله تعالى بالزيادة: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم ٧) .

هذه الأسس الثلاثة ستكون منطلقنا في دراسة علاقة التربية وأدوات التلقي، بحيث نتناول فيما يلي كل حاسة على حدة لنتعرف على الوظيفة المسندة إليها في

القرآن الكريم ونعرف الهدف من استعمالها ثم نقف على مقتضى ذلك كله من الناحية العملية والتربوية إن شاء الله .

أولاً: حاسة السمع :

تتقدم حاسة السمع على ما سواها من الحواس المعنية بالاستقبال الخارجي والإدراك الحسي ، ولعل الأداة الوحيدة التي تفوق السمع مكانةً هي الفؤاد أو القلب ، إلا أن الأخير معني بالإدراك الداخلي فلا يخلُ ذلك بكون السمع متقدماً على أدوات الإدراك الخارجي . وأياً كان الحال فإن للسمع مكانة حساسة في حياة الفرد لا يتصور استقامة الحياة بكل مفاهيمها الدنيوية والأخروية بدونها .

وما أريد أن أنبه عليه في مقام التربية هو أننا في سياق تعاملنا مع الطفل "الجاهل" وفي سياق تربيته لا بد لنا من تعهد حاسة السمع لديه تعهداً خاصاً بسبب الطبيعة المميزة لهذه الحاسة ، ومن هذه المميزات ما يلي :

١- إنها أول أدوات الحس والتلقي عملاً ، إذ أن حاسة السمع تكون فاعلةً منذ الولادة على أقل تقدير ، أي أنه منذ اللحظة الأولى التي يخرج فيها الوليد إلى الحياة يبدأ سمعه بتلقي وتسجيل المسموعات ويبدأ بالتأثر بها .

٢- إن حاسة السمع أكثر الحواس استمراريةً في التلقي ؛ بمعنى أن حاسة السمع عاملةٌ على الدوام ، والتلقي بالأذن إما أن يكون تلقياً فاعلاً عندما تصغي لأمر معين أو أن يكون تلقياً منفعلاً عندما لا تعير انتباهاً لأمر معين في حين تمضي الأذن باستقبال المسموعات عفويًا . وهذا مهمٌ لأنه يعني أن نسبة ما يتلقاه الطفل عفواً من خلال الأذن يفوق بكثير نسبة ما يتلقاه عفواً من خلال المحسوسات الأخرى .

٣- إن حاسة السمع هي الحاسة الوحيدة التي يتعلق بها تطور ملكة أخرى مستقلة عند الطفل تعلقاً تاماً ، وتلك هي ملكة النطق واللغة ، بحيث يعتمد تطور اللغة والكلام تطوراً سليماً على سلامة حاسة السمع وهذا من حيث السلامة الوظيفية ، ومن ناحية أخرى فإن محتوى النطق والكلام يعتمد على نوعية المسموعات التي

يتلقاها الطفل حتماً . وهكذا نجد أن التطور السليم للغة عند الطفل يعتمد على سلامة حاسة السمع أصالةً ، وأن سلامة محتوى النطق عنده تعتمد على نوعية المسموع الذي تلقاه .

ولذلك تجد أمراً عجباً وإعجازاً بديعاً حين تتأمل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ۚ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۚ﴾ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۚ﴾ (الأنفال ٢٠-٢٢) ، قلت : إنك تجد في هذه الآية أمراً عجباً وإعجازاً بديعاً حيث إن الآية وهي تشير إلى نمط الناس الذين يعرضون عن آيات الله ويعطلون وظيفة السمع عن غرضها وهدفها الحقيقي تسمي هؤلاء الناس صُمًّا - من خلال الإشارة إلى أمثالهم من الدواب التي تسمع المحسوسات الصوتية ولكنها لا تميز المسموعات العلمية العقلية فكانت صماء من هذا الوجه - وإن الآية بعد أن وصفتهم بالصمم أردفت بوصفٍ تال هو البكم ، ووجه الإعجاز هنا هو الإشارة إلى توقف سلامة النطق على سلامة السمع وذلك من خلال الإشارة إلى توقف محتوى النطق على نوعية المسموع وتمييزه ، فلما صموا سمعهم عن الحق صاروا بكماً لا يستطيعون أن ينطقوا بشيء من الحق! وهكذا فإن الطفل ينطق بمثل ما يسمع ويتكلم بما يتعلم ، ولهذا كانت المسؤولية عظيمة في مراقبة ما يسمع الطفل حرصاً على محتوى نطقه في المستقبل .

ومن الجدير بالذكر أن هذا التطور اللغوي المعتمد على سلامة جهاز السمع يتعلق بمرحلة حرجة هي السنوات الأولى من العمر بشكل خاص ، ولقد سبق أن تعرضنا لمفهوم السن الحرجة في موضع آخر فليرجع إليه .

هذه بعض مميزات حاسة السمع ، فما هي وظيفتها والهدف منها حسبما أشار إلى ذلك القرآن الكريم؟

إن للسمع وظيفة مشتركة مع باقي الحواس ألا وهي وظيفة التعلم كما سبق

وقدمنا من أن غاية تسخير هذه الوسائل للإنسان هي تغيير واقع الجهل في نفسه .
أما الوظيفة الخاصة للسمع فهي تلقي المدركات الصوتية - وهذه هي الوظيفة
الظاهرة - ثم تمييز هذه المدركات وهذه هي الوظيفة الحقيقية . وإن هذا التفريق
بين الوظيفتين مهم جداً كي يتمكن من التعامل مع الآيات القرآنية التي تتناول الفشل
الوظيفي لحاسة السمع ، وهذا أصل في كل الحواس كما تبين الآية الكريمة :
﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا
وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ
أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ ﴾ (الأعراف ١٧٩) ، فالسمع المنفي هنا ليس السمع
الظاهر الذي تتلقى به الأذن المدركات الصوتية إنما هو السمع الباطن الذي يميز به
بين المدركات السمعية مما يترتب عليه أثر عقلي ونفسي وسلوكي مهم في حياة
الفرد . وقد جعل الله تعالى لهذه الوظيفة هدفاً سامياً لتوظيف هذه الحاسة يتمثل في
أسمى صوره وأحسن حالاته في هذه الصورة الراقية التي ترسمها هذه الآية الكريمة :
﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا
مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (المائدة ٨٣) ، وأريد أن
ألفت انتباهك أيها الغالي إلى ذلك التوافق والتناغم البديع بين مختلف حواس الفرد
في هذه الآية ؛ فالأذن تتلقى المسموعات ويترسخ فهمها عميقاً ليحدث أثرها في
العين فتدمع ، وتستقر معرفته في القلب فيهتدي إلى الحق ، ويتحول الفرد بذلك إلى
شاهد كوني ناطق بوجود الله ووحدانيته وربوبيته وألوهيته . ولذا أنبهك إلى أن
حواس المرء تعمل مجتمعة متناغمة ، وإن هذا التقسيم في الدراسة هو لمنهجية
الدراسة فقط ، وإلا فإن سمع الأذن لا ينفصل عن رؤية العين ولا عن فهم القلب ولا
عن نطق اللسان .

فإذا تعرفنا على هذا الهدف السامي لوظيفة السمع فعلينا أن نتساءل عن دورنا
التربوي في حياة الطفل حفاظاً له على هذه الأداة . وأقرر بدايةً أن أقل مستوى مقبول

للتربية بالنسبة لوسائل تلقي هو الوصول بالطفل إلى مرحلة يستطيع فيها الأخذ بلجام نفسه ليقوم بتعهدا ورعايتها وهو سليم الحواس ، سليم أدوات التلقي . . . وهكذا نريد أن تصل التربية بالأذن إلى درجة السمع ، وغني عن القول أن مقصود السمع - كما تقدم - ليس مجرد استشعار الأصوات ، وإنما المقصود شهود المدركات السمعية شهوداً مفضياً إلى العقل والهداية إن شاء الله .

وإليك بعض الملامح التربوية للعناية بحاسة السمع عند الطفل :

١- يجب أن تبدأ العناية بها منذ الولادة حتماً ، وإن لنا شاهداً على ذلك من المنهج النبوي الشريف الذي يعلمنا التأذين في أذن المولود بحيث يكون أول ما يطرق سمعه التكبير والتهيل .

٢- الحرص على أن يطرق سمعَ الطفل كلامُ الله عز وجل ، والله تعالى يقول : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَا آمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة ٦) والشاهد هنا أنه إذا كان اهتمامنا بالمشرك إلى هذا الحد من الحرص على إسماعه كلام الله فمن باب أولى أن يكون اهتمامنا بإسماع أطفالنا كلام الله عز وجل على وجهٍ يتناسب مع التطور الاستعرافي عندهم . فلا يكن حظ الطفل من أبيه المسلمين إذا أقل من حظ المشرك ممن أجاره من المسلمين !

٣- الحرص على ألا يتعرض الطفل إلى اللوثات والتفاهات السمعية الهادفة إلى تشويش هذه الحاسة ، والانتباه لما حذر منه الله تعالى في قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وإذا تئلى عليه آيتنا ولَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَافَةٌ بَشَرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (لقمان ٦-٧) ، فهذا تحذير من الله تعالى لنا من أن نعرض سمع أطفالنا وأنفسنا للوقر أي الثقل في الأذن الذي تتعطل به وظيفة التمييز السمعي فلا يعود قادراً على فهم مراد الله منه ،

ولعمري إن ذلك لغاية الضلال . ونحن ننظر في بيئة الطفل وما يعرض لسمعه ، فماذا نجد؟ أغاني وموسيقى وألحان ومجون وطرب ومطربين ومطربات ومغنين ومغنيات ولا حول ولا قوة إلا بالله . . إذا - أيها الغالي - عندما تضع لطفلك الأغنية الموسيقية فإنك تعرض سمعه للثقل وتلهيه عن سبيل الله فأى خسارة للطفل تلك وأي مصيبة؟! وأحيلك أيها القارئ إلى الفصل الذي عقدناه للتعليق على سورة لقمان لتستزيد في هذا المجال .

٤- تعويد الطفل والصبي المميز والشاب على عدم مجالسة الخائضين في آيات الله وعدم تحمل ذلك البتة وعدم السكوت عنه . وتعليم الطفل والصبي والشاب أن أضعف الإيمان في هذا الباب هو عدم الجلوس معهم إن لم يتمكن من الإنكار عليهم ، تأمل قول الله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِمْ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (النساء ١٤٠) . فلا يجوز أن ينمو الطفل ويتربى على أن لا يرتكس ولا يغضب ولا يضطرب لانتهاك حرمة الله والاستهزاء بآياته فإن تلك بلادة وبرودة في إيمان المرء لا تستقيم معها سلامة الإيمان والولاء لله عز وجل والبراء ممن سواه سبحانه وتعالى ، وكن على ثقة وعلم بأن من شبَّ على تحمل هذه الاستهزاءات صغيراً فإنه لن يكثر لها كبيراً لأن "حسه" الإيمانى قد تبلد إلا من عافاه الله وأنقذه من ذلك التبلد القاتل .

٥- أن نعلم الطفل ونتعهد سمعه وأذنه بحيث يستطيع التمييز بين الخبيث والطيب والصحيح والسقيم والصالح والطالح ، بحيث يتشكل لديه منهج ومعيار سليم يمكنه من توظيف حاسة السمع لاختيار ما يصلح لحياته وسلوكه كمسلم ويكون نموذجاً عملياً لقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر ١٨) ، وإن الطريق إلى

هذا - كما تبين الآية - هو بالتمثيل للطفل بالقدوة الصالح ، وبإنكار المنكر ونصرة الحق أمامه حتى يتعلم بالطريق العملي ثواب المعيار النظري .

بمثل هذه التربية والتعهد لوظيفة السمع نخرج نحن المربين من العهدة حين نُسَلِّم الطفل حاسته السمعية سليمةً عند بلوغه وتحول العهدة إليه حتى يتمكن من تسخيرها في سبيل تزكية نفسه والسمو بها في سبيل الله ، وبهذا كله نخرج من المسؤولية التي بينها الله تعالى لنا في قوله : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (الإسراء ٣٦) . وبهذا أيضاً يتحقق شكر النعمة الذي نرجو أن يكون سبباً إلى الزيادة والإمداد فيها .

ثانياً : حاسة البصر :

يتأخر نضج هذه الحاسة من حيث الوظيفة الظاهرة وهي الإبصار . وإن نضج هذه الحاسة يعتمد على تفعيل العين الباصرة بالمدركات البصرية المرئية . وإن العجيب في خلقه تعالى أن أفضل هذه المرئيات إدراكاً عند الوليد - من حيث الشكل المرئي - هو ما كان على هيئة الوجه ، ومن حيث القرب هو ما كان على بعد ٣٠ سم تقريباً ، ومن حيث اللون اللون الأصفر (وهو أقرب الألوان إلى بشرة الإنسان) فإذا تأملت ذلك كله أدركت أن الوضع الأفضل الذي تتمثل فيه هذا العناصر مجتمعةً لتعطي التفعيل الأفضل لعين الوليد هو الوضع الذي تنظر فيه الأم المُرْضِع إلى وليدها أثناء الرضاعة لأنه ينظر إلى "وجه" هو وجه أمه ، وعلى مسافة تقارب ٢٥ - ٣٠ سم ، وإلى لون بشرتها المقارب للون الأصفر الأليف لعينيهِ ، فتأمل هذا التناسق العجيب في خلق الله ثم تأمل في صورةٍ أخرى حيث ينظر الوليد المسكين إلى زجاجة الحليب المسندة إلى طرف الوسادة وهو ينظر إلى الحائط أو طرف السرير فلا وجه يتسم له ولا تفاعلاً يليق بإنسانية هذا الطفل الوليد ، فمسكين ذلك الوليد الذي تكله أمه إلى زجاجة الحليب وهنيئاً لذلك الذي لامست بشرته بشرة أمه الحنون ووافق بصره محياها وابتسامتها .

هذا من جهة وظيفة الإبصار ، أما الوظيفة الحقيقية لحاسة البصر - وهي التبصرُ - فسنتناولها فيما يلي إن شاء الله بعد أن نعرض لبعض مميزات حاسة البصر :

١- حاسة البصر غير ناضجة تماماً عند الوليد كما قدمنا لاسيما من جهة وظيفة الدماغ في تلقي المدركات المرئية ، ومعرفة هذا الأمر مهمة كي يتنبه الأهل إلى أي خلل في وظيفة العين فيتم تداركه مبكراً قبل أن يؤثر على سلامة الرؤية . ولقد أشرنا إلى هذا الأمر في معرض الحديث عن اللغة في مثال الغطش فليرجع إليه .

٢- إن وظيفة البصر وظيفة فاعلة في معظم الأحيان ، وإن نسبة قليلة من الإبصار تتم عفواً وبشكل عارض ، ولهذا يجب تزويد الفرد بضوابط تعينه على اختيار المرئيات المناسبة حتى لا يوظف حاسة البصر فيما لا يجدي أو لا يجوز . ولقد أشار الله عز وجل لمثل هذه الضوابط في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ ﴾ (النور ٣٠) وفي قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ ﴾ (النور ٣١) .

٣- إن وظيفة الإبصار وسيلة النظر والتأمل في كتاب الله الكوني ، وإن هذا التأمل مهم جداً للفرد المسلم لأنه مفتاح تعميق إيمانه بالله عز وجل ، وانظر إلى مصداق ذلك في قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۚ ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۚ ﴾ (الملك ٣-٤) فمن المهم إذا العناية بهذه الحاسة حرصاً على حسن توظيفها في التأمل في ملكوت الله عز وجل .

هذه بعض السمات الخاصة بوظيفة الإبصار ، ولكن ما هو المقصود الحقيقي من حاسة البصر وما هو هدف تسخيرها للإنسان؟

إن لحاسة البصر وظيفة ظاهرة هي إدراك المرئيات وهذا ما اصطلاح له بالإبصار . ثم إن من وراء ذلك وظيفة باطنة هي تمييز المدركات المرئية بما يترتب

عليه أثرٌ عقلي ونفسي وسلوكي في حياة الفرد، وهذه هي البصيرة. وتوضيحاً للأمر نقول إن وظيفة الإبصار هي التي نرى بها جمال الطبيعة و تناسق الأرض والجبال وبهجة الخضرة والماء وغير ذلك من صفحات الكون المثيرة المدهشة، أما وظيفة البصيرة فهي التي نميز بها وجود خالقٍ مُدبِّرٍ بارئٍ مصور حكيم قدير من وراء كل صفحة من تلك الصفحات الجميلة فإذا بهذا الإدراك البصري يستقر في القلب معرفةً يقينيةً بوجود الله سبحانه وتعالى، يقول الله عز وجل : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران ١٩١)، وتأمل قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۚ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۚ تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُثِيبٍ ۝﴾ (ق ٦-٨)، فإبصار المخلوقات على هذا الوجه يورث بصيرة التعبد لرب المخلوقات بالإجابة إليه وبالتقرب إليه سبحانه وتعالى. وهذا هو المقصود الحقيقي والهدف السامي لتوظيف وتسخير حاسة البصر. هذا بالإضافة إلى وظيفة التعلم من أجل تغيير واقع الجهل في نفس الفرد كما ذكرنا في حاسة السمع.

فإذا ما تعرفنا على وظيفة وهدف وسيلة البصر، فلا بد من أن نتساءل عن دورنا التربوي في حياة الطفل من أجل حفظ هذه الأداة سليمةً فاعلةً لأجل ذلك الهدف. وأقول ها هنا أيضاً إن أقل مستوى مقبول لتربية الطفل بالنسبة لأداة التلقي هي الوصول بالطفل إلى مرحلة البلوغ والمسؤولية وهو سليم الحواس لم تشبها شائبةً تعطل من وظيفتها، وفي مجال البصر نقول إننا نريد أن تصل التربية بالعين إلى درجة البصيرة بمعنى تحقيق الأثر العملي والعقلي والنفسي والسلوكي لإدراك المراثيات عند الطفل، وتحقيقاً لمرتبة التبصر التي تؤمن للفرد طريق العودة عند الشطط والانحراف كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ

الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ (الأعراف ٢٠١). وإليك فيما يلي طائفة من الملامح التربوية التي تتناول حاسة البصر نسأل الله تعالى أن تكون لنا عوناً على حسن تعهد أطفالنا وشبابنا:

١- يجب أن يكون التركيز في بداية حياة الطفل والصبي على التوجيه نحو التأمل والتفكير في صفحات الكون بواسطة وظيفة الإبصار وذلك كخطوة مرحلية تهدف إلى الوصول التدريجي نحو مرتبة التبصر والبصيرة. ذلك أن إدراك الطفل الصغير لا يتناسب مباشرة مع مرتبة البصيرة ولذلك يجب أن يكون تعهده في البداية بالحرص على ألا يقع ناظره على خبيث أو حرام حتى لا تستسيغه عينه فتستسيغه نفسه ولا ينكره قلبه، فإذا انصرف نظر الطفل إلى الحلال وتأصل في حاسة الإبصار لديه مشاهدة الطيب والتنزه عن الخبيث تولد عن ذلك نور وبصيرة تصبح له بها حياة حقيقية كما وصف الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ (الأنعام ١٢٢). فلا بد من توجيه الطفل نحو ما تقدم ثم حثه على التأمل في صفحات الكون على النحو الذي أشار إليه الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٢٠٣﴾﴾ (الحج ٤٦)، ففي هذه الآية محذوفات دل عليها غيرها من المذكورات؛ ففي الشق الأول من الآية توجيه نحو أعمال القلب كي يعقل به المرء وإلى أعمال الأذن كي يسمع بها ولم يذكر أعمال البصر اكتفاء بالإشارة إليه في الشق الثاني من الآية حيث دل على الأمر بأعمال البصر ما ذكره وحذر منه لاحقاً مما يترتب على إغفاله حيث قال: "فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور"، واستغنى عن الاستطراد في نتيجة عدم أعمال حاسة القلب والأذن بالنتيجة المماثلة لعدم أعمال

حاسة البصر وهي العمى . وهكذا كانت الآية جامعةً معجزةً بليغةً فريدةً في معناها ومبناها . والشاهد هنا على كل حال هو في قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ فالمقصود أن هذه الحواس تحتاج من يوجهها ويسيرها للعمل حتى تؤتي نتائجها وتحقق أهدافها ، وهذا هو أول دور للمربي تجاه الطفل ألا وهو توجيهه نحو التأمل في ملكوت الله وبديع خلقه وإحسانه إلى خلقه فتأمل هذا الدور فإنه مهم ودقيق .

٢- أما في المرحلة الأكثر نضجاً للطفل وهي مرحلة الصبي المميز ثم الشاب فيجب أن نركز على ترسيخ مفهوم البصيرة والارتقاء بحاسة العين إلى درجة البصيرة واتقاء الإعراض عن ذكر الله عز وجل خشية نزع هذه النعمة بالصيرورة إلى العمى في الدنيا والآخرة كما حذر الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) (طه ١٢٤-١٢٦) ؛ آية مخيفة حقاً ، وتصوير رهيب لموقف المعرض عن ذكر الله في الدنيا وهو بين يدي الآخرة . فدورك أيها المربي في هذه المرحلة من عمر الطفل والشاب هو فتح مغاليق بصيرته وتوجيهه نحو حقيقة التأمل فيما وراء الصور والرسوم إلى ما هو خلف هذه الصور والرسوم من خالقٍ بديع مدبر ، وصانع باريٍّ مصور . وأرجو أن تعود إلى تعليقنا على سورة لقمان لتقف على منهج تربوي فريد بديع يتناول هذا المحور ؛ محور توجيه حواس الطفل - ومنها البصر - نحو التأمل والقراءة في خلق الله تأملاً مُفضياً إلى حسن التعبد والتأله له سبحانه وتعالى .

٣- تربية الشاب على مراعاة الحرمات من خلال أدب الاستئذان حتى لا يقع بصره على عورةٍ حرام فيؤثر ذلك فيه ، وعلى مراعاة غض البصر حتى لا تألف عينه الحرام فتورده المهالك وتُعطل البصيرة والفهم ، ومنطلقه في هذا أمر الله تعالى :

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾ (النور: ٣٠).

٤- أن تجعل للطفل والصبي والشاب ولنفسك هدفاً سامياً لتوظيف حاسة الإبصار له - وهذه الصورة التي نرسمها هي الوحيدة التي يرتقي فيها الاستشعار الحسي المجرد ليصل إلى مستوى الإدراك والفهم القلبي - وليس ذلك الهدف إلا التشوف لرؤية الله تعالى يوم القيامة كما يبشر القرآن الكريم: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٣٦﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٣٧﴾﴾ (القيامة: ٢٢-٢٣)، والخسار الخسار لمن حجب عن ربه عز وجل، يقول تعالى عن الفجار المكذبين: ﴿كَأَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَّحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ (المطففين: ١٥)، اللهم تفضل علينا برؤية وجهك الكريم في جنتك جنة النعيم، آمين.

ثالثاً: حاسة الفؤاد (القلب) :

ليس القلب مما يعده الناس حاسة أو أداة للتلقي فيما درجوا عليه وتعلموه، إذ يقتصر تعريف الحواس عند الكثير على أدوات الحس "الخارجي" كما ذكرنا وهي الأذن والعين والأنف واللسان والجلد المسؤولة عن الإحساس بالأصوات والمرئيات والرائحة والذوق والألم على التوالي. ولكننا نجد أن القرآن الكريم والسنة المطهرة يؤكداً على الدور العظيم للقلب أو الفؤاد سواءً أكان في تلقي المدركات والتعامل معها أم في تغيير واقع جهل الإنسان أم في تنظيم وتسيير سلوك الجوارح عند الفرد، فالله تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (النحل: ٧٨) فذكر الفؤاد مع كل من حاستي السمع والبصر، ويقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ (الإسراء: ٣٦) فذكر الفؤاد ثانية مع السمع والبصر، وهكذا معظم - إن لم يكن كل - الآيات القرآنية التي تعرض لهذه المسألة. وفي الحديث النبوي: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ألا وهي

القلب» ، ففي هذا الحديث دلالة على تفرد القلب بالسيطرة على باقي الجوارح ، فلا بد من أن يكون له جنس إدراك مشابه لإدراكات الحس الأخرى حتى يصح أن يكون حاكماً عليها ومسيراً لها . ولعل الأمر ينجلي إذا اعتبرنا أن وسائل الحس والإدراك الخارجي هي ما تقدّم من الحواس الخمس التي تتلقى المؤثرات الخارجية تلقياً أولياً ، في حين أن القلب هو المحطة النهائية لكل ذلك فيما نستخدم عليه "الإدراك الداخلي" ، لذلك نجد أن القرآن الكريم يحدد انتفاع الفرد بما يتلقاه من خلال وسائل الإدراك بشرط مهم هو سلامة القلب ، تأمل في سورة ق بعد أن عرض موضوع السورة الرئيسي حيث قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق ٣٧) ، فيظهر لنا جلياً أن الانتفاع بالمسموع والمشاهد متوقف على عملية الإدراك القلبي الذي تتحقق به الذكرى ويحصل الانتفاع . لذلك فإن حاسة الفؤاد هي أشد الحواس ضرورة وأهمية إذ أنه في حين يمكن الاستعاضة - ولو جزئياً - عن تعطل أو غياب حاسة ما أو بعضها فإن حاسة القلب إذا فقدت فلا شيء يسد فراغها أو يقوم مقامها البتة .

وقد يتساءل البعض عن سبب تقديم السمع والبصر في الذكر على الفؤاد في الكثير من المواضع القرآنية مع أنه - كما نقول - أهم منها ، قلت : لعل النكتة في ذلك أن ما يتلقاه القلب أو الفؤاد يكون متوقفاً في الغالب على ما يتلقاه السمع والبصر وغيرهما من الحواس أولاً ثم يأتي دور القلب في التعامل النهائي مع هذه المدركات على الوجه الذي يترتب عليه الأثر النفسي أو العلمي أو العملي .

إن المسلم حين يتدبر الآيات والأحاديث الواردة في ذكر القلب والفؤاد ووظيفته في الفهم والإدراك والحياة يتحرر من التعريف المادي الضيق " للقلب " الذي ينحصر في تلك العضلة المتقبضة النابضة بالحياة الجسدية ، ويدرك أن "القلب" دوراً موازياً في الحياة الروحية النفسية ، بل إن دوره هذا أعظم شأناً من دوره الجسدي كعضلة قلبية لأن حياة الروح والنفس مقدمة على حياة الجسد والأعضاء ، بل إن معنى "

الحياة" في المفهوم الإسلامي يكاد ينصرف إلى حياة الروح والنفس دون نظر إلى حياة الجسد والأعضاء من حيث القيمة الحقيقية، بل إن حفاظ الإسلام على الجسد ليس إلا بسبب الحرص على الروح. وبهذا الفهم يستطيع المسلم أن يرسم لنفسه هدفاً لوظيفة القلب كأداة حس وتلقي، هذا الهدف هو تحقيق الفهم والقبول للعلم الشرعي والكوني الموصل لمعرفة مراد الله من الإنسان والعمل بمقتضى ذلك تحقيقاً للحياة الحقيقية في الدنيا والآخرة. وأنت تجد هذا المعنى جلياً واضحاً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال ٢٤)، فهذه الآية الجامعة ترسم لك منهجاً فريداً في تسخير هذه الحاسة - حاسة القلب - في سبيل سعادتك ونجاتك أيها المسلم، فلقد حددت مصدر التلقي بالله عز وجل ورسوله ﷺ، وحددت المكان القابل بالقلب وحددت منهج العمل بالاستجابة العملية لدعوة الله ورسوله ﷺ بعد تلقي تلك الدعوة واستقبالها في القلب، وربطت ذلك كله بالإيمان الغيبي بالحقير الباعث على التزام هذا المنهج، وحذرت من الطامة الكبرى والمصيبة العظمى التي قد يعرض المرء نفسه لها إذا ما أعرض عن تطبيق هذا المنهج فأشغل قلبه عن تلقي الدعوة من الله وإصدار أوامر الاتباع للجسد والجوارح، فإذا به في طريق استدراج والهاء لا يلبث أن ينتهي به إلى حالة عقيمة هالكة هي ما حذر منه تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فلا يعود الفرد متمكناً من توظيف حاسة القلب في تلقي أوامر الله عز وجل ومنهجه - بعد أن أعرض عن هذه الأوامر وهذا المنهج - وأصبح مثله مثل المبصر الذي اختار المكث فترة طويلة في كهف مظلم لا نور فيه ولا ضياء فإنه مع طول المكث في الظلام الحالك لا يستطيع أن يبصر شيئاً من النور والضياء بعد أن يخرج من هذا الكهف لأنه لبث في الظلام فترة عطلت وظيفة الإبصار وهذا أمر مشاهد محسوس.

هذا وإن البحث في علم القلب مجال استطراد ودراسة واسعة ليس هذا مجالها، وإنما أردت أن أوضح للأب والأم المسلمين المؤمنين معالم المنهج الإسلامي في توظيف هذه الحاسة لتحقيق حياة الفرد الصحيحة السعيدة برضا ربها، حتى يعمل كل منهما جاهداً على تعهد هذه الحاسة تعهداً خاصاً عند الطفل، لأن مدار الأمر كله على سلامة هذه الحاسة وحسن توظيفها في حياة الطفل، فما هو دور التربية في تعهد حاسة القلب عند الطفل إذا ؟

إن الحد الأدنى المطلوب من المربي هو حماية قلب الطفل من الشوائب واللوثات التي تعطل سلامته في الحس والتلقي، وهكذا يعمل المربي جاهداً على توصيل الطفل إلى مرحلة البلوغ والتكليف وهو سليم القلب خالٍ من الانحراف والمرض بحيث تصل التربية القلبية إلى قابلية الفهم والإدراك السليم على أقل تقدير. ولكن الأمر يتجاوز في الواقع مجرد المحافظة على سلامة الفطرة إلى ضرورة تغيير واقع الجهل البشري المتلبس بالفرد حال الولادة، وهذا يستلزم تعهد الطفل بـ "العلم" النافع المفيد المغيّر لواقع الجهل هذا، وقد بينا المقصود من ذلك سابقاً. وأحيل القارئ إلى مبحث التطور الاستعرافي عند الطفل فيه إشارة إلى أمثلة من التعهد الاستعرافي الفكري عند الطفل. والحقيقة أن موضوع هذا التعهد هو موضوع العقيدة الإسلامية برمتها، ولكن النكته في مجال التربية هي رفد الطفل بما يلائم سنه ومستواه العقلي في كل فترة من فترات نموه وتطوره الروحي الحركي، وليس مجرد انتظار سن البلوغ والتكليف ثم صبّ أكوام العلم الهائلة فوق رأسه ومطالبته بفهمها والالتزام الكلي بها. إن فترة نمو وتطور الطفل تشكل فرصة ثمينة للتعهد التدريجي للنفس والفكر الفردي، وتذكر أن فترة حضانة الوالدين للطفل هي أطول فترات الحضانة بين كل الأجناس الحيوانية وليس ذلك إلا لأن إعداد الطفل البشري هو لمهمة تفوق ضرورات الجسد وتسمو على حاجات الطعام والشراب

واللباس، ثم تأمل معي أن فترة التعهد العقائدي في الفترة المكية من الدعوة والبالغة ١٣ عاماً من الدعوة والتربية العقائدية هي فترة موازية تقريباً لفترة تربية وحضانة الطفل إلى سن البلوغ والتكليف أي حوالي الثالثة عشر من العمر، وكأني بالمسلمين الأوائل من الصحابة "أطفالاً" في مدرسة الدعوة - ولو كانوا رجالاً ونساءً بالغين بالمعيار الزمني - فكان لا بد من فترة الحضانة والتربية لهؤلاء "الأطفال" حتى تأخذ التربية حقها وتحدث أثرها، ولقد أحدثت هذا الأثر فعلاً حين تخرج من تلك المدرسة رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، رجال عمروا قلوبهم بالإيمان وعمروا بيوت الله بالعبادة، وعمروا الدنيا بالنور والهدى الرباني. وتأمل مثلاً كيف أن ابن عباس - رضي الله عنهما - وقد كان طفلاً في صدر الدعوة قد تخرج رجلاً من مدرسة محمد ﷺ ينافس "أشياخ" المسلمين وطبقات الصحابة الأوائل رغم تقدم أعمارهم، وحقيقة الأمر أن ابن عباس وإن كان صغير السن مقارنة بأشياخ المسلمين فإن عمره التربوي الإسلامي قد ضيق فارق السن هذه إلى درجة جعلته يتفوق على الكثير من الصحابة علماً وفهماً وإدراكاً، تأمل معي هذه الحادثة التي رواها البخاري عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه وقال: لم يُدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من أعلمكم. فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذٍ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً. فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: وماذا تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: «إذا جاء نصر الله والفتح» فذلك علامة أجلك، «فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً». فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول.

فالشاهد هنا هو أن التعهد بالتربية القلبية السليمة وفق منهج الإسلام هو الكفيل بتخريج دفعة جديدة من المسلمين الذين يتمثلون الرسول ﷺ وصحابته الكرام قدوة فيتمكنون من إحداث التغيير المنشود كما أحدثه الصحابة رضوان الله عليهم. وإذا كانت التربية العقائدية قد أحدثت ذلك الأثر في نفوس رجال ونساء كانوا بالأمس كفاراً قد انحرفت بهم العقول والفطر فانقلبوا بنعمة من الله وفضل وأصبحوا مؤمنين حاملين للواء الإسلام، وإذا كان ذلك كله قد تم بعد ١٣ عاماً من التربية العقائدية انطلقوا بعدها في العهد المدني يترجمون هذه التربية إلى واقع حي متحرك نابض بالحياة، فإن أمامنا فرصة لأن نخرج جيلاً جديداً خلال عقد أو عقدين من الزمن إذا ما التزمنا نحن منهج التربية العقائدية هذا وتعهدها القلب والفؤاد من أطفالنا، فإذا بهم رجالٌ كأولئك الرجال، وإذا بوعد الله بالتمكين والاستخلاف واقع حي من جديد ولا يخلف الله وعده أبداً.

أما عناصر هذا المنهج التربوي القلبي فكما قلت هي عناصر العقيدة الإسلامية أجمع، وإن مدار هذا الكتاب كله حول هذا الأمر، فأتت إذا راجعت مراحل التطور الروحي الحركي وجدت أمثلة لتقديم هذه العناصر وفق ما يلائم عمر الطفل وفهمه، وإذا ما راجعت عرضنا لوسائل التربية وجدت أمثلة لكيفية إيصال هذه العناصر إلى فهم الطفل، وإذا ما راجعت عرضنا للأخطار المحدقة بالطفل وجدت أمثلة للموانع الواجب إزالتها مما يعطل قلب الطفل ويحرفه. فليست تربية الطفل للإسلام إذاً إلا عملية ربط منهجي بين عناصر العقيدة الإسلامية المتمثلة في المنهج الفكري القرآني والحديثي والواقع التطبيقي المتمثل في حياة النبي ﷺ وقرن الصحابة الكرام وبين أساليب ووسائل وبيئة التربية كما بيناها وعرضناها في هذا الكتاب، فإذا بهذا الربط يحقق لنا منهجاً متكاملًا في تربية الطفل للإسلام.

ولقد عقدت فصلاً خاصاً في نهاية الكتاب عرضت فيه لدراسة منهجية لسورة لقمان من حيث أنها تمثل - في نظري - منظومةً تربويةً إسلاميةً متكاملة من أول آية فيها إلى آخر آية، وهي بمثابة تطبيق عملي لكل ما تناولناه في هذا الكتاب فليرجع إليه .

بهذا أكون قد أشرت إلى وسائل تلقي عند الطفل وبيّنت التفاعل بينها وبين مادة التربية في الإسلام، وأرجو أن لا يتوقف القارئ عند حدود هذه الأسطر القصيرة عن استيعاب الأمر بكليته، وإنني أحث القارئ على العودة إلى القرآن يتفحص ظلاله وينقب عن كنوزه ونفائسه وإلى السنة النبوية المطهرة يتلمس فيها الفهم الصحيح لما جاء في القرآن والتطبيق السليم لأوامره حتى يتمكن من توظيف هذه الحواس وإعمالها وتسخيرها لتحقيق الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، إذ أن ما أشرت إليه في هذا الفصل ليس إلا قطرة ماء من خضم واسع عميق، فلا يضمن القارئ على نفسه وولده وأهله به، عسى أن نكون ممن يأتي الله تعالى يوم القيامة بقلب سليم.



وسائل التربية

ليس هذا الفصل بطبيعة الحال سफراً متكاملاً في مبحث الوسائل التربوية إذ أن موضوعاً كهذا يحتاج إلى إفراذه بمؤلفات مستقلة مستفيضة، وإنما أردت أن يكون هذا الكتاب متكاملاً نوعياً بحيث يجد فيه الأب والأم والمربي مادةً أولية تمكنه من الانطلاق والمضي في عملية التربية الإسلامية وصناعة الجيل الإسلامي المتميز، وحيث إننا قد عرضنا في مواضع أخرى من الكتاب مراحل التطور الروحي الحركي للطفل وجملةً من الأسس والأهداف التربوية له، كما عرضنا جملةً من الأخطار الفكرية والعقدية والسلوكية المترتبة بأطفالنا وأولادنا، وقدمنا للكتاب بجملة البواعث الحاثية لنا على التزام منهج التربية الإسلامية وجدت من الضروري أن أتناول - ولو من قبيل الإشارة والتمثيل - وسائل التربية بشيء من الإشارة بحيث تتكامل مادة الكتاب إن شاء الله. ولقد عرجنا في الفصل السابق على وسائل التلقي عند الطفل، وأود التنبيه على أن هذه التقسيمات لا تمثل تقسيماً حقيقياً ولا ترتيباً ملزماً لعملية التربية وإنما هو تقسيم بغرض الدراسة والبحث.

لا يخفى أن تأثر الطفل بالمحيط التربوي تأثرٌ شمولي باعتبار أن وسائل التلقي عند الطفل تستوعب مجمل المؤثرات البيئية فيما حوله وبصورة مبكرة جداً تبدأ عند الولادة على أقل تقدير. ولقد فصلنا في هذه المسألة في فصلها الخاص - وسائل التلقي - وإنما أردت الإشارة هنا إلى ضرورة استحضار ومراعاة هذا الأمر من أجل حسن اختيار الوسيلة التربوية الملائمة لسن الطفل ونضجه التطوري وفاعلية أجهزة التلقي لديه نوعياً وكمياً وقابليته الروحية العقلية على التعامل مع المحسوسات. ففي حين تكون حاسة السمع عاملةً منذ الولادة فإننا ندرك بوضوح أن فهم وإدراك الوليد والطفل لما "يسمع" يطرّد نوعاً وكمّاً مع نمو الطفل وتطوره، ألا إن ما يهمننا ترسيخه في أذهان المربين هو أن نوعاً ما من التلقي والإدراك والفهم يحصل ويؤثر

في كل مرحلة من مراحل الطفل التطورية بكل تأكيد وبغض النظر عن كيفية ذلك .
وسوف أتناول فيما يلي جملة من الوسائل التربوية محاولاً أن أستشهد عليها
بالدليل القرآني أو الحديثي ومحاولاً أن أربط بين الوسيلة التربوية وما يناسب أطفال
هذا الجيل في مراحلهم المختلفة مع إسقاط الشواهد القرآنية والحديثية على الواقع
التربوي لنخرج - بإذن الله - بصيغة عملية للاستفادة من هذه الوسائل ، وسوف نتناول
بالبحث والدراسة كلاً من الوسائل التالية :

١- وسيلة التلقين

٢- وسيلة القدوة

٣- وسيلة التعويد

٤- وسيلة اللعب

٥- وسيلة الإلهاء

٦- وسيلة التعليم الشرطي : أ) التعليم الشرطي السلبي (العقوبة - الضرب).

ب) التعليم الشرطي الإيجابي (المكافأة).

أولاً : وسيلة التلقين :

لعل التلقين أكثر الوسائل التربوية بساطةً وبدايةً من حيث تعامل المربي مع
الطفل الملقن ، فهو لا يستدعي أية حرفة أو مهارة خاصة ولا يستلزم أية مناورة
فكرية أو كلامية ؛ إنه ببساطة إلقاء الفكرة أو المعلومة إلى المتلقي بغية إعلامه أو
إفهامه هذه الفكرة وإيداعها في عقله .

والضابط المهم في استخدام هذه الوسيلة هو ملاءمة المحتوى لسن الطفل وفهمه
وإدراكه من أجل عدم تفويت الفرصة لتلقيه ما يحتاج إليه في تلك السن والمرحلة
من جهة ، ومن أجل عدم تشويش فكر الطفل وعقله بتلقيه ما هو فوق مداركه العقلية
والنفسية من جهة أخرى . وهذا ضابطٌ دقيق ومهم ، ولكن يجب إدراك مدى التفاوت
الفردى بين الأطفال في هذا الباب ، بمعنى أن المسألة ليست مجرد تحديد العمر
الزمنى للطفل وتلقيه معطيات مفصلة على " مقاسه " الفكرى بصورة موحدة لكل

الأطفال، وإنما هي عملية تفاعل حركي متبادل مع الطفل بحيث يكون هناك تلقين واسترجاع؛ تلقين من الأهل إلى الطفل واسترجاع من الطفل إلى الأهل ليقوم الأهل بتقويم مدى فهم الطفل وإدراكه لما يلقى إليه، فإن كان مناسباً فيها، وإلا توجب رفع أو خفض مستوى ما يلقى إلى الطفل بحسب نضجه الفردي مع مراعاة التدرج المستمر إلى أعلى شيئاً فشيئاً دون إرهاق لعقل الطفل وتحمله فوق المطاق.

إن ملاحظة هذا الأمر دقيقة ومهمة لأننا نجد - مع الأسف - انحراف الأهل والأقارب والمجتمع والمدرسة نحو المسارعة إلى توصيف الطفل بالبلادة والغباء لأنه "لا يفهم"، ولا نراعي أننا لا نكيف ما نلقيه للطفل بحسب مستوى فهمه واستعداداته الفردي وموهبته الفردية. كلنا يريد لولده أن يكون عالماً وطبيباً ومهندساً وصاحب شهادة جامعية عليا وذلك كله جميل، ولكن كل طفل ليس مهياً فكرياً ولا عقلياً ولا نفسياً لذلك! فإذا استمر اصرارنا على تلقينه ما نريد مع عدم مراعاة ما يستطيع تخيلنا أن الطفل "بليد" ووصمناه بالغباء ثم تخيلنا بالكلية عن أي تلقين أو تعليم له وفقدناه إلى البطالة والشوارع وما لا يعلمه إلا الله، وقد يكون عند هذا الطفل مقدرة فذة على أن يكون نجاراً بارعاً أو مزارعاً نشيطاً أو تاجراً ناجحاً أو موظف استقبال بسيط يبعث البهجة في كل من يلاقيه وهكذا.

ولقد صرح القرآن الكريم بهذا التفاوت بين الناس وصرح بحكمته وغايته، يقول تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِرِيًّا﴾ (الزخرف ٣٢). ولقد ساهمت النظم المدرسية في مجتمعاتنا في ترسيخ هذا السلوك الخاطيء - أي توحيد التلقين - لأن معظم إن لم يكن كل المدارس في بلادنا لا تراعي التفاوت في الاستعداد المعرفي للأطفال، فإما أن تهبط بتلاميذها المتفوقين إلى مستوى العاديين فيفقد المجتمع تلك الفئة المبدعة المتفوقة فكرياً، وإما أن تتعامل مع تلاميذها أجمع من خلال مستوى "المتفوقين" فتكون النتيجة ظهور الغير بمظهر البليد الغبي، لماذا؟ لأننا نريد أن ندرس نفس المنهج ونفس المواد ونفس المعطيات وفق قالب جاهز مسبق الصنع

وعلى الطالب أن يتكيف معه بغض النظر عن مداركه وقدراته الفردية. وأصبح "النجاح" في المجتمع مرهوناً بشهادة جامعية أو دراسة في مدرسة كذا أو كذا. والأهل يتعاملون مع هذا الواقع بالسرور والفرح تجاه من "ينجح" دائماً وبالعزلة والهجر والضرب والزجر لمن "يرسل" دون أية مراعاة للفوارق الفردية كما تقدم. وليست هذه بطبيعة الحال دعوة لإحلال المدرسة أبداً ولا يجوز أن يفهم هذا مما قلت بل يفهم منه ما يلي : إنني أعتبر الأهل والمدرسة إلى أمر مهم جداً ألا وهو "التعليم الاصطفائي" ؛ بحيث نأخذ بعين الاعتبار أن مناهج الدراسة في مدارسنا تلائم على سبيل التقدير ٧٠-٨٠ ٪ من أبنائنا، وتبقى نسبة صغيرة ذات كمون عقلي فائق وأخرى ذات ميل دراسي أقل، ولا بد من ملاحظة شدة الحاجة في مجتمعاتنا للفريقين الأخيرين، ومصطلح التعليم الاصطفائي الذي أشرت إليه أعني به الاهتمام الزائد والتكيف الفردي لمستوى المنهج الملقن لطلاب من الفريقين الأخيرين بحيث تبرز وتضخم وتنمي الشائكة الفكرية العالية عند الفريق الأول، وتنمي وتبرز الكمونات والمواهب الفردية الخاصة بالفريق الثاني الذي قد يكون في مجال غير مجال الدراسة المنهجية المعتادة. وبهذا نخسر أياً من القدرات البشرية المتنوعة. ونريد من الأهل - ريثما يتحقق ذلك في المدارس - أن يتعاملوا مع الطفل الذي لا يبدي استعداداً للمدرسة لأسباب غير الكسل والتفلة والانحراف نحو الضياع بصورة غير صورة البذ والهجر والزجر، بل نريد لهم أن يقوموا بالبحث عما يهواه الطفل ويبدع فيه من أجل العمل على تنمية هذا الكمون والإبداع فيه، وليكن بعد ذلك ما يريد بشرط أن يسعى ويكبد ويعمل في سبيل النجاح في هذا الذي يحبه سواء أكان حرفة مهنية أم زراعة أم تجارة أم أي إبداع آخر.

هذا استطراد وجدتني مضطراً لذكره بسبب شدة ما يعاني أولادنا من الأثر السيئ الناجم عن هذا "الضغط" وما يفضي إليه من ضياع هؤلاء الأولاد الموسومين بالفشل دراسياً في حين أننا نحن الذين فشلنا في التعرف على طاقاتهم النوعية وتفجير موهبتهم الفردية، فليتبه لذلك.

عودة إلى التدرج في المستوى في أسلوب التربية بالتلقين، ولقد عقدنا فصلاً خاصاً عن التطور الاستعرافي لدى الطفل ورأينا معالم مميزة لكل سن ومرحلة عمرية في السنوات الخمس الأولى - أي فترة ما قبل المدرسة. وسوف أسرد هاهنا بإيجاز غير مخل معالم التدرج في إدراك الطفل للملقن : إن أبسط معطيات التلقين النهي؛ ويبدأ الطفل بالتجاوب مع النهي بكلمة "لا" في الشهر الثامن إلى العاشر من العمر تقريباً، ويتطور الإدراك إلى خطوة لاحقة هي الاستجابة للأوامر البسيطة و إدراكها وتنفيذها مثل ق قوله : ضع أو خذ أو افعل كذا أو كذا. . وذلك في الطلب المؤلف من أمرٍ واحدٍ أو خطوةٍ واحدة، وتظهر المقدرة على تلقي هذا الطلب البسيط وتنفيذه في النصف الأول من الثانية للعمر تقريباً وترسخ شيئاً فشيئاً مع تزايد الرصيد اللغوي لدى الطفل. وفي مرحلة لاحقة يتجاوب الطفل مع أوامر وطلبات أشد تعقيداً بحيث تتألف من خطوتين مثلاً كقوله : " خذ كذا وأعطه لماماً أو باباً".

ويلقي الطفل السمع في السنة الثانية من العمر للقصص القصيرة البسيطة ويتفاعل معها شيئاً فشيئاً، وإن أسلوب القصص من أمتع أساليب التلقين للطفل لا سيما القصص التي تقرأها الأم أو الأب في فترة تفرغ تام للطفل. وأذكر تعليقاً سمعته للشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله - في حديث على "الرائي" (كما كان يسميه رحمه الله) يتعجب فيه من ابتداء كثير ممن يحفظون الأطفال كتاب الله عز وجل بجزء عمّ على ما فيه من صعوبة لغوية وفصاحة وبيان أعجز قريش أهل اللغة والفصاحة، ونوه الشيخ الطنطاوي إلى أن في قصص القرآن الكريم الكثيرة والطويلة مجالاً خصباً ومرتعاً ممتعاً لفكر الطفل وذهنه يكون أشد تشويقاً للطفل لسماع القرآن وحفظه وأكثر تلاؤماً مع فكر الطفل وعقله. وأنا أؤيد هذا الرأي بشدة، وأقول إن هدفنا من تحفيظ أطفالنا كتاب الله ليس مجرد إيجاد "نسخ" مكررة من المصاحف بقدر ما هو إيجاد تفاعل إيجابي مع فحوى كتاب الله ومضمونه، ولا بد إذ ذاك من أن يتلاءم محتوى السورة والآية الكريمة مع عقل الطفل ومستواه الفكري

(ولا أقلل أبداً من أهمية حفظ القرآن واستظهاره المجرد فهذه خصيصة هذه الأمة، ولكنني أشير إلى ضرورة عدم التوقف عنده فقط).

وعلى كل حال فيمكن التعرف والاستدلال على بلوغ الطفل هذه المعالم التطورية والنضجية من خلال أمرين اثنين، أحدهما هو التطور اللغوي عند الطفل والذي يتماشى ويسير جنباً إلى جنب مع التطور الاستعرافي ولقد أشرنا إليهما تفصيلاً في موضعه، وثانيهما ملاحظة إنصات الطفل واستماعه واسترجاع ما لُقِنَ إليه بصورة مباشرة (كأن يذعن لأمر أو طلب بسيط فينفذه) أو غير مباشر (من خلال تغيير ملحوظ في سلوك الطفل وتصرفه وكلامه). فعملية التلقين أسلوب تربوي يتفاعل فيه الجانبان معاً؛ الأهل والطفل للوصول إلى هدف التربية، وإلا فبدون هذا التفاعل يصبح "التلقين" مجرد صراخ في واد لا يعلم متى يرجع صده.

وإليك شواهد وأمثلة من الكتاب والسنة يمكن ملاحظة تطبيق أسلوب التلقين فيها بوضوح مع ملاحظة تكييف المحتوى الفكري لما يُلقِن وفق النضج الفكري للطفل المتلقي، وسأقتصر على نموذجين اثنين فقط فيهما إشارة كافية للدلالة على ما نقول:

(١) النموذج الأول:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يؤتى بالتمر عند صرام النخل، فيجيء هذا بتمره وهذا من تمره حتى يصير عنده كوماً من التمر، فجعل الحسن والحسين رضي الله عنهما يلعبان بذلك التمر، فأخذ أحدهما تمرَةً فجعلها في فيه، فنظر إليه رسول الله ﷺ فأخرجها من فيه فقال: «أما علمت أن آل محمد لا يأكلون الصدقة»^(١)، وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ الحسن ابن علي رضي الله عنهما تمرَةً من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال النبي ﷺ:

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري - الحافظ ابن حجر العسقلاني - ج ٤ - حديث ١٤١٥

« كخ كخ » ليطرحها. قال: « أما شعرت أننا لا نأكل الصدقة؟ »^(١).

نتأمل في هذا الحديث بروايته، وقد أورد الإمام البخاري الرواية الأولى تحت باب "أخذ صدقة التمر عند صرام النخل، وهل يتبرأ الصبي فيمس تمر الصدقة"، وقد ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني رواية بعد عن محمد بن زياد أنه سمع أبا هريرة قال: « كنا عند رسول الله ﷺ وهو يقسم تمرًا من الصدقة والحسن في حجره » (أخرجه أحمد) في سياق شرح الرواية الثانية الواردة أعلاه. وكل ما سبق يدل - إضافة إلى التصريح بذلك في مسرود الحديث - أن الحسن كان صبيًا غير مميز وقت توجيه الخطاب إليه، ولقد ذكر الحافظ ابن حجر ما استنبطه الطبراني والطحاوي من الحديث ومنه: جواز إدخال الأطفال لمساجد وتأديبهم بما ينفعهم ومنعهم مما يضرهم ومن تناول المحرمات وإن كانوا غير مكلفين ليتدربوا على ذلك. وفيه الإعلام بسبب النهي ومخاطبة من لا يميز لقصد إسماع من يميز لأن الحسن كان إذ ذاك طفلًا.^(٢)

فالحسن رضي الله عنه كان طفلًا صبيًا غير مميز، وهذه الفترة عموماً تصل إلى الفترة ما بين ٥ - ٧ سنوات الأولى من العمر (أي سن ما قبل المدرسة في واقعنا المعاصر). ونجد أن أسلوب التلقين المباشر لهذا الطفل في قوله: « كخ كخ » دون تعنيف أو توبيخ يمثل أسلوباً مناسباً للطفل ابتداءً من الشهر العاشر من العمر تقريباً (وهي المرحلة التي يبدأ فيها بالاستجابة للنهي بـ "لا" كما تقدم)، ونجد أن رسول الله ﷺ قد شفع هذا النهي ببيان سبب النهي - كما ذكر الحافظ ابن حجر - مع أن الحسن لا يفهم ذلك في هذا العمر والقصد من ذلك إما التعويد وإما إسماع الغير أو كليهما. إن هذا النموذج التربوي يقدم لنا صيغة تربوية بديعة للتعامل مع الطفل في هذه

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري - الحافظ ابن حجر العسقلاني - ج ٤ - حديث ١٤١٦.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري - الحافظ ابن حجر العسقلاني - ج ٤ - ص ١٢٢.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري - الحافظ ابن حجر العسقلاني - ج ٤ - ص ١٢٣.

المرحلة من العمر ، وأريد أن ابرز العناصر الرئيسية لهذه الصيغة في النقاط الرئيسية
للتالية :

١- التركيز على تعريف الطفل مبكراً على المساجد وذلك بإحضارهم إليها
وترددهم عليها سواء أكان في وقت العبادة - أي الصلاة - أم كان في وقت آخر
من أوقات العمل الجماعي - كما هو الحال في هذا الحديث حيث كان الحضور
في المسجد للتصرف في تمر الصدقة . فهذا العنصر يشير إلى ضرورة التركيز
على "بيئة" التربية منذ نعومة أظفار الطفل .

٢- إطلاق حرية الطفل وإعطائه حقه في اللعب كما يظهر من الرواية الأولى ، ذلك
أن اللعب جزءٌ طبيعي مهم من حياة الطفل وعنصر رئيسي من عناصر التطور
الروحي الحركي لديه ؛ إنه وسيلة الاتصال والتعامل مع الغير بالنسبة للطفل ولا
يجوز بحال من الأحوال أن يحرم الطفل من ممارسة هذا السلوك الطبيعي ، بل لا
بد من إتاحة الفرصة للطفل ليعلن عن براءته وطفولته وبشاشته بأساليب اللعب
التي يألّفها ويأنس إليها ، وإذا كان الحسن والحسين يلعبان في المسجد وبحضرة
رسول الله ﷺ فأى مكان أفضل من المسجد حتى نحرم الطفل من اللعب فيه؟
وأي شخص أفضل من رسول الله ﷺ حتى نمنع الطفل من اللعب بحضرته؟

٣- إن صغر سن الطفل وعدم تمييزه وعدم بلوغه سن التكليف ليس حجةً ولا ذريعةً
ولا مدعاةً لإهمال الطفل ، وإنما نجد الحديث يعلمنا ضرورة الاعتناء بالطفل منذ
الصغر وإن كان غير مكلف ولا مخاطب بالتشريع بعد .

٤- مراعاة الأسلوب التربوي وملاءمته لسن الطفل ؛ فلقد استخدم الرسول ﷺ
أسلوب التلقين المباشر البسيط ، ونلاحظ أن كلامه ﷺ كان على قسمين ؛ أولهما
بسيط تمثّل في كلمة « كخ كخ » (وهو اسم فعل بمعنى الارتداع عما لا يصلح)
وهي كلمة تتناسب مع الطفل في السنة من العمر فما فوق كما سبق وقدمنا ،
وثانيهما أرقى درجة لكنه بسيط أيضاً وهو قوله : « أما علمت أن آل محمد لا
يأكلون الصدقة » ، وهي عبارة قد تكون مفهومة للصبي غير المميز وهي

مفهومة قطعاً للبالغين المحيطين بالطفل ، وكأن هذه المناسبة التربوية من شأنها تلقين وتعليم الطفل من جهة ، وتنبيه وتذكير البالغ بما يجب أن يعرفه ويعلمه من جهة أخرى .

٥- مراعاة المحتوى الفكري للمادة الملقاة للطفل لمستوى التطور العقلي عنده ، فموضوع الخطاب البسيط وفحواه هو النهي عن فعل معين ، فليس في الخطاب الوارد في الحديث ما يرهق فكر الطفل وعقله ولا ما يصعب عليه فهمه أو إدراكه أو التجاوب معه .

وهكذا يقدم لنا هذا الحديث منظومة تربوية متكاملة من حيث شمولها المهدف ومن حيث الأسلوب والتطبيق العملي ، وكلنا يعرف نتاج هذه التربية فلقد كان خريجاً هذه المدرسة الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة رضي الله عنهما وأرضاهما .

(٢) النموذج الثاني :

ونعرض هنا نموذجاً قرآنياً لأسلوب التربية بالتلقين المباشر ، ومثالنا هنا يتناول في محتواه مادة ملائمة لدرجة أكثر تطوراً في النضج العقلي للطفل من المثال السابق ، فلنتدبر خطاب لقمان لابنه وهو يلقيه العظة والنصيحة ؛ يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان ١٣) ثم يقول : ﴿ يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِن تَكُ مَثْقَلًا حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ ﴿ يَبْنَىٰ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ﴾ (لقمان ١٦-١٧) .

تأمل معي أسلوب الخطاب المفعم بالشفقة والحنان والرأفة : يا بني . . . يا بني . . . يا بني ، ثم تأمل حال الخطاب ونفسية لقمان المرابي وهو يخاطب ولده : " وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه " نعم إنه يعظ ابنه وينصحه ولا يحقره ولا يعتفه ولا يزدريه أو يقلل من شأنه ، بل على العكس من ذلك يعامله معاملة صديق

قريب عزيز ، يعامله باحترام ومودة ورأفة وحب وشفقة . نقول هذا ونحن نشاهد - مع الأسف - بعضاً من الآباء الذين يعتقدون أن الأبوة مرادفة للغلظة والرهبة والجفوة وإصدار الأوامر المتعسفة وذلك كله في تلك الدقائق القليلة جداً التي يقضيها مع أولاده ، وكأن وظيفة الأب - في نظر هؤلاء - الظهور يومياً لدقائق معدودة يلقي فيها ظلال الرهبة ومراسم الرعب في نفوس أولاده ثم ينطلق إلى ما هو مشغول به من أمور الدنيا .

ثم تأمل معي أخي الكريم أختي الغالية ذلك المحتوى الفكري العقدي الراقى الذي يبثه لقمان الأب إلى ابنه ؛ إنه أسلوب بسيط مباشر يلقي فيه ابنه كل مبادئ الدين ويطلق عنان فكره للتدبر في ملكوت الله وعلم الله الذي لا يغيب عنه شيء ويدل ابنه على معالم طريق الاستقامة . والشاهد هنا هو اتفاق الأسلوب مع نموذج الحديث السابق - وهو أسلوب التلقين - ولكن مع افتراق بين في المستوى الفكري لما هو مطروح للتعليم والتلقين ، وواضح أن هذا يكون لمرحلة عمرية تالية لمرحلة الطفولة غير المميزة . ويجب البدء بترسيخ هذه المفاهيم في مرحلة " الصبي المميز " وهي المرحلة الكائنة بين مرحلة الطفولة المبكرة سابقاً ومرحلة البلوغ لاحقاً . وسوف نفصل - إن شاء الله - في دراسة هذه الآيات وغيرها من سورة لقمان في النموذج التربوي التطبيقي الذي أثبتته في نهاية الكتاب فلا أفيض فيها هنا .

وهكذا نكون قد تناولنا نموذجين أحدهما من القرآن والآخر من السنة رأينا فيهما التطبيق العملي لأسلوب التلقين المباشر في التربية ، وما على الأب والأم إلا النظر والتمحيص في الكتاب والسنة ليقعا على الكثير غيره من الأمثلة والتطبيقات من أجل التدبر وملاحظة منهج وطريقة القرآن الكريم والسنة النبوية في تطبيق هذا الأسلوب والخروج بالثمار التربوية التي أتت بها المدرسة المحمدية في صدر الدعوة الإسلامية .

ثانياً : وسيلة القدوة :

تتعلق هذه الوسيلة بما نسميه " التعليم المنفعل " أو " التربية المنفعلة " . ومن المهم أن نلاحظ هذا الاصطلاح لأنه يشير إلى أن اقتداء الطفل بالمربي أمرٌ حاصلٌ

بصورة عفوية منفعة سواء أكان المربي يقصده أم لا . ويلزم من ذلك أن يحرص المربي على السلوك الحسن والمثل الحسن لتكون نتيجة اقتداء الطفل به حسنة ، وإلا فإن إهمال هذا الأمر والسير على غير جادة الاستقامة والحق يعني أن الطفل سيتمثل هذه القدوة السيئة لا محالة وذلك مدعاة لنتاج تربوي سيئ .

والحاصل من هذا أن هذه الوسيلة ليست أمراً اختيارياً في يد الأهل ، بل هي أمرٌ حتمي يلزم مراعاة ضابط الاستقامة فيه . والأخطر من ذلك هو تسليم الطفل المطلق بصلاحيته هذه القدوة وعدم التشكيك فيها أو في سلامتها وصحتها بحيث يصعب تقويم ما ألفاه من خطأ فيها في مرحلة لاحقة . وإن الاقتداء بالآباء وتقليدهم "الأعمى" دون مساءلة أو مناقشة أو تدبر هو الذي أفضى ويفضي بالأجيال المتلاحقة إلى رفض دعوة الحق والجحود بها ، تأمل معي قول الله عز وجل في وصف المشركين : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ۚ ﴾ (الزخرف ٢٢-٢٣) ، فلقد كان احتجاج هؤلاء هو في "القدوة" التي كانت ماثلة أمامهم ، ونحن لا نقول أن هذه الحجة مقبولة وإنما نؤكد على الأثر السلبي المنفعل الحاصل في الأبناء من جراء سلوك الآباء . لذلك يوجهنا الهدي القرآني وجهة أخرى حين تنحري القدوة في حياتنا فيقول عز من قائل : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبْهَدُهُمْ أَقْتَدَهُ قُلٌ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝ ﴾ (الأنعام ٩٠) . ولقد قدمنا في فصل آخر حول التطور الاستعرافي عند الطفل عدداً من المعالم التطورية المتميزة بتقليد الطفل للأب والأم ، وتبين لنا التأثير المبكر للسلوك الذي يمارسه المربي في سلوك الطفل وبنائه وتطوره ، ولقد أسهنا في ذلك الفصل في بيان ضرورة الاهتمام بالأسوة الحسنة في حياة الطفل في مجال السلوك وفي مجال العقيدة بما يغني عن التكرار هنا .

وسيراً على نهجنا في التمثيل من السنة أو الكتاب أقدم لك نموذجين مهمين من سيرة النبي ﷺ يبينان لنا دور القدوة العملية في سياق التربية الإسلامية وفي سياق ترسيخ المبادئ التي يدعو إليها المربي وتأكيد مصداقية ما يدعو إليه وعدم مناقضة ما يقول بلسانه بما يفعله بجوارحه اتقاءً لمقت الله عز وجل كما حذرنا سبحانه ونعالي : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣٠﴾ (الصف ٢-٣)، فإليكما :

(١) النموذج الأول :

روى البخاري عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء يحدث ، قال : " لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه وكان كثير الشعر : فسمعتة يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول :

اللهم لولا أنت مـساـهـتـديـنا	ولا تصـدقنا ولا صـلينا
فأنزلن سـكينةً علينا	وثبت الأقداء إن لاقينا
إن الألي قد بغوا علينا	وإن أرادوا فتنةً أبينا

قال : ثم يمد صوته بأخـرها" (١)

هكذا كان سلوك المربي الأعظم محمد ﷺ ، لقد عقد المجلس الاستشاري عندما ترامى نبأ الأحزاب ، واقتـرح سلمان الفارسي رضي الله عنه حفر الخندق ، ووافق رسول الله ﷺ ، ثم ماذا فعل؟ هل جلس في بيته منتظراً تنفيذ المسلمين لأوامره؟ أم هل جعل لنفسه ميزة على صحابته وتلاميذ الدعوة؟ كلا ، بل كان سلوكه هو تمثل هذا القرار الذي اتخذه والمساهمة في تطبيقه بنفسه ؛ إنها مصداقية القيادة التي تسابق لتكون أول من يطبق ما تصدره من قرارات ومبادئ فلا يراود الشك أحداً

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري - الحافظ ابن حجر العسقلاني - ج ٨ - حديث ٤١٠٦ .

فيما يدعو إليه القائد، فهي هو ﷺ ينقل التراب بيديه الشريفتين حتى وارى التراب جلد بطنه، بل انظر إلى أعجب من ذلك؛ يروي صاحب الرحيق المختوم: "وقال أبو طلحة: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع - أي يوم الخندق - فرفعنا عن بطوننا عن حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين" (رواه الترمذي) ^(١)

هكذا تكون التربية إذاً، وهكذا يكون التعليم، وهكذا تكون القدوة الحسنة في المربي مثلاً عملياً وتطبيقاً واقعياً للمبادئ النظرية التي تلقى على مسامع المتعلم.

(٢) النموذج الثاني:

وأنقل هذا النموذج عن صاحب كتاب السيرة "الرحيق المختوم" والذي وقعت أحداثه في وقعة الحديبية سنة ٦ للهجرة، يقول: "ولما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب (أي كتاب الصلح) قال: قوموا فانحروا. فوالله ما قام منهم أحد حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقيم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك قاموا فأنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً". ^(٢) إن القدوة العملية إذاً خير وسيلة لتربية وتعليم الغير، وما ينطبق على البالغ الراشد ينطبق على الطفل والشاب الناشئ بل هو لهما ألزم بسبب قلة استقلالهما بالتدبير.

فأسلوب القدوة الحسنة من أهم وأدق وسائل التربية لشدة ترسخها في ذهن الطفل. أما وقد علمت ضوابط هذه القدوة كما تقدم في الآية القرآنية: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدْلِهِمْ أَقْتَدَ﴾ (الأنعام: ٩٠)، فلعلك تسأل عن أبكر سن يتأثر فيها الطفل بالقدوة الحسنة - أو غير الحسنة - وأجيبك بأن الطفل في السنة إلى السنة

(١) الرحيق المختوم - المباركفوري - ص ٢٨٦.

(٢) الرحيق المختوم - المباركفوري - ص ٣٢٥-٣٢٦.

والنصف من العمر تقريباً يبدى العديد من المظاهر السلوكية التي " يقلد " فيها الغير مما يشير إلى أهمية التبكير في تطبيق هذه الوسيلة معهم ولعلك تراجع مبحث التطور الاستعرافي عند الطفل لتقع على مصداق ذلك .

ثالثاً : التعويد :

وهذه الوسيلة من أنجح الوسائل التربوية التي تستغل طبيعة الطفل في الانصياع والتقليد العفوي دون كثير من التدبر والنظر والتفكير ، فإذا بالسلوك المقلد يترسخ كسلوك اعتيادي لا يستثقله الطفل ولا يسأهه ، حتى إذا ما نضج فكر الطفل ونما ذهنه وتوسعت مداركه حان أوان إفهام الطفل وتعليمه الحكمة والغاية والهدف من وراء ذلك السلوك فتتحول العادة إلى عبادة ، ويتحول ما تعود الطفل على ممارسته تقليداً إلى جزء عملي من منهج الطفل الفكري وإيمانه العقدي . والنكتة ها هنا هي أن الطفل لا يدرك في بداية الأمر الباعث المحرك والهدف المراد من السلوك الذي يتعوده ولكنه لا يمانع ذلك السلوك ، كما أن هذه الممارسة وعدم الفهم المؤقت لها لا يقدح في هذا السلوك لأن عدم الفهم هذا متناسب مع سنه ونضجه ، فإذا جاءت المرحلة العمرية المناسبة وأخذ الطفل يتعلم ويفهم بواعث السلوك الذي اعتاد عليه لم يجد العبء الجسدي أو الثقل المادي للتكليف عائقاً يحول بينه وبين هذا الفهم ، بل إنه يطرح هذا العائق جانباً - لأنه قد تعود على مكابדתه - واستفرغ وسعه في فهم هذا السلوك وتحري بواعثه ومحركاته وأهدافه .

إن هذا الأسلوب أسلوب استفراغ نوعي للجهد بحسب المرحلة العمرية ؛ ففي المرحلة التي تكون قدرات الطفل حركية بحتة يستغل هذه القدرات لترسيخ السلوك عملياً ، وفي المرحلة التي تتزايد فيها قدرات الطفل العقلية والفكرية يستغل ذلك لإضفاء العنصر "الروحي" والفكري على تلك السلوكيات الاعتيادية البحتة .

وأعطيك مثلاً لهذا ؛ فالطفل الصغير لديه ملكة عجيبة في الحفظ إلا أن فهمه للمحفوظ غير كامل في سنه الصغيرة تلك ، فإذا تم استغلال القدرة النوعية للحفظ

في الصغر وتأجيل إفهام المعاني للكبر كان ذلك استثماراً ناجحاً جداً للقدرات النوعية للطفل .

وتخيل لو أنك أردت ألا تزيد في محفوظات الطفل قبل أن يفهم ما يحفظ كم يتقلص حجم المحفوظ لديه بسبب التأخير في التحفيظ انتظاراً للإفهام، وتخيل لو أنك أخرت التحفيظ كله إلى سن الفهم كم يضع من جهد الطفل في الحفظ (لأن الحفظ يزداد صعوبةً بتقدم العمر) وقد كان يستطيع أن ينفق ذلك الجهد في مزيد من التدبر والتمعن في المحفوظ سلفاً . فتنبه لهذا فإنه دقيق وعجيب ويخفى على كثير من الناس فتفوت الفرص وتضيع .

فوسيلة التعويد تعتمد على تضخيم جدوى الجهد المبذول مع الطفل من خلال إنفاق هذا الجهد بما يتناسب نوعياً مع قدرة الطفل الأشد بروزاً في مرحلةٍ عمريةٍ معينة .

ويجب ملاحظة أن التعويد يرتبط بمعلم تطوري مهم في المجال الاستعرافي ألا وهو القدرة على التقليد . ولقد سبق التفصيل في هذا في مبحث التطور الاستعرافي ، ويكفي أن نؤكد ثانيةً على أن الطفل يبدأ بتقليد غيره بصورة غير واضحة حين يبلغ خمسة عشر شهراً من العمر تقريباً ، ويترسخ سلوك التقليد بتقدم عمر الطفل واتساع مداركه وتفاعله مع المحيط الخارجي . ومؤدى هذا الارتباط بين وسيلة التعويد وملكة التقليد هو الإمكان المبكر جداً للبدء بتعويد الطفل على العديد من السلوكيات المرادة . وأريد أن أؤكد على أن هذا التعويد يتناول مجالين مهمين جداً لا يجوز إهمال أحدهما على حساب الآخر ألا وهما المجال الروحي المعنوي والمجال السلوكي الجسدي . فمثال الأخير تعويد الطفل مبكراً على حركات الركوع والسجود في الصلاة حتى إذا جاء سن السابعة وجاء الأمر بالصلاة - تعويداً - كانت تلك الحركات والأفعال مألوفة غير مستثقلة عند الطفل . وأما مثال المجال الأول فهو العناية بتريديد الأذكار والأدعية الماثورة عند الأفعال والأوقات المختلفة من بسملة عند الأكل والشرب ، والتعوذ عند الخلاء ، ودعاء الاستيقاظ عند الفجر ،

ودعاء النوم وقت المبيت، وتلقين الشهادة في شتى الأوقات، وهكذا "يتعود" سمع الطفل وذنه على استشعار ذكر الله في كل مناسبة وفي كل حين وينمو الوازع الديني للطفل مع نمو الطفل نضجه.

وتأمل معي ما نقله الإمام الغزالي في كتابه الإحياء يقول: "قال سهل بن عبد الله التستري: كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار، فقال لي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك: "الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدي". فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته، فقال: قل في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلك ثم أعلمته، فقال: قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مرة، فقلته فوقع في قلبي حلاوته. فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعلك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سرّي، ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل من كان الله معه وناظر إليه وشاهده أيعصيه؟ إياك والمعصية." (١).

والشاهد في هذا النموذج المليء بالعبر التربوية أسلوب تعويد الطفل على استحضار الله عز وجل والتدرج في التعويد حتى يصل هذا الاستحضار إلى درجة ترسيخ الوازع الديني ووصول درجة استشعار حلاوة ذلك عند طفل لم يبلغ الحلم بعد. ثم تأمل كيف بنى على ذلك الوازع الديني المزيد من النصائح والعظات التربوية حيث ربط بين العلم - بوجود الله - والعمل بهذا العلم باتقاء المعاصي. وإليك فيما يلي نماذج من الكتاب والسنة تطبق وسيلة التعويد مع الطفل في سياق تربيته وإعداده:

(١) النموذج الأول:

يقول الله عز وجل في سورة النور: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذَّ نَكْمُ

(١) إحياء علوم الدين - الإمام الغزالي - ج ٣ - ص ٨٠.

الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ
الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ
لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى
بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ
مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ (النور ٥٨-٥٩).

تتعامل هاتان الآيتان مع أدب الاستئذان في داخل البيت حرصاً على عدم
الاطلاع على حال الأهل - الأب والأم - في أوقاتهم وأوضاعهم الخاصة. وإن الحكم
النهائي بالنسبة للذين بلغوا الحلم هو الاستئذان عموماً في كل الأوقات حرصاً على
عدم انكشاف الأهل أمامهم. والشاهد في الآيتين هو تدرج الآيات في تربية الأطفال
على هذا الأدب حيث بدأ بهم في مرحلة ما قبل البلوغ - أي الذين لم يبلغوا الحلم -
بأن أمرهم بالاستئذان في ثلاثة أوقات هي مظنة انكشاف العورات (ثلاث عورات
لكم) رغم أن الأطفال قبل الحلم قد لا "يفهموا" حقيقة ما يشاهدون إلا أن ذلك لا
ينفي تأثرهم بما يشاهدون، وعلى كل حال فهذا الأمر بالاستئذان في أوقات محددة
خاصة في البداية هدفه تعويد الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم على مبدأ الاستئذان
حتى إذا بلغوا الحلم تعمم الأدب وشمل كل الأوقات لأن حقيقة الأمر أن للرجل مع
امراته أحوالاً لا يجوز الاطلاع عليها من أحد ولا تقتصر هذه الأحوال على المرات
الثلاث السابق ذكرها. يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: "وإذا بلغ الأطفال
منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم" يعني إذا بلغ الأطفال منكم الحلم
الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن
يستأذنوا على كل حال يعني بالنسبة إلى أجانهم وإلى الأحوال التي يكون الرجل
إلى امراته وإن لم يكن في الأحوال الثلاث^(١). فتأمل أسلوب التعويد على الأدب

(١) تفسير القرآن العظيم - الحافظ ابن كثير - ج ٣ - ص ٢٦١.

المراد ترسيخه في نفوس الأطفال ثم تأمل التدرج في التعويد والتربية حتى لا تهمل الطفل من جهة ولا تثقل على كاهل الطفل من جهة أخرى؛ إنها التربية القرآنية من لدن "عليم" بما يصلح للعباد ومن لدن "حكيم" في أسلوب التربية والتوجيه، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك ١٤).

٢) النموذج الثاني:

عن الرُّبِيع بنت معوذ قالت: "أرسل النبي ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار: من أصبح مفطراً فليتم بقية يومه، ومن أصبح صائماً فليصم. قالت: فكنّا نصومه بعد ونصوّم صبياننا ونجعل لهم اللعبة من العهن. فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار"^(١)، ونقل الحافظ ابن حجر رواية مسلم من وجه آخر عن خالد بن ذكوان فقال فيه: "فإذ أسألونا الطعام أعطيناهم اللعبة تلهيهم حتى يتموا صومهم"^(٢).

ولقد نقل ابن حجر رأي الجمهور على أنه لا يجب (أي الصوم) على من دون البلوغ، ونقل استحباب جماعة من السلف منهم ابن سيرين والزهري والشافعي أنهم يؤمرون به للتمرين عليه إذا أطاقوه. ثم يقول: "وفي الحديث حجة على مشروعية تمرين الصبيان على الصيام"

والشاهد هنا هو فعل الصحابة والصحابيات - كما روت صاحبة الحديث - في تمرين وتعويد الصبيان على الصوم رغم عدم تكليفهم به، والأمر الآخر هو استعمال وسيلة اللعب لتسلية الطفل وتلهيته وشغله عن مطلب الجوع ليكون ذلك عوناً على تمرين الأطفال وتعويدهم شتى أنواع العبادات والسلوكيات لاسيما تلك التي فيها ترويض نوازع الفطرة وحاجات الجسد وشهواته. ولسنا بصدد تحديد مرحلة عمرية لذلك كله، إذ يمكن الاستشهاد بالخطوط العامة الواردة في حديث تعويد الصلاة

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري - الحافظ ابن حجر العسقلاني - ج ٤ - ص ٧٦٥ - حديث ١٩٦٠.

(٢) المرجع السابق.

مروا أولادكم بالصلاة لسبع . " الحديث ، وإنما نريد أن يترسخ المبدأ والأسلوب في ذهن الأهل والمربين مع مراعاة تباين الاستعداد الفردي بين طفل وطفل وأخذ ذلك في عين الاعتبار .

وبهذا نكون قد ألقينا بعض الضوء على هذه الوسيلة التربوية المهمة ، وأشجع القارئ الكريم على إعادة التدبر والتمعن في النماذج التي قدمناها ليلامس بنفسه جمال هذه الصيغ التربوية والتوجيهات القرآنية والحديثية فيها والله خير كثير ونفع وفير بإذن الله .

رابعاً : اللعب :

لقد أدرجنا اللعب ضمن الوسائل التربوية بسبب إغفال كثير من الأهل لدور اللعب في تربية وتطور الطفل ، وبسبب بخس كثير من الأهل أطفالهم حقهم في اللعب ، بحيث إننا إذا استطعنا توعية أنفسنا في هذا المجال نكون قد حققنا أمرين مهمين وهما إعطاء الطفل حقه الطبيعي وإتاحة الفرصة له للعب واللهو المباح كجزء لا يتجزأ من تطوره الروحي الحركي ، واستغلال هذا الجانب الطبيعي في الطفل لغرس ما يناسبه من مفاهيم وآداب تربوية وعقدية وسلوكية .

يجب أن ندرك بدايةً أن "اللعب" جزء مهم جداً من التطور الروحي الحركي للطفل ؛ إنه وسيلة التواصل مع الغير ومع المحيط الاجتماعي ووسيلة التعبير عن الذات في المراحل الأولى لتطور الطفل ، ووسيلة النظر والتأمل والتفكير فيما يدور حوله . وإن ضرورة اللعب في حياة الطفل من البدهة بمكان بحيث أن أخوة يوسف عليه السلام استطاعوا - رغم حرص أبيهم الشديد - أن يقنعوا أباهم يعقوب عليه السلام بأن يرسل يوسف الصغير مع أخوته لكي يمارس "حقه الطبيعي" في اللعب ، تأمل معي قول الله : ﴿ قَالُوا يَتَابْنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴾ ١١ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴿ يوسف ١٢-١١ ﴾ ، تأمل كيف أن يعقوب عليه السلام رغم حرصه الشديد وخوفه على يوسف لم يطاوعه قلبه أن يمنع

فتاه عن حقه في تلك السن من اللعب والمرح والانطلاق، فهو حق وحاجة بدهية كما أن الطعام والشراب حاجة بدهية للطفل أيضاً، وكما لا يجوز حرمان الطفل من الطعام والشراب خوفاً من أن يتضرر بفاسدٍ منهما فكذلك لا يجوز حرمان الطفل من اللعب واللهو بحجة الخوف عليه طالما أن حدود السلامة متوفرة في مجال اللعب ووسائله. هذا ما جاء به القرآن الكريم ومارسه نبي من أنبياء الله عز وجل، فماذا عن سنة رسول الله ﷺ؟ وكيف كان تعامله ﷺ مع الصبية والأطفال؟

إن في السنة المطهرة كثيراً من الأحاديث التي تروي كيفية قضاء رسول الله ﷺ وقته مع الصغار وكيفية معاشرتهم والاهتمام بهم وتوجيههم، وسوف أكتفي بنقل بعض النماذج فيها إشارة تكفي لليبس وتنبه الغافل إن شاء الله تعالى :

١- أخرج أحمد عن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله وكثير بن العباس رضي الله عنهما ثم يقول: «من سبق إليّ فله كذا وكذا»، قال: فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم يلتزمهم. قال الهيثمي: رواه أحمد بإسناد حسن. (١)

٢- وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته، وإنه جاء من سفر فسبق بي إليه فحملني بين يديه ثم جيء بأحد ابني فاطمة الحسن أو الحسين - رضي الله عنهم - فأردفه خلفه فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة (٢).

٣- وأخرج أبو يعلى عن عمر - يعني ابن الخطاب - رضي الله عنه قال: رأيت الحسن والحسين رضي الله عنهما على عاتقي النبي ﷺ فقلت: نعم الفرس تحتكما. فقال النبي ﷺ: «ونعم الفارسان هما» (في كنز العمال والمجمع ورجال الصالحين ورواه البزار أيضاً بسند ضعيف) (٣).

(١) حياة الصحابة - الكاندلوي - ج ٣ - ص ٢٢٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

٤- وعند الطبراني عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي فجاء الحسن والحسين أو أحدهما رضي الله عنهما فركب على ظهره فكان إذا رفع رأسه قال بيده فأمسكه أو أمسكهما، قال: «نعم المطية مطيتكما» (قال الهيثمي: إسناده حسن)^(١).

هذه طائفة يسيرة من الأحاديث تصف لنا تواضع رسول الله ﷺ مع الصبيان والأطفال وتكريس شيء من وقته واهتمامه لهم، يلاعبهم ويلطفهم ويحثهم على التافس والتسابق مقابل المكافأة، يحملهم على ظهره وهو يمشي على أربع بأبي هو وأمي ﷺ، وتذكر وأنت تتأمل هذه المعاشرة اللطيفة والأبوة الحانية أن من يباشرها هو رسول الله ﷺ المشغول بتبليغ دعوة ربه وبناء أمة من لا شيء. تذكر أن هموم النبي القائد والسياسي العسكري كلها لم تشغل النبي ﷺ عن الاهتمام بالأطفال حتى في مجال اللعب. وبهذا أرجو أن تترسخ في ذهن كل منا ضرورة وأهمية العناية بهذا الشأن عند فلذات أكبادنا.

وأريد أن أشير إلى بعض الملاحظات المهمة في مجال اللعب كوسيلة تربوية عند الأطفال قبل أن نتجاوز إلى الوسيلة التالية وألخص هذه الملاحظات فيما يلي:

١- لا بد من تخصيص حصة يومية من وقت الأب والأم لفضائها مع الأطفال دون انشغال أو مقاطعة أو مداخله بهدف ملاعبة الأطفال ومداعبتهم ومسابقتهم - بصورة ملائمة لعمرهم بالطبع. أي أن على كل من الأب والأم أن ينزل إلى مستوى الطفل الذهني والعقلي ويلعبه بما يفهمه ويناسبه ويثير في نفسه بواعث الضحك والسرور. ولا تقل هذه الفترة عن ربع الساعة إلى نصف الساعة من التفرغ التام كل يوم، ولسوف يجد الأبوان متعة قضاء ذلك الوقت إضافة إلى مساهمتها الفاعلة في التطور الروحي الحركي للطفل.

(١) المرجع السابق.

٢- لا بد من مراعاة الحذر في اختيار ألعاب الأطفال بحيث لا ترمز أو تشير إلى أي أمرٍ منافيٍّ للعقيدة أو التعاليم الشرعية ، كالألعاب التي تدور حول فكرة المقامرة واليانصيب مثلاً ، ومراعاة اجتناب الصور والمجسمات كلما تقدم سن الطفل ، ولا بأس بالألعاب التي على شكل دمية في السن الصغيرة للبنات لا سيما إذا كانت لتنمية شعور " الأمومة " عند الفتيات الصغيرات . كما يراعى الابتعاد قدر الإمكان عن الموسيقى والأغاني الفارغة عديمة المعنى لئلا تشغل محلاً في ذهن الطفل أو يعتاد عليها .

٣- من المهم جداً مراعاة ملائمة اللعبة لجنس الطفل فلا نربي الطفل على ألعاب الميوعة والخلاعة ، كما لا نربي الطفلة على الاسترجال والصبيانية . إن مثل هذه التربية القائمة على اجتناب هذه الأخطاء هي التي تمنع وقوع ما حذر منه رسول الله ﷺ : « لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات بالرجال من النساء » (الحديث) .

٤- لا بد من الحرص على اختيار الألعاب التي تنمي لدى الطفل ملكة الإبداع والتفكير والاختراع ومشاركة الطفل في اللعب بهذه الألعاب وتشجيعه على ما يبتكره ويبدعه لما في ذلك من أثر عظيم على تنمية القدرات العقلية للطفل وتزكية شعوره بالإنتاجية والإبداع .

٥- لا بد من مراعاة سلامة ألعاب الطفل من كل ما يمكن أن يؤذيه كأن تحتوي اللعبة على قطع صغيرة يمكن ابتلاعها أو أسلاك يمكن أن يلفها حول إصبعه أو يده أو رقبته فيؤذي نفسه . فالسلامة الجسدية مهمة أهمية السلامة العقلية والروحية للطفل بلا ريب ، وكم شاهدنا من حوادث مؤسفة بسبب إهمال هذه الناحية .

٦- من المهم أيضاً الحرص على توفير الفرصة المناسبة من حيث المكان والزمان ليقوم الطفل باللعب مع أطفال آخرين من أقرانه لأن ذلك ينمي فيه ملكة التعامل مع الغير والتشارك والتفاعل مما يزيد من قدراته اللغوية والتواصلية مع الغير .

وغني عن القول ضرورة مراعاة جانب الصلاح في الأطفال الذين يلعبون مع طفلك .

٧- من المهم إتاحة الفرصة للطفل كي ينطلق في مساحات واسعة وعدم الحد من حركته ونشاطه ضمن جدران المنزل ، بحيث نجعل للطفل متنفساً ينطلق فيه ويعبر فيه عن حريته وإلا فإن الأهل سيضيقون ذرعاً بالطفل عندما يشرع في تفجير طاقته ونشاطه في الحيز الضيق للبيوت التي نقطنها في عصرنا هذا . إن طاقة الطفل وحيويته لا بد من تفجيرها وتوجيهها ولا يمكن أبداً أن نحكم على الطفل بالأسر والقيد لمجرد أننا " لا نتحمل " الصغار .

٨- بقي أمر مهم وهو أمر شامل لكل مناح التربية ولكن لا بأس من الإشارة إليه ها هنا حيث إن اللعب هو مجال قضاء الوقت والتعبير عن الحب للولد والبنت ، وهذا الأمر هو ضرورة المساواة والعدل بين الأولاد ، فلا محابة ولا تفضيل لأي سبب كان ، سواء أكان الولد ذكراً أم أنثى ، كبيراً أم صغيراً ، ذكياً أم عادياً ، فلا مبرر على الإطلاق لمحاباة الأولاد ، وانظر - وحسبك به مثلاً - ماذا فعل مثل هذا الأمر في بيت من بيوت النبوة ، تأمل معي مطلع سورة يوسف : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلْءَاثِلِينَ ﴿٥﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أُمِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٧﴾ ﴾ (يوسف ٧-٩) .

إن هذه الغيرة الناجمة عن استئثار تفضيل بعض الأخوة على بعض لهي مدخل أكيد من مداخل الشيطان يدفع بالأخوة إلى الفراق والشقاق بل والجريمة والاعتداء كما هو معلوم من قصة يوسف عليه السلام . والشاهد في الآية هو استئثار الأخوة مفاضلة أيهم لأخيهم الأصغر بالحب ، وربما كان حب يعقوب عليه السلام لأولاده متساوياً ولكنه لم يكن يظهر ذلك بل كان يظهر منه فرط اعتناء بيوسف وبنيامين - لكونهما أصغر الأخوة سناً - ولكن حتى هذا مرغوبٌ عنه لأن بقية الأخوة يتعاملون

مع الظاهر أي مع ما يروونه من سلوك الأهل ولا يطلعون على ما في قلوب الأبوين من حب للجميع . فالحذر الحذر من أن تقبل ولداً دون الآخر أو تحمل ولداً دون الآخر أو تخصص وقتاً لأحد دون الآخر ، وإذا كان بيت النبوة - كما تقدم - لم يسلم من عواقب هذه المحابة ، فما بالك ببيوتنا وأسرنا؟!

وبعد فهذه بعض الملاحظات والإشارات حول اللعب كوسيلة من وسائل التربية ، أرجو أن تكون عوناً للقارئ على تعهد الطفل وتربيته وفق المنهج الذي تحريناه في هذا الكتاب .

خامساً : الإلهاء والتحويل :

الإلهاء وسيلة لشغل اهتمام الطفل وصرفه عن أمرٍ غير مرغوب ، أما التحويل فوسيلة لصرف الطفل عن أمرٍ غير مرغوب مع إشغال اهتمامه بأمرٍ إيجابي مرغوب . وهاتان الوسيلتان التربويتان أدوات فعالة جداً في يد المربي وأسلوب لطيف لترسيخ المبادئ والأهداف التربوية المراد قولبة الطفل على أساسها .

فأما بالنسبة لأسلوب الإلهاء فقد تقدم معنا حديث الربيع بنت معوذ قالت : " أرسل النبي ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار : من أصبح مفطراً فليتم بقية يومه ، ومن أصبح صائماً فليصم . قالت : فكنا نصومه بعد ونصوم صبياننا ونجعل لهم اللعبة من العهن ، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار" ^(١) . والشاهد هنا هو فعل الصحابييات في تقديم اللعبة إلى الأطفال حين يلتمسون الطعام جوعاً وذلك كي يتلهى الطفل باللعب عن الجوع فيتم صومه قدر الإمكان ، وهكذا شيئاً فشيئاً حتى يتمكن الطفل من إتمام صومه إلى الغروب ويعتاد العبء البدني لهذه العبادة .

أما أسلوب التحويل - أي صرف الطفل عن أمرٍ غير مرغوب إلى أمرٍ مرغوب أو مباح فمبدأً قد صرح به القرآن الكريم في خطاب المكلفين حيث وجّه القرآن

(١) سبق تخريجه .

الكريم إلى صرف حاجة الفرد في الزواج في مصرفه الصحيح عوضاً عن نكاح اليتيمات مع بخس حقهن في الصداق، تأمل معي : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۗ ﴾ (النساء ٣).

فالمبدأ واضح في صرف الفرد عن فعل غير مرغوب - وهو نكاح اليتيمة ببخس حقها من الصداق في مثالنا هذا - وتوجيه الفرد إلى فعل مرغوب - أو مباح على أقل تقدير - كنكاح النساء حتى أربع مع إتيانهن صدقاتهن كاملة دون بخس ولا هضم.

وبمثل هذا الأسلوب التربوي يعلمنا الرسول ﷺ كيف نوجه الشاب الناشئ الذي تتفجر فيه جذوة الفطرة وتتوق نفسه إلى الشريك ويحتاج إلى التعبير عن طاقته الفطرية ، فحيث أمكن نوجه هذا الشاب إلى الزواج وهو المصرف المشروع لهذه الطاقة ، وإذا لم يتمكن من الزواج نوجهه إلى تحويل طاقته الجنسية عن الحرام - وهو الزنا ومقدماته - إلى منهج تربوي يهذب هذه الطاقة ويصرفها في مصرف مشروع عبر عبادة راقية هي الصوم؛ فعن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ فقال : « من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »^(١) ، وفي رواية أخرى قال عبد الله : كنا مع النبي ﷺ شباباً لا نجد شيئاً فقال لنا رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج... » . الحديث^(٢) ، والشاهد في الرواية الثانية هو توجيه الخطاب إلى معشر الشباب وهم في الفئة العمرية التي تتأجج فيها الشهوة وتزداد فيها الحاجة إلى مثل هذا التوجيه والتحويل (مما يشير إلى ضرورة مراعاة حاجات ونوازع الطفل في المراحل التربوية المختلفة حتى لا تهمل).

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري - ج ٤ - ص ٦١٣ - حديث ١٩٠٠ .

(٢) المرجع السابق .

ونستطيع من النماذج السابقة أن نستنتج الدور المهم الذي يلعبه أسلوب الإلهاء والتحويل في مجالين من مجالات تربية الطفل هما :

١- تعليم وتعويد الطفل على عبادة أو سلوك جديد كالصوم مثلاً في الحديث المتقدم . ويكون دور أسلوب الإلهاء ها هنا هو مساعدة الطفل على تخطي حواجز النفس المانعة من تحقيق العبادة أو السلوك وترسيخه .

٢- حماية الطفل والشاب لاحقاً من الوقوع في سلوك خاطئ أو معصية محرمة بحيث يكون أسلوب التحويل أو الإلهاء وسيلة لتصريف طاقة الطفل أو الشاب في مسرب مشروع وقاية له من المسلك المحظور .

ويجب مراعاة أمر مهم وهو أن تكون وسيلة الإلهاء ملائمة لسن الطفل أو الشاب ، وذلك واضح في النماذج التي قدمناها آنفاً ؛ فحيث كان التعامل مع الطفل كان أسلوب الإلهاء هو اللعب وحيث كان التعامل مع الشاب كان أسلوب الإلهاء والتحويل هو التعليم والتوجيه المباشر . وهكذا لا بد من مراعاة هذا الأمر حتى يؤتي هذا الأسلوب ثماره ويحدث النتيجة المطلوبة .

وأريد أن أشير في عجلة إلى بعض التطبيقات التربوية المهمة لهذا الأسلوب في عصرنا الحاضر لنقف على أهميته التربوية . فأما التطبيق الأول فهو استخدام أسلوب الإلهاء لإنشاء العلاقة بين أطفالنا وبيوت الله عز وجل ومساجده ؛ فلا مانع من إتاحة الفرصة للأطفال للعب في المساجد خارج أوقات الجماعة وتحت رقابة أحد البالغين سواء أكان من أهل الطفل أو أحد القائمين على أمور المسجد من أجل مراقبة الأطفال وسلامتهم . إن هذا الأسلوب يعطي الطفل حقه الطبيعي في اللعب ويستخدم هذا الأمر لإلهائه عن التملل والتذمر من اللبث والمكث في المسجد وهو في سن لا يدرك فيها المعنى التعبدية لعمارة بيت الله أو الاعتكاف فيه ، ثم هو يضمن للطفل بيئة سليمة آمنة يطمئن فيها الأهل على سلامة أولادهم . وليس هذا الأمر بدعاً من السلوك والعمل ، فلقد تقدم معنا حديث لعب الحسن والحسين في المسجد وأحاديث لعب صبيان الحبشة في المسجد معروفة أيضاً ، بل إن البدع من

الأمر هو ما يجري في واقعنا المعاصر من وجود قفل ومفتاح لباب المسجد يُفتح قبيل الجماعة ويغلق بعدها وكأن وظيفة المسجد قاصرة على صلوات الجماعة، وكأن المسجد ليس مكان تربية وتعليم ورياضة وغير ذلك مما عهد سلفنا الصالح رضوان الله عليهم. إذا نحن نريد أن نعيد للمسجد دوره في حياة كل منا، ونريد أن نمي تلك العلاقة الوثيدة بين كل مسلم من جهة وبين بيوت الله عز وجل من جهة أخرى، ولا سبيل لذلك إلا بكسر تلك الأقفال وتحطيمها وتخلية السبيل بين المساجد والمسلمين لعمارتهما، كما لا يتم إلا بالتعريف المبكر جداً للطفل على بيوت الله وعمارتهما، ونحن نقرأ حديث رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجلٌ معلقٌ في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجلٌ طلبته ذات منصبٍ وجمال فقال إني أخاف الله، ورجلٌ تصدق وأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» (صحيح البخاري)، قلت: أتى لنا أن يخرج من أولادنا ذلك الشاب الذي ينشأ في عبادة ربه وذلك الرجل المعلق قلبه في المساجد ونحن لا نحرص على إنشاء تلك العلاقة بين الطفل والمسجد والشاب والمسجد ولا نجعل ذلك من أولويات التربية؟ بل كيف لنا ذلك وقد تحولت المساجد إلى محاريب وصوامع ذات دوام محدود لا يتجاوز سويقات كل يوم؟! لقد رأينا نتائج التربية حين يقضي أولادنا أوقاتهم في "النادي" أو في التسكع في الأسواق أو في محال ألعاب "الفيديو" وغيرها وغيرها، فهل آن الأوان لأن نعود بأولادنا إلى مدرسة الإسلام الأولى، إلى المسجد؟

وأما التطبيق الثاني لأسلوب التحويل فيتناول الرفقة والصحبة. ويتركز الجهد هنا على تحويل الطفل عن الرفقة السيئة والجلوس السوء إلى الرفقة الصالحة والجلوس الصالح، وهذا أمرٌ على غاية الأهمية بسبب التأثير الكبير والعميق والأكيد للأقران على سلوك وتفكير وعقيدة الطفل والشاب، ولا بد من أن نستحضر خطورة رفاق السوء على المرء حتى ندرك أهمية هذا التطبيق، وتأمل معي

قول الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۚ﴾ (٢٧) يَوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ (الفرقان ٢٧-٢٩)، وللأسف فإنه مع خطورة هذه المسألة ترى كثيراً من الآباء والأمهات لا يعلمون حتى أسماء رفاق أولادهم فضلاً عن أخلاقهم وسلوكهم وعقائدهم، غاية ما في الأمر أن الأهل "مرتاحون" من أطفالهم عندما يلهون ويلعبون مع أقرانهم، أما من هؤلاء الأقران وما هي أخلاقهم وخلفياتهم العقدية والاجتماعية والسلوكية فأمرٌ لا يعلمه إلا الله. وواضح على كل حال أن تطبيق أسلوب التحويل عن رفاق السوء إلى رفاق الخير يستلزم اهتمام الأهل بالتعرف على خصال أقران أطفالهم ورفاقهم في المكان الأول.

هذان تطبيقان شعرت أن لهما أهمية خاصة في واقعنا المعاصر، وهما مثالان جيدان لكيفية الاستفادة من الإلهاء والتحويل في تربية الطفل. بقي أن ننتبه لمسألة على غاية من الأهمية، وهي أن أسلوب الإلهاء يأتي بثمارٍ عكوسة عندما نهمل الطفل ولا نلقي له بالاً، ذلك أن الطفل المهمل قد يقع فريسة التلهي بالمحظور عن المشروع، وبالتحول إلى الممنوع عن المرغوب، بمعنى أن عدم اهتمام الأهل بهذا الأسلوب لا يعني مجرد تعطيل الأثر الإيجابي له بقدر ما يعني تأثير هذا الأسلوب بصورة سلبية على الطفل نتيجة المؤثرات والملهيات والشواغل الأخرى في بيئته التربوية، وأنت تجد النصوص القرآنية حافلةً بالتحذير من التلهي بالمتاع الدنيوي والشهوات الزائلة عن عمل الآخرة والخير السرمدي الدائم فيها، يقول الله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ

الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْعُرُورِ ﴿٢٠﴾ (الحديد ٢٠)، بل إن لفظ الإلهاء قد استعملته الآية القرآنية صراحة في معرض هذا التحذير حيث قال تعالى : ﴿ أَلْهَنَكُمْ أَلْتَّكَاثُرُ ﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢١﴾ (التكاثر ٢١) فاللهو والتلهي سلاحٌ تربويٌّ ذو حدين ؛ فهو سلاحٌ نافعٌ حين يقصد باللهو الانشغال عن الحرام والتعويد على الواجب والمندوب ، وهو سلاحٌ ضارٌّ فتاك حين يقصد باللهو الانشغال عن الواجب وعن المباح والوقوع في الحرام أو فيما لا يجدي على أقل تقدير . وبهذا نكون قد أنهينا الكلام على هذا الأسلوب التربوي الممتع والحساس في صياغة الطفل والشاب .

سادساً : التعليم الشرطي :

التعليم الشرطي وسيلةٌ لترسيخ سلوكٍ معين عند الفرد من خلال الربط المتكرر لهذا السلوك مع أثرٍ إيجابي في نفس الفرد ، وهذا هو التعليم الشرطي الإيجابي . كما أن التعليم الشرطي وسيلةٌ لنبذ سلوكٍ معين عند الفرد من خلال الربط المتكرر لهذا السلوك مع أثرٍ سلبي في نفس الفرد ، وهذا هو التعليم الشرطي السلبي .

ونستطيع من الناحية العملية أن نعتبر كلاً من التعليم الشرطي الإيجابي والسلبي مرادفين لكلٍ من الترغيب والترهيب على الترتيب ، بحيث يكون أسلوب الترغيب عبارة عن حث الفرد على التزام سلوكٍ معين من أجل نتيجةٍ إيجابية هي بمثابة "المكافأة" ، بينما أسلوب الترهيب عبارة عن حث الفرد على نبذ سلوكٍ معين من أجل تفادي نتيجةٍ سلبيةٍ هي بمثابة "العقوبة" . وعلى الرغم من التشابه الظاهر بين أسلوب التعليم الشرطي وأسلوب الترغيب والترهيب فإنه لا بد من ملاحظة ما يلي :

(١) إن التعليم الشرطي أسلوبٌ أكثر "بدائيةً" وبساطةً من أسلوب الترغيب والترهيب الذي يعتمد على مستوى معين من النضج الفكري ، مما يجعل التعليم الشرطي وسيلةً تربويةً أكثر ملاءمةً للفئة العمرية المبكرة لا سيما السنوات الأولى من العمر ، في حين يزداد دور الترغيب والترهيب شيئاً فشيئاً مع نمو الطفل وتطوره فكرياً وعقلياً ونفسياً .

٢) إن التعليم الشرطي لا يتطلب مشاركة فاعلةً من قبل المتعلم بادي الرأي وإنما يعتمد على الترسيع "العقوي" للسلوك المعني دون أن يستلزم وعي المتعلم تجاه هذا السلوك. أما الترغيب والترهيب فيعتمد بصورة رئيسية على تفاعل المتعلم مع المربي ويستلزم وعي المتعلم تجاه السلوك المعني. وبالتالي فإن التعليم الشرطي أكثر ملاءمةً للسلوكيات البسيطة غير المعقدة بينما نجد الترغيب والترهيب أكثر ملاءمةً للسلوكيات الأعقد على وجه العموم.

وقبل المضي في استعراض بعض التطبيقات السلوكية لهذا الأسلوب التربوي نشير إشارة سريعةً إلى ما تكون به المكافأة أو العقوبة في مجال التعامل مع الطفل، لأن كثيراً منا - مع الأسف - يتجاوز في هذه المسألة تفريطاً يؤدي إلى التدليل والميوعة وعدم الانضباط أو إفراطاً يؤدي إلى تحطيم معنويات الطفل وكسر همته وخدش شخصيته. وفيما يلي بعض الضوابط التي أنصح نفسي وكل أب وأم باستحضارها في هذا المجال:

١- أن تكون المكافأة ملائمةً للعمل الذي قام به الطفل؛ فلا يكون العمل بسيطاً والمكافأة كبيرةً كما لا يكون العمل مهماً (بالنسبة لمستوى الطفل) ولا يحصل على التقدير المناسب له. وكذلك الحال بالنسبة للعقوبة فلا يكون العقاب شديداً على الخطأ البسيط لا سيما إذا كان الخطأ لأول مرة، كما لا يفوت الخطأ الكبير المتكرر دون عقوبةٍ ما.

٢- أن تحقق المكافأة أو العقوبة أثراً في نفس الطفل، ولا بد لذلك من أن يعي الطفل مفهوم المكافأة أو العقوبة، فمن الواضح مثلاً أن مكافأة الطفل الذي لم يتجاوز السنتين من العمر بإعطائه مبلغاً صغيراً من المال أو معاقبته بحرمانه من ذلك المبلغ سلوك لا معنى ولا أثر له لأن الطفل لم يدرك بعد قيمة هذه المكافأة أو العقوبة، إنما يناسبه - في هذه السن مثلاً - إشعاره بسرور الأهل منه أو عدم سرورهم منه، أو يكافأ بلعبة أو قطعة حلوى مثلاً أو نحوه مما يحدث أثراً في نفسه.

٣- ألا تكون المكافأة والعقوبة منوالاً متكرراً وديناً ثابتاً في كل ما يفعله الطفل، بل الأمر كما هو مع الدواء يعطى بمقدار محدد في أوقات محددة لتهديب الداء أو العلة. فنحن لا نريد أن يتوقف سلوك الطفل حسناً أم سيئاً على تيقنه من حصول المكافأة أو ترتيب العقوبة، لأن مثل هذا الأمر يمنع من تطور الباعث الذاتي للعمل عند الطفل. فالهدف العام من المكافأة هو التشجيع بين الآونة والأخرى والهدف العام من العقوبة هو الردع عن الخطأ المهم حين وقوعه، ولا نريد أن يتحول أطفالنا إلى "آلات" لا تعمل إلا بتلقيهما قطعة النقود!

٤- الحذر من أن تكون المكافأة أو العقوبة مناسبة لعدم العدل بين الأولاد، ولا يعني ذلك معاقبة الجميع بفعل الواحد ولا مكافأة الجميع بعمل الواحد وإنما يعني إتاحة الفرصة لجميع الأولاد بالتنافس لأجل المكافأة كما يعني المساواة في العقوبة تجاه الخطأ الواحد عند كل الأولاد، فلا تكون عقوبة فاطمة أشد من عقوبة عمر على نفس الفعل أو الخطأ.

٥- الصدق في تنجيز الوعد بالمكافأة أو التوعد بالعقوبة لأن إخلاف الوعد بالمكافأة كذب، كما أن إخلاف التوعد بالعقوبة دوماً مدعاة إلى فقد مصداقية المربي عند الطفل مع ملاحظة أن إخلاف التوعد بالعقوبة قد يكون حسناً أحياناً ولا يجري مجرى الكذب دوماً لأن فيه معنى تربوياً مناسباً بالمنّ على الطفل بالعفو على الخطأ شريطة عدم التكرار، وهكذا.

٦- لا يجب أن تكون المكافأة والعقوبة شيئاً مادياً على الدوام، بل إن تبسم الأهل للطفل وإظهار مظاهر الابتهاج والتشجيع بشيء من الحرارة إن كل ذلك من جنس المكافأة وهي ذات أثر عميق في نفسية الطفل الذي يهتم لمشاعر أهله تجاهه، وكذلك يمكن أن يكون الإعراض والوجوم تجاه خطأ الطفل عقوبة شديدة الأثر عليه وشديدة التأثير في نفسه. وتدرج المكافأة والعقوبة حسب سن الطفل وأهمية العمل فتارة تكون بإعطاء الطفل أو حرمانه شيئاً ما كلعبة أو شيء من الحلوى أو الطعام المفضل أو نزهة أو مبلغ صغير من المال، ونحرص أشد

الحرص على تجنب أسلوب الضرب قدر الإمكان في مجال العقوبة مع الحرص على استنزاف كل الوسائل الأخرى قبل اللجوء إليه. ولقد وجدت أن مكافأة الطفل بإشعاره بأن الله عز وجل يحب هذا الفعل أو معاقبته بإشعاره أن الله عز وجل يسخط لجل ذلك الفعل وسيلة فعالة للغاية، شريطة أن يكون التغريب والترهيب موافقاً لميزان الشريعة لا مجرد هوى الأهل.

٧- تراعى عند اللجوء إلى المعاقبة والتعنيف أو الزجر اللفظي أو التأديب الجسدي أمور مهمة جداً هي :

(أ) ألا يكون الزجر والتأديب اللفظي أو الجسدي مهيناً للطفل أو محرّجاً له أو محطماً لمعنوياته.

(ب) ألا يكون العقاب على مرأى من أقران الطفل وأصدقائه إذ أن ذلك مدعاة لخلل عميق في نفس الطفل وشعوره بالدونية والعدمية والتحرج من مخالطة أقرانه خشية التهكم والاستهزاء.

(ج) أن يقترن العقاب بإفهام الطفل خطأه وما كان عليه أن يقوم به بدلاً من سلوكه الخاطئ مع التحذير من العودة وفتح باب القبول والرضا فور الإقلاع عن الخطأ.

(د) يراعى في التأديب الجسدي بالضرب - إن احتيج إليه - ألا يضرب الوجه أبداً ولا يترك أثراً أو علامة ولا يكسر عظماً ولا يؤذي عضواً. وغاية ما في الضرب هو العقاب الجسدي "الرمزي" الذي يتوخى منه أثره في النفس أكثر من أن يتوخى منه الإيلام الجسدي ذاته. وأفضل الكيفيات ما يكون من ضرب خفيف على مؤخرة الطفل مقروناً بشيء من التعنيف اللفظي أو شد أذن الطفل بشكل غير مؤذٍ أو ضربة خفيفة على ظهر اليد لا تخلف أثراً ولا تؤذي حقيقةً. وهذه الضوابط ضوابط الشرع ويمكن مراجعتها بتفصيل في مظانها، وقد جمعتها لك هنا حتى لا تتحول تربيتنا لأطفالنا إلى سلوكيات عشوائية بعيدة عن ضوابط التعبد لله عز وجل، هذا إذا كنا نقصد وجه الله تعالى بترية أولادنا.

هذه بعض الضوابط المهمة التي يجب مراعاتها حين تطبيق أسلوب المكافأة

والعقوبة أو الترغيب والترهيب مع الطفل حتى يؤتي هذا الأسلوب ثماره ولا تنجم عنه أية آثار سلبية إن شاء الله .

وفيما يلي سنتناول نموذجين تطبيقيين لهذه الوسيلة التربوية عسى أن ترسخ في الأذهان ما يمكن تحقيقه من خلالها :-

(١) النموذج الأول :

إن السنة المطهرة مليئة بالتوجيهات نحو أذكار وأدعية خاصة لشتى الأحوال والمناسبات والظروف ؛ منها ما يتعلق بالطعام ومنها ما يتعلق بالنام ومنها ما يتعلق بأداب الخلاء وغيرها وغيرها كثير . ومن الجلي أن الطفل الصغير دون السنتين أو الثلاث من العمر لا يتمكن من ترديد الكثير من هذه الأذكار فضلاً عن فهمها وفهم المقصود منها . ولكن هذا الطفل يقوم بكل هذه الأحوال التي تتعلق بها هذه الأذكار سواء أكان الأكل أم الشرب أم النوم أم لبس الثوب الجديد أم الاستيقاظ من المنام وغيرها وغيرها . . ونحن أمام خيارٍ من اثنين ؛ فإما أن ندع هذه الأحوال والعادات والممارسات تمر هكذا دون أي انتباه أو تعهد ، وإما أن نلجأ إلى التعليم الشرطي الذي نربط به مراراً وتكراراً بين هذه الأحوال وبين هذه الأدعية والأذكار حتى يتعلم الطفل شيئاً فشيئاً وجود تلازم بين شيء ما - هو الدعاء أو الذكر - وبين السلوك المعين ، حتى إذا بلغ الطفل سن النضج الذي يمكنه من فهم هذه الأدعية وجد نفسه وقد ألف التلازم بين الدعاء والمناسبة أو السلوك المعني . فهذا تطبيق بسيط ومباشر لوسيلة التعليم الشرطي من خلال الربط المتكرر ما بين حدثٍ ما وسلوك ما ، وهو من أفضل ما يربى عليه الطفل ومن أرقى ما يشغل به ذهن الطفل وفكره .

إذاً نريد من الأم والأب أن يكونا وكيل الطفل ونائب الطفل في ترديد الدعاء الخاص بالموقف الخاص مما ثبت عن رسول الله ﷺ فإذا بك تتحول بتربية الطفل من مجرد التغذية الجسدية والنمو الجسماني إلى عبادةٍ تقصد بها وجه الله ، وإذا بعلاقتك بطفلك كائنة لله عز وجل ، وإذا ببركة هذه الأدعية ومعانيها تحف الأسرة

والبيت وترسل بعقبها في أرجاء الأسرة المسلمة . إن قيامك بهذه العبادة نيابة عن طفلك هو الرصيد الذي يدفع الطفل إلى الدعاء لك في ظهر الغيب؛ إنه الطريق المؤدي إلى تربية ولد صالح يدعوك لك، ولد صالح يقول: ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۝ ﴾ (الإسراء ٢٤).

وإكمالاً للفائدة ودفعاً نحو التطبيق العملي المباشر في هذا المجال سوف أذكر لك إن شاء الله طائفة من الأدعية الثابتة عن رسول الله ﷺ مما يناسب الطفل كي يبادر الأب والأم إلى حفظها وترديدها وتكريرها على مسمع الطفل عند مناسبتها وصولاً إلى الهدف المرجو من هذا التعليم الشرطي الإيجابي إن شاء الله، فقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يؤتى بالصبيان فيدعو لهم، فأُتي بصبي فبال على ثوبه فدعا بماء فأتبعه إياه ولم يغسله^(١) والشاهد هاهنا في دعاء النبي ﷺ للصبيان، وإليك طائفة من هذه الدعوات والأذكار :

١- الدعاء عند النوم والاستيقاظ : عن حذيفة قال : كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال : « باسمك أموت وأحيا » وإذا قام قال : « الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور »^(٢)، كما ثبت دعاء النبي ﷺ للحسن والحسين عند منامهما بقوله : « أعيذك بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة » .

٢- التسليم على الصبي : فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه مرّ على صبيان فسلم عليهم وقال : كان النبي ﷺ يفعلُه .^(٣)

٣- التسمية عند الطعام : عن عمر بن أبي سلمة قال : كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصفحة، فقال لي رسول الله ﷺ : « يا غلام سمّ الله وكلّ يمينك وكلّ مما يليك » . فما زالت تلك طعمتي بعد^(٤) . (تأمل نتيجة

(١) فتح الباري، مرجع سابق - ج ١٢ - ص ٤٣٧ - حديث ٦٣٥٥ .

(٢) المرجع السابق، ج ١٢ - ص ٣٩٤ - حديث ٦٣١٢ .

(٣) المرجع السابق ج ١٢ - ص ٢٩٧ .

(٤) المرجع السابق، ج ١٠ - ص ٦٥٣ .

هذا التوجيه السلوكي في حياة الفرد).

٤- ما يقول عند انتهائه من الطعام : عن أبي أمامة أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدته قال : « الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه ، غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا »^(١).

٥- ما يقول عند المرض : عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يُعوذُ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول : « اللهم رب الناس أذهب الباس واشفهِ وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقماً »^(٢).

٦- ما يقول عند لبس الثوب الجديد : « اللهم لك الحمد أنت كسوتني أسألك من خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له »^(٣).

وهكذا ، فهذه طائفة من الأذكار الثابتة عن رسول الله ﷺ نرى أن من المفيد جداً تعويد أذن الطفل عليها مبكراً جداً في مناسباتها وأوقاتها ، وأحيل القارئ الكريم إلى كتب الحديث للتعرف على مزيد من هذه الأدعية والأذكار تجنباً للإطناب . وقد يتساءل البعض قائلاً : قلت إن التعليم الشرطي فيه نوع من المكافأة التي تكون الباعث على تكرار السلوك المراد تعليمه ، فأين هي المكافأة التي تشجع الطفل على تكرار الذكر والدعاء بتكرار الموقف أو المناسبة؟ قلت : إن المكافأة ليست شيئاً ملموساً محسوساً في هذا المجال وإنما نعمل ونتوجه إلى الله تعالى ونأمل أن تكون المكافأة شيئاً يجده الطفل في نفسه وفؤاده فيبعث الله فيه سكينَةً وطمأنينَةً ويدفع عنه الهوام وشياطين الإنس والجان والاضطراب والقلق النفسي ؛ إن المكافأة في الواقع هي تلك "البركة" الحاصلة من هذه الأذكار والأدعية والتي تحف الطفل والبيت والأسرة جميعاً ، وإنني لا أستطيع أن أحدد لك هذه المكافأة بصورة محسوسة

(١) المرجع السابق ، ج ١٠ - ص ٧٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١١ - ص ٣٦٥ .

(٣) الترمذي ١٥٢ / ٢ .

ولكنني أضمن لك تحقق وحصول هذه المكافأة طالما أنت اجتهدت في العمل وأخلصت في النية، ومستندي في هذا الضمان هو قوله تعالى: $\frac{1}{4}$ فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشَىٰ ﴿١٩٥﴾ (آل عمران ١٩٥).

هذا هو النموذج التطبيقي الأول لأسلوب التعليم الشرطي، وهو مجال سهل مباشر لتطبيق هذا السلوك والإفادة منه، وهو مجال ذو أثر عميق ومهم في تربية الطفل أرجو أن يغتمه كل أب وأم إن شاء الله تعالى.

(٢) النموذج الثاني:

لقد تقدم في النموذج الأول تطبيق مباشر لأسلوب التعليم الشرطي من خلال الربط المتكرر بين الحدث والأثر المطلوب. وسوف نتناول في هذا النموذج بإذن الله تطبيقاً لأسلوب الترغيب والترهيب في تربية الأطفال:

فعن النبي ﷺ قال: «مروا أولادكم بالصلاة إذا بلغوا سبعا واضربوهم عليها إذا بلغوا عشرًا وفرقوا بينهم في المضاجع»^(١).

هذا الحديث يشكل معلماً تربوياً مهماً لأنه يشير إلى عدة أمور جديرة بالتدبر والاهتمام؛ فهو يؤكد على دور الأهل في تعليم أولادهم عبادات دينهم مع أن الأولاد غير مكلفين بعد بهذه العبادات، ويؤكد على فترة عمرية مهمة هي سن التمييز وما يجب الاعتناء به من أمور تربوية في هذه السن، ويؤكد على أهمية التدرج في الوعظ والتدريب وعدم التسرع في العقوبات والترهيبات، ويؤكد على مبدأ مهم من مبادئ الشريعة وهو أن الشرع إذا أمر بشيء أمر بلوازمه وأسبابه ومقدماته، وإذا نهى عن شيء نهى عن لوازمه وأسبابه ومقدماته. وهكذا فعندما يأمر الشرع بالصلاة فإنه يأمر بتحقيق المقدمات والأسباب المؤدية إلى تحقيق انقياد الفرد لهذا الأمر من خلال استغلال فترة ما قبل التكليف لترسيخ العبادة وتكييف الفرد

(١) رواه أحمد، أبو داود والحاكم على شرط مسلم - عن فقه السنة ص ١٠٧.

عليها من خلال رصيد من الوسائل التربوية الترغيبية والترهيبية بحسب السن والتجاوب. وكذلك عندما ينهى الشرع عن التبذل والسفور فإنه ينهى عن الأسباب والمقدمات التي تنزع ستر الحياء عن الفرد وتفضي به السفور والمجون، وعندما يغيب المنهج التربوي الذي يعتني بالتفريق بين الإخوة في المضاجع فلا تستعجب من حوادث المجتمعات الكافرة المنحرفة عندما تسمع عن زنا الإخوة وزنا الأب والبنت وزنا الأم والابن، لا تعجب؛ ذلك أن أحداً لم يربّ الطفل والطفلة على العفة والحشمة والستر، إنمظلتربوا على بهيمية بحتة ومادية رخيصة مجردة عن أدنى مستويات الروحانية التي من الله بها على جنس البشر.

فلننظر إذاً في منهج الحديث في تطبيق هذه الأوامر الشرعية؛ الصلاة والتفريق في المضاجع:

وأول ما أريد أن أنبه عليه هو أن هذا الحديث تكليف شرعي يتناول الآباء والأمهات ولا يتناول الأطفال. فالقاعدة الأصولية هي أن "الأمر بالأمر بالشيء ليست أمراً بالشيء ما لم يقترن باللفظ ما يدل على الأمر"، بمعنى أن الأمر في الحديث موجه إلى الأهل بأن يأمرُوا أولادهم بالصلاة فهذا تكليف للأهل وليس تكليفاً للأطفال بوجوب الصلاة، فتنبه لهذا لأن التقصير فيه لا يعني المخاطرة بالأطفال فحسب، وإنما يعني الوقوع في التقصير في تكليف شرعي مباشر، فكون الأمر على التراخي بالنسبة للأطفال لا يعفينا نحن الآباء والأمهات من بذل الجهد في ترسيخ هذه العبادة في سلوك أولادنا، قلت: تأمل هذا ثم تأمل الأب والأم اللذين ينهيان ولدهما عن الصلاة في الجماعة أو المسجد أو "يشفقان" على الولد أن يوقظاه من نومه لأجل الصلاة ونحو ذلك، تأمل وقل لا حول ولا قوة إلا بالله!

ولننظر ثانياً إلى أسلوب الترغيب بالأمر عند بداية سن التمييز، هذه السن التي يجب أن "يصاحب" الطفل فيها والديه ويستشعر الثقة فيهم فينقاد لما يوجهانه إليه من تعاليم ونصائح وأوامر وإرشادات تربوية وسلوكية، وأود أن أنبه إلى أن ابتداء أمر الأولاد بالصلاة إذا بلغوا سبعا لا بد من أن ينبني على رصيد سابق مقداره سبع

سنوات من القدوة الحسنة ومراقبة الطفل لصلاة أبيه حتى لا يكون هذا الأمر عند بداية سن التمييز بدءاً من الأمر أو غريباً عن العادة، وإن الغفلة عن هذا تجعل البعض يستصعب الأمر بالصلاة عند السبع سنوات إذ كيف يأمر ولده بالصلاة لسبع وهو - أي الأب والأم - لا يصلي؟! وتحضرني ها هنا وصية أحد الخلفاء المسلمين لمعلم ولده إذ قال له: "ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك.."، وإنه لكلام حق، فليكن أول أمرنا بالصلاة إذاً أن نلتزمها حق التزامها ونحقق بذلك القدوة الحسنة لأولادنا فلا تصعب حينئذٍ عملية الترغيب في الصلاة عند السابعة ويكون الولد مستحقاً للترهيب عند العاشرة إذا لم يطاوع الأمر.

فكيف نستطيع إذاً أن نرغب أولادنا في الصلاة في بداية سن التمييز؟ سؤال نحاول الإجابة عنه في نقاط محددة إن شاء الله تعالى:

١- احرص على دعوة الطفل لمرافقتك في الصلاة سواءً أكنت فرداً في المنزل أم جماعةً في المسجد، و احرص على عدم الإطالة في الصلاة حينذاك خشية الإملال.

٢- احرص على اصطحاب الطفل للمسجد في أوقات الصلاة وغيرها لاسيما وأنه الآن في سن يستطيع أن يلتزم فيها بأداب المسجد.

٣- اجعل للطفل شيئاً بعد الصلاة يحبه في التزام الصلاة، ولا أحبذ أن تكون هذه المكافأة مادية وإنما اجعلها مكافأة معنوية كأن تجلس معه بعد الصلاة مدة ٥-١٠ دقائق تحكي له حكاية أو قصة من قصص السلف الصالح أو القصص النافع، فإن الأولاد في هذه السن مولعون بالقصص؛ اجعلها سويةً قصيرة خاصة بطفلك يستشعر فيها أنك له فقط ولست مشغولاً عنه بعملك ولا براحتك ولا بطعامك ولا بأي شيء آخر. ولتكن هذه السوية التي تحدث فيها ولدك ويحدثك فيها هي المكافأة المرغوبة في الحرص على التزام الصلاة

٤- احرص على تعليم الطفل الوضوء من خلال مشاهدتك وأنت تتوضأ أو مشاهدة البنت أمها وهي تتوضأ.

٥- من المفيد جداً أن نبدأ بتعويد البنت على الحجاب في هذه السن بحيث تكون الصلاة مناسبة لارتداء الحجاب الكامل ولتكن مكافأتها هي أنها " ستصبح محجبةً مثل أمها" وهذا له أثرٌ عميق في نفس الفتاة التي من طبعها أنها تريد أن تصبح أمًا مثل أمها . وأنت بهذا تحقق أمرين اثنين هما عبادة الصلاة وعبادة الحجاب وتجعل من أحدها وسيلةً لتحقيق الآخر .

٦- لا مانع بين الحين والآخر من أن يكون الترغيب بشيء مادي كأن تصحب ولدك إلى المسجد وتشترى له شيئاً من الحلوى في طريق الإياب .

٧- من المهم أن تنتبه إلى عدم تهوين الأمر إذا ما فات الطفل فرضاً من فروض الصلاة كأن تقول له : لا عليك ، ليس الأمر بكبير . . . فإن ذلك يخفف من شأن الصلاة في نفسه ، إنما قل له إن التعود على هذا أمر خطير ، وتعال ندعُ الله أن يسامحك ، وعاهد الله على عدم العودة إلى هذا الإهمال والتفريط .

٨ - احرص على تبيين الطفل إلى مواعيد الصلاة حين انشغاله باللعب مع أقرانه أو إخوته ، ولتكن هذه مناسبة لدعوة الجميع ولدك وأولاد جيرانك ممن يلعبون مع ولدك ، فلعلك تثير في أطفال الآخرين من السلوك الحميد الذي قد يغفل عنه أهلهم ، بل لعل الولد يحمل عبادة الصلاة إلى بيت أهله .

٩ - أسند إلى طفلك مهمة إقامة الصلاة فإن هذا يشعره بأهميته وأهمية دوره في إقامة هذه الشعيرة في البيت .

وهكذا فإن مدار الأمر في هذه المرحلة هو على الترغيب والتأنيس وإثارة الوله في قلب الطفل تجاه هذه العبادة التي هي الجبل السري للإنسان الذي لا يستطيع العيش بدونه . وحذار من التثفير في هذه السن سواء أكان من خلال التعنيف أو الشدة فإن الحديث الشريف قد أمهلك ثلاث سنوات للترغيب فلا تُبادر الأمر بالترهيب حتى لا تؤدي المسألة عكس النتيجة المرجوة .

واعلم يا رعاك الله أن هذا الأسلوب - أسلوب الترغيب - على هذا المدى الطويل البالغ ثلاث سنوات سوف يؤدي أكله بإذن الله عند غالبية الأطفال المميزين عند

اجتماع دواعي ذلك من القدوة الحسنة والترغيب اللطيف، وبند التنفير من خلال الإطالة في الصلاة أو الشدة أو التعنيف أو ما شابه. والأهم من ذلك كله سلامة النية والقصد، قلت : اعلم أن ذلك كله سيؤتي ثماره إن شاء الله عند غالبية الأولاد، وتبقى نسبة صغيرة من الأطفال الذين لديهم طبيعة مشاكسة أو هم أصعب انقياداً من غيرهم، وهذا النوع من الأولاد يحتاج إلى شيء من الترهيب وكسر شكيمة النفس دون تحطيمها طبعاً؛ إنهم بحاجة إلى نوع تأديب مع الله عز وجل، وهذه النسبة الضئيلة ستصل إلى سن العشر سنوات وهي غير ملتزمة بعد بعبادة الصلاة، وهنا يأتي التوجيه النبوي الكريم ليوهنا نحو أسلوب الترهيب مع هؤلاء حيث قال ﷺ : « واضربوهم عليها إذا بلغوا عشرًا » . وقد يستشكل البعض اللجوء إلى أسلوب التأديب الجسدي - أي الضرب - مع أننا نهى عن كل ما قد يكون فيه أذى للطفل من جهة ونحبذ التعامل مع الطفل بأسلوب دون هذا من جهة أخرى، بل قد يظن البعض أن هذا ينفر الطفل من الصلاة والعبادة عموماً (وهذا تأوّل مجرد عن الدليل في مقابل صريح النص فلا يعتد به)، وسوف نوضح هذه المسألة فيما يلي لإزالة هذه الإشكالات إن شاء الله :

١- إن الضرب كوسيلة تربوية له ضوابط عديدة تخرج به عن صيرورته وسيلة إيذاء جسدي ويؤدي به إلى كونه وسيلة تأديب "معنوي". فالضرب حسب ضوابط الإسلام يحقق أثراً نفسياً هو كسر شكيمة واستكبار النفس ولا يؤذي الجسد بل لا يجوز أن يؤذي الجسد إذ لا ضرب على الوجه ولا ضرب يكسر عظماً أو يترك أثراً كما أسلفنا سابقاً، فالحاصل أن الضرب هو ضربٌ "معنوي" إن شئت أكثر من كونه ضرباً جسدياً. وتذكر دوماً أن الضرب المراد منه تحقيق مصلحة مرجوة لا يصح أن يؤدي إلى مفسدة أكبر وأفدح.

٢- إن الضرب كوسيلة لا يأتي إلا في نهاية سلم متدرج من الوسائل التربوية التأديبية التي لا يصح تجاوزها واللجوء المباشر إلى الضرب، لأن الضرب لن يحقق أثره المطلوب عند اللجوء إليه كوسيلة أولى ذلك أن الأساليب المتدرجة تعالج أنماطاً

مختلفة من "الأفراد" التي لا يصلح لكل منها إلا أسلوبها، والهدف من التدرج هو التعامل مع كل نموذج فردي وفق أسلوبه الخاص حتى إذا خالصنا إلى الفئة القليلة التي لا يصلحها إلا أسلوب "الضرب" كان ذلك، ألم تر معي إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ (النساء ٣٤)؛ إن النسبة الغالبة من النساء يستجبن بالوعظ، ومن لا يكفيهن الوعظ يستجبن للهجر، وتبقى نسبة ضئيلة ذات طبيعة مشاكسة تستجيب للضرب ضمن ضوابطه المعروفة التي تخرجه عن الإيذاء الجسدي وتحوله إلى تأديب معنوي "أشد". ومن الواضح أن اللجوء مباشرة إلى الضرب تعسفٌ وسوء فهم واستغلال لا يعود على صاحبه إلا بسوء، لأن التي يصلحها الوعظ يفسدها الضرب، والتي يصلحها الهجر يفسدها الضرب أيضاً وربما يخرجهما عن الاستجابة إلى مزيد من النفور والنشوز. وكذلك الحال مع الأولاد؛ فإن الضرب على الصلاة هو مقابل الكي في الطب لا يلجأ له إلا عند فشل باقي الوسائل، ولكن لا يصح تركه إذا احتيج إليه.

٣- إن الاستشكال بأن الضرب يؤدي إلى النفور من العبادة غير صحيح على إطلاقه لأننا إذا ما راعينا الترتيب في تطبيق الوسائل التربوية والتدرج فيها فبدأنا بالترغيب على النحو المتقدم وجدنا أننا لا نلجأ إلى أسلوب الضرب إلا عند تلك الفئة المشاكسة التي تحتاج بطبعها إلى الترهيب. أي أن "التنفير" الموهوم مكانه ليس عند الفئة المحتاجة لأسلوب الضرب وإنما مكانه قد يكون عند من يصلحه غير الضرب كما تقدم، وهذا يمكن تلافيه عند الالتزام بالتدرج في تطبيق الوسائل التربوية كما قدمنا. ولكن قد يتساءل البعض: وما هو الداعي إلى اللجوء إلى أساليب الترهيب أصلاً والطفل غير مكلف أساساً بالصلاة بعد؟! وأين ذلك من "رحمة" الإسلام وأين هذا الأسلوب من رحمة النبي ﷺ؟ (وهذه الأسئلة

فيها تطاول على النبي ﷺ وقلة أدب معه إذا ما أصر المرء عليها وإنما أعرضها
 لدفع توهم وإشكال ووسوسات لا تقريراً للسؤال في ذهن القارئ فليتبهنه القارئ
 وليراعي الأدب مع النبي ﷺ، وجواب هذا الإشكال هو أن الرحمة صفة
 شمولية في شريعة الإسلام وهي صفة أصيلة لا ريب في شخص الرسول الكريم
 ﷺ، وإن هذه الرحمة هي التي تدفع به ﷺ إلى أن يوجه إلى استعمال أسلوب
 التهيب - عند فشل الترغيب - في تعليم الصلاة وذلك وقايةً للطفل من وصوله
 سن البلوغ والتكليف وهو تاركٌ للصلاة مضيع لها فإذا به واقع في واحد من
 خطرين عظيمين : إما خطر الردة إذا أدى به ذلك إلى جحودها وإنكارها
 والإصرار على تركها (وهذه جريمة عقوبتها القتل في الدنيا وهو أشد من الضرب
 الخفيف لا ريب، وأما في الآخرة فشان كبير أن يلقي العبد ربه على ردة أو كفر
 أو تضييع للصلاة)، أو خطر حد تارك الصلاة على القول بعدم التكفير وعقوبة
 هذا هو القتل أيضاً (ولكنه القتل حداً لا ردةً) فأين الضرب الخفيف من القتل
 وخطر الكفر والردة؟! وكيف تشكك في رحمة من يستبدل القتل بضرب غير
 مؤذٍ يؤدي إلى نجاتك في الدنيا والآخرة؟ إن على الذي يستشكل هذه المسألة
 أن يراجع مكانة الصلاة في الإسلام في الواقع ليدرك عظم شأنها ومكانتها ليدرك
 أن العناية بها على هذا الوجه وقبل سن التكليف ليست إلا فرعاً عن هذه المكانة
 العالية جداً للصلاة في الإسلام. وإن مثل من يضرب ولده لامتناعه عن الصلاة
 كمثل من يضرب ولده الصغير وهو يمد يده إلى نارٍ تحرقه أو آلة تؤذيه فهل
 يصح أن نقول أن هذا المربي ليست به رحمةٌ بولده في حين هو يتوخى من هذا
 الضرب منع الأذى عن ولده وكف يده عما يؤذيه! بل كم من أب وأم يضربون
 أولادهم لأسباب تافهة هينة، وكم من أب وأم يصرخون ويشتمون ويؤذون
 أولادهم دون مراعاة لآداب الضرب ودون مراعاة للأسباب المبيحة له وذلك من
 أجل أسباب دنيوية تافهة أو حتى بدون سبب، والعجيب أن الأهل يتذرعون
 لهذا "الضرب" بأنه "حقهم" لأن الولد ولدهم، وإذا سلمنا بهذا جدلاً، أفلا يكون

حق الله عز وجل الذي يملك الأهل والولد أولى بتشريع الضرب وسيلة لتحقيق هدف تعبدي أسمى من كل ما يضرب الأهل ولدهم لأجله من أسباب شخصية؟! إن الإسلام كله رحمة بما فيه من حدود القتل والجلد والرجم والتعزير كله رحمة، لأنه يحقق النجاة في الآخرة من العذاب الذي تهون عنده كل مشقات الدنيا وعذابات وآلامها، بل تهون أمام ضنك المعصية وشقاوتها في الدنيا أيضاً.

بهذا كله يتبين لنا كيف يتناسب أسلوب التهيب مع هذه المنظومة التربوية، والمهم مراعاة الأمور الدقيقة التي ذكرنا حتى يؤدي أسلوب الترغيب والتهيب أكله مع تفادي أية مفسدة أو ضرر محتمل. وأريد أن أنبه على أمر مهم جداً يتناول الأسر المقيمة في بلاد الغرب لا سيما الولايات المتحدة الأمريكية حيث توجد قوانين تمنع الضرب أياً كان - أي ضرب الأولاد - وإن هذه القوانين تسمح للولاية بأن تأخذ الأولاد من أهلهم وتحرمهم حضانتهم وتحرمهم كل حقوق الوصاية والولاية بل وتحرمهم من رؤية أولادهم وتأخذ الأولاد لتدفع بهم بهم إلى دور رعاية - غير مسلمة طبعاً - وذلك في خطوة مؤقتة ريثما تتبنى إحدى الأسر (غير المسلمة) هؤلاء الأولاد وذلك كله بحجة "الخوف" على الأولاد ورعايتهم، وكم سمعنا من الحوادث المؤسفة عن الأسر المسلمة التي حرمت أولادها ودفع بهم إلى أسر نصرانية كافرة وتلك لعمري هي المأساة الكبرى. والشاهد هنا هو أن على الأهل أن يحرصوا على عدم الوقوع فرائس لهذه القوانين، وأنا أقول أننا إذا كنا نعطل الحدود في حالات الحرب مع العدو والحالات التي يخشى فيها على المذهب أن يلحق بغير المسلمين ويخسر دينه بذلك، فقد يكون من اللازم - مؤقتاً - أن نعطل وسيلة الضرب عندما نعيش في المجتمعات التي تعرض قوانينها أولادنا لخطر أكبر هو خطر مفارقة الدين والأهل بالكلية، لأنه من الواضح أن المفسدة الحاصلة بالضرب أكبر بكثير من المصلحة المرجوة. ولكن هذا يعني في المقابل مضاعفة الجهود في تطبيق أساليب الترغيب والرعاية والتربية حتى تؤدي ثمارها أفضل ما يمكن فتقل أو تنعدم الحاجة إلى أساليب التهيب، كما أنه من المهم أن يراجع الأهل أسباب

إقامتهم في مجتمعات تمنعهم من تربية أولادهم وقد تفضي بهم إلى خسارة الأولاد بالكلية وحرمانهم من مجرد رؤيتهم ناهيك عن تربيتهم، فتنبه لهذا يا رعاك الله فلکم وقعت فيه أسراً ملتزمة ناصحة لله ولرسوله ﷺ، ورحم الله عمر بن الخطاب حيث قال: "لست بالخَبِّ ولا الخَبُّ يخذعني" (الخَبُّ: هو الثعلب) فالحرص كل الحرص والحذر كل الحذر من أن تصبح مناط نكاية لأعداء الإسلام.

بقي شق آخر في الحديث المذكور وهو التفريق في المضاجع، وهذا الأمر مما يغفل عنه كثير من الآباء والأمهات، وهو عدم مراعاة آداب الخلوة والاستئذان بين الأخوة والأخوات، وعدم مراعاة الخصوصية في غرف النوم والأسيرة، وإن الحد الأعلى الذي يمكن قبوله في هذه المسألة هو السن المحدد في الحديث (أي سن التمييز)، ونحن نميل إلى السن الأدنى المذكور في الحديث وهو سن السابعة لا سيما في الوقت الذي نعيش فيه مع ما فيه من ضغط إعلامي اجتماعي تجاه المسائل الجنسية، وما يؤدي إليه تعرض الطفل مبكراً إلى الكثير من المفاهيم الجنسية المنحرفة والإباحية مما يدفع بالطفل إلى الوقوع في وسوسات وانحرافات كثيرة لا سيما إذا كان الجو الأسري غير منضبط بالضوابط الشرعية، وانظر إلى المجتمعات الغربية التي يمارس فيها التبادل والسفور والاختلاط ولا تراعى فيه آداب الخلوة والاستئذان والتفريق في المضاجع مع إباحية اجتماعية بهيمية عجيبة، ثم انظر إلى نتائج ذلك من زنا المحارم والأشقاء والأولاد والآباء والأمهات، فالأمر غير مستحيل الحدوث عافانا الله، ولا بد من الأخذ بكل أسباب الوقاية والحماية من وقوع أمثال هذه الكبائر.

ويجب ملاحظة أن هذه المسألة - مسألة التفريق في المضاجع - ليس فيها شيء من المرحلية أو التدرج بل هي عملية ذات خطوة واحدة، ولكن بالنظر إلى الواقع العملي الذي يكتنف بعض الأسر الكبيرة والقدرة المادية المحدودة التي لا تسمح باقتناء أو استئجار بيوت كبيرة يكفي ما فيه من الغرف للتفريق فإنه لا بد من مراعاة الحدود الدنيا في هذا الأمر وهو التفريق في المضاجع والأسيرة، ولا بد من مراعاة

الستر في اللباس والاحتشام عند وجود أي ضرورة قاهرة للمشاركة في الغرف، ومراعاة آداب الخلوة حتى لا تقع عين الأخ على شيء من أخته ولا عين الأخت على شيء من أخيها. وهذا الأمر ليس مما يندرج تحت أسلوب الترغيب والترهيب وإنما ذكرته إتماماً للفائدة من الحديث الشريف.

وهكذا نكون قد تناولنا بفضل الله عز وجل وسيلة التعليم الشرطي والترغيب والترهيب، أرجو أن يكون فيها نفعاً لنا إن شاء الله تعالى. كما نكون قد أتينا على موضوع الوسائل التربوية أيضاً وذلك في تفصيل أرجو ألا يكون مُخِلّاً أو مُمِلّاً، كما أرجو أن تكون النماذج التطبيقية التي قدمناها على درجة من الوضوح في ذهن القارئ بحيث يستشعر أهميتها ويسعى للعمل بها أخذاً بتوجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، علماً بأن ما ذكرنا ليس إلا شيئاً يسيراً مما هو منشور في طيات الكتاب العزيز والسنة المطهرة فلا يحرم القارئ نفسه من الرجوع إليها والتدبر فيها.

وجزى الله خيراً من رأى أسلوباً أو وسيلة أخرى فنفعنا ونفسه بها، فما أحوجنا في هذه الآونة إلى استحضار كل ما من شأنه الإعانة على صنع هذا الجيل القرآني الذي ننتظره بفارغ الصبر. وأترك ما عرضنا من وسائل وتطبيقات تربوية أمانةً في عنق كل أب وأم ليفيد منها في تعهد ولده ورعايته إن شاء الله تعالى.

« نظرية تربوية متكاملة »

قراءة في سورة لقمان

لقد انتهيت بفضل الله تعالى من استعراض فصول هذا الكتاب الذي عقدت مادته حول تربية الطفل للإسلام، وإني لأرجو الله أن أكون قد أثرت في نفس القارئ بواعث الانطلاق في مسيرة تربوية ثورية تُخرِّج لنا جيلاً كأولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً. وإن طبيعة العرض والدراسة قد دفعتني إلى تجزئة هذا المنهج التربوي إلى فصول وعناوين وتفرعات جزئية ألا إنه لا يخفى على القارئ أن منهجاً يعنى بالتعامل مع النفس البشرية في مهدها وعبر أطوار نموها المتلاحقة لا يمكن أن يكون منهجاً مجزأً أو تفرعات متناثرة في الزمان والمكان، وإنما هو منهج متكامل وعملية آنية تتشارك فيها كل الحشيات وكل الجزئيات لتخاطب شتى محاور النفس في ذات الوقت ولتصمد أمام كل تحدٍ وتجتاز كل عقبة ككيانٍ واحدٍ متماسك. ولهذا وجدت نفسي محتاجاً إلى أن أقدم - بعد هذا العرض - صيغةً مجموعيةً تعرض شمولية المنهج في وحدة متكاملة تعمل فيها الجزئيات جنباً إلى جنب لتحقيق التكامل المنهجي والتطبيقي في العملية التربوية للطفل.

وهكذا طوّفت في أرجاء هذا المنهج ومصادره وتطبيقاته فلم أجد أمامي سبيلاً لذلك إلا العودة إلى المعين الأصيل - كتاب الله عز وجل - لأستشف منه تلك الصيغة والوحدة المتكاملة، فكان أن اهتديت بفضل الله وحده إلى ذلك الاكتشاف العجيب البديع في سورة من سور القرآن الكريم تحقق ذلك التكامل وتمثل بنفسها نظريةً تربويةً متكاملةً مستقلة، وهي سورة لقمان؛ تلك السورة البديعة المعجزة التي تشتمل على مقومات المنهج ووسائل تطبيقه في نفس الوقت الذي ترسم فيه للمربي والناشئ هدفاً يسعى المنهج إلى تحقيقه مع مساهمة كل آية بل كل كلمة في هذه

السورة بدورها في تحقيق الشمولية والتكامل المنهجي والتطبيقي والغائي بحيث يستطيع المربي - ودون مبالغة - أن يعتمد هذه السورة وحدها لتربية ونجاة ولده وأداء أمانة التربية التي استودعه الله تعالى إياها .

ولن أتناول هذه السورة الكريمة بتفسير أو شرح ، فما أعجزني عن ذلك وما أقل بضاعتي فيه ، بل أحيل القارئ إلى تفسير السورة في مظانها في كتب التفسير المأثور الصحيحة (كتفسير الطبري وابن كثير وغيرهما . .) وأعرض إلى السورة من حيث المحاور التربوية التي تشتمل عليها مبيناً شمولية هذه المحاور في مجموعها لمقومات المنهج التربوي الكامل وفق الصياغة الإسلامية بالطبع .

وأؤكد قبل المضي في هذا العرض على أنه مجرد إشارة عامة إلى محاور ومقومات المنهج التربوي وليس بحالٍ من الأحوال دراسةً وافيةً شاملةً لهذه السورة حتى من المنظور التربوي ، إذ أن هذه الدراسة الوافية تصلح لأن تكون موضوع كتابٍ بأكمله أسأل الله تعالى أن يوفقني أو غيري إلى إنجازه . وبناءً على هذا فإنني أشجع القارئ على عدم الوقوف عند حدود هذا العرض للسورة حتى لا يحرم نفسه وغيره من الخير الكثير الوفير ، وليجعل من هذا العرض حافزاً ودافعاً إلى مزيدٍ من البحث والنظر والتأمل في ظلال هذه السورة وغيرها من السور القرآنية والأحاديث النبوية لنخرج بأوفر نتاج في مجال التربية التي نريدها لأولادنا . وغرضي من الاختصار على هذا العرض الموجز هو عدم الخروج بالكتاب عن حجمه خشية الإثقال على القارئ وتعطل الانتفاع به ، وأنا على يقين بأن إثارة الباعث والدافع في نفس القارئ سيكون كفيلاً - بإذن الله - بدفعه إلى مزيد بحث وتأمل وقراءة وعمل ، فعلى بركة الله .

سورة لقمان : نظام تربوي متكامل :

عند التدبر والتمعن في آيات سورة لقمان يتبين أن هذه الآيات يمكن أن تجتمع بأكملها ضمن إطارٍ عامٍ جامع لها هو إطار التربية العقائدية السلوكية للفرد الناشئ

ابتداءً بالطفولة والشباب وانتهاءً بالنضج والكهولة . ولقد تأملت في هذه السورة واهتديت إلى تقسيم آياتها إلى عددٍ من المحاور التربوية المجموعة ضمن هذا الإطار العام فوجدتني أمام خمسة محاور رئيسية هي :

(١) المحور الأول: ويمثل الصياغة الإسلامية لهدف التربية في كل من الدنيا والآخرة.

(٢) المحور الثاني: ويمثل التهيئة الإسلامية لبيئة التربية من حيث التنبيه على موانع التربية السليمة - من المنظور الإسلامي - وضرورة تفريغ بيئة التربية منها .

(٣) المحور الثالث والرابع : وهما يمثلان مادة التربية بشقيها الشرعي والكوني .

(٤) المحور الخامس : ويمثل منهج التربية ويشتمل على التفريعات التالية :

أ (عناصر العملية التربوية : العقيدة - الذات (الرقابة) - السلوك .
ب) صفات المربي .

ج) إشارة إلى وسائل التربية: من خلال عرض عملي لها في السورة.

وسوف أعرض بصورة موجزة لهذه المحاور كما تمثلها آيات سورة لقمان حتى يتبين لنا بجلاء هذا النظام التربوي الجامع وتستبين معالم هذه النظرية التربوية الإسلامية المتكاملة في هذه السورة .

أولاً: المحور الأول: هدف التربية:

لا شك أن هدف التربية في المنظور الإسلامي يتميز عنه في غيره من النظم والمناهج التربوية ، كما لا شك في أن تحديد هدف التربية واستحضاره أمرٌ لازمٌ لأي منهج تربوي من أجل صياغة عناصر هذا المنهج على نحوٍ يحقق هذا الهدف ومن أجل إيجاد مرجع معياري ينضبط به تطبيق المنهج ويقوم به عناصر المنهج للثبوت من حسن التطبيق . وهكذا نجد عند تأمل سورة لقمان أنها تشير إلى هدف التربية الإسلامية وإلى الغاية المراد تحقيقها من خلال منهج التربية ألا وهي تحقيق الصورة النموذجية الصحيحة للإنسان القادر على صناعة الدنيا والآخرة وفق منهج الله

الإيمان بالغيب فأشارت إلى أحد أهم معالم الإيمان بالغيب وهي " وهم بالآخرة هم يوقنون "؛ والحقيقة أن الإشارة إلى الإيمان بالغيب من خلال بيان يقين هؤلاء بالآخرة إيجازٌ بديع إذ أن الإيمان بالآخرة يستلزم الإيمان بكل الغيبات الأخرى بدءاً بالله عز وجل ومروراً بالرسل والكتب والملائكة لأن هذه الغيبات هي مصدر ووسيلة العلم بالآخرة فمن آمن بالآخرة على الوجه الصحيح كان مؤمناً بالله ورسالاته وكل ما أخبر عنه من الغيبات.

وبهذا تتحقق غاية وهدف التربية الإسلامية في الدار الدنيا : إنسان مؤمن موقن عابد يقيم شرع الله في الدنيا على النهج الذي رسمه له الله تعالى .

ب) الآيات المبينة لهدف التربية في المجال الأخروي :

وهي قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (لقمان ٣٣) .

فهذه الآية تحدد الهدف الأخروي لتربية الفرد ألا وهو تحقيق النجاة وذلك باتقاء أهوال ذلك اليوم واستحضار رهبة الوقوف بين يدي الله وبيان حقيقة الدنيا وكونها مرحلة انتقالية لا يصح الركون إليها والاعتزاز بها . وإن تحقيق هذا الهدف التربوي هو الذي يقي الإنسان من الانجراف وراء الشهوات والأمانى الشيطانية وهو الذي يدفع بالإنسان إلى التزام منهج الشريعة الغراء الذي يضمن له سعادة الآخرة ناهيك عن سعادة الدنيا . والحقيقة أن هذه الشمولية الغائية في منهج التربية الإسلامية فريدة ومتميزة بحيث لا تجد منهجاً تربوياً آخر يحقق ذلك التوازن بين غاية التربية في مجال الدنيا وغايتها في مجال الآخرة على هذا النسق الذي يحققه منهج التربية الإسلامية .

ثانياً : المحور الثاني : تهيئة البيئة التربوية :

ويتمثل هذا المحور في عمل المنهج التربوي الإسلامي على التنبيه على موانع ومعوقات التربية السليمة والحث على تفرغ بيئة التربية من هذه الموانع والأضداد .

ويتمثل هذا المحور في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۖ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٦٧﴾ (لقمان ٦-٧) .

إن أحد أهم أسباب الفشل التربوي هو انشغال محل القبول والتلقي عند الفرد بالموانع والأضداد التي تصد عن قبول مادة التربية السليمة . ولقد نبهت هذه الآيات الكريمات على ضرورة العناية بهذا العنصر المنهجي : التفرغ والتصفية . فبدأت هذه الآيات بالتحذير من ذلك الصنف المضل من البشر الذي يسعى إلى الإلهاء والصد عن سبيل الله من خلال الترويج للمنكرات واللهو الحرام ، ولقد فصلت الآيات في بيان خصال وأوصاف هؤلاء المضلين حتى يتمكن من معرفتهم واتقائهم ووقاية أطفالنا وبيوتنا ومجتمعاتنا منهم ، فحددت الآيات صفات هؤلاء المضلين بما يلي :

(أ) الجهل :

وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَآيَةُ هَٰؤُلَاءِ أَنَّهُمْ جُهَالٌ لَا بَضَاعَةَ لَدَيْهِمْ إِلَّا ذَلِكِ اللَّهْوُ الْحَرَامُ وَالْبَاطِلُ ، وَلَا يَسْتَنِدُونَ إِلَىٰ قرآن وَلَا سُنَّةٍ وَلَا يَعْمَلُونَ بِعَمَلِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَإِنَّمَا الْبِدْعَةُ وَالضَّلَالَةُ وَالْفُسْقُ وَالْفُجُورُ يَمَارِسُونَهُ وَيُرَاجُونَ لَهُ يَظُنُّونَ بِذَلِكَ أَنَّهُمْ يَظْفُتُونَ نُورَ اللَّهِ تَعَالَى .

(ب) الاستهزاء بآيات الله :

كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۖ فَهَٰؤُلَاءِ لَا يَرَاعُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ حَرَمَةً وَلَا لآيَاتِهِ احْتِرَامًا ، تَرَاهُمْ كَحَالِ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَفَّارِ يَسْتَهْزِئُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَمْنَحُ اللَّهُ وَيَمْنُ يَلْتَزِمُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَى وَالصَّلَاحِ .

(ج) الاستكبار والإعراض عن آيات الله :

كما يبين الله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ۖ حَيْثُ

ينبهننا سبحانه وتعالى إلى خصلةٍ ثلاثة عند هؤلاء المضلين وهي الإعراض وعدم الانقياد والخضوع لآيات الله وأوامره وحدوده، بل تأخذهم العزة بالإثم وتراهم يصرون على منكرهم ويصرون على الترويج له إفساداً للمجتمع وتوسيعاً لدائرة الفسق والضلال من حولهم.

وزيادةً في التحذير من الانجراف والانخداع بهذا الصنف المقيت من الناس بينت الآيات الكريمتان في خاتمة كل منهما مصير وعاقبة هؤلاء المضلين في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وذلك تنفيراً للمسلم من هؤلاء الأفراد ومن فعل هؤلاء الأفراد.

إن الطفل والفرد عموماً قابلٌ لتلقي شتى المؤثرات الخارجية وقابلٌ للانفعال بشتى الشواغل والملهيات، لذا كان مناسباً جداً بل وضرورياً لنجاح منهج التربية الإسلامية التنبيه لأهمية تفريغ البيئة التربوية من هذه النماذج المضلة ذات التأثير السلبي في الطفل والفرد الناشئ. ولقد عرضنا ضمن الأخطار المحدقة بالطفل وسائل الإلهاء والإقصاء الفكري وهي تندرج ضمن هذا الذي حذر الله تعالى منه في سورة لقمان. وإن استقراء واقع المجتمعات غير المسلمة والمسلمة المعاصرة يبين لنا بوضوح أن الاعتماد على المناهج التربوية فقط دون العمل على تصفية عوامل الخلل والتأثير السلبي الخارجي المنتشرة في أرجاء المجتمع والمدرسة والبيت لا يمكن أن تؤدي إلى نتائج تربوية سليمة، ذلك أن محل التربية مشغولٌ بهذه الملهيات والمشغول لا يشغل! والحقيقة أن هذا المحور يُشكّل عنصراً مميزاً من عناصر المنهج التربوي الإسلامي أيضاً والذي فشلت أكثر الدول "تحضراً" في الوقت المعاصر في التنبيه إليه والعمل على تطبيقه، فترى دول الغرب مثلاً تنفق الملايين سنوياً من أجل برامج التوعية والتثقيف ضد مخاطر الانحلال والغول والمخدرات والجنس والدعارة إلا أن ذلك لا يؤتي ثماره طالما النماذج الحية الواقعية لكل هذه الفواحش منتشرة في المجتمع دون ردع أو استنكار لها بحجة الحرية وغيرها، ولكن كيف تُسمع ذلك الذي في أذنيه وقر، وكيف تهدي من استكبر عن آيات الله وأعرض عنها؟!

ثالثاً : المحور الثالث والرابع : مادة التربية :

ولقد جمعت هذين المحورين بسبب تكاملها مع بعضهما البعض حيث يمثل كل منهما شقاً من شقي المادة التربوية التي يُصنع الفرد المسلم على أساسها . وفيما يلي استعراض لما تناولته السورة الكريمة من هذين المحورين :

(أ) مادة التربية الشرعية :

وهي تمثل قراءة وإشارة إلى سنن الله الشرعية ينبه المربي عليها الفرد الناشئ في سياق التربية لتتأصل في نفسه وفكره وتكون ضابطاً له في حياته الفكرية والعقدية والسلوكية ، كما تُضفي الصبغة التعبدية على كل ما يأتي به الفرد لاحقاً من قول أو فعل أو فكر . وإليك الآيات من سورة لقمان التي تشير إلى هذه السنن وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ أَمْنٌ وَعَمَلٌ وَالصَّالِحَاتُ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ (لقمان ٨-٩) فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾ (لقمان ٨-٩)

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (١١) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿١٢﴾ (لقمان ٢٣-٢٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١٣) (لقمان ٢١) .

فهذه الآيات تقدم التصور الصحيح - وفق سنة الله الشريعة - لمنظومة العمل والجزاء وتصحيح الانحراف الفكري القاصر الذي لا يتجاوز النظر إلى الدنيا ليدرك أن مسرح الأحداث لا ينتهي بمجرد انقضاء الحياة الدنيا وإنما الجزاء والعقاب آتٍ في مرحلة الآخرة حين يرجع الناس إلى رب العالمين . وبهذا التصور الصحيح الشامل ينقطع رجاء الفرد في الدنيا وينعدم انبهاره بمتاعها المؤقت ويصبر على بلائها العابر . وإذا علم الفرد ذلك أدرك أن لا نجاة بالركون إلى التقليد الأعمى ووجه فكره نحو النقد الموضوعي لموارث الغير بحيث يكون ضابط القبول هو

موافقة شرع الله وضابط الرفض هو متابعة الشيطان وذلك احترازاً من عاقبة السير وراءه كما بينت الآية الكريمة : ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ !؟

وهنا لفظة لطيفة وهي أن الآيات قد عرضت مآل البشر ذاكراً صنف المؤمنين وصنف الكافرين ولم تذكر صنف المنافقين ذلك لأن مآل المنافقين إما إلى الكفر أو إلى الإيمان (بالتوبة) نهايةً فلا حاجة لذكر هذا الصنف في معرض بيان خوايتهم الأعمال وجزائها، وإنما ذكروا كصنفٍ مستقل في مواضع أخرى من القرآن الكريم لتعلق أحكام دنيوية بهم ولحاجة المجتمع المسلم إلى التعرف عليهم واتقاء شرورهم، والله أعلم.

(ب) مادة التربية الكونية:

وهي تمثل قراءة في بعض صفحات الكون المفتوحة أمام عيني الإنسان، وتوجه آيات السورة إلى هذه القراءة ضمن إطارين متميزتين هما التأمل والحوار؛ تأمل العبد في مخلوقات الله، وحوار المؤمن مع الكافر من خلال التشبيه على مخلوقات الله، كما تشير إليه الآيات التالية :

(١) لفت النظر وتوجيه العقل نحو تدبر الآيات الكونية : وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ٥١ ﴾ (لقمان ١٠)

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٥٢ ﴾ وإذا غشيهم موجٌ كالظلل دعواُ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ٥٣ ﴾ (لقمان ٣١ ٣٢).

فهذه الآيات توجه العقل وتنبيه الفرد نحو التفكير في خلق الله والتدبر في صفحات الكون بغية ترسيخ الإيمان بالله من جهة وبغية حث الفرد على البحث والاستكشاف في هذا الكون لتسخيره في عمارة الأرض وتحقيق الخلافة من جهة أخرى. وينبّه الأسلوب القرآني المتكرر بقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إلى الدور الفاعل الذي يلعبه المربي في لفت نظر الطفل وفتح آفاقه وتوسيع مداركه للتعامل بطلاقة وانفتاح مع هذا الكون الواسع الذي يعيش فيه والذي سخره الله تعالى له ليتم التكامل ما بين طاقة الإنسان ونواميس الكون وخيراته وليتم التجانس والتآلف ما بين الإنسان والكون ضمن منظومة العبادة الشاملة التي يؤدي فيها كل دوره الذي خلقه الله تعالى له.

ومن الضروري أن نبه إلى أن هذا الأسلوب القرآني في التربية والقائم على فتح آفاق النظر والتدبر وتوسيع مدارك الفرد وحثه على البحث والنظر هو وحده الكفيل بصناعة الإنسان المنتج المخترع في نفس الوقت الذي يحافظ فيه على فروض الطاعة والعبادة لله عز وجل بحيث تتكامل مادة التربية الكونية مع مادة التربية الشرعية حيث يشكل استكشاف الكون والبحث فيه استجابة لأمر الله الشرعي ويشكل الأمر الشرعي باعثاً لمزيد من البحث والتأمل في الكون والفرد في الحالتين ينطق بلا إله إلا الله في كل لحظة من لحظات التفاعل تلك، فإذا بنا بصناعة إنسانية كاملة - والكمال المطلق لله - ومجتمع إنساني متكامل، وإذا بنا قد نأينا بأنفسنا عن إنتاج أفراد وأجيال لا عمل لها إلا اجترار المحصول العلمي لأقوام سابقين دون إضافة أو بحث أو تجديد. وإنما كان ضمان السنن الشرعية وثباتها وتكفل الشرع بها عنصراً مهماً من عناصر التفرغ لتطويع الكون في منظومة العبادة دون انفصام في أحد المفهومين أو كلاهما.

(٢) حوار دعوي مع الكافرين من خلال التوجيه إلى آيات الله الكونية والتذكير بنعم الله على البشرية:

وهذا أسلوب قرآني بديع في الدعوة إلى الله لأنه ينطلق من مسلمة عقلية وحسية متفق عليها ويطرق بها بأسلوب النظر والاستدلال العقلي ليلتقي مع الفطرة

السليمة على معرفة السبب الأول وراء كل شيء والمدير الحقيقي لكل شيء الله سبحانه وتعالى . والآيات التي تشير إلى هذا المنهج هي قوله تعالى : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (لقمان ١١) .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ (لقمان ٢٠) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (لقمان ٢٥) .

وقوله تعالى : ﴿ مَّا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنْ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (لقمان ٢٨) .

فهذا الحوار الدعوي الذي تقدمه الآيات وينبغي للمربي أن يوجه الناشئ إليه ويعلمه مبادئه وتطبيقه في سياق الدعوة إلى الله يقوم على توجيه القراءة في صفحات الكون وفق الضوابط العقدية والدعوية للمنهج الإسلامي التي تشير إليها الآيات المتقدمة وهذه الضوابط هي :

١- إفراد التوحيد لله عز وجل : وهذا منطلق عقدي لا نحاول إثباته لأنه ثابت بالأصالة فطرة وعقلاً وشرعاً وإنما نحاول تنقيحه وتطهيره من شوائب الشرك التي تتراده .

٢- المجادلة بعلم أو هدى أو كتاب منير : فهذه مصادر العلم فحسب وما عدا ذلك لا يستحق الالتفات إليه ، فالعلم إما مخبر عنه بصدق أو مشاهد محسوس .

٣- منهج الحصر والتفنيد : فالمخلوقات لا تخرج عن كونها مخلوقة لخالق أو عدة خالقين أو لا خالق (من حيث الاحتمال النظري) والاحتمالين الأخيرين مناقضان للعقل والعلم والشرع فلم يبق إلا خالقية الله .

٤- منهج الاستدلال العقلي : كالاستدلال بالبده على الإعادة والاستدلال بالأعلى على الأدنى وغيره .

فهذا المنهج الذي ينطلق من ثوابت العقيدة (التي تقدم شيء منها في محور مادة التربية الشرعية) والذي يستغل القراءة الكونية (المعروضة هنا في محور مادة التربية الكونية) هو ما يجب تربية الفرد عليه حتى ينطلق في عمارة الأرض وفق المنهج الرباني الذي يحقق الريادة للأمة المسلمة في كل من الاستخلاف الشرعي والتفوق الكوني. وإن شمولية آيات سورة لقمان لهذه العناصر واضحة كل الوضوح بفضل الله تعالى.

رابعاً : المحور الخامس : منهج التربية :

ويشتمل هذا المنهج على التفريعات التالية : عناصر العملية التربوية - صفات المربي - وسائل التربية . وإليك عرض موجز لها .

(أ) عناصر العملية التربوية :

وهي ثلاثة عناصر لا بد من تحقيقها في سياق التربية الإسلامية للطفل وتمثل فيما يلي :

١ - عنصر العقيدة :

وتمثله الآيات القرآنية التالية من سورة لقمان : ﴿وَإِذْ قَالَ لِقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلُہُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٧﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (لقمان ١٣-١٥) وهذه الآيات تعمل على تركيز توحيد الألوهية وتطهير العقيدة من الشرك باعتبار توحيد الربوبية من المسلّمات البديهية .

ثم تأتي آيات أخرى لتشير إلى توحيد الصفات والأسماء لله عز وجل من خلال الإشارة إلى بعض منها في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢) (لقمان ٢٦-٢٧)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣) (لقمان ٣٤). فإقرار هذه الأسماء والصفات في نفس الطفل وتعريفه بالله عز وجل من خلال أسمائه وصفاته يُشري المعرفة القلبية للطفل الناشئ بخالقه ويُقرِّبه إلى الله حباً وطمعاً وخوفاً ورجاءً وتوبةً ودعاءً وتوكلاً واعتماداً بما لا حدود له ولا نهاية لأنه حب وطمع وخوف ورجاء ودعاء من لا أول له ولا آخر ولا سابق ولا لاحق سبحانه وتعالى. ويطرسخ العنصر العقائدي الجامع لأنواع التوحيد في هذه الآية الجامعة: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٤) (لقمان ٢٢)

٢ - عنصر الرقابة الذاتية :

وتشير إلى هذا العنصر الآية الكريمة التالية: ﴿يَبْنِيٰ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (٥) (لقمان ١٦)، فهذه الآية تبث في النفس الوازع على مراقبة حدود الله والوقوف عند زواجره والتزام أوامره بغض النظر عن وجود الرقابة الخارجية من أفراد وقوانين وسلطات وغير ذلك، ولا نجاح في الواقع لأي نظام رقابي لا يعنى بتسمية رقابة الذات إذ لا ريب أن لكل فرد خلوات مع نفسه يستطيع من خلالها خرق الحدود والقوانين بحيث لا يردعه إلا استحضار رقابة الله له وعلمه الشامل المحيط به وبخلواته.

وهو ما تشير إليه الآيات التالية من السورة الكريمة : ﴿ يَبْنِيْ أَقْمَرُ الصَّلَوةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ۝ ﴾ (لقمان ١٧-١٩).

فهذه التوجيهات السلوكية الشاملة لكل أنواع السلوك ولكل أعمال الجوارح من فعل وقول وفيما يتعلق باللسان واليد والرجل قد أخذت حظها من العناية والتربية والتوجيه في هذه الآيات الجامعة، ولا شك أن تحقيق هذا المظهر السلوكي هو الترجمة العملية المرادة من مجمل العملية التربوية والواقع الحي الناطق بمجمل المبادئ العقدية للفرد المسلم. ولقد تعرضنا للعديد من هذه السلوكيات في سياق المبحث التطور الروحي الحركي فليرجع إليه.

هذه بإيجاز هي عناصر العملية التربوية قد جمعتها الآيات التي أشرنا إليها ضمن محور المنهج التربوي الذي حددته سورة لقمان.

(ب) صفات المربي :

فالمنهج التربوي لا بد له من راع يتعهد بتطبيقه ومربي يقوم على الطفل الناشئ، ولا بد لهذا المربي من صفات تتناسب مع طبيعة المنهج التربوي. ولقد أشارت السورة الكريمة إلى هذا العنصر المهم وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (لقمان ١٢). فالحكمة تشمل - كما أشار الحديث الشريف : « لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ... » الحديث - العلم الشرعي والمنهج الشرعي الصحيح، فلا بد للمربي من علم بالمنهج والمادة اللذين يربي الناشئ عليهما، كما لا بد له من تطبيق عملي لهذا المنهج في نفسه

وذلك ما تشير إليه الآية " أن اشكر الله " فالشكر لله إشارة إلى التطبيق العملي للعلم والحكمة التي آتاه الله للمربي الفاضل . ولا شك أن لصفات المربي تفصيلاً واسعاً إلا أنني أردت أن أبين إشارة السورة لهذا الأمر كدليل جزئي على تكامل النظرية التربوية في هذه السورة ولم أرد حصر وجمع هذه الصفات .

(ج) وسائل التربية :

وهي السبل والأساليب التي يتم من خلالها تعهد الطفل وتطبيق المنهج التربوي عليه وإلقاء مادة التربية عليه أيضاً . ولقد اشتملت السورة على إشارات عديدة لوسائل تربوية متنوعة أكتفي بتعدادها والإشارة إلى موضعها في السورة لمن أراد الاستزادة :

١- أسلوب الحث على النظر وإثارة بواعث الفضول في النفس :

وذلك يتمثل في اللفظ القرآني المتكرر " ألم تر " في سياق التوجيه تحو التدبر في الكون كما تقدم .

٢- أسلوب التوعيد :

وذلك من خلال الأمر بإقامة الفروض والطاعات قبل سن التكليف وكذلك الأمر بشتى السلوكيات الإسلامية كي يتعوّدها الناشئ ويألفها ، وذلك واضح في قوله تعالى : ﴿ يَبْنِيْ اَقِمِ الصَّلَاةَ وَاْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَاَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبِرْ عَلٰى مَا اَصَابَكَ اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْاُمُوْر ۝١٥٠ ﴾ .

٣- أسلوب الوعظ :

ويتمثل في ذلك اللفظ المتكرر المليء بالشفقة والحنان على الولد حين يخاطبه والده بلفظ " يا بني " مع تكرار هذا اللفظ عند كل موعظة ونصيحة .

٤- أسلوب الوصية :

ويتمثل في قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْاِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ اُمُّهُ وَهْنًا عَلٰى وَهْنٍ ﴾ ويتميز هذا الأسلوب بأنه يلقي نوعاً من الأمانة والمسؤولية على عاتق الناشئ مما يدفعه إلى التزام الأمر الموصى به .

٥- أسلوب المجاهدة:

ويتمثل في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ بَيْتٍ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ وهذا الأمر ينسحب على كل ما يحاول انتزاع الطفل واستمالته نحو الشرك ومتابعة الهوى والشيطان ويدله على ضرورة مجاهدة ذلك مع الحرص على أداء الحقوق إلى أصحابها ومستحقيها .

٦- أسلوب التلقين:

وذلك يتناول الثوابت العقدية الغيبية التي لا مجال لإعمال العقل فيها سواء أكانت غيباً محجوباً أم كان كنهها مستعصياً على الأفهام . ومثال هذا الأسلوب الآيات التي تشير إلى أسماء الله وصفاته وغيبات الآخرة كما تقدم معنا .

٧- أسلوب النقد ودم التقليد الأعمى:

ويتمثل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ . فهذه إشارات عابرة إلى العديد من الوسائل التربوية مع نماذج تطبيقية لها قد عرضتها السورة الكريمة في إطار منهجي تطبيقي بديع . ولا شك أن اختيار الأسلوب المناسب يتعلق بطبيعة المادة التربوية من جهة وبعمق وفهم ونضج الناشئ من جهة أخرى .

وهكذا نكون قد تناولنا محاور هذا النظام التربوي الشامل الذي تمثله سورة لقمان ، ووضعنا كل آية في موضعها من هذا النظام مع ضرورة الانتباه إلى أن هذا التصنيف والتوصيف هو لبيان التكامل والشمولية في هذه النظرية التربوية ولا يعني توقف عمل الآيات عند هذه المواضع فحسب . ولقد أشرت سابقاً إلى ضرورة ألا يقف القارئ الكريم بنفسه عند حدود ما قدمت فهو موجزٌ جداً، وإنما هي بداية وانطلاقة نحو سبر هذه الآيات والنصوص سعياً نحو الفهم والتطبيق الأمثل بقدر المستطاع إن شاء الله .

وهكذا نكون قد برهنا على اشتمال سورة واحدة من القرآن الكريم على كل مقومات النظام التربوي الإنساني النموذجي ، فما بالك إذا بالقرآن الكريم كله مجموعاً إليه سنة المصطفى ﷺ وعمل الصحابة رضوان الله عليهم ، أفلا يكون معيباً إذا أن ندور في فلك الشرق والغرب كفاراً وملحدين نستلهم منهم علوم التربية ومناهجها؟! سبحانك هذا بهتان عظيم . وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

انتهى في ١٩ شعبان ١٤٢٠

هيوستن - أمريكا

د . وسيم فتح الله